kitabweb-2013.forumsmaroc.com

منشورات جمعية تطاون أسمير

جمعية تطاون أسمير

عبد العزيز السعود

تطوان في القرن الثامن عشر

(السلطة - المجتمع - الدين)

تطوان في القرن الثامن عشر

السلطة ـ المجتمع ـ الدين

عبد العزيز السعود

الكتاب : تطوان في القرن الثامن عشر
السلطة - المجتمع - الدين

المؤلف د. عبد العزيز السعود

الناشر : منشورات جمعية تطاون أسمير

الطبعة الأولى : 1428 هـ - 2007 م.

الغلاف : شعارية تطوان في القرن 18

رقم الإيداع : 0372 / 2007

الطباعة : مطبعة الخليج العربي " 152, شارع الحسن الثاني - تطوان "

الهاتف : 25 02 71 039 / الفاكس: 37 05 71 039

تـقـــديـــم

لقد اقترحت على صديقي الحميم الدكتور عبد العزيز السعود أن يختـــار تطوان خلال القرن الثامن عشر موضوعا لأطروحته لنيل دكتـــوراه الدولـــة عندما كان يفكر في موضوع أطروحته. وكان أميل إلى اختيـــار موضـــوع مرتبط بالحركة الوطنية في عهد الحماية الإسبانية ولكنه اقتنع باقتراحي بعد مناقشة دقيقة وهادئة وصادقة وموضوعية. وكنت واثقا منذ الوهلة الأولـــى بحسن الاختيار لأسباب ذات علاقة بالموضوع نفسه مـــن جهـــة ولأســـباب مرتبطة بشخصية المؤلف ومؤهلاته من جهة ثانية.

فيما يخص النقطة الأولى فلم نكن نتوفر قبل إنجاز هذا العمل القيم على دراسة عربية دقيقة تعمقت في تحليل تاريخ تطوان الـــسياسي والاجتمـــاعي على غرار "تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة والمجتمع والدين" لعبـــد العزيز السعود.

ثم لم تستغل أية دراسة أخرى المصادر العربية والإســـبانية والفرنـــسية والإنجليزية بنفس الدقة التي تم استغلالها لدراسة هذا الموضوع.

و نضيف إلى هذا أن الدراسات المتخصصة حول التاريخ المغربي خلال القرن الثامن عشر المنشورة بالعربية والفرنسية والإسبانية تناولت الموضوع انطلاقا من المنظور المخزني. و يمكـــن إدراج دراســـات الـــدكتور محمـــد المنصور والدكتورة فاطمة الحراق والدكتور محمد بوكبوط وغيرهم ضـــمن هذا الصنف. أما دراسة عبد العزيز السعود فلقد انطلقت من تـــاريخ مدينـــة مجاهدة وركزت على تاريخها في إطار علاقتها بالسلطة المخزنية المركزية. ولا توجد طريقة لإغناء معرفتنا بتاريخنا الوطني أحسن مـــن التعمـــق فـــي التاريخ المحلي للحواضر المغربية وباديتها. ولا يمكن فهم تاريخ تطوان إلا عند ربطه بإطاره العام على المستوى المخزني أو المركزي.

لذلك فإن هذه الدراسة القيمة سوف تشكل مساهمة جادة لإغناء معرفتنـــا بتاريخ تطوان خلال القرن الثامن عشر لا من حيث التوثيق ولا من حيـــث التحليل والاستنتاجات.

وفيما يخص النقطة الثانية وهي مساهمة المؤلف في إنجاز دراسة ممتازة فيمكن تقسيمها إلى العناصر التالية:

أولا، إن الجهد الفكري الكبير للمؤلف في إنجاز هذه الدراسة ينعكس في تفاصيلها الدقيقة لأكبر الأحداث وأبسطها والتعب في فهم مغـــزى الأحـــداث

الرئيسية وتحليلها واعتماد منهج متعدد التخصصات للتوثيق بين السياسة والمجتمع والدين والاقتصاد لتفسير الخطوط العريضة للتطورات التي عرفتها تطوان خلال القرن الثامن عشر واعتبار علاقة التأثير والتأثر بين السلطة المحلية والسلطة المركزية وعلاقة السلطة المحلية بالمركز من جهة وبالدول المتوسطية من جهة أخرى سواء عبر المواصلات البرية أو البحرية، وكذلك علاقة المدينة بمحيطها الريفي المجاور سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.

ومع اختيار المؤلف على المنهج المقارن عندما فسر تاريخ تطوان بالمقارنة مع عدد من المدن المغربية الأخرى في الشمال كشفشاون وطنجة أو مع مدن داخلية كفاس ومراكش. ولم يخل العمل من ربط تاريخ تطوان بالعلاقة الدبلوماسية والبحرية بين المغرب وأوربا نظرا لأهمية ميناء تطوان خلال تلك الحقبة التاريخية. إن هذا العمل يعكس مجهودا متواصلا خلال مدة طويلة كان الهدف النهائي منه هو إتقان العمل.

أما الشرط الثاني الذي يتوفر في المؤلف كله فهو معرفته الواسعة بتاريخ المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

إن دراسته القيمة الأولى التي طبعت سنة 1996 ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير حول تاريخ تطوان السياسي والاجتماعي خلال القرن التاسع عشر قد مكنته من ربط هذه المدينة خلال القرن الثامن عشر بما حدث في القرن التالي، مع اعتبار أن وحدة القرن هو تقسيم زمني نسبي يعتمده المؤرخ أما الأحداث والظواهر التاريخية فتمتد عبر القرون.

وركز المؤلف على تطوان عاصمة متوسطية خلال القرن الثامن عشر عندما تطرق للوفود التي انطلقت من تطوان إلى بريطانيا وإسبانيا وفرنسا، وقضايا التجار والجهاد البحري وفك الأسرى كما ناقش بعض الاتفاقيات التي أبرمت بين المغرب والدول الأوربية محللا كذلك تطورات هذه العلاقات على أرض الواقع.

وركز في تناول موضوع المجتمع التطواني على مقاييس متعددة نظرا لتعقيد هذا المجتمع بحيث لم يقتصر على المقاييس الاقتصادية بل اعتمد مقاييس اجتماعية لتصنيف المجتمع التطواني بشرائحه المختلفة وتحليله إضافة إلى مقاييس أخرى كالمقاييس الدينية.

يسعدني أن أقترح هذه الدراسة الناضجة على المتخصص والقارئ المتنور العام على السواء. فالأسلوب أسلوب واضح ومباشر وخال من كل تعقيد. والمضمون يقدم لنا صورة جديدة ومتكاملة ومتزنة لتاريخ تطوان السياسي والإجتماعي بأبعاده المتعددة كالتطور العمراني والبشري

للمدينة، مبرزا مكانة هذه القلعة المجاهدة محليا وإقليميا ووطنيا ودوليا. لذلك لا يمكن لعشاق تاريخ الحمامة البيضاء خلال القرن 18 الاستغناء عن هـذه الدراسة التي تبرز مكانة تطوان بصفتها عاصمة متوسطية متميزة في التاريخ وفي الذاكرة الجماعية وكذلك أهميتها كتراث ثقافي.

الدكتور امحمد بن عبود
أستاذ التعليم العالي
جامعة عبد المالك السعدي بتطوان

مـقـدمـة

يظهر للوهلة الأولى أن ولوج ميدان الدراسة لخوض بحث شامل حول عناصر العلاقة بين السلطة والمجتمع والدين في حاضرة مثل تطوان خلال القرن الثامن عشر هو من قبيل المخاطرة نظرا لقلة المادة القمينة به. ومن المعلوم أن مغرب القرن المذكور لم ينل حقه من البحث والدراسة كما ينبغي بالرغم من توافر المصادر الخاصة به، ثم إن هذه الفترة ذات أهمية بالنسبة للدارس أو الباحث، ولا سيما الذي يهتم بتاريخ العلاقات والبنى السياسية داخل المجتمع وطبيعة الذهنية السائدة فيه. وإن المسعى الإسطوغرافي المغربي التجديدي ينظر إلى الماضي في إطاره المحلي يسعى إلى وضع قواعد يمكن أن ينبني عليها تاريخ وطني حقيقي، فيتم تحويل الاهتمام عن الأحداث السياسية الوطنية إلى الحركة الداخلية للقوى الاجتماعية، وذلك بالإعتماد على مناهج جديدة مستمدة من العلوم الاجتماعية.

وإن معاينة الأوضاع العامة لمدينة تطوان وناحيتها في فترة تناهز القرن تفترض توفر عنصر منهجي أساسي هو اعتبار السياق الزماني والمكاني العام للبلاد، فتحديد الزمان في حد ذاته طريقة ملائمة للإحالة على فترة زمنية مجردة، إذ لا يمكن ان نتصور تاريخ تطوان في القرن الثامن عشر إلا داخل النطاق العام لتاريخ المغرب. ولأن المـــنهج التراجعي، أي دراسة أقرب فترة إلينا- وهو ما قمنا به في أطروحتنا السابقة حول القرن التاسع عشر- فأقل قربا هو الكفيل بإعادة بناء صورة المجتمع التطواني، ومن خلاله المجتمع المغربي ككل، فإن الحدود الكرنولوجية لدراستنا هذه تمتد على فترة هي طيلة القرن الثامن عشر مع امتدادين لعقد أو عقدين قبله أو بعده. ولهذا التحديد دواع مختلفة: أولها أن عمل البحث على امتداد قرن ونيف من التأريخ يقـــتضي توضيح مشروع يساعد على الفهم السياسي والاجتماعي، وهو عنصر أساسي هدفنا إليه، فهذه الحقبة عرفت تعاقب فترات أزمة وفترات استقرار على المستوى الوطني، وشهدت بداية إرساء العلاقات بين المغرب وأوربا وتطورها في الميادين التجارية والدبلوماسية،وهذا ما يجعلنا نتساءل عما إذا كان تاريخ مدينة تطوان في هذه الحقبة المدروسة يعكس هذا التطور وإلى أي حد. والسبب الثاني، إن القرن الثامن عشر لا تتوفر عنه مصادر المعلومات ـ الوثائق المخزنية بالخصوص ـ بالنسبة للمدينة بقدر يمكن من تحليل مشابه لما هو ممكن بالنسبة للقرن الموالي. وأما السبب

الرئيسي فيتصل بطبيعة الموضوع المدروسة نفسها، وهي النسق الاجتماعي والسياسي والفكري لتاريخ تطوان.

وبالرغم من ان هذه المدينة تميزت عن باقي المدن المغربية الأخرى بكونها عاشت فترة طويلة من تاريخها حياتها الخاصة منفردة بنوع من الاستقلالية والخصوصية، فإنها نظرا لعمق علاقتها مع المخزن من جهة، ووثق صلاتها بالقبائل المجاورة لها من جهة أخرى، ظلت في ارتباط قائم مع داخل البلاد في جل الميادين. ومدينة تطوان التي اعتبرت في ذلك العهد من أهم حواضر البلاد ومراسيها، تأثرت بالأوضاع العامة للبلاد إلى جانب تأثير عوامل خارجية كانت المدينة بحكم موقعها وأنشطتها محتكة معها مباشرة، ونعني بذلك قربها من مضيق جبل طارق، وما نتج عنه من علاقات تجارية ودبلوماسية، الأمر الذي جعل تطوان محط اهتمام كثير من الكتاب الأوربيين الذين جاءوا إليها في صفة سفراء ومبعوثين من عواهلهم، أو قناصل وتجار أو مغامرين.

وإن تصور مدينة تطوان كحاضرة ذات شخصية متميزة تنسحب على الحاكمين والمحكومين باعتبارهم عناصر إنتاج لعلاقات اجتماعية واقتصادية ساهمت في صناعة تاريخ هذه المدينة حفزنا للبحث عن منهج متوازن في دراستنا، وكما أننا حاولنا في تحليلنا للمرحلة المرجعية لهذه الأطروحة الاعتماد ولو ضمنيا على مقاربة التقليد الإسطوغرافي الذي يعتبر أن النصف الأول من القرن الثامن عشر من تاريخ المغرب عموما عرف أزمة حادة، وهي أزمة تتفق المصادر والمراجع على اندلاعها واستمرارها وشموليتها لميادين السلطة والمجتمع والفكر، حيث تفرقت المشروعية بين أبناء مولاي إسماعيل. ولعل أبرز ملاحظة يقف عندها الباحث في تاريخ المغرب في هذا القرن هي تميز فترتين طغت أحداثهما وانعكاساتهما على ما عداهما، وتتمثلان في فترة الأزمة خلال الثلاثين سنة، ثم فترة الاستقرار والانفتاح مع بداية عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وبخصوص مضمون البحث فقد حاولنا تجنب كل تحليل قد يفضي إلى أي استنتاج جازم قد لا ينطبق على الواقع التاريخي للبلاد، وفي هذا السياق كان تحفظنا في استخدام بعض المصطلحات والمفاهيم المستعملة في التفسير المادي للتاريخ كمصطلح «الطبقة» و «الصراع الطبقي» و«البورجوازية» داخل المجتمع، تفاديا لأي تعسف في وصف الواقع التاريخي للمغرب، وقناعة منا بأن مقاربة هذا الواقع ستسهم في رصد عناصر تحول المجتمع.

وقد جاء تصميمنا لهذه الدراسة بالشكل التالي:

القسم الأول: **تطاوين في إطارها الجغرافي وسياقها التاريخي**. وتناولنا فيه فصلين:

الفصل الأول: **تطوان في الزمان والمكان**. ويشكل مدخلا للدراسة بحثنا فيه تأثير الموقع والموضع وأصل تسمية تطاوين والأخبار عنها قديما، وتأسيسها على يد الأدارسة، وحالتاه في العهدين المرابطي والموحدي، ثم إعادة التأسيس المريني، وكما ناقشنا فيه قضية تخريب المدينة.

والفصل الثاني: **تأسيس تطاون الحديثة وتطورها في القرن الثامن عشر**. وتناول الظروف التي أحاطت بإعادة تأسيسها على يد الأندلسيين ومن معهم، ثم تطورها من الناحية المورفلوجية حتى القرن الثامن عشر، وإطارها الطبوغرافي والسياسي، ثم تحصين المدينة وتعميرها في القرن المذكور، والسكان والمتغيرات الديمغرافية بها.

القسم الثاني: **البنى السياسية والعلاقات العامة**. وتناولنا فيه أربعة فصول:

الفصل الثالث: **علاقة المدينة مع المخزن**. وهي علاقة ميزنا فيها بين عدة عناصر: الاستقلالية السياسية داخل التبعية والتي رمنا إلى تحليلها، والعلاقة الجبائية وهي ملزمة لبقاء الدولة، ثم علاقة التوتر والصراع وارتبطت بفترة الأزمة غالبا،وعلاقة الأخذ والعطاء وهمت مسألة المقابل بين المدينة والمخزن المركزي.

وتناول الفصل الرابع: **سيرورة الشأن المحلي بالمدينة**. وهو فصل يسترعي كثيرا من الانتباه لأنه يحاول إعطاء تفسير للعلاقة بين السلطة المحلية وبين السلطة المركزية، وبينها وبين الأهالي، ثم بين الأهالي والحكم المركزي. وأفردنا خلاله متسعا للحديث عن أهم رجال السلطة الذين عرفتهم المدينة وأثروا في حياتها وتركوا بصمات واضحة في تاريخها، وهم القائد علي بن عبد الله الحمامي، والباشا أحمد بن علي، والقائد عمر لوقش. وحاولنا تحليل أسباب الصراع على السلطة ونتائجه في تطوان.وكما تناول هذا الفصل مكونات تسيير الشأن المحلي الأخرى حسب مكانتها وتأثيرها في المجتمع وهي القاضي والمحتسب والأمناء وناظر الأحباس.

ويعالج الفصل الخامس: **علاقات المدينة مع الخارج**. وهي علاقات فرضتها عوامل جغرافية وسياسية وأذكتها المنافسة بين البلدان الأوربية المجاورة للمغرب، وكذلك رغبة المخزن في تشييد علاقات جديدة معها، ومثلت تطوان في ذلك حلقة وصل بين المغرب وأوربا، فكان لها دور

دبلوماسي بارز تمثل في كثرة السفارات الأوربية والبعثات الملوكية التي قدمت إليها، حيث كان القائد أو الباشا يقود المفاوضات بتفويض من السلطان مع الأوربيين، وغالبا ما تنتهي المفاوضة بإبرام معاهدة صلح وتجارة في تطوان، وقد قدمنا أمثلة عن ذلك. وكما كانت تطوان مقصد بعثات افتكاك الأسرى الأوربيين باعتبارها مرسى متقدما يتم عبره الدخول إلى البلاد أو مغادرتها بحرا، وأيضا سوقا لتجارة الرقيق الذين يتم أسرهم من طرف القراصنة. وفرض كل ذلك أن تصبح تطوان هي مقر السلك القنصلي الأوربي حيث فتحت بها أولى القنصليات الأوربية منذ منتصف القرن السابع عشر، وأدى ذلك إلى استقرار عدد من التجار الأوربيين، وظهور التنافس بين الدور الأوربية. وأما الدور الثاني الذي قامت به مدينة تطوان في نطاق العلاقة مع الخارج فهو موقعها كواجهة خلفية لميدان حصار مدينة سبتة، وكان ذلك يعني أن قائدها هو قائد القوات المرابطة، وأن سكانها خضعوا لتشريع إجبارية الحصار، فكان من واجب كل فرد يقيم في تطوان إما أن يرابط بنفسه، وإما أن ينيب عنه شخصا غيره، وفضلا عن ذلك، أرغم الأهالي على التكفل بنفقة ثلاثمائة أو أربعمائة من العبيد كانوا في حاشية الباشا أحمد بن علي. وأما الدور الآخر، فكان نشاطها البحري والتجاري، فقد قامت بدور وسيط تجاري بين المغرب وأوربا، وبينه وبين الشرق الأدنى، دون أن نغفل دورها أيضا في العلاقات بين افريقيا جنوب الصحراء والعالم المتوسطي. وقد ساعدت عدة معطيات جيو- سياسية على تقدم مرسى تطوان منذ القرن السابع عشر، وقد أهلته هذه المعطيات ليقوم بدور مرسى إقليمي وجهوي، ودور مرفأ وطني ودولي، حيث كانت تتم منه عمليات الوسق نحو الموانئ الأوربية، وكما كانت ترد عليه المنتجات الصناعية الأوربية. وقد واكب هذا النشاط التجاري نشاط بحري آخر وإن كان غير قوي في تطوان، وهو نشاط القرصنة الذي كان مشروعا دوليا ومعترفا به في مجال العلاقات الدولية، وقد استفاد منه كبار تجار المدينة من مسلمين ويهود وحتى الحكام. وقد استخلصنا في نهاية هذا الفصل المظاهر العامة للنشاط البحري والتجاري الذي عرفته تطوان.

وأما الفصل السادس فعالج: **علاقات المدينة بباديتها وبالداخل**. فميزنا فيه بين علاقة المدينة بباديتها المجاورة والتي فرضتها ظروف اقتصادية وديمغرافية وثقافية بل وأيضا جغرافية ناجمة عن تداخل المجال الذي يتم استغلاله بين الطرفين. وقد نتج عن التوزيع في العمل والأرض علاقات تميزت حينا بالتكافل والتكامل وطورا بالتصارع والتنازع بين المجالين،وقد

اوردنا أمثلة في ذلك. وأما في شأن علاقة تطوان مع الداخل، فإنها كانت تمثل بمرساها بوابة المغرب على التجارة المتوسطية، وكانت مدينة فاس في طليعة المدن الداخلية التي استفادت من مرسى تطوان.

القسم الثالث: **البنى المجتمعية**. وتناولنا فيه فصلين إثنين:

الفصل السابع: **التشكيلة الاجتماعية وتراتبيتها**. وقد حاولنا فيه دراسة خصوصية المجال وتأثيراته بالإضافة إلى الخصوصية الثقافية مما يخلق نوعا من التفرد بالنسبة لهذه التشكيلة، وهكذا حاولنا الربط بين دينامية المجال ودينامية المجتمع، ثم تناولنا أثر المجال في التشكيل الاجتماعي، وسعينا إلى إعطاء صورة قريبة عن التشكيلة الحضرية أي العناصر التي تكون منها مجتمع تطوان خلال القرن الثامن عشر، وانتهينا إلى التراتبية الاجتماعية، فميزنا بين مجموعة من التصنيفات كالتالي:

التصنيف الإجتماعي على أساس الدخل، ويبين ما يمكن أن تلعبه الثروة داخل المجتمع في التمييز بين فئاته إلى فئة الأغنياء، والفئة الوسطى ثم الفئات الفقيرة. والتصنيف الاجتماعي على الأساس العرقي وقصدنا به الأصل أو المحتد، فنميز بين: أهل البلد، والأصيليين ونعني بهم سكان حوز تطوان الذين شيدت المدينة على أراضيهم، والغرباء، واليهود، والأوربيين، ثم العبيد. والتصنيف على أساس المعيار الثقافي- الديني، ويتعين على الباحث تصور نوع التفاوت الذي يمثله مقياس العلم والصلاح، وقد أحالنا ذلك إلى ترتيب بين: أهل الصلاح والولاية وقد يكونون متفقهين أو أميين، والعلماء وفيهم القضاة والمفتون وشيوخ الزوايا، والشرفاء وكانوا يشكلون فئة مركبة ومختلفة من حيث مستواها الاقتصادي، وأخيرا الطلبة وهم طلبة العلوم الشرعية واللغوية.

وأخيرا التصنيف على أساس المعيار «المخزني» وتعكسه البنية التقليدية للحاضرة المغربية عموما، إذ نجد فئة الخاصة التي تستحوذ على المقاليد مقابل فئة الأعيان المستفيدة من الامتيازات، ولهما معا تفوق مادي ومعنوي يمكنهما من القيام بدور سياسي واجتماعي، بينما نجد فئة العامة التي تختزن مفهوما واسعا ومضادا لكل مظاهر البروز أو التفوق الاجتماعي.

أما الفصل الثامن: **العلاقات بين الفئات الاجتماعية**. فمما لا ريب فيه أن العلاقات داخل المدينة كانت تنبني على أشكال التمايز الاجتماعي إذ وجدت مظاهر تميز كل فئة من الفئات على حدة، الأمر الذي يدفع إلى طرح السؤال: هل أدى تعارض المصالح بين هذه الفئات إلى حدوث تنافر وصدام بين مكونات المجتمع التطواني؟. وهو ما حاولنا الإجابة عنه عند تناولنا

لبعض مظاهر الصراع الاجتماعي. بيد أن العلاقات لم تقف عند هذا الحد فحسب، فالتناقضات المترتبة عن التفاوت كان يقلل من حدتها التوجه التكافلي للمجتمع، وهو ما عملنا على إبرازه بتقديم صور عن هذا التكافل المبني على الوصايا وأعمال الوقف أو الحبس. وتناولنا في هذا الفصل كذلك بعض مظاهر الحياة المجتمعية التي تزكي الخصوصية المحلية، فتطرقنا إلى العادات التي تتحكم بشكل دقيق في سيرورة الحياة الإجتماعيـــة وتعـــرف بـــ «القاعدة»، ومنها اللباس والتغذية والسكن والزواج ثم المعاملات بين الناس، وأضافنا إلى هذا الجانب العملات التي كانت متداولة بينهم، وكذلك المقاييس والأوزان والمكاييل. وكما تناولنا في هذا الفصل أيضا العلاقة بين المسلمين والذميين باعتبار أن الجماعة اليهودية في تطوان كانت كثيرة العدد وتشكل تقريبا ثلث سكان المدينة، بالإضافة على كونها نشيطة اقتصاديا، وهذه العلاقة كانت معهودة على شروط أهل الذمة إلتي أقرها الشرع الإسلامي. وقد تطرقنا في هذه النقطة إلى وصف مظاهر النظام الاجتماعي داخل الملاح، وإبراز الجانب التكافلي الذي كان يفرضه الإيمان العميق بالدين لدى هذه الجماعة، ثم حاولنا كشف بعض التماثلات بين الملتين خاصة في مستوى نمط العيش، وكذلك في بعض المظاهر الثقافية المشتركة والجانب التكافلي.

القسم الرابع: **الحياة الدينية**. واشتمل على فصلين إثنين:

الفصل التاسع: **البيئة الثقافية والتعليمية**. وتجلت مظاهرها في تفشي العقلية الخرافية بين الناس بما في ذلك الأوساط المتنورة والعوام، وكما ساد الإعتقاد في الصلحاء والمجاذيب بما فيهم الأحياء والأموات، والتعلق بهم الذي صار موروثا، وكان الإعتقاد أن هؤلاء لهم قدرات وتصرفات خارقة للعادة، وقد ذكرنا أسماء بعض الصلحاء والمجاذيب ممن عاشوا في هذا القرن، وقد ذكرهم مؤرخ الفترة الفقيه السكيرج الذي كان له اعتقاد كبير فيهم وفي الكرامات. وإلى جانب ذلك كانت لدى الناس اعتقادات موروثة عن القديم وخاصة عامتهم، وتتصل بالطبيعة أو ببعض الرموز، وكما كانوا يقيمون احتفالات بأيام ومناسبات لا علاقة لها بالدين الإسلامي وتعبر عن اعتقادات وثنية أو يهودية، ومنها «حكوزة» و«العنصرة». وتناولنا في هذا الفصل الحديث عن البيئة الثقافية التي كانت تتمحور كلها حول الدين الإسلامي، وبالتالي هيمنة الروح الفقهية ثم الصوفية. وكان جل الإنتاج الفكري والثقافي لفقهاء المدينة وعلمائها لا يعدو أن يكون إما شروحا أو تعليقات في العلوم الدينية. وكان تنشيط الحركة العلمية والتعليمية من مهام

العلماء الذين ذكرنا معظمهم ممن كانوا يعدون من أعمدة الثقافة بالمدينة، وكانت لهم مجالس علمية يؤمها كثير من طلبة العلم. وأما مضمون التعليم فظل محصورا في العلوم الدينية واللغوية، والتي تلقن في حدود الشريعة والمذهب المالكي. وكانت طريقة التدريس تختلف باختلاف طبقات المدرسين والطلبة وتعتمد في الغالب أسلوبين يعتمد كلاهما على الحفظ. وكانت الدروس تلقن إما بالجوامع والمساجد وإما بالزوايا، وقد أحدثت في القرن الثامن عشر مدرستان حملتا اسم عائلتي لوقش وابن قريش. وكانت رعاية مدارس العلم والتعليم تعتمد على ما ينفقه عليها الأهالي من أموال، وما يحبسون عليها من أملاك، ويهبون لها من كتب، وقد أوردنا مجموعة وصايا في هذا الصدد.

ثم الفصل العاشر: **البيئة الطرقية**. وقد حاولنا فيه رصد بداية ظهور الطرقية في تطوان، فالبيئة الأولية بعد إعادة التأسيس لم تكن في نظرنا مساعدة على قيام أية طريقة، ولا محفزة للأهالي على الإنخراط في سلكها. وحسب بعض المؤرخين فإن الطرقية برزت في عهد الشيخ أبي المحاسن الفاسي الذي أمر أتباعه ببناء زاوية في تطوان أواخر القرن السادس عشر، ولعل ذلك يزكي ما ذهب إليه البعض من أن الطرقية وردت من فاس إلى تطوان. وسوف تنتعش البنية الطرقية بقدوم مربي صوفي كبير إلى تطوان في أواخر القرن الثامن عشر وهو الشيخ سيدي علي بن ريسون وتأسيسه للزاوية الريسونية بتطوان، والتي لقيت دعما كبيرا من المخزن السليماني، إلا أنها لم تكن لها طريقة صوفية خالصة ولا وظائف منظمة إلى أن جاءت الطريقة الدرقاوية إلى تطوان، فكانت قوية بنظامها وفقرائها.

وقد تطرقنا في دراستنا عن تطور الحركة الطرقية في تطوان إلى الحديث عن محنة الدرقاوية بها، والتي لقيت اضطهادا من قبل علماء المدينة والسلطة، وهو اضطهاد إجتماعي وسياسي في نفس الوقت.

وكان قصدنا من هذا التصميم تناول موضوع التأريخ لحاضرة من أهم حواضر البلاد في فترة متميزة من تاريخ المغرب، ومن منظور يتجاوز السرد الكرونولوجي إلى محاولة وصفه بشكل متوافق يلم كل العناصر السياسية والاجتماعية والفكرية في السياق العام للتطور الذي عرفته البلاد المغربية طيلة القرن المذكور.

وإنه ليحدونا الأمل في أن تكون دراستنا مساهمة إلى جانب الإسهامات المونوغرافية الأخرى لدراسة تاريخ المجتمع المغربي الحديث والمعاصر. والله ولي التوفي.

تطوان ذو الحجة 1427/دجنبر 2006

القسم الأول

تطاوين في إطارها الجغرافي
وسياقها التاريخي

الفصل الأول
تطوان في الزمان والمكان

1 ـ تأثير الموقع والموضع:

تقع مدينة تطاوين في الطرف الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة الأنجرية عند المنحدر الجنوبي لجبال الحوز الممتدة على طول الساحل المتوسطي عند خط طول 5.25 ° غربا وخط عرض 35° شمالا تقريبا. وهذه تنحصر وسط مجموعة من العوائق الطبيعية فالذروة الدلميتية تقف كحاجز يعطي انطباعا بوجود ارتفاعات، لكن هذه الارتفاعات نجدها تقل كلما تدرجنا من الجنوب إلى الشمال، وتتميز بصخورها الكلسية المتدرجة والوعرة والتي عرت التساقطات جزءا كبيرا منها، وفي اتجاه البحر نصادف متونا شامخة وأحواضا داخلية وأودية عميقة تشرف على الساحل المتوسطي، وتنتهي هذه التضاريس بواسطة أجراف عالية تسمح بظهور سهول ضيقة على شكل أشرطة كما هو الشأن في الحوز وبليونش والملاليين ومرتيل وبني معدان وأزلا. ومدينة تطاوين قريبة من البحر بما فيه الكفاية مما جعلها منفتحة باستمرار أمام اختراقات محتملة.

ومن الناحية البنيوية، فالمنطقة تشكل قسما من السلسلة الريفية التي لعبت دورا رئيسيا في عملية بناء الأديم الأعلى لحوض المتوسط الغربي،[1] وهي عبارة عن تكوينات قديمة في شكل ثنيات موازية للساحل ترسم قممها أنصاف دوائر. وقد أفسدت كثير من العوارض تلك الطيات الأصلية وأحدثت في جانبية الأعراف أفاجيج عملت على تقطيع السلسلة، ومن أبرزها إفجيج وادي مرتيل الذي يفصل جبل غرغيز عن جبل درسة ويرجع إلى أصل تكتوني[2]، وأعلى قمة في هذا الجزء هي حافة الوسط التي تبلغ 826 مترا، وينتهي فوق تطوان بجبل درسة الذي يصل ارتفاعه إلى 312 مترا، وتتميز السلسلة كذلك بوجود أحواض داخلية.

وقد تصلب المستوى القديم عن طريق الحجر الجيري، وهي رواسب تعود إلى وجود عيون حارة شيدت عليها مدينة تطاوين .

---

[1]- P.Fallot y A. Marin, La cordillera del Rif, 2 Vols, Madrid, 1939,p.132.

[2]- Yussef Ben Haddad, Les interactions spatiales dans une région rurale périurbaine: le cas de Tétouan, Thése de 3e Cycle en géographie et aménagement, Université de Paris I Panthéon- Sorbone, 1989, p.32.

كما أشير إلى وجود طبقات من الحث تحتوي على بقايا من الفحم في جانب جبل درسة.[3] كما دلت بعض العلامات على وجود مناجم للرصاص في مرتفعات بني معدان المجاورة للمدينة[4] ومنجم للنحاس بضواحي تطوان اكتشفه الفرنسي هلينو، ومنجمين آخرين للأنتيموان والمنغنيز، ودلت أعمال التنقيب على نتائج جد مشجعة في أوائل القرن التاسع عشر.

أما وادي مرتيل فهو عبارة عن أخدود انهدامي في شكل مصاطب نتيجة الطمي الذي يعود إلى الزمن الثالث والزمن الرابع. وهذا الانكسار العميق يفصل بين سلسلتين: الحوز من جهة وبني حزمر من جهة أخرى. ويعد وادي مرتيل المجرى الطبيعي لهذا النهر الذي يصل إلى ضواحي المدينة في منطقة سهلية مرجة عبارة عن منخفض فيضي من تكوينات غرينية حديثة يرسم فيها الواد الحلو أو مرتيل* بعض المنعطفات قبل أن يصب في البحر.[5] ويأخذ النهر أثناء جريانه عدة أسماء حسب الجهات التي يمر بها فيسمى: المطيربة وبوصفيحة والمحنش والصوير ومجاز الحجر ومجاز الشطبة ثم مرتيل وهو المتصل بالبحر، ويتلقى هذا النهر مياهه من ثلاثة سيول وهي الخميس والشقور والنخلة، ويأتي الأول من منحدرات جبال أنجرة والثاني من بني يدر وأما الثالث فمن بني عروس.

ويعد السهل الجزء الرئيسي للمحاط الفلاحي بالمدينة، وهو متسع جدا يبلغ 1088 كلم²، وبالرغم من أن مجرى النهر صغير لا يتعدى صبيبه 50 مترا مكعبا في الثانية فإن الوادي يشكل غوطة صالحة لكل أنواع المزروعات، وكان يتوفر على فرشات مائية تغذي مجموعة من الآبار. ولكن إذا كانت التضاريس المنعرجة تارة والمنبسطة طورا تظهر للوهلة الأولى أنها مساعدة على قيام نشاط فلاحي بمنطقة جبالة، فإن مشاكل من نظام تشكل بنيوي تقف عائقا أمام هذا النشاط بالرغم من بعض الإمكانات التي يتيحها مناخ المنطقة.

---

[3] - Oscar Lenz, Voyages au Maroc, au Sahara et au Soudan, Trad . par Pierre Lehancourt, Paris, 1886, p.77.

[4] - Mohamed Ibn Azzuz Hakim, Tetuán . La Sultana de Uad El Helu del Siglo 19, in " Mauritania", nº 248, Julio 1951.

* تعود هذه التسمية إلى دار مرتين المشهورة التي شيدها على ضفة النهر فرناندو مرتين الذي أسلم واتخذ اسم علي مرتين، وهو خال القائد مولاي ابراهيم بن علي بن راشد الذي تولى حكم تطاوين فيما بين 1518و 1525 وجعل من مرسى مرتين قاعدة للجهاد البحري.

[5] - Yussef Ben Haddad, op. cit. , p.33.

إن ظهير تطوان جد رطب حيث تبلغ كميات التساقطات أحيانا أقصاها بالمقارنة مع باقي مناطق المغرب. وهو يعرف فصلين متباينين: فصل رطب وبارد نسبيا خاصة في المرتفعات، وفصل جاف وحار. وتجدر الإشارة إلى أن التساقطات القوية التي تأتي خاصة بعد فترات الجفاف تزيد من عملية النحت ومشكل التصريف، فإبان السنوات المطيرة يغطي الفيضان الأراضي الصلصالية وسط سهل مرتيل، وتستمر المياه الراكدة في هذه الأراضي لفترات طويلة مما يحول دون استغلالها فلاحيا أو سكنيا.[6]

ويظهر تأثير الرياح قويا في منطقة تطوان ويكون لها انعكاس على الحياة البشرية، فنتيجة لموقع المدينة الجغرافي بالنسبة لخط العرض ولقربها من المضيق كانت ناحية تطوان كثيرة الرياح.

وفي نفس الوقت، يتجلى تأثير البحر بصورة جد محسوسة نظرا لهيمنة الرياح التي تهب من المحيط الأطلنتيكي المعروفة ب "**الغربي**" والآتية من البحر الأبيض المتوسط والمدعوة بـ "**الشرقي**"، ويـنعكس تأثير الرياح الشرقية بشكل سلبي على الملاحة البحرية خاصة في مرسى تطوان .

وفي مناطق التقاء التضاريس العالية بالسهل الغريني نجد تربة ثقيلة محملة بالحصى، وهي تستغل زراعيا بفضل توفر مياه العيون الغزيرة مما ساعد على قيام فلاحة كثيفة وعلى غراسة الأشجار المثمرة كما كان الشأن في ناحية كيتان.

وجميع هذه العناصر الطبوغرافية والمناخية لها انعكاس شديد على نفسية السكان وعلى نمط عيشهم، فكل ذلك ترك بصماته بدرجات متفاوتة على مورفلوجية مدينتهم، فبفضل توفر الطين البليوسيني تطورت في تطوان صناعة الفخار بشكل جيد وازدهرت صناعة الزليج التي لعبت دورا أساسيا في المعمار. ثم إن الأحجار والآجور التي شيدت بها أسوار المدينة كانت تجلب من القمم الصلصالية ومن الغرين المتوفر بالوادي، وكما أن وجود الحجر الجيري زودها بمواد خفيفة وصلبة في نفس الوقت.

وإذا كان موقع تطاوين وموضعها غير محددين في العصر القديم بشكل دقيق، فإنه في العصر الوسيط وما تلاه برزت مجموعة من الإيجابيات بالنسبة لاختيار موضع المدينة الذي ارتبط بالخصائص الجغرافية للمكان كبعده عن التعرض لفيضانات النهر من جهة، وتحصنه من الغارات والاستعداد لمباغتة العدو وترصده من جهة أخرى. وهكذا فإن النواة الأصلية للمدينة قد احتلت الموضع المحصن عند سفح جبل درسة متخذة من المنحدر

---

[6] - نفس المصدر السابق، ص. 36.

حماية طبيعية لها من المسألتين المذكورتين. وفي نفس الوقت فإن الموضع المنعزل جعلها في مأمن من التغيرات الكبرى التي حدثت في فترات تاريخية متعاقبة، وخلق لدى السكان نزوعا شبه أكيد نحو الخصوصية أو «الذاتية» نتج عنه في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية أصالة ميزتها عن باقي المدن المغربية الأخرى. وأما الموقع فحددته صلتها بما والاها، وكما يرى ابن خلدون فإن المدينة التي لا توجد لها ضاحية لا تعد مدينة، لأنها لا تستمر إلا بما حولها. وهناك ضرورة توفر المياه وهي شرط ثابت ويستدل به على إشتقاق اسمها كما سنبين.

2 - أصل تسمية مدينة تطاوين:

تختلف الروايات حول تسمية تطاوين، وكما أن هذه الكلمة ليس لها أي اشتقاق في اللغة العربية، وأول من تحدث عن أصل هذه الكلمة هو الحسن بن الوزان المعروف بـ «ليون الإفريقي» في كتابه (وصف افريقيا) الذي ربط بين هذه التسمية وبين الأميرة العوراء التي حكمتها. ولما لم تكن لهذه الأميرة سوى عين واحدة فقد سميت المدينة تطاوين ومعناها عين واحدة باللغة الإفريقية حسب المؤلف.[7] وهي رواية صدرت من زمن بعيد حسبما يظهر، إلا أن البعض يرجح بأن إسم تطاوين ليس سوى تحريف للكلمة الأمازيغية التي تعني العيون الجارية والذي تختلف لهجة النطق به حسب الجهات، وهو اشتقاق يذكر بغنى الموضع بالمياه وارتباط السكان به. ثم إن الاختلاف في نطق الكلمة جعل الإخباريين القدامى يكتبون إسم هذه المدينة بصيغ مختلفة: فالبكري (في القرن 5هـ /11م) سماها تيطاوان، و(في القرن 6هـ/ 12م) ذكرها كل من الشريف الإدريسي بتطاون والمؤلف المجهول بتيطوان ووردت عند ابن عذاري المراكشي بتيطاون. أما ابن خلدون فذكرها بتيطاوين وهي نفس الكلمة التي وجدناها عند ابن الوزان (القرن 16م). وقد خالفهم في ذلك كل من ابن أبي زرع (القرن 14م) ومارمول كربخال (القرن 16م) اللذين سمياها بتطوان .

وأما صاحب المخطوط التطواني فذكر أن إسمها تطاوين، جمع تط بكسر التاء وفتح الطاء المشددة، وهي العين بلغة البربر جارية أو غير جارية، وتصدق عندهم بعين البصر، والوارد هنا الأولى بقسميها لكثرتها

---

[7] - الحسن بن محمد الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج،1، ص. 319 .

حتى سميت حومة منها بذلك.[8] وانفصل في جواب الحسن اليوسي المتوفى سنة 1690م أنه « ... إشتهر في ألسنة كثير من المتفصحين من أهل فاس وغيرهم أن الصواب فيها تطوان، وهو غلط فاحش فنقول لفظ تطاوين وجدنا أهلها وجميع نواحيها ينطقون به ... ثم إذا نظرنا إلى أصلها وجدناها لفظة بربرية وتلك البلاد أصلها للبربر فوجدناها موافقة لما يقولون ... وهي في تلك جمع «تيط» بمعنى العين الجارية أو الباصرة ... فنظرنا في تلك المدينة فوجدناها ذات عيون من الماء فعلمنا أن ذلك هو المراد... وأما تطوان فلا معنى له في لغة العرب والعجم».[9]

3 - الأخبار عن تطاوين القديمة:

إن الأخبار الأولى عن وجود هذه المدينة والتي وصلتنا عن المصادر التاريخية ترجع أصلها إلى الماضي البعيد. لكنه لم يعثر في نواحيها على مخلفات مواد إنسان ما قبل التاريخ، إلا أن أحد الأثريين أشار إلى وجود مكان لمعدن الصوان المنحوت قرب تطوان وإلى حثوة (بناء حجري في شكل مخروطي فوق قبر) في الضفة اليمنى من النهر، وكذلك دولمين (مقبرة جماعية عبارة عن حجر مسطح فوق عدد من الحجارة المنصوبة) في عين شهيلة.[10] غير أنه تعوزنا كثير من الاكتشافات لاستنتاج فكرة حول ماهية السلالة البشرية التي خلفت بقايا هذه المعالم.

وإن المعلومات جد شحيحة عن تاريخ وجغرافية هذه الناحية خلال العهد القديم، ومن المحتمل كثيرا أن هذه المنطقة كانت مأهولة وعامرة، وهذا الافتراض يدل عليه الكشف عن بعض الأنقاض على طول الساحل من مصب واد تطاوين إلى سبتة. فبعض هذه الآثار قد يعود إلى عهد الفينيقيين والقرطاجيين، وكما أن البعض الآخر يرجع إلى عهد الرومان.[11]

ومنذ التخريب الأول للموضع المعروف حاليا بأطلال تمودة التي تعود إلى العصر القديم، سوف لن يتم الحديث عن أية مدينة في ناحية الوادي وذلك حتى الفترة الإسلامية. ومن المفترض أن المنطقة القريبة من موضع تطاوين لم تضم في القديم نواة حضرية شبيهة بمستوطنة سكانية مثل تمودة،

---

[8] - محمد داود ، **تاريخ تطوان** ، مطبوعات مولاي الحسن، المجلد الاول، تطوان 1957، ص. 39 .

[9] - أورده أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، مخطوط بالخزانة العامة والمحفوظات، ج.1،ص.21 . وقد حققه جعفر بن الحاج السلمي، تطوان، 1998.

[10] - M .Pallary Bulletin de la societé de Géographie d'Oran, avril - juin 1905, p.258.

[11] - M.A. Joly, Tétouan Historique, «Archives Marocaines», tome v, Paris, 1905,p.166.

وإنما عرفت إستيطانا بشريا متفرقا عبر كل الوادي على شكل مجموعة قرى،[12] فخصوبة الوادي وغنى الفرشة الباطنية بالمياه جعلت منه مكانا مجذبا للعناصر البشرية على مدى الحقب التاريخية المتعاقبة، وفي نفس الوقت فإن انفتاحه الطبيعي على البحر جعل منه مكان استقبال وعبور جماعات بشرية مختلفة.

ومهما كان زمن وجود هذه المدينة فإنه يمكننا أن نحسم بطريقة شبه قطعية بأن تطاوين وإن لم توجد في القديم كمدينة كما هو الحال بالنسبة لتمودة فإنها وجدت كقرية أمازيغية لم يكتمل مظهرها الحضري الحقيقي، وكما أن الإسم الأمازيغي لتطاوين يجعلنا نربط أصل هذه المدينة بفترة تغلب الأمازيغ بشمال إفريقيا.

ونجد معلومات خاطئة عن موقع المدينة، فمثلا فإن مارمول افترض موقعها على ضفة نهر (لوكوس) الذي يجري من جبال الأطلس، كما أن بعض المؤلفين من القرنين السابع عشر والثامن عشر يقابلون تطاوين بإياغث.[13] ويذكر البعض أن تطوان عرفت ثلاثة أسماء أمازيغية أصلية هي تطاوين وتمودة * و(إياغث).**

وإذا رجعنا إلى المعلومات التاريخية التي ترجع أصل المدينة إلى زمن قديم في موضعها الحالي الذي من المفترض أن تكون قد وجدت فيه قرية أمازيغية تابعت بدون شك مسار الأحداث التي عرفتها البلاد عامة، فلم يكن لها تأريخ خاص وإنما اشتركت في الأحداث العامة لإفريقيا الصغرى. وما يثبت هذا الافتراض هو الموقع الجغرافي الهام للمدينة ومواصلاتها مع الداخل، ثم الكميات الهائلة من المياه التي تنساب من ينابيعها والكفيلة بتزويد المدينة بحاجاتها من الماء، بالإضافة إلى وجود السهل الفسيح القريب من البحر. فقد وصفها مؤلف من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

---

[12] - Miguel Tarradell, El poblamiento antiguo del valle del rio Martin, Tamuda, V 1957, pp .268-269.

[13] - M.A Joly, op. cit ., p.168.

* مدينة ترجع إلى العهد الموريطاني القرطاجي (القرن الرابع والثالث قبل الميلاد) وبنيت على أنقاضها مدينة رومانية أصبحت عاصمة مطرانية وهي تقع على بعد بضع كيلومترات من تطوان.

** قرية حصينة كانت تسكنها قبيلة بربرية تعتنق المسيحية قبل مجيء الإسلام .

مدينة« تيطوان... قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع طيبة الهواء والماء».[14]

ويفترض أن تمودة الرومانية لما أحرقت تركها أهلها إلى المكان الذي توجد به تطاوين، وهذا يعني أن هذه الأخيرة لم تصبح مدينة إلا بعد أن اختفت تمودة من الوجود تماما.

ويعتقد أن طبوغرافية موقع تمودة تفرض أن يكون في مرتفع حيث تقوم المدينة الحالية، لأن وجود مستنقعات عند قدم الجبل يعرض حياة السكان لأخطار من جهة، ومن جهة أخرى فتجمع السكان بذلك الموضع ضرورة يزكيها وفرة الينابيع والعيون به.[15]

ولن يكون الأمر سهلا كذلك إذا تتبعنا الظروف التي مرت منها المدينة منذ العصر الوسيط المبكر، فخلال المرحلة المضطربة التي واكبت مجيء الفتح الإسلامي فإن المدينة ربما كانت في عداد إحدى الممالك الصغرى السريعة الإندثار والتي أسسها أهالي المنطقة، وهو أمر تزكيه الأسطورة التي تتحدث عن ملكة مسيحية تدعى "شميسة" كانت تابعة للقوط الذين احتلوا المدينة بعد الرومان وسلموا حكمها إلى هذه الأميرة العوراء التي كانت تأتي كل أسبوع لاستلام مواردها.[16]

4 – تأسيس تطاوين الإدريسية:

من المفترض أن تكون الغزوات التي قادها عقبة بن نافع الفهري قد مرت عبر منطقة وادي تطاوين، وكذلك الشأن في اتفاقاته مع يليان الغماري، إلا أن الإخباريين لم يلمحوا إلى ذلك. والظاهر أنه لم تكن توجد أية نواة حضرية في تلك الفترة ولا أي مركز محصن، وإنما هناك سكن كثيف متناثر. وكما لم تصلنا معلومات عن تطاوين إبان عهد القائد موسى بن نصير عند فتحه لبلاد المغرب الأقصى، وكل ما نعلمه هو أن المسلمين فتحوها عندما أخذوا سبتة من أيدي القوطيين سنة 92 هـ/ 710م. والمقري عند عرضه للروايات الرئيسية للمؤرخين العرب عن الفتح لم يتحدث سوى عن طنجة و سبتة، وعند ذكره لملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائني يقول بأن جيش طارق بن زياد سار إلى مدائن على شط البحر كانت خاضعة لملوك

---

[14] - مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد المجيد، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء، 1985، ص.137.

[15] - Tissot, Recherches sur la géographie comparée de la Muritanie Tingitaine, in «Archives Marocaines», pp.20- 22.

[16] - ابن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.1، ص.318.

الأندلس وعلى رأس تلك المدائن سبتة.[17] ولعل من بينها كانت ناحية تطاوين التي كان مصيرها مرتبطا بسبتة البيزنطية ثم القوطية فيما بعد كما قد نفهمه من النص.

ونجد تلميحا للمدينة في أواخر القرن الثامن أو بداية التاسع الميلاديين، وأول من يخبرنا بوجودها هو الجغرافي البكري في القرن الحادي عشر، فيصفها بأنها قاعدة بني سكين فيها قصبة وهي من بناء قديم[18]. ويزودنا بالمعلومة مؤرخ أحدث من السالف وهو ابن أبي زرع الذي ألف كتابه في الثلث الأول من القرن الرابع عشر، فيذكر تطوان عند تقسيم محمد بن إدريس للمغرب بين إخوته سنة 828م.[19] فيكون من المفترض أن نسلم بأن الربع الأول من القرن التاسع هو التاريخ الأقصى الذي يمكن أن نضع فيه تأسيس هذه المدينة، وهذا الفعل يجدر بنا أن ننسبه إلى أحد الإدريسيين.

وتطلعنا الأخبار على أن إدريس الأول جمع جيشا كبيرا استولى على قرية صدينة القريبة من تطاوين وذلك سنة 172هـ/ 788م. وما يتبين من تاريخ صدينة أنها قبيلة من زناتة تعد ضمن القبائل التي ناصرت إدريس الأول، وأن وجودها في شمال المغرب الأقصى يؤكد التأثير الزناتي في هذه المنطقة.[20] ومنذ هذا التاريخ يمكننا أن نجزم بأن ناحية تطاوين أصبحت تحت نفوذ الأدارسة ولفترة طويلة فاقت قرنا من الزمن، وكانت كافية للقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية وتعريب السكان. وقد ساهم الأدارسة في نفس الوقت في تعمير المنطقة وخلق أنوية حضرية بها.

وسنتجرأ إذا اعتبرنا أن المحيط الزمني القريب من سنة 818 م هو اللحظة التاريخية التي وضع فيها الأدارسة أسس تلك المدينة التي ستعرف مرات عديدة عمليات تخريب وإعادة البناء. وإنه من العسير أن نفترض بأن التأسيس تم انطلاقا من إحدى القرى المتناثرة في الوادي الذي سماه البكري وادي راس وأطلق عليه من سبقوه إسم مجكسة، وهذا الإسم لم يلتصق بالنهر فحسب وإنما بالوادي والسكان الذي يقطنونه أيضا، وبذلك يكون ادريس

---

[17] - أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، بيروت، 1988، ص. 250 .

[18] - أبو عبيد الله البكري، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوتن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، ج.2، ص. 784 .

[19] - علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**،الرباط،1973،ص. 51.

[20] - **مجتمع المغرب الأقصى** حتى منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي،ج.2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،1995، ص. 120.

الثاني هو من أمر ببناء حصن نمت حوله قرية كانت من أكبر القرى المتواجدة ثم ما لبثت أن أخذت مظهر المدينة.وكان الهدف من تشييد الحصن هو مراقبة سبتة المجاورة والتحكم الفعلي في وادي مجكسة.[21]

ومن المؤكد أن حدث تأسيس « مدينة – حصن » تطاوين من طرف الأدارسة يعود إلى الأهمية الاستراتيجية في امتلاك موقع حربي بالمنطقة مقابل لسبتة التي لم تكن في غالب الأحيان موالية للأدارسة. وكما أن إخضاع تلك المدينة كان يمثل جانبا رئيسيا في سياسة الخلفاء الأمويين بالأندلس ينزع نحو ضمان رأس جسر في الشمال الإفريقي لمجابهة الأعداء الفاطميين من جهة، وتذبذب الأدارسة الذين كانوا يسيطرون على الضفاف القريبة من جنوب شبه الجزيرة الإيبرية من جهة أخرى، ومن هذا المنظور أجاز عبد الرحمن الناصر قائده على الجيش أحمد بن يعلى إلى بني محمد في العساكر ودعاهم إلى هدم تطاوين، وكان بنو محمد بن القاسم قد أجمعوا على هدمها فهدموها، ثم ندموا على ذلك وشرعوا في بنائها، فضج أهل سبتة التي كانت تحت النفوذ الأندلسي من ذلك وزعموا أنها تضر بمدينتهم، فتخلى بنو محمد عن بناء المدينة لما اجتمع العسكران عليهم.[22] وإن بناء تطاوين كان يعني فقدان سبتة لكثير من المنافع المادية كالضرائب والتكاليف والجزية التي كان يحصلها حاكم سبتة من القبائل المجاورة ومن بينها قبيلة مجكسة.

ودخل جوهر قائد السلطان الفاطمي المعز إلى المغرب الأقصى سنة 347هـ / 953م، واستولى على مدينة فاس ثم توجه نحو تطوان ووصل إلى مضيق سبتة فلم يقدر عليها ورجع عنها.[23] بيد أن الإخباريين لم يلمحوا إلى حرص الفاطميين على إعادة بناء تطاوين وتحصينها في مواجهة التدخل الأموي إلا من خلال حديثهم عن المعارك التي خاضها الحسن بن كنون سنة 362 هـ / 972م، والذي نهض بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية، وكان له الظهور على عسكر الحكم وقائده ابن طملس.[24] وفي سنة 369هـ / 979م قاد بلكين بن زيري انطلاقا من القيروان حملة على المغرب وتمكن من

---

[21]- Guillermo Gozables Busto, Estudios sobre Marruecos en la Edad Media, Granada, 1988, p.78.

[22] - عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، المجلد السادس، بيروت، 1992، ص. 257، وابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، ج.1 ، بيروت، 1980، ص.222.

[23] - ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب**، ج.1 ،ص.222.

[24] - ابن خلدون، **كتاب العبر**، المجلد السادس، ص. 258 .

السيطرة على بلاد الهبط وسار إلى أن بلغ التل المطل على تطوان فشرع يعد العدة للهجوم على سبتة.

ومن الملاحظ أن مدينة تطاوين التي شيدها الأدارسة ثم قاموا بهدمها تحت ضغط القواد الأمويين، سوف لن تتطور إلا بشكل عسير سواء في عهدهم أو في ظل الفاطميين المتحمسين للتواجد في موقع استراتيجي حصين مقابل لسبتة. فأصبحت منذئذ تعاني من عواقب الصراعات التي مزقت الشمال الإفريقي إلى درجة أنها كانت تتعرض بين الفينة والأخرى لأعمال التخريب من قبل المتصارعين، وهذا ما سيؤكد أهميتها ويثبت العزم على إعادة بنائها بعد هدمها من قبل الأدارسة.

وعندما طرأت الفتنة بقرطبة وما تلاها من انقسامات في بلاد الأندلس أدت إلى بروز ممالك الطوائف، تكونت كذلك في أقصى شمال المغرب إمارة طائفية بسبتة على يد الحاجب سكوت البرغواطي الذي أطاعته قبائل غمارة ونافس المعتمد بن عباد ملك اشبيلية النفوذ على مضيق جبل طارق،[25] وخلال هذا العهد ستعرف تطاوين تطورا بطيئا. وما نستنتجه من التباين في وصف تطاوين عند كل من الجغرافيين البكري في القرن الحادي عشر والإدريسي في القرن الذي يليه، أنها حسب البكري كانت تضم صناعة فلاحية واسعة مخصصة للتموين يعكسها توفر الأرحاء التي تستغل مياها كثيرة سائحة عليها. وكما يزودنا بمعلومات إضافية تدفعنا إلى التفكير في أهمية الدور الذي خصصه سكوت للمدينة ومحيطها، فالمراكب اللطاف ذات الغاطس الصغير كانت تصعد مع نهر مجكسة إلى أن تصل تطاوين، وأن بها منارا مما يجعلنا نعتقد في كونها شكلت قاعدة بحرية ملحقة لمدينة سبتة، ويظهر أيضا اهتمام سكانها بالنشاط الملاحي. وتجدر الإشارة إلى أن البكري كان معاصرا لأمير سبتة البرغواطي وأن تطاوين حسبما يبدو كانت خاضعة لنفوذه. وكان سكوت قد أولى عناية كبيرة بشؤون الملاحة، وهزم المعتضد أمير إشبيلية وفرض نفسه كسيد على المضيق، وكما اهتم بأعمال القرصنة وحصل منها على ثروات هامة كانت كافية لتدعيم التطور الحضري في مواقع ملائمة ومؤهلة كتطاوين التي أضحت بلا ريب إحدى قواعد الدعم لأسطوله الحربي.[26] ولعلها أمست تمارس دور مكمل اقتصادي ومزود بالمواد الأساسية بسبب وجود الطواحين ومعاصر الزيت بها. وكانت

---

[25] - Joaquin Valve Bermejo, Suqut al- Bargawati rey de Ceuta, Revista al- Andalus, XXVIII-1963 , p. 203

[26] - نفس المصدر السابق، ص. 178 .

المراكب الصغيرة التابعة لأسطول سبتة تجد في فرضة نهر (مرتين) ملجأ مريحا لا تجده في سبتة أو طنجة حيث ترسو المراكب الكبيرة. إلا أنه باضمحلال السلطة البرغواطية تبدلت بشكل شامل شروط التطور المذكور. وبذلك لم تعد سبتة تمثل مركز اجتذاب للثروات والخيرات، وكما تراجعت تطاوين عن دورها السالف وفقدت تبعيتها لسبتة وحتى صفتها كمدينة، بحيث أن الادريسي لما وصف الناحية لم يذكر أية مدينة وأشار فقط إلى حصن في بسيط الأرض تسكنه قبيلة مجكسة.[27]

5 - تطاوين في العهدين المرابطي والموحدي:

أصبحت تطاوين بعد إخضاع سبتة سنة 1083م تابعة للسيادة المرابطية مباشرة، إلا أن المصادر سكتت عن ذكرها طيلة فترة ناهزت قرنا من الزمن، وهي المدة التي تفصل بين علمين جغرافيين كبيرين وهما البكري و الإدريسي. ولم تعرف أية مدينة مغربية مثلما عرفته تطاوين من أحداث قاسية كثيرة تعرضت لها لمدة طويلة. فإذا كانت في عهد سكوت البرغواطي قد سارت في طريق التحول إلى مركز حضري مزدهر باضطراد ومتين، فإنها مع إخفاق وسيلة النشاط الاقتصادي المتنامي ظلت في منتصف الطريق بين قرية كبيرة وحاضرة، فالإدريسي لم يتحدث عن مدينة ولا عن المنار ولا الأرحاء، وهذا يدل على اختفاء شامل للنشاط الذي سينحصر في الوضع الحربي السلبي الذي أضحى يمثله الحصن. فالوظيفة العسكرية التي أنيطت بها منذ أواخر العهد المرابطي وبداية الموحدين هي التي ستهيمن على صورتها العامة. ويظهر أن مناعة حصنها البارز جعل القائد الأبرتير المرتزق في الجيش المرابطي يعتصم بها، ويمتنع على الموحدين اختراقها، وتجرؤ سكانها على إظهار عدم انصياعهم للدعوة الموحدية. وعندما تمكن الموحدون من دحر المتحصنين فإنهم لم يستنكفوا عن ارتكاب مذبحة رهيبة سنة 1149م في حق ثمانمائة من المعارضين[28]، ولربما كان من بينهم بعض من سكانها. وكان لهذا العقاب الفظيع عواقب نفسية عميقة على قاطني المنطقة الذين باتوا في حاجة ماسة إلى وجود قوة روحية تعيد الاطمئنان إلى النفوس المكلومة، وتعيد نسج خيوط التماسك المجتمعي بعد التفكك، فكان

---

[27] - أبو عبد الله محمد الإدريسي، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المجلد الثاني، القاهرة، بدون تاريخ، ص. 531 .

[28] - أبو بكر بن علي البيذق الصنهاجي، **أخبار ابن تومرت**، ص. 71، و A. Huici Miranda, Historia politica del Imperio Almohade, Tetuán, 1956, p. 132.

التفافهم حول الشيخ عبد القادر التبين الغرناطي نزيل تطاوين سنة 542 هـ / 1174م وتأييدهم لطريقته. وكان الشيخ التبين قد خرج من سبتة في رفقة الشيخ أبي عبد الله الفخار، فلما بلغ تطاوين وجدها معمورة بالقرى من كل جهة إلا الموضع المسمى أنجريس، فضرب خباءه فوق حافة هناك، فلما رآه أهل القرى أسرعوا إليه فاشترى منهم فرسخا.[29]

وتذكرنا حالة تطاوين بالوضعية التي كانت عليها خلال الفترة الرومانية وبداية العصر الوسيط الذي سبق التوسع العمراني وانتشار التعريب في العهد الإدريسي. فهذا التجمع القروي المتقارب كان قد شرع في التحول إلى مدينة في عهد سكوت البرغواطي ثم ما لبث أن توقف نموه. وهذا ما يشكك فيما عناه البكري بالمدينة، فكثير من الجغرافيين العرب عدوا تجمع أنوية حضرية بمثابة مدن قائمة[30]، وهذا يفترض أن تطاوين الأمازيغية الأولى كانت عبارة عن كتلة مؤلفة من وحدات صغيرة يقيم بعضها بجانب بعض لكنها لم تسكب في بوتقة حاضرة منسجمة، ولعل الوصف الذي قدمه الإدريسي يتفق مع فترة الركود الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي عرفته منطقة وادي مرتين، فهذه الناحية لم تكن غريبة عنه لأنه كان سبتيا. ولئن كان هذا الركود يرتبط بالصراعات الناجمة عن انتقال السلطة من دولة إلى أخرى، فإننا نعتمد في ذلك على المعلومات التي تزودنا بها المصادر التاريخية والتي تجعل من الموضع أحد ميادين المجابهة الشديدة بين اللمتونيين والموحدين. والأمر الذي لا ريب فيه هو أن الإدريسي لم يطلع على التعمير الذي قام به الشيخ التبين لأنه كتب مؤلفه قبل أن يشرع هذا الأخير في تخطيطه العمراني بما فيه الكفاية من الوقت بالرغم من كونهما كانا معاصرين. ويمكننا أن نجزم بأن جهود الشيخ التبين وضعت الإطار المورفلوجي الجديد لمدينة تطاوين التي تعرضت للتخريب في عهد الأدارسة، وكما يمكننا أن نفترض نزوحه إلى تطاوين كان بمثابة إنطلاقة للهجرة الأندلسية الأولية التي ستساهم في إعطاء مظاهر خاصة لناحية وادي مرتين عموما وللمدينة بصفة خاصة مستقبلا.[31]

6 - إعادة التأسيس المريني:

كانت الدولة القائمة بالأندلس لا زالت تهيمن في مطلع القرن الرابع عشر على بعض المواقع في شمال المغرب الأقصى وخاصة سبتة، إلا أن

---

[29] - مؤلف مجهول، **مختصر نزهة الأفكار ورحلة الأبرار في مناقب سيدي عبد القادر وشيخه الفخار**، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، 1966، ص. 54.

[30] - Gozables Busto, Estudios sobre Marruecos, p. 85.

[31] - Ibidem , p. 88.

المرينيين كانوا قد حققوا تقدما منذ قيامهم قبل نحو نصف قرن. وقد أدرك سلاطين بني مرين الأهمية الاستراتيجية للموضع في مراقبة الحامية العسكرية بسبتة، وأيضا مراقبة تحرك قبائل غمارة والريف التي كانت تثور بين الفينة والأخرى، ففي عام 685 هـ/ 87- 1286 م أمر السلطان يوسف بن يعقوب المريني ببناء قصبة تطاوين، وفي سنة 708 هـ / 1308م أمر السلطان أبو ثابت باختطاط المدينة لنزول عسكره والأخذ بمخنق سبتة التي كانت تحت سيطرة الأندلسيين.[32] وكان أخوه أبو الربيع سليمان قد تابع بناء تطاوين حتى أصبحت في مدة وجيزة جد محصنة، وبعث قائده تاشفين الوطاسي لفتح سبتة في جيش من بربر بني مرين ففتحها في سنة 709هـ/1309 م.[33]

وقد ظلت هذه المدينة قائمة طيلة القرنين الثامن والتاسع الهجريين، واكتسبت قوة كمركز تجاري ذي أهمية بالنسبة للمواقع المجاورة، وكما أصبح مرساها في نفس الوقت ملجأ للسفن الجهادية التي تقطع المضيق فتغير على سواحل إسبانيا وتغنم مراكبها. إلا أن تأثيرها في مسار الأحداث الداخلية لم يبرز إلا في سنة 1350 م عندما انهارت القوى المرينية في سائر نواحي البلاد، فحاول أبو عنان الذي أعلن نفسه سلطانا في تطاوين العمل على توطيد حكمه الذي أضحى وشيك الزوال.

7 - قضية تخريب تطاوين في القرن الخامس عشر:

زعم مارمول أن مدينة تطاوين دمرت من طرف أسطول قشتالة وأسر جميع سكانها وبقيت خربة طوال تسعين سنة، ونقل عنه الأب كستيانوس زاعما أن التخريب كان سنة 1400م وأنها بقيت فارغة مدة تسعين عاما حتى اجتاز المنظري إلى إفريقية.[34] وقد نقل جل المؤرخين الأوروبيين هذا الحدث وتبعهم في ذلك بعض المغاربة.[35] وقد نقل مارمول الرواية عن إخباري إسباني هو Gonzalo Davila في مؤلفه عن « تاريخ حياة ووقائع ملك قشتالة» دون إنريكي الثالث وهي لا تقوم على أي سند صحيح.

---

[32] - أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الثالث، الدار البيضاء، 1954، ص. 59 .

[33] - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، ص. 393 .

[34] - Manuel Castellanos, Historia de Marruecos, Tanger, 1898, p.34.

[35] - Mercier, Histoire de l'Afrique septentrional, II , p.393; Gordard, Histoire et description du Maroc, II, p.394, Joly, Tétouan Hisorique ,p..226. **الاستقصا** ، ج.4، ص.89 ، **عمدة الراوين** ، ج.1 ،ص446.

وقد شكك المؤرخ البرتغالي دافيد لوبس في التخريب المزعوم لمدينة تطاوين على يد القشتاليين، بل ورفض وقوع هذه الحملة عام 1400 ميلادي مستندا في ذلك على كتاب « تأريخ العاهل دون إنريكي الثالث» لمؤلفه «لوبس دي أيالا» الذي لم يذكر شيئا في هذا الصدد.[36] ونستنتج مما ذكر أن المدينة التي بناها أبو ثابت المريني عام 1308م لم يقع تهديمها سنة 1400 كما زعم مارمول وكاستيانوس. ويشهد التاريخ بأن البرتغاليين إبان احتلالهم لسبتة عام 1415 لم يقدروا على العيش في سلام بسبب الغزوات التي كانوا يتعرضون لها من قبل سكان تطاوين، وكان يرابط في ثغر الجهاد آنذاك الشيخ سيدي طلحة الدريج.[37] وذكر إخباريون معاصرون أن تطاوين كانت عام 1435 موقعا حصينا وأنها كانت من بين المدن القوية، كثيرة الجوار وتحظى بتقدير كبير لدى ملوك فاس، وأنها تشتمل على ألف بيت، كما تتوفر على عدد هائل من الرجال المدافعين عن أسوارها المتينة ضد أي هجوم قد يشنه المسيحيون عليها.[38] وتتحدث الأخبار التي جمعها بلطسار أوسوريو عن تخريب المدينة عام 1437 حينما هيأ دوم دوارطي دي مينيسيس ابن الحاكم البرتغالي بسبتة حملة ضد تطاوين، فلما بلغ خبرها السكان هاجروا المدينة مقتنعين بعدم قدرتهم على مواجهة القوات البرتغالية، فقام هؤلاء بهدم أسوار المدينة ومساجدها وإحراق أبوابها ودورها.[39] ويورد الحسن الوزان أن البرتغاليين هاجموا تطاوين وخربوها وبقيت خربة زهاء ثمانين سنة إلى أن جدد بناءها قائد أندلسي دعاه البرتغاليون المنظري.[40] وفضلا عن هذه النصوص من مختلف العصور التي تخبر بغزارة متفاوتة من حيث التفاصيل ودقتها، فإنها لم تكن لتجعل التعليق الأخير محل شك.

ونستنتج من معلومات الإخباريين والجغرافيين المسلمين أن البلد لم يحافظ على أثر كبير منذ الفتح الإسلامي الأول ومحاولة العرب الاستقرار فيه، ذلك أن معظم الأماكن ظلت بعد ذلك تحمل أسماء أمازيغية، مثل ناحية مجكسة حيث يعتقد أن تطاوين كانت هي المركز، ونهرها يحمل حسب البكري اسم واد مجكسة . وحسب تصور ابن خلدون فسكان هذه المنطقة

---

[36]- David Lopes, Os Portuguaises, en La Historia de Portugal, Tomo III, Barcelos,1931, pp. 538.

[37] - **تاريخ تطوان**، ج.1، ص.78.

[38] - Gomez Eanes de Azurara , Chronica do Conde Dom Duarte de Meneses, Lisboa, 1793 , Citado por Mohamed Ibn Azuz Hakim, en Los Anales de Tetuan, p.22 .

[39] - Baltasar Osorio, Ceuta e a capitania de Dom Pedro de Meneses (1415- 1437) ,Lisboa , 1933, p.177

[40] - الوزان، **وصف افريقيا**، ج.1، ص.318 .

يندرجون ضمن مجكسة فغمارة،[41] وموطن غمارة إلى الجنوب الشرقي من تطاوين على ساحل البحر من أزلا إلى بادس. وقد احتفظت القبائل المجاورة بأسمائها أمازيغية مثل بني حزمر وبني يجم (برغيث) وبني سكين وغيرها . وقد شكلت هذه القبائل – بلا ريب – أهم نواة للقرية – المدينة، ثم انضم إليها فيما بعد وافدون جدد. والواقع أنه لم يتمكن من تكوين رؤية واضحة نسبيا عن سكان المنطقة إلا مع مجيء العرب إلى بلاد المغرب، وبالرجوع إلى كتابات البكري والإدريسي وابن خلدون. فالبكري عند إشارته لفروع مصمودة التي تقطن المنطقة الواقعة بين سبتة وتطوان يذكر واد نكرو وواد سمير حتى يصل إلى تطاوان، وعندما نتجاوز وادي راس في اتجاه الشرق نترك أرض مصمودة ونتجه نحو بلاد غمارة.[42] وقد حدثت تغييرات كثيرة في مساكن القبائل المصمودية منذ القرن السادس الهجري الذي نزحت فيه نحو المغرب موجات من عرب بني هلال الذين زاحموا قبائل البربر ومنهم غمارة بالسهول وألجأوهم إلى الجبال.[43] وإن هؤلاء « الحوزيين » اجتذبتهم وفرة المياه وجمال وخصوبة الموضع، فأقاموا في السفح الجنوبي لجبل درسة قرية بسيطة تطورت فيما بعد نتيجة للظروف المساعدة والموقع الإستراتيجي. ونظرا لكون هذه المدينة من تأسيس قبيلة الحوز التي قدمت من ناحية الريف، فإن أصل الملكية العقارية لم يكن ليختلف بطريقة عما حددته وشكلته نفس الجماعة الجبلية عند استقرارها الأولي بموريطانيا الطنجية، فالسكان الحوزيون الأوائل جاءوا من القبيلة الأصلية، وتكتلهم في هذا الموضع عند السفح الجنوبي لجبل درسة كان هو الأصل في تطاوين القديمة، ومنذئذ لم تنفصم حركية الروابط البشرية بين المدينة من جهة، والقبائل المجاورة لها من جهة أخرى. وإذا كانت المدينة عند إعادة بنائها في أواخر القرن الخامس عشر قد عمرت في جوهرها من طرف عناصر أندلسية، فإنه استقر بها فيما بعد من وفد عليها سواء من فاس أو من مختلف القبائل الجبلية والريفية، فوقع الالتحام – تدريجيا – بين هذه العناصر المختلفة.

ولما كانت الناحية المجاورة لمدينة تطوان والمعروفة بـ «جبالة» قد شكلت منذ أقدم العصور منطقة عبور بين المغرب والأندلس، فإن الكيانات القبلية المستقرة بها شهدت بدورها حركية إجتماعية واسعة تخللتها عملية امتزاج بين جموع الطارئين على المنطقة. فكان الإحتكاك بالزحف العربي

---

[41] - ابن خلدون ، **كتاب العبر**، المجلد السادس، ص . 436.

[42] - البكري، **كتاب المسالك والممالك**، ج. 2، ص.140 .

[43] - عبد الوهاب ابن منصور، **قبائل المغرب**، الجزء الأول، الرباط، 1968، ص. 323.

إبان الفتح الإسلامي، ثم مع الحركة السياسية خلال حكم الأدارسة، وكذلك مع حركة المد والجزر أثناء حروب الشمال الإفريقي، وأخيرا مع زحف عـرب بني هلال ونزوح المهاجرين الأندلـسيين. فكـل هـذه الهـزات الـسياسية والهجرات المتعاقبة كان لها أثر في تشكيل ساكنة انـصهرت فيمـا بينهـا وأصبحت تحمل لقب جبالة لها كيانها ومقوماتها ونظمها .[44]

[44] - العياشي المريني، **صور عن التاريخ البطولي لمنطقة جبالة**، ج.1، ص.21.

الفصل الثاني
تأسيس تطاون الحديثة وتطورها حتى القرن الثامن عشر

1 – تأسيس تطاون الحديثة :

استمرت تطاون التي هدمت في النصف الأول من القرن الخامس عشر خالية من السكان إلى أن تم تجديد بنائها من قبل المسلمين المهاجرين من الأندلس. إلا أن النصوص الأدبية تعجز عن إفادتنا بشكل دقيق وواضح عن تاريخ إعادة تأسيسها، فضلا عن كون تلك النصوص غالبا ما تخلط ما هو أسطوري بما هو تاريخي، وقد يتجاوز ذلك مسألة إعادة البناء فتختلف حول أصل التسمية والموقع كما مر بنا سابقا.

وتاريخ إعادة بنائها نجد فيه روايتين: أولاهما لمؤلف مجهول صاحب «مخطوط تطوان»[45] وللسكيرج[46] وكلاهما من أهل تطاون، وروايتهما هي التي يتناقلها الخلف عن السلف، والشأن في أهل كل بلد أن يكونوا أعرف من غيرهم بتاريخ بلدهم، ورمز لذلك التاريخ بكلمة « تفحة» وهي قيمة عددية بحسب النظام الأبجدي العربي، حيث عثر في الكناش القديم على نظم يثبت تاريخ البناء:

قد بنيت تطاون يقينا ... عام تفحة من السنينا
في شهر شعبان في حرف الزاء ... ابتدأوا الحفير والبناء
وكملت عند تمام الكاف ... قد صح ذا عندي بلا خلاف
وكان عدة الرجال الأبرار ... ميم و زاء ليس ثم أكثر
وعدة النساء نقط الياء ... فهؤلاء أسسوا البناء

---

[45] - تقييد يحتوي على بضع صفحات عثر عليه الفقيه محمد داود في ذكر أخبار تطاوين، ولم يتحقق من معرفة اسم مؤلفه، وينعته كذلك بالمخطوط القديم .

[46] - أبو محمد عبد السلام السكيرج، مؤرخ تطوان، ولد في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، قرأ على شيوخ المدينة ثم رحل إلى فاس ودرس بها على شيوخ القرويين، اشتغل بحرفة العدالة والتدريس والتوقيت، وألف تاريخه في تطاوين سماه "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان" ويقع في نحو ثمانين صفحة مع البتر، وهو مخطوط نقل عنه الفقيه الرهوني كثيرا من المعلومات التاريخية في مؤلفه "عمدة الراوين"، وكما أورد داود في تاريخه أخبارا جمة من هذا المخطوط، وقد توفي سكيرج عام 1250 هجرية .

والرواية الثانية هو ما جاء في تقييد في كناش قديم وقف عليه المؤرخ محمد داود منقول من خط العلامة العربي الفاسي صاحب «مرآة المحاسن»، وقد كان يقطن بتطاون وبها توفي عام 1052 هـ/ 1642م، ويذكر فيه أن ابتداء بنائها كان على يد جماعة من الأندلس قدموا منها وتخيروا محلها، وذلك في شعبان من عام 898هـ ويوافقه من التاريخ الميلادي 1493 أي بعد سقوط غرناطة.

ومن الملاحظ أن الروايتين تستندان إلى نصوص تاريخية مرجحة لا يشوبها سوى عيب واحد هو التضارب فيما بينها في تحديد الفترة الزمنية. وقد حاول داود التوفيق بين هذا التضارب في تاريخ الروايتين، فذكر بأن الوافدين على تطوان عام 898هـ عقب سقوط غرناطة كانوا كثيرين بحيث تنوسي عدد الذين سبقوهم عام 889هـ، فنسب البناء إلى اللاحقين بدل السابقين.[47] لكن المسألة في الواقع تتعلق بالاختيار بين الروايتين، فالرواية الأولى لها فضل التوضيح بكيفية مقنعة، ففي مخطوط تطوان فإن تجديد البناء وقع سنة 889 هـ (1485م)، وعند سكيرج سنة 888 هـ (1483م) ويؤكد المؤرخ البرتغالي دافيد لوبس أنه من المحتمل أن يكون تجديد تطاون الأول قد حدث إما عام 1483 أو عام 1485، ويرجح الأول.[48] ولذلك يبدو من المعقول ألا نتردد في الاعتماد على ما أتى به سكيرج وصاحب المخطوط القديم وقبول التاريخ الذي يقدمانه.

ويفترض أن يكون هذا التجديد الأول قد شمل القصبة التي شيدها السلطان يوسف بن يعقوب المريني والأفراك الذي أقامه السلطان أبو ثابت.[49] وسيكون تجديد البناء ثانية على يد القائد علي المنظري وذلك بعد سقوط غرناطة، وكما جاء في تقييد العربي الفاسي أنه تم في شهر شعبان عام 898 موافق يونيو 1493، وهذا التجديد كان أهم وأضخم من الأول. ويقول لوبس إنه من المحتمل أن يكون المنظري قد أعاد بناء تطاون قبل سنة 1495 حيث إنه ظهر برفقة علي بن راشد الذي تقول عنه الوثائق البرتغالية إنه كان يقوم وحده بمهاجمة مدينتي سبتة وطنجة.[50] وتضاربت المعلومات قليلا حول التدابير التي اتخذها المهاجرون الأندلسيون للتوصل إلى تجديد البناء،

---

[47] - محمد داود ، **مختصر تاريخ تطوان**، الجزء الأول، المطبعة المهدية، تطوان، 1955، ص.17.

[48] - David Lopes , Historia de Portugal . pp .84- 389.

[49] - محمد ابن عزوز حكيم، **الجديد في تاريخ تطاون**، ج.1 ، تطاون، 2000، ص. 34

[50] - محمد ابن عزوز حكيم، **معلمة تطاون** ، مطبعة الخليج العربي، ج،1 تطاون، 2001، ص.21 .

فصاحب المخطوط القديم يقول إنهم بعدما جاءوا من الأندلس تفرقوا في قرى الجبل ثم ذهبوا إلى مولاي علي بن راشد بشفشاون وطلبوا منه إصلاح تطاون، ثم كان لا بد من أخذ إذن سلطان المغرب محمد الشيخ الوطاسي الذي أعانهم على ذلك. ويقول الفاسي إن الأمير الذي أذن للمنظري في إعادة البناء وتوسيع المدينة هو مولاي علي بن راشد، وقد وصفه ابن عسكر والقادري بأمير الجهاد في شمال المغرب حيث كان يشترك معه القائد المنظري في الغزوات التي كان يقوم بها.[51]

وقد ذكر المؤرخان التطوانيان أنه ما إن شرع الناس في البناء حتى قاومهم سكان القبائل المجاورة من بني حزمر وبني صالح وبني سالم باعتبار أن أرض المدينة تقع في بلادهم وتشكل مراعي لماشيتهم، فوقعت بينهم وقائع. وذكر العربي الفاسي في تقييده أن بعض سكان تلك القبائل استصرخ النصارى.[52] فرفعوا أمرهم لأمير الوقت فاعتذر لهم بقلة المال عنده وقتئذ، وأذن لناظر القرويين بفاس أن يسلفهم من وفر الأحباس فأسلفهم أربعين قنطارا. وذكر صاحب المخطوط التطواني أن المنظري اشتكى لمولاي علي بن راشد تعسف الجوار، فبعث هذا الأخير على قبائل الريف فجاء منهم نحو من أربعمائة فارس، وبوجودهم ساد الأمن.[53] ولعل علي المنظري فضل أن ينزل في خرائب مستعمرة سميت تطاوين التي تقع قريبة من العدو الجاثم في سبتة وقصر المجاز وطنجة، وما جلبه هذا القائد هو ورفاقه من ثروة أنفقوه في سبيل إعادة بناء المدينة المخربة التي سيصبح لها شأن كبير في استراتيجية الحكم المغربي، وسيعرف العمران إنطلاقة حقيقية على يده. ومن يرسم خريطة هذه الناحية ويملأ المجالات الحيوية للإستعمارين الإيبيري والإنجليزي يدرك مدى أهمية هذه المدينة.

ولما كانت الأصول عن أخبار نشأة المدن عموما قد ضاعت في غالبيتها، فإن رواية الأساطير في بناء المدينة أضحت تقليدا يشترك فيه عدد من كتاب الحوليات التاريخية، وكما أن الشخصيات التي صنعت الحدث أحيطت بأساطير وكرامات لما خططت لتأسيس المدينة .[54] ومن ذلك ما نسب للشيخ عبد القادر التبين من بركة عند استقراره بالموضع وشروعه في

---

[51] - محمد ابن عزوز حكيم ، **الجديد في تاريخ تطاون**، ج.1 ، ص.54 .

[52] - محمد داود ، **تاريخ تطوان**، معهد مولاي الحسن، المجلد الأول، تطوان، 1957، ص.97 .

[53] - المصدر السابق، ص.98 .

[54] - محمد حباني، **الأسباب والأساطير المرتبطة بتأسيس المدن الإسلامية بالمغرب**، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، 1990، ص73.

تعميره في القرن الثاني عشر، إذ حفر بيده المباركة عين ماء فأقبلت عليه ملوك الجن السبعة وألحوا عليه في خدمتهم، فقال: إن أردتم فعل الخير، فهذه العين كل من أخذ من مائها وكان به ضرب من الجن برئ، فعاهدوه على ذلك.[55] وما ذكره السكيرج من كرامة لأبي الحسن علي المنظري مجدد بناء تطاوين في أواخر القرن الخامس عشر، وهو « أنه ذات يوم وقت بناء الأسوار خرج ينظر البناء فوجد حذاءه رجلا يضيء كله قال له من تكون يا سيدي فقال: أنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا سيدي ادع لهذه البلدة. قال له أنا ضامن إن شاء الله إن يكن الناس في النعم إلى الركبة تكون هي في العنق، وإن كان الناس في الشر إلى العنق تكون هي إلى الركبة».[56]

ومن خلال الكرامتين السالفتين نتبين أن الحقيقة التاريخية امتزجت بالأسطورة التي تسعى في الأول إلى تمجيد الموضع وتقديسه، وفي التالي تمنح المؤسس أو مجدد بنائها بركة تثبت ولايته وتجعل منها مدينة مقدسة. وكان أمر آخر شغل بال قاطنيها وهو خوفهم من دخول العدو الكافر إليها وكذلك انزعاجهم من تحكم الغرباء فيها، فيسيئوا إلى أهلها، فاختلقت لذلك الغرض أسطورة دفن سيدي المنظري.[57] قال سكيرج « ولما توفي ذهب الناس إلى الشيخ سيدي علي بن راشد ليأمرهم أين يدفنونه، فلما وصلوا إليه بشفشاون، قال لهم ارجعوا فإنكم تجدونه دفن، فإن وجدتموه دفن داخل البلد يحكم فيها أهلها وإن وجدتموه دفن خارجها يحكم فيها البراني فلما فعلوا وجدوه مدفونا خارج البلد ».[58]

ولعلنا نجد تبريرا لاختلاق مثل هذه الأسطورة وغيرها إذا اعتبرناها وسيلة للتخفيف من الأسى الذي ملأ قلوب الناس من شدة الكرب عليهم نتيجة مأساة الطرد والتهجير من جهة، وترقب الخطر المداهم بسبب التهديد الإيبيري وتكرار أعمال تخريب العمران من جهة أخرى. ويضاف إلى ذلك تسلط بعض الحاكمين وطغيانهم إلى حد جعل أهلها يرددون بعد انكشاف كل محنة عبارة «ضامنها سعيد والطاغي يموت فيها بالحديد». وهذه كرامة أخرى لضامن هذه البلدة الذي سماه الناس سيدي السعيدي وعظموه وجعلوا

---

[55] - الرهوني، **عمدة الراوين** ، ج.4، ص.46 .

[56] - سكيرج ، **نزهة الإخوان وسلوة الأحزان**، مخطوط بالخزانة الداودية، ص.3 .

[57] - جعفر ابن الحاج السلمي، **أسطورة تطوان أو تطوان الأسطورة**، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ، تطوان، 1996، ص.173.

[58] سكيرج، المصدر السابق، ص.4 .

له ضريحا بزاوية لكونه يقال عنه إنه قاتل أبي الطواجن الذي قتل الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش، واعتبروه شفيع تطاون على الطريقة التي كانت معتادة عند عامة الأندلسيين.

وإن هذا التصور الكرامي للشخصيات التي صنعت الحدث التاريخي الجاري أو المفروض فرضا تجعلنا نكتشف تماثلا جليا في الدور الذي قام به رجلان كلاهما وفد من غرناطة، وساهم كل منهما في انطلاق عملية تعمير وبناء المدينة، وفي صنع تاريخها، وهما الشيخ العارف عبد القادر التبين من القرن الثاني عشر الذي عمر الموضع المعروف بالمنجرة من الربض السفلي للمدينة، وبنى المسجد والدار وأنشأ السوق والعيون ووضع رحى لطحن الغلة،[59] ثم القائد المقدام علي المنظري من القرن الخامس عشر الذي جدد بناء المدينة فشيد القصبة والمسجد والدار بالموضع المعروف بالربض الأعلى أو الفوقي.[60]

2 – التطور المورفولوجي لتطاون حتى القرن الثامن عشر:

عرفت مدينة تطاون بين أوائل القرن السادس عشر وأواخر القرن السابع عشر ظاهرة حضرية وعمرانية متنامية بحيث إن مساحة البلد تضاعفت أو أوشكت على ذلك، وبتوقف تدفق المهاجرين الأندلسيين في القرن الثامن عشر فإنها ستتخذ شكلها النهائي. وتبعا لذلك ستظهر ثلاثة مجالات مورفلوجية متباينة تعود إلى تواريخ البناء وإلى دوافع وحاجات طارئة، وتتمثل في النواة الأولى وهي البلد، والربضين ويشملان توسعات المدينة، وحومتي العيون والطرنكات، وثم الملاح.

أ – البلد (النواة):

بناها الأندلسيون على أطلال تطاوين القديمة، وهذه النواة الأولية وصفها العربي الفاسي في تقييده: «إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة أبواب وسورها في عرضه سبعة أذرع ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر وأعظمها حفير القصبة. ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظري قصبة أكملها في عشرين سنة».

ويعتبر هذا التقييد المصدر الوحيد الذي ترك لنا وصفا دقيقا عن حالة المدينة في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري. وسيؤدي التوسع

---

[59] **مختصر نزهة الأفكار**، مصدر سابق، ص.54 .

[60] - Fernando de Carranza, Sidi Abul- Hassan Ali Al- Manziri, Archivos del Instituto de Estudios Africanos, n°13, Agosto1950 .Guillermo Gozables Busto, Al-Mandri, Granada,1988.

إلى تهديم السور الأولي والحفير الذي كان يحيط به ليشيد سور جديد، ويظهر أن هذا السور كان به ثلاثة أبواب: باب المدينة القديمة، وباب السفلي بالناحية الشرقية، وباب السلسلة بالناحية الغربية، وهو ما يتفق مع ما قيده الفاسي في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي.[61] وإن الوصف الذي قدمه العربي الفاسي يتيح بعض الاستنتاجات حول الدوافع الملحة لتشكل النواة الأولى- يعني اختيار المربع - ثم القصبة أو البرج في الأعلى وتأثيره على التشكل الحضري لهذه النواة. فقد كان الهاجس الأساسي عند الوافدين من الأندلس هو التحصن لأجل حماية المدينة من الغارات الخارجية التي يقوم بها الإيبريون انطلاقا من المواقع المحتلة مثل سبتة وطنجة والقصر الصغير وأصيلا، وكذلك مدافعة الجبليين الذين كانوا في البداية متضايقين من ذلك البناء.

ويخضع الأساس المورفلوجي لهذه النواة إلى تنظيم عائلي يستند إلى عنصر النسب، بحيث بإمكاننا القول إن مجموعة الدروب والزنقات التي تكون حومة البلد تشكل على المستوى النظري شبه مدونة لأسماء العائلات الأندلسية التي استقرت بالمكان، مثل درب راغون وزنقة البروبي ودرب اللبادي وغيره، ويتألف كل درب من مجموعة من الدور تحتل مركزه أول دار شيدت بالموضع . وكما توجد داخل كل حومة تقطنها عائلات لها وزن إجتماعي بالمدينة زاوية أو مسجد، وكذلك بعض المرافق العمومية كالحمامات والفرارين، وهي تحمل عادة اسم مالك القطعة الأرضية مثل حمام مدينة وحمام أمحلي، ولصيانة هذه المرافق ودوامها كان أهالي البلد يحبسون عليها قسطا من متروكهم .

ب ــ الأربـــاض:

لم تكن توجد عند مجيء المورسكيين في النصف الأول من القرن السادس عشر سوى نواة حضرية وحيدة تتمثل في «البلد». إلا أن توافد موجات جديدة منذ الهجرة الثالثة التي وقعت بعد تطبيق مرسوم الطرد الذي أصدرته الملكة إيسابيل الكاثوليكية سنة 1502 أدى إلى وجود فيض بشري مما دفع إلى توسع المدينة عمرانيا بشكل ملحوظ ومتزامن تقريبا في اتجاه شمال البلد وجنوبه، فأحدث ربضان أحدهما عرف بالربض السفلي ويقع أسفل المدينة بينها وبين السهل الفسيح المنخفض المتصل جنوبا بجبال بني حزمر وشرقا بشاطئ البحر المتوسط، وعرف الآخر بالربض الأعلى (الفوقي) وهو واقع في أعلى المدينة ويتصل بجبل درسة المشرف عليها من

---

[61] - محمد ابن عزوز حكيم، **معلمة تطاون** ، ج.1، ص.23 .

جهة الشمال. وكان الربض السفلي يحتوي على عدة حومات منها الجنـــوي والمصداع والساقية الفوقية والسويقة والمنجرة، وفتحت في سوره أبواب هي باب الحصارين وباب الحديد (قوس قاع الحافة) وباب الرموز وباب العقلة. وأما الربض الفوقي فكان يشمل السوق الفوقي وما اتصل به من الخـــرازين والدباغين وزنقة المقدم والطالعة، وأحدثت فيه أبواب جديدة أضـــيفت إلـــى السالفة وهي باب الجديد (قوس زنقة المقدم) وباب السوق (قـــوس الـــسوق الفوقي) وباب المقابر.[62]

وكانت مسألة حيازة القطع الأرضية التي شيد عليها الربضان المذكوران خاضعة للموقف المتسامح والمتعاضد الـــذي ســـلكه المـــستوطنون الأول، فبموافقتهم الضمنية وعن طريق تملكهم بالتقادم للأرض كرسوا حق المالكين الجدد.

ج - الطرنكات والعيـــون:

تختلف مورفلوجيتهما عن النواة الأولى اختلافا محسوسا، ويقعـــان فـــي غربي البلد، ولئن تباعد تاريخ بنائهما نسبيا فهما مـــن تـــشييد المهـــاجرين الأندلسيين، ورغم كونهما يمثلان في الواقع تعاقب الـــدروب التـــي تكـــرس الأنساب، فإنهما يشكلان مجموعة من البناءات الموازية لمنـــاطق الإنتـــاج والتبادل التجاري. وستندمج هاتان الحومتان مع الربضين والبلد في إطـــار نسق إقتصادي وإجتماعي جديد يمكن نعته «بالخصوصية » ويعني نوعا من التمييز سوسيو- مجالي ناتجا عن توزيع المجـــال الحرفـــي إلـــى حومـــات متخصصة، وفي فترة لاحقة ستعتبر الحومتان شبه «معـــازل » مخصـــصة لاستقرار الجماعات «غير المدينية» التي استقطبها النمو الحضري، وظلـــت مع ذلك لفترة معينة محتفظة بعاداتها ولهجات مواطنها الأصلية التي حافظت على صلات معها. وإن هؤلاء الوافدين من نواحي الريـــف وجبالـــة كـــانوا يتجمعون حسب مصدرهم للتخصص في مزاولة بعض الحرف. وكان قرب أماكن سكناهم من تجمعات الطوائف الحرفية كالحدادين والنيارين والقشاشين والدباغين وغيرهم يسهل إقامتهم.

د ــ الملاح البالـــــي:

في عهد قريب من بناء الربضين وقع توسع في شرق المدينة وفتح بابان هما باب السعيدة وباب الجياف، وكان الملاح واقعا بالقرب من هـــذا البـــاب الأخير في وسط البلد حيث سكنى المسلمين، وكما كـــان عـــامرا بـــاليهود والأوروبيين الذين كان يسمح لهم بالإقامة في المدينة، ولـــم تكـــن الطائفـــة

---

[62] ـ المصدر السابق، ص.38.

اليهودية في تطاون كثيرة العدد، ثم ما لبث أن تضايقت مساحة الملاح بعد توافد أعداد مهمة من يهود فاس ومكناس فرارا بأنفسهم من اضطراب الوضعية الأمنية داخل البلاد ومن تعاقب الأوبئة والمجاعات.[63] وعندما بني المسجد الأعظم لاحظ الناس للسلطان أن ملاح اليهود يكاد يكون متصلا بالجامع المذكور، فقرر السلطان مولاي سليمان تحويل الملاح من مكانه المعروف حاليا بالملاح البالي (القديم) فأصدر ظهيرا مؤرخا بفاتح جمادى الأولى عام 1222 (1807) إلى القائد الحاج عبد الرحمن أشعاش يأمره بتعيين عقار في ملك المخزن معروف بالرياض بجميع حدوده ومنحه ليهود تطوان ليقيموا فيه ملاحهم ويبنوا فيه دورهم وحوانيتهم، وعلى كل من يملك دارا منهم في البلد أن يبيعها للمسلمين ويبني بثمنها دارا أخرى في المكان المعين.[64]

3 – الإطار الطبوغرافي والسياسي للمدينة :

أضحت تطاوين في أواخر القرن السادس عشر كيانا حضريا متكاملا بعد أن تجاوزت حالة «المدينة - الملجأ» وقد لعب العامل السياسي أو الإجتماعي دورا أكثر فعالا من غيره من العوامل الأخرى في توجيه النمو العمراني للمدينة حيث يتبين أن الاهتمام بتحصينها كان واضحا في سائر مستويات التخطيط. وإن طبوغرافية الموضع الذي أقيمت فيه النواة الأولى يدعم خطة الهندسة الحربية للقاطنين، فالقصبة المحصنة بالأسوار المتينة والأبراج في الزاوية الجنوبية الغربية للبلد تشرف على الجرف وتسمح بمراقبة الملاحة في عالية نهر مرتيل، وقد جعل علي المنظري هذه القصبة « دار الإمارة » لتدبير الشؤون السياسية والحربية، وحولها توسعت النواة الحضرية باستقرار أعداد مهمة من المهاجرين. وكان هؤلاء في أول عهدهم يجعلون بجانب دورهم حدائق واسعة، ثم بدأت هذه العادة تختفي بسبب ضيق المجال العمراني نتيجة تكاثر السكان قبل بناء أرباض المدينة.

ويظهر تأثير العامل الطبوغرافي جليا إلى جانب العامل الإجتماعي في تخطيط المدينة، فالفوارق بين خلايا الأرباض نتيجة للتباين الإجتماعي بين فئات السكان تلاحظ كذلك نتيجة لطبوغرافية الموضع، مما يجعلنا نميز بين عدة أنماط من مستويات التخطيط العمراني:

– نمط اتخذ شكلا منعرجا ومتداخلا تطور حول النواة الأولى (البلد).
– نمط شعاعي يحيط بالبلد في الربضين.

---

[63] - I.D. Abbou, Musulmans andalous et judéo - espagnols, Casablanca , 1953, p.403.
[64] - **تاريخ تطوان**، ج.1 ، ص.100 .

– نمط متقاطع عمودي خاضع للمستوى الطبوغرافي في الأحياء المتأخرة المجاورة للأسوار.

وتمتد كل هذه المستويات داخل أسوار قدر محيطها بنحو خمسة آلاف متر، وارتفاعها تراوح ما بين خمسة إلى سبعة أمتار، وشيدت عليها عدة أبراج وتحصينات لأجل تأمين المدينة وحمايتها.

وقد مر التطور العمراني للمدينة بمرحلتين أساسيتين:مرحلة ما بعد الفتح الإسلامي إلى حدود القرن الخامس عشر، ومرحلة ما بعد إعادة التأسيس إلى منتصف القرن الثامن عشر،وفي كلتا المرحلتين فإن تطورها تأثر بالعلاقات التي كانت للمدينة مع مدينة سبتة من جهة، والأندلس من جهة أخرى.

ويمكننا أن نقسم تطور المجال الحضري بدوره في فترة ما بعد إعادة التأسيس إلى مرحلتين إثنتين:

* مرحلة أولى، وتعود إلى الفترة التي كانت فيها المدينة محدودة بسورها الأولي، ودامت من سنة 1483 إلى سنة 1550، وتتمثل في النواة (البلد) التي بناها الأندلسيون الوافدون على أنقاض المدينة القديمة، ومركزها القصبة التي شيدها القائد المنظري وجعلها مقرا لحكمه، وحولها توسعت النواة الحضرية. وكان أندلسيو الهجرة الثالثة قد أنشأوا منذ 1502 الربض السفلي في اتجاه الجنوب، وفتحت أبواب جديدة كباب السفلي وباب الحديد وباب الرموز وباب العقلة. وفي منتصف القرن السادس عشر تم التوسع نحو الشمال حيث أحدث الربض الأعلى وفتح فيه باب الجديد وباب السوق (الفوقي) وباب المقابر.

* مرحلة ثانية، وتبتدئ منذ سنة 1571 التي عرفت الهجرة الرابعة على إثر ثورة المسلمين بالبشرات بالأندلس، فتم إحداث حومة الطرنكات وفتح أبواب جديدة في قوس النيارين وباب الحدادين وباب التوت. وعرفت المدينة الهجرة الخامسة إليها بعد إصدار مراسيم الطرد في حق المسلمين (الموريسكيين) من قبل الملك القشتالي فيليبي الثالث ما بين 1609 و1610، ونتج عنها بناء حومة ربض الأندلس المعروفة بالسانية وأحدث بها بابان هما باب أصوفي وباب السانية، وبذلك انضافت قصبة جبل درسة إلى المدينة.[65] وفي سنة 1620 أنشئت حومة العيون عندما استقر بها الشيخ سيدي علي بن مسعود الجعيدي واقتنى بها عقارات وشيد زاوية، فتم فتح باب النوادر. ومنذ سنة 1650 عرفت المدينة استكمال توسعها من الناحية الشرقية حيث عمرت

---

[65] - **معلمة تطاون**، ج.1 ، ص.40 .

سلوقية سيدي السعيدي، وأحدث بابان بناحيتها هما: باب « السعيدة » وبـــاب الجياف.

4 – تحصين تطوان وتعميرها في القرن الثامن عشر:

يتبين لنا مما سبق أن التوسعات التي عرفتها مدينة تطوان كانت قد تمت خارج أسوارها الأصلية، ففي أواخر القرن الـــسابع عـــشر ذكـــر المـــسافر دوسانت أولون بأن المدينة كانت بدون أسوار خارجية،[66] وذكـــر مـــويط أن الأسوار ليست مبنية في حد ذاتها، إلا أن الصخور التي بنيت عليها تجعلهـــا أكثر مناعة مما لو بنيت على غيرها،[67] ولكن في أوائل 1701 كانت معظـــم أسوارها منهارة.[68] ويظهر أن المدينة ظلت بدون أسوار لحماية الربـــضين والإضافات الجديدة طيلة القرن السابع عشر تقريبا.

وسيمهد التطور التجاري والحرفي لقيام تنظيم إداري واقتصادي متـــين، وكذلك إلى استعمال جديد للمجال، فقد شهدت المدينة بروز حومـــات تجمـــع فيها حرفيون متخصصون، وهذه التوسعات الجديدة تمت في فضاء مفتـــوح بدون أسوار، وقد تجاوزت بشكل كبير تحصينات المنظري الأوليـــة. وهـــذا يعني أن التحصينات التي تعود إلى القرن السادس عشر وقع إهمالها ولم يبق منها شيء مهم. وفي سنة 1720 أنشأ الباشا أحمد بـــن علـــي دار المخـــزن وأحدث باب المشور. وإلى حدود سنة 1721 كانت المدينة مسورة جزئيا لأن معظم أسوارها كانت قد انهارت كما مر بنا في السابق، وهذا مـــا ســـيدفع الأهالي إلى النهوض لتشييد الأسوار، وكانوا يقومون بذلك سنة 1727، وبأن السلطان المستضيء أمر الباشا بوشفرة بإيقـــاف هـــذه التحـــصينات، إلا أن الأهالي رفضوا ذلك.[69]

وستشهد المدينة تطورا ملموسا في عهد الباشا أحمد بن علي لمـــا عـــاد لحكمها للمرة الثانية، فأرغم الأهالي على إعادة بناء قصره المخـــرب الـــذي جعله دار الإمارة، ويظهر تاريخ بنائه في أحد النقوش التي كتب فيها:

وبناء تاريخي المصون تراه في عـــــز يشيد دائم الأزماني

---

[66] - F.Pidou de Saint-Olon, Relation de l'Empire du Maroc, Paris, 1695, p.11.

[67] - جرمان مويط، **رحلة الاسير مويط**، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990، ص. 76.

[68] - Philipe de Cossé - Brissac, Les Sources inédits de l'histoire du Maroc, 2 Série, Dynastie Filalienne, France, Tome VI, Paris, 1960, p.236.

[69] - John Braithwaite, Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc depuis la mort du dernier Empreur Muley Ismael, Amsterdam, 1731,p.67.

فالقيمة العددية لحروف عز يشيد دائم هي 1147 هـ موافق 1734م.

وشيد بعده المشور والجامع سنة 1150 هـ/1737م، فسمي عندئذ بجامع الباشا. وهذه المنشأة الأخيرة تحيلنا دائما على الركيزة الأساسية عند تأسيس المدينة في كل مرة، وهو ما لاحظناه سالفا في عمل كل من الشيخ عبد القادر التبين والقائد أبي الحسن علي المنظري، وما سيقوم به فيما بعد القائد محمد بن عمر لوقش.

وقد أخرج الباشا أحمد المدينة من حدودها القديمة ووسعها في اتجاه الغرب، ولهذا هدم سورها القديم وقصبتها سنة 1738 في محاولة إعادة تحصينها بعد التوسعة بجعل سور متين، إلا أن الظروف المستجدة لم تسعفه في ذلك.

وكان أحمد بن علي قد بنى مسجد زاوية سيدي السعيدي، وأحدث بجانبه مقبرة ضمت رفات الريفيين الذين قتلوا في المعركة ضد التطوانيين، وكما جدد بناء سقاية بجانب المسجد المذكور والتي نقش في جزئها الأعلى: «الحمد لله أمر بتجديد هذه السقاية المباركة المجاهد القائد أحمد بن علي بن عبد الله وفقه الله عام أربعة وثلاثين ومائة وألف».[70] إلا أنْ أكبر أثر عمراني خلده هذا الباشا كان هو قصره بالمشور.

وخلف الباشا أحمد في حكم تطوان القائد محمد تميم سنة 1744، وكانت الأسوار والقصبة تحتاج إلى ترميم عند توليته، فقام بترميمها وإصلاحها وأنفق على ذلك من ماله الخاص نحو 45 ألف مثقال. وقد وجد نقش في محل نصب المدفع بالقصبة كتب فيه: «أحمد الله وأصلي وأسلم على رسول الله وأسرته. أحصنني ساكني بعد نقضي ووهني أمير المؤمنين السلطان مولاي عبد الله نصره الله ابن السلطان مولاي إسماعيل رحمه الله على يد خديمه المجاهد القائد الحاج محمد تميم حرسه الله عام سبعة وخمسين ومائة وألف».[71]

وأكمل القائد محمد بن عمر لوقش بناء الأسوار المحيطة بالمدينة والتي كان القائد تميم قد رممها وزاد من ارتفاعها. وكما أنه شيد قسما من القصبة حيث تدل بعض النقوش في البرج الواقع في شمالها الشرقي بين باب المقابر والقصبة، وكان يعرف بالبرج الجديد وبرج طوبانة، وهي أبيات شعرية من البحر الخفيف على تاريخ هذا البناء:

---

[70]- Fernando Valderrama Martinez, Inscripciones árabes de Tetuán, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, Madrid, 1975,p17.

[71] - Ibidem p.10.

قد أشادت أيامه الغر حصني وعلائي مشـــيد البـنيـان
وبدت بهجتي بتاريخ صنعي في كمال المنى وحسن التهاني

فالشطر الثاني (في كمال المنى وحسن التهاني) يحتوي على تاريخ البناء، فإذا جمعنا القيمة العددية لحروفه تعطينا عام 1164 (1751) وهي السنة التي تولى فيها محمد بن عمر لوقش حكم المدينة حسب الإخباريين.[72]

ويعود إلى هذا القائد كذلك بناء السقاية التي على يمين قوس باب التوت، وهي من أجمل السقايات وأكثرها بهاء إطلاقا في المدينة، وتاريخ تـشييدها ورد مذكورا في شطر بيت هو: بضمن بيت ناظم، فالقيمة العددية لحروفه إذا جمعناها تعطينا 1755/1168.[73]

أنشاني الفضل الرضا من فاق جود حاتـم
لكـس وارث الـعلا و المجد والمكـارم
تـاريخ نـشأتي أتى بضمن بيت ناظـم

ومن أهم آثار القائد محمد لوقش بتطوان الجامع والمدرسة التي تـسمت باسمه وكان تأسيسها فيما بين سنتي 1164 و1171 هـ (1757 - 1751) وكانت تقع خارج أسوار حومة البلد بين ساحة الغرسة الكبيرة وزنقة المقـدم ولهـا مدخلان. وكانت المدرسة عبارة عن فناء واسع مربع الـشكل فـي وسـطه خاصة ماء، وتحيطه أقواس وصواري يقوم عليها طابق وحيد يشتمل علـى مجموعة كثيرة من الغرف لإيواء الطلبة.

وإن جميع الخطوط المنقوشة على قطع الزليج المقامة في واجهة الأبراج والسقايات ونحوها هي من وضع الخطاط والكاتب الأديب عيسى الجزيـري الذي كان في عهد حكم الباشا أحمد، ثم اتصل بالقائد محمد لوقش فـي مـدة ولايته بتطوان، وقد اختير لكتابة الآيات والأشعار المنقوشـة فـي مختلـف الأماكن الأثرية بتطوان في منتصف القرن الثامن عشر.[74]

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد نزل بمدينة تطوان سنة 1173 (1758) وأمر بإعادة بناء برج مرتيل الذي يعود إلى عهد الـسلطان مـولاي إسماعيل، وكما أمر بإنشاء الديوانة التي بجانبه. وفي أواخر القـرن الثـامن عشر قام القائد عبد الرحمن أشعاش بتشييد جسر على واد تطوان في محـل يدعى مجاز الزيتون في الطريق المؤدية نحو الريف. وعلى غـرار الباشـا

---

[72] - Ibidem,p.9.
[73] - Ibidem,p.31.
[74] - داود، **تاريخ تطوان**،ج . 3 ، ص.61.

أحمد بن علي فإنه أنشأ بساتين بديعة في ناحية كيتان بالمكان المعروف «دقم الجزيرة».[75]

وهكذا يتبين لنا أن معظم التوسعات تمت خارج الأسوار الأصلية للمدينة حتى منتصف القرن الثامن عشر حيث تمت بالأساس أعمال ترميم تحصينات المدينة وبنائها بعد الاضطرابات السياسية التي عاشتها المدينة إثر وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وكان السفير الإسباني خورخي خوان الذي زار المدينة في فبراير 1767 قد ذكر بأن لها سبعة أبواب، وكل باب بجانبه برج قليل الأهمية وحالة الأبراج سيئة، وأما السور فهو مبني بالطوب وليس له حفير. ولم يكتمل بناء السور الذي يحيط بالمدينة كلها إلا في سنة 1808 حيث شيد الجزء الممتد من باب الرموز إلى باب التوت، وأحدث باب التوت الجديد وشيد الملاح الجديد أيضا. ونجد في هذه الفترة وصفا عند القبطان الفرنسي بوريل الذي قال إنه يحيطها سور قديم مدعم بأبراج صغيرة لا يتعدى قطر كل واحد منها 15 قدما، وليس بها حفير ولا تحصينات خارجية، وتشرف عليها قصبة مجهزة ب11 مدفعا من جهة الشمال الغربي، وحصن بالزاوية الشمالية الشرقية من السور وبه خمسة مدافع. إلا أن كل ذلك معرض للإهمال إذ تستند كثير من الدور والأكواخ بسور المدينة.[76]

وقد عرفت أسوار المدينة عند استكمال بنائها في آخر هذه المرحلة فتح سبعة أبواب رئيسية كانت تقوم بوظيفتين: أمنية ودفاعية إلى جانب الوظيفة التجارية وتنظيم حركة ولوج المدينة والخروج منها. وهذه الأبواب هي: باب النوادر في الناحية الشمالية الغربية ويرتبط بالطريق المؤدي إلى طنجة وفاس، وباب المقابر في الجهة الشمالية الشرقية ويؤدي نحو سبتة، ثم باب التوت في الجهة الغربية وباب العقلة بالناحية الجنوبية وهو المخرج إلى الطريق المؤدي للبحر والريف، وبجانبه وجد حصن فيه برج مجهز بالمدافع. وأما باب الرموز وباب "السعيدة" فهما ثانويان ويربطان المدينة بمحيطها القروي، ثم باب الجياف وسمي كذلك لأن جنائز اليهود تخرج منه، وقد تحاشى الناس أن يسموه بذلك بعد أن سكن الشرفاء الريسونيون بجواره فدعي بباب السفلي.

وهكذا صارت المدينة محتوية على خمسة أقسام كل قسم منها يسمى حومة لها حدودها الخاصة وتتمتع كل واحدة منها بنوع من «الاستقلال

---

[75] - M.A.Joly, Op.Cit. p.231.

[76] - Jacques Caillé, La mission du capitaine Burel au Maroc en 1808. Paris,1953, p.104.

الذاتي» بحيث يقوم بتدبير شؤونها مسؤول يدعى مقدم الحومة يعينه سكانها بعد موافقة القائد، وتتوفر على عدة مرافق كالأسواق والمساجد والقنوات العمومية والحمامات والفنادق وكما تتخصص في أنشطة تجارية وصناعية معينة، إلا أن الفارق الوظيفي بين منطقة النشاط العمومي كالسوق والحي التجاري أو الحرفي وبين المنطقة السكنية قائم، وهذه الأخيرة بدورها معزولة داخل وحدات معمارية تحيط بها الأزقة الثانوية.[77] وهذه الحومات هي :

– **حومة البلد:** وهي المدينة الأصلية التي جدد بناءها المهاجرون الأندلسيون ومن انضم إليهم، وهي تقع في الشمال الشرقي للمدينة، وبها أقسام تعرف بدورها بالحومات مثل الجامع الكبير والصياغين والمطامر، وجامع القصبة، وكان العامة يسمونها بـ «أحفير» لكونها شكلت في الفترات الأولى الجزء الذي كان يحيط بالبلد. وقد شيد بحومة البلد أقدم الجوامع وأهمها وهو جامع القصبة الذي بناه أبو الحسن علي المنظري، وجامع الرابطة بالقرب من الزاوية الريسونية، وكانت بقربه عين يقال لها عين السنابل، وبقربها مدشر ينزل به المار إلى سبتة، ومقبرة ذلك المدشر هي الموضع الذي بني فيه المسجد الأعظم .[78] وكان تجديد بنائه على يد السلطان مولاي سليمان حوالي 1808، وبذلك فهو حديث نسبيا، وأخيرا جامع السوق الفوقي. وكل هذه الجوامع كانت بها كراسي للتدريس.

وقام المنظري الذي أعاد بناء تطاوين وحكمها لفترة ليست قصيرة ببناء مطامير في حومة المطمار كان يسجن فيها الأسارى المسيحيين .وفي الصياغين كان ينشط الصائغون اليهود قبل نهب الملاح البالي على يد عبيد البخاري من جيش السلطان اليزيد. وقد عرفت حومة البلد رواجا تجاريا ونشاطا حرفيا مهما، فإلى جانب دكاكين بيع المواد المختلفة وجدت دور الدباغة ومعامل للشمع والصابون البلدي، ولكن أهم صناعة راجت بها هي «تاخرازت» حيث كانت بالخرازين مئات من الحوانيت لصنع البلاغي التي توسق إلى داخل البلاد وكذلك نحو المشرق، وكما توفرت حومة البلد على عدة أسواق منها:سوق الغرسة الكبيرة وسوق العطارين والسوق الفوقي وسوق الخرازين، فمنها ما يختص ببيع التوابل والعطريات، أو أصناف

---

[77] - العربي الرباطي، **التطور العمراني لمدينة تطوان خلال القرنين 16 و 17 الميلاديين**، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1996، ص. 241.

[78] - **عمدة الراوين** ، ج.1، ص.72.

القطن والحرير والكتان والصوف، وبجانب هذه الأسواق كانت هناك فنادق يأوي إليها التجار الغرباء عن المدينة ويودعون فيها بضائعهم.

- **الربض السفلي:** ويمثل الحومة الثانية بعد البلد، ويقع في الجنوب الشرقي للمدينة. ويتشكل من حومة الساقية الفوقية التي كانت تعرف حركة تجارية نشيطة لوجود حوانيت العطارين والمواد الغذائية، وحومة الجنوي التي وجدت بها دار للدباغة، كما توفرت بالربض كذلك طاحونة مائية عرفت لدى السكان بـ«رحى المدينة».[79] ومن أقدم المساجد بهذه الحومة جامع السويقة الذي بناه الموريسكيون، وكانت تلقى فيه خطبة الجمعة، وتدرس به العلوم .

ومنذ بناء الملاح الجديد في أوائل القرن التاسع عشر، قسمت حومة المصلى القديمة إلى شطرين، ألحق أحدهما بالملاح، أما الآخر فبقي خارج السور، مما سهل بكيفية كبيرة إقامة النصارى فيه.

- **حومة الطرنكات:** وتقع غرب حومة البلد، وهي عبارة عن شارع أصلي طويل، وشارع آخر يدعى النيارين وعنهما تتفرع مجموعة من الزنقات والدروب. وهذه الحومة هي من بناء المهاجرين الأندلسيين بعد ثورة البشرات بناحية غرناطة، وقد احتوت داخل سورها على «دار المخزن» التي أسسها الباشا الشهير أحمد بن علي الريفي، وبنى بجانبها مسجدا عرف بجامع الباشا. وقد عرفت المدينة في عهده توسعا نحو جهة الغرب في اتجاه الفدان حيث فتحت زنقة القائد أحمد، وكان هذا الفدان في ملك أولاد التوزاني الذين لم يخلفوا عقبا من ورائهم، أما الغرسة الكبيرة فكانت موجودة في القرن السادس عشر وتعرف بغرسة مولاي إبراهيم الذي خصصها لتجارة الرقيق من أسرى النصارى، ويبدو أنها أمست جنانا لأولاد ابن سليمان الذين نزعت ملكيته من أيديهم اغتصابا.[80]

وكان سوق الفدان من أهم أسواق المدينة حركة ونشاطا تجاريا، ويقام ثلاث مرات في الأسبوع عند كل أربعاء وجمعة وأحد، وكان يؤمه عدد غفير من سكان القبائل المجاورة، وتأتيه قوافل الحمارين والجمالين من داخل البلاد، بل وحتى من جنوب الصحراء. وكانت توجد بقسمه الشمالي الشرقي «الديوانة» وفي جنوبه الغربي سوق الزرع، وبجواره سوق الحدادين القريب من حومة العيون حيث كانت تروج صناعة «تسرايريت» و«تجعابيت».

---

[79] - Teodoro Ruiz de Cuevas, Apuntes para la historia de Tetuán, 2 edición, Madrid,1973 , p.53.

[80] - M.A . Joly, Tétouan Historique, Op . Cit , p.233.

وقد عرفت حومة الطرنكات حركة دائبة ونشاطا دائما، فكانت بها داران للدباغة وطاحونة وكما أسس بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله مصنعا للمدافع وسبك القذائف عرف بـ "دار البومبة" في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.[81]

وكانت حومة النيارين تختص في صناعة مشط الدرازات ومنخلات الحرير وأطواقها (طارة). وكما عرفت زنقتان باسم المؤسسة الموجودة في كل منهما: «دار الثقا» وهي لفظة تعني سجن النساء ثم «دار المخزن» حيث توجد الباشوية والمشور بالإضافة إلى السجنين المعروفين بالحبس الكبير والحبس الصغير.

وقد توفرت بحومة الطرنكات كثير من حوانيت الخياطين و الخرازين والنجارين، كما وجدت بها طرازات الصوف والقطن وطرز الحرير.

- **حومة العيون:** تقع بدورها غرب حومة البلد، وقد يكون اسمها مشتقا من عيون المياه التي تتزود منها المدينة، وشارعها مستطيل ينتهي عند باب النوادر، والقسم الشمالي منه عبارة عن (طالعة) تنتهي بجبل درسة. وقد ذكر مؤرخ تطوان أبو محمد سكيرج أن أواخر المهاجرين من الأندلس هم الذين بنوا الجهة العليا من حومة العيون فدعيت ربض الأندلس، وكانت تسمى في عهده بالسانية، وذكر كذلك أن حومة العيون بنيت بعد ذلك (حوالي سنة 1620). وقد تميزت هذه الحومة عن الحومات الأخرى بضعف نشاطها التجاري حيث استقطبت الفئات الإجتماعية الفقيرة التي تألفت في غالبيتها من المهاجرين من البوادي المجاورة الذين استقروا بالقرب من المحترفات. كما أن الجامع الرئيسي الذي أمر ببنائه سيدي علي بن مسعود الجعيدي في القرن الثامن عشر لم يكن فيه أي كرسي للتدريس إلا أنه كانت تقام به خطبة الجمعة وتلي مرتبته في الخطبة مرتبة الجامع الأعظم. فتطوان من الناحية العملية كانت مدينتين متلاصقتين لكل واحدة منهما خصائصها، فالعيون كانت مدينة مستقلة حتى أن أهلها ولوا عليها قائدا مستقلا في بعض الفترات.

وبالرغم من هذا التقهقر، فإن حومة العيون تميزت بتمركز بعض الحرفيين كالفخارين ويسمون بالقشاشين أو الطفالين، وكذلك الزلاجين - صناع الزليج الملون والآجور- وكانت مشاغلهم وأفرانهم تقع خارج سور باب النوادر في المغارات والكهوف حيث يتم استخراج الطفل المستعمل

---

[81] - Ruiz de Cuevas, op. cit. , p.56, Ramón Lourido Diaz, una fabrica de cañones en Tétuan a mediados del siglo XVIII, "Revista de Historia Militar", Madrid, 1973.p.112.

كمادة أولية في هذه الصناعات. ومن الناحية المعمارية، تميزت حومة العيون بكون زنقاتها أقل عددا واتساعا من الحومات السابقة وتكثر فيها الأقواس والممرات المظلمة.

- **الملاح:** وهو الموجود في الجنوب الغربي بين حومة السويقة والمصلى القديمة والفدان، ويرجع تأسيسه إلى سنة 1808. وكان أعيان اليهود قد تفاوضوا مع المخزن في نقل ملاحهم (البالي) وتأمين ضمانات للتعويض عن الخسائر. ويترجم النسيج المورفلوجي للملاح الجديد بوضوح "عقلنة" في التخطيط، فقد كانت هندسة بنائه أكثر إتقانا من المدينة الأصلية وبقية أرباضها، إذ جعلت شوارعه ودروبه كلها مستقيمة ومحكمة التقسيم والتنسيق وقليلة الالتواء. وكان إلى جانب ذلك، يتميز عن سائر «ملاحات» المغرب بنظافته.[82] وكان يتوفر على عدة فنادق للإيواء والمتاجرة ويعرف نشاطا حرفيا وتجاريا مهما، فكان يتوفر على بعض الدرازات وعلى دكاكين الخرازة والخياطة بنوعيها المحلي والأوربي وعلى محلات للصياغة وصنع أواني الصفر.[83]

وتجدر الإشارة إلى أنه بموازاة مع اتساع ظاهرة التمدين التي عرفتها تطوان على مدى قرنين، أخذت عملية استحواذ الحضريين على المحاط القروي تزداد بكيفية ملموسة، وذلك عن طريق تملكهم للجنانات والعزايب التي غرسوا فيها كل أنواع الفواكه والثمار من برتقال وليمون وتفاح وإجاص وتين، وبنوا بها دورا كسيت بعروش الكرم فكانت تضاهي مثيلاتها بغرناطة.[84] وبالإضافة إلى الدور الذي تقوم به من تزويد المدينة بالمنتجات الفلاحية فإنها اعتبرت من علامات النفوذ والتأثير والوضع الإجتماعي الخاص.

وبموازاة التحصينات والتقسيمات التي أصبحت المدينة منتظمة بمقتضاها، فإنه تم الشروع في الأشغال العامة حيث كان قد تم تزويد المدينة بنظام لتوزيع المياه منذ القرن السادس عشر، وكان يعرف عند الأهالي بماء البلد وماء المعدة وماء القنا وكذلك ماء الله. ومختلف هذه التسميات تحيلنا للتمييز بين هذه المياه وبين المياه المتأتية من أنظمة أخرى للتزود بها

---

[82] - Charles de Foucauld, Reconnaissance au Maroc, Paris, 1939, p.59.

[83] - Ruiz de Cuevas, p.43.

[84] - Jean Potocki, Voyage dans l'empire de Maroc, fait en l'année 1791, tr. espagnole par José Luis Vigil, L.E. Barcelona,1983, p.22.

كالمطفيات والعيون ونحوها.[85] وقام الأهالي بتنظيم هذا التوزيع باستمرار وضبطه، إذ عليه كانت تدور كل مرافق المدينة من سقايات وحمامات وأماكن الوضوء بالمساجد ودور السكن وغيرها من مختلف أوجه الحياة الاقتصادية بها.

وكانت المياه تسيل في شبكة توزيع محددة عرفت باسم «سكوندو» وهي تتكون من قنوات حمل المياه وقواديس التصفية وتدعى الصهاريج، ومن التوزيع، وتربط قنوات صرف المياه الصهريج مباشرة بالمستعملين للماء ومستهلكيه عن طريق المعدة، وتتم الإيصالات انطلاقا من العتلة عبر منحرف الطلعة. وتقوم قاعدة توزيع المياه بناء على طلب المستهلك وحاجته يقدمه لناظر الحبس، وهو المشرف الوحيد على ماء سكوندو بالمدينة، ويجب على كل طالب للماء أن يحدد طلعته أي كمية المياه التي يحتاجها مقيسة بعدد كؤوس عدل[86].وحفاظا على حسن سير هذا النظام واستمراريته، فإن كل عمليات الربط بالشبكة وتحديد مقدار الماء المستهلك وجزائه، وكذلك أشغال صيانة قنوات صرف المياه وتوزيعها وتطهيرها تتم بواسطة معلمين عارفين يعينون لذلك الغرض تحت إشراف القاضي الذي يقف على إشهاد الشهود في كل معاملة ونحوها. وهذه وثيقة إجزاء ماء حبس مسجد في عام 1714/1126.

«الحمد لله بموافقة الفقيه الأجل الحافظ الأكمل نائب القاضي بالثغر التطواني وحوزه وهو محمد بن عبد الرحمن الزلال أعزه الله تعالى بمنه وحرسه أجزى الأرضى المكرم أحمد بن الحاج محمد الحيش المدعو البناي التطاوني ما مقداره كأس عدل من الماء الجاري بدار الحبس الملاصقة لمسجد سيدي علي الجعيدي وللفرن على أن يمر الماء المذكور لداره الملاصقة لميضاة المسجد المذكور لصحن المسجد المذكور وذلك بعد وقوف الأمينين السيد الحاج محمد بن قاسم النجار والمعلم عاشور البناي وأدائهما لدى من ذكر بأنه لا ضرر على المسجد المذكور في ممر الماء بصحنه... وأن مقدار جزاء الماء المذكور أوقية ونصف الأوقية ومقدار جزاء مروره بالموضع المذكور أوقية واحدة في كل سنة يدفع ذلك لجانب حبس المسجد المذكور لا يبرئه منه إلا الواجب...».[87]

---

[85] - Houssaine Afkir et Med. El Abdel-laoui, le Reseau Skundu: ancien système d'approvisionnement de la Medina de Tétouan en eau potable, Revue de la Faculté des Lettres, Tétouan, 4eme année n:4,1990,p.221.

[86] - Ibidem, p.222.

[87] - **تاريخ تطوان** .ج .2، ص.310.

وبذلك اكتملت صفة هذه المدينة التي تطورت من حالة «مدينة – ملجأ» إلى حالة المدينة المؤهلة عمرانيا وبشريا لتضطلع بدورها كـاملا كمركـز حضري وإشعاعي هام في الجزء الشمالي من المغرب. وإذا كان جل الـذين أرخوا لتطوان أو كتبوا عنها من المغاربة لم يكترثوا بالجانب العمراني فـي كتاباتهم إلا نادرا ولا اهتموا بشكل تصميمها الهندسي، لكون هذا الجانب ظل مغمورا لديهم ومجهولا، فإن الأجانب الذين زاروا تطوان خلال القرن الثامن عشر أو قبله أو بعده بقليل من رهبان ومبعوثين وقناصل وتجار غيـرهم، تركوا انطباعاتهم وملاحظاتهم عن الشكل المعماري لهذه المدينة التي كـان سكانها متمسكين بتقاليد معمارية حملوها معهم أو ورثوها عـن أسـلافهم، طبعت المدينة بخصوصية معينة في البناء والعمارة وتوظيفها.

فمدينة تطوان كما وصفها بريث ويت أجمل مدينة في المغرب، إذ لـم يشاهد مثلها خلال رحلته إلى مكناس، وضاحيتها أرقى بكثيـر مـن سـائر نواحي البلاد، وشوارعها ضيقة، وهي كذلك بقصد وقاية السكان مـن أوار الشمس، غير أنها مبلطة بشكل سيء مما يجعلها كثيرة الوحل فـي فـصل الشتاء.[88] ودورها جميلة جدا ونظيفة وقد شيدت وفق تصميم تربيعي، وكان شكل بناء الدور مربعا لسببين: لأجل الحصول على برودة الهواء في وقـت القيظ، وثم لكي لا يرى من بالدار من الخارج. وكما أن النوافذ المطلة على الأزقة نادرة في هذه الدور،وتعوضها عندهم ثقب صغيرة يطل منها السكان على الخارج وينفذ منها الضوء إلى داخل المنازل، فلا ترى سـوى أسـوار عالية في كل اتجاه،[89] ومعظم الدور بيضاء وذات سطوح مـستوية ورتيبـة يمكن السير في عدة أماكن منها مسافة طويلة، ولها فناءات غير مغطـاة أي مفتوحة نحو الأعلى، وتوجد بوسطها صواري لدعم أروقـة، وقـد يـتحكم بداخلها درابزين من الخشب. وإذا كان المنزل في ملك أحد الأعيان من ذوي الجاه، فإنه توجد في وسط فنائه «خاصة» مصنوعة من الرخـام. وغـرف البيت طويلة وضيقة، وتوجد عموما أربع غرف في كل سقيفة تـؤدي إلـى أروقة. وكل المنازل تتألف من طبقتين تقريبا ما عدا منزل الباشـا وبعـض الخاصة.[90]

---

[88] - J.Braithwaite, OP.Cit, p.115.

[89] - Mémoire de Saint-Amans , S.I.H.M. 2eme Série, France, TomeII ,p.318.

[90] - جون ويندوس، **رحلة إلى مكناس**، ترجمة زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المول إسماعيل، مكناس،ب. ت، ص.41.

5 – السكان والمتغيرات الديمغرافية:

تواجهنا صعوبات جمة عند محاولتنا تحديد عدد سكان مدينة تطوان في الفترة التي تعنينا،وهذا الأمر ينطبق على باقي مدن وبوادي المغرب، ذلك أن المصادر التاريخية المغربية لا تشير إلى المعطى الديمغرافي إلا لماما، وحتى وإن هي تطرقت لموضوع السكان فإنها تقدم معلومات لا تشفي الغليل وقد تكون منفوخة غالبا. وإن جل المعلومات التي وصلتنا عن أعداد السكان ومتغيراتهم زودنا بها أوربيون معاصرون قدموا جملة من التقديرات شابتها بدورها بعض الشوائب، وهي على كل حال تقديرات تكاد تكون متطابقة مع بعضها، وكما أنها لا تخلو من غلو أحيانا، وهذا يدل على أن أصحابها اكتفوا بنقلها عن الآخرين.

لقد شهدت مدينة تطوان في منتصف القرن السابع عشر نموا ديمغرافيا سريعا بفضل موجات الهجرات الموريسكية بحيث قدر عدد هؤلاء الوافدين الجدد بنحو عشرة آلاف نسمة أتوا من مختلف أنحاء إسبانيا، وهو رقم مرتفع بالنسبة لتلك الفترة إذا ما راعينا تأثير الجوائح والقواصم التي كانت تفتك بالسكان. لقد وصفها السفير الفرنسي سان- آمان في رحلته (توفمبر1682) بأنها مدينة كبيرة وآهلة بالسكان الذين قدر عددهم بنحو 15 ألف نسمة.[91] وكانت تطوان ونواحيها قبل هذا التاريخ قد تعرضت لظهور الوباء سنة 1678 الذي بلغ عدد ضحاياه بها خمسين ميتا في اليوم. وقد ذكر الأسير مويط أن الوباء تسرب من الجزائر إلى تطوان ثم إلى باقي مناطق المغرب، وقد دام بتطوان نحو سنتين وهلك 25 ألف شخص،[92] وهذا المعطى يجعل عدد الضحايا يقارب 35 في اليوم. وذكر الناصري أن هذا الطاعون الجارف الذي تزامن مع الجفاف دام من 1678 إلى 1680.[93] ولم يستطع التكاثر الطبيعي أن يعوض ذلك النزيف المهول في ظرف عقدين من الزمن، فقد ذكر المهندس الإسباني يوسف كيوصو في تقريره عن الحصار المفروض على سبتة عام 1720 أن مدينة تطوان عامرة بالسكان، وتقطنها 2500 أسرة دون احتساب القاطنين بضاحيتها، وقدم في نفس الوقت معلومات مقارنة مع عدد سكان كل من طنجة الذين قدرهم بنحو 400 أسرة ومثلهم بأنجرة، بينما قدر عدد سكان جبل الحبيب بنحو 600 أسرة، والقصر الكبير بـــ 1000

---

[91] - F.Pidou de Saint-Olon, Relation de l'empire du Maroc, Paris, 1695,p.12.

[92] - **رحلة الأسير مويط**، مصدر سابق،ص.60.

[93] - أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**، ج.7،ص.97.

أسرة.[94] ووصفها الإنجليزي جون وندوس عام 1721 بأنها مدينة مزدحمة. ولعل التقديرات المذكورة تتوافق كثيرا مع تقدير كل من السويدي دي همسو والإنجليزي جاكسون عن أن سكانها يناهزون 16.000 نسمة.[95]

وقد كانت البلاد المغربية قد نكبت بسنوات عجاف تمادت من 1721 إلى 1724 أدت إلى شدة الغلاء وحدوث مجاعة رهيبة. وقد أشار إليها القادري حينما قال: «وفي هذا العام (1133) كان الغلاء بالمغرب ... وفي ما بعده من السنين اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس وموت كثير بمرض وغير من عدم الأقوات».[96]

بيد أن القبطان الإنجليزي جون بريث ويت الذي وفد على تطوان عام 1727 قدر عدد سكانها بحوالي 30.000 نسمة مسلمين ويهود.[97] ورغم أن هذا العدد يبدو مبالغا بالنظر إلى ضيق المدينة ومقارنة مع التقديرات السالفة، فإنه يؤكد على أنه جعل هذا الرقم أقل مما كان يوهمه به البعض، ولاسيما وأن الوباء كان قد عاد إلى الظهور بالمدينة في سنة 1141 /1728 حيث سجل بيلو ظهور بعض الوفيات المتتالية.

وكان للحروب الأهلية التي عرفتها البلاد بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل على امتداد ثلاثين سنة انعكاسات على الصعيد الديمغرافي، فقد تسببت في خسائر جسيمة، ويتحدث الإخباريون عن سقوط عدد كبير من القتلى. وبعد الطاعون الذي ظهر في عهد السلطان المذكور، فإن المغرب استراح من شر هذا الوباء الفتاك زهاء نصف قرن، إلا أن أخطار عدواه ظلت تهدد باستمرار انطلاقا من البلدان المتوسطية. وقد تفاقمت لما أصيبت مدن الجزائر ووهران وتلمسان منذ سنة 1738.[98] وجاء في تقرير التاجر الفرنسي مونطاني بأن الطاعون كان منتشرا بشمال المغرب (الريف)، مما دفع باشا تطوان إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحراسة الطرق المؤدية إلى

---

[94] - Joseph Gayosso, Relaciones del Reyno de Mequinez respectivas a su estado ..mans., folio 6r.

[95] - J.Graberg de Hemso, Speechio geografico e statistico del Imperio di Marocco, Gène, 1832, p69 , et James Gray Jackson, An account of the empire of Morocco, Londres, 1809,p.87.

[96] - محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج.3، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، 1986/1407،ص.252.

[97] - J.Braithwaite,Op.Cit, p.157.

[98] - محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992، ص.53.

الإقليم.[99] وذكر الضعيف أنه في سنة 1742/1155 «عم الوباء جميع المغرب وغلت الأسعار وكثر الموت وضاعت من الخلائق ما لا يحصى عددها حتى قيل إنه مات من أهل القصر أربعة عشر ألف بالطاعون وهربت منه حكام أهل الريف. وفيها باع الجل من أهل فاس العتيق ديارهم من شدة الجوع المفرط وخرجوا من ديارهم وبلادهم وتفرقوا في القصر ووزان والعرائش وتطاون وطنجة بعيالهم...».[100]

ويذكر القنصل بوطلر رسالة تلقاها من الباشا أحمد بن علي عن وباء 1742 يبين فيها أن المرض المنتشر لم يكن في حقيقة الأمر سوى حمى معدية ناجمة عن إفراط السكان المسلمين في تناول كميات الفواكه، وأن الوفيات انحصرت بينهم ولم تمس اليهود والنصارى.[101] ولذلك صعبت معرفة نوع الداء المنتشر هل هو الطاعون أو الكوليرا أو التيفوس؟ ويشير القادري إلى مصدر الطاعون فيقول إن الوباء أول ما ظهر في تازة.[102] وعندما ألقى الوباء بكل قسوته على البلاد كان الصراع قويا على العرش بين الأخوين مولاي عبد الله ومولاي المستضيء، وكان الباشا أحمد بن علي قد انضم إلى صف صهره المستضيء فعبأ قواته المؤلفة من أهل الريف وجبالة والفحص والخلط، وكانت هذه الفرق موبوءة مما أدى إلى سقوط ضحايا بالطاعون في صفوف عسكر الباشا بلغت ما بين 25 و30 شخصا في اليوم، وكان يموت به في تطوان من 10 إلى 12 ضحية في اليوم.[103] وقد استمر هذا الوباء حيث ضرب سبتة في صيف 1743، فقامت السلطات المحلية بفرض الحجر الصحي، وتأكد وجوده في تطوان وطنجة بقدوم طبيب إنجليزي كان يشغل منصب قنصل بلده في المدينتين.[104]

وقد بلغت الوفيات فيهما إلى غاية شهر غشت من نفس السنة ما بين 70 و 80 من الموتى في اليوم.[105] وكان عدد من قواد جيش الباشا ونحو مائتي من أتباعه قد فروا إلى سبتة بعد هزيمته أمام السلطان مولاي عبد الله واستجاروا بحاكمها، إلا أنه لم يسمح لهم بدخولها خوفا من العدوى.

---

[99] - H.P.J, Renaud, Recherches historiques sur les épidemies du Maroc. Les pestes du milieu du XVIII eme siècle, Hesperis-Tamuda, N26, 1939,pp.295.296.

[100] - محمد الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف** (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتعليق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص.140.

[101] - H.P.J.Renaud, Les pestes du milieu du XVIII siècle, Op.Cit, p.298.

[102] - القادري، **نشر المثاني**،ج.4،ص.38.

[103] - Renaud, Op.Cit, p.298.

[104] - Alejandro Correa de Franca, Historia de Ceuta, mnus.,B.N.M.,p.308.

[105] -Ibidem, p.299.

وعاد الوباء إلى الظهور عام 1747م وهذه المرة من جنوب البلاد، وقد امتد تدريجيا إلى فاس ومكناس ومنها إنتقل إلى باقي مدن الشمال كوزان والقصر الكبير والعرائش وتطوان وطنجة وأصيلا، وبقي بين مد وجزر إلى غاية 1751م.[106]

وأمام هذه الجائحة لم تكن في البلاد أية إدارة لتنظيم الحجر الصحي، ومع ذلك فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أقام نطاقا عسكريا في الحدود الشرقية للمغرب لأجل وقاية البلاد من الوباء المتفشي بالجزائر سنة 1787م. وابتداءا من سنة 1792م شرعت الهيئة القنصلية المستقرة بطنجة في وضع تدابير صحية وقائية، وانتزعت سنة 1793 موافقة السلطان مولاي سليمان على فرض حجر صحي ضد الجزائر، ثم على ظهير خاص عام 1797م ينص على فرض حجر صحي على السفن القادمة من وهران.[107]

وظهر الوباء من جديد بالبلاد عام 1799 بشكل أكثر فتكا، وقد ذكر الضعيف أن ظهوره كان في عاشر رمضان عام 1213هـ، وأن أول ظهره كان بفاس الجديد ومنها إستشرى، وقد أسرعت الهيئة القنصلية بطنجة إلى وضع بعض التدابير الوقائية لمنع إنتشاره في طنجة وتطوان والعرائش، إلا أنها كانت محدودة وضعيفة.[108] وهكذا فقد ضرب الوباء تطوان وطنجة في شهر نوفمبر 1799، وتمادى إلى السنة الموالية، فقد أخبر الطبيب الإسباني كول في رسالة مؤرخة إلى آخر مارس 1800 إلى القنصل العام سلمون بأن الحالة الصحية في طنجة سيئة للغاية وبأنه وصلت أخبار من تطوان عن ظهورأعراض وباء حمى خبيثة تسببت في هلاك ما بين 10و15 فردا في اليوم، غير أنه أكد أن الأمر لا يتعلق بالطاعون،[109] ولم ينقطع أثر هذا المرض إلا مع نهاية سنة 1800. وقد قدم لنا الفقيه العدل محمد بن الهاشمي أفيلال معلومات عن ضحايا هذا الوباء، فقال: «كان يموت في بلدتنا تطوان كل يوم مائة وثلاثون يزيد بعشرة وينقص بنحوها، وبقي في هذه العدة نحوا من شهرين أو أكثر، وبلغ يوما واحدا مائة وخمسين. وأما مدة بقائها من أولها إلى آخرها فيما يزيد على سنة بنحو شهرين. أول ظهورها رمضان 1214».[110]

---

[106]- البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**، مصدرسابق، ص. 57.

[107]- نفس المصدر، ص. 87.

[108] - M.A. El-Bezzaz, La peste de 1798-1800 au Maroc, Hesperis-Tamuda, 1985, pp. 57-81.

[109]- Braulio Justel Calabozo, El médico Coll en la corte del Sultan de Marruecos (ano1800), Cadiz, 1991, p. 56.

[110] - داود، **تاريخ تطوان**، ج. 3، ص. 234.

وبالنظر إلى هذه المعطيات الكارثية التي عانت منها البلاد المغربية لمدة طويلة، فإن الوباء يكون قد أباد ثلث أو نصف عدد السكان.[111] وكانت مدينة تطوان من بين المدن التي عرفت تعاقب الكارثة الديموغرافية، فبناءا على المعلومات التي زودتنا بها المصادر الأجنبية والمغربية فإن عدد من هلك بالوباء من الأهالي قدر بعشرات الآلاف، فكان عدد السكان ينقص بشكل مخيف عند كل جائحة طبيعية، ويستعيد حيويته في فترة الإستراحة. ولهذا كان الناس يقبلون على الإنجاب بكثرة غير مستسلمين. وينضاف إلى ذلك عامل النزوح من البوادي المتضررة، بحيث شكلت هذه الظاهرة معادلة في المدن إذ أنها عملت على إعادة توازنها الديموغرافي. وكان النزوح غالبا ما يقع في فترات الضائقة الإقتصادية، مما يجعله عنصرا يساعد على تفسير الفرق الذي نلاحظه في التقديرات السكانية.

[111] - Jackson, Op. Cit, p. 171.

القسم الثاني

البنى السياسية والعلاقات العامة

الفصل الثالث

علاقة المدينة مع المخزن

عندما نبحث عن الظواهر الإجتماعية في المغرب في إطار علاقات المخزن بالمجتمع، نجد أن أهم ما يميز هذه العلاقة محدوديتها بسبب ضعف وسائل المواصلات والإتصال وصعوبة ظروفها.

وهذا الأمر يؤثر في قوة المخزن ويقلل من امتداد سلطاته، وبالتالي فأوامره فيما يتعلق بالتغيرات الإجتماعية تكون محدودة التأثير، ولذلك كانت الرعية تتمتع بحظ أوفر في اختيار من يحكمها بمباركة من السلطان وموافقته،وفي إنتاج مؤسسة للسلطة ذات نفوذ يتأثر بناؤها وتطورها بعوامل أخرى تنضاف إلى عامل المخزن،[1] وهذه الظاهرة تبدو جلية بالنسبة لمدينة تطوان على الأقل في الفترة التي ندرسها.

ومدينة تطوان شكلت حاضرة ضمت بين أسوارها مجتمعا حضريا معقدا خلافا للمدن الشمالية الأخرى كطنجة والعرائش اللتين كانتا بالأساس مدينتين مخزنيتين تميزتا بحضور مخزني قوي عبر الجهاز الإداري المحلي والحاميات العسكرية الموجودة بها. ولعل خاصية هذا الاختلاف جعلت تطوان تعيش لفترات من تاريخها في شبه استقلال عن السلطة المركزية. فأهل تطوان كانوا يديرون ظهورهم للمناطق الداخلية ويستقبلون البحر في جل أنشطتهم القرصانية والتجارية، وكان على المخزن المركزي أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظاهرة التي تجعل من تطوان مدينة صعبة المنال من الوجهتين الإدارية والعسكرية. فهل كان الاقتراب من الساحل يعني قيام حكم ذاتي؟. من المفروض نظريا أن يتحقق ذلك كشأن مدن الرباط وسلا وتطوان، بيد أن العامل المذكور لم يكف وحده لتأكيد هذه الفرضية إذا استثنينا العنصر البشري الوافد من الضفة الشمالية، وتقلص ظل الحكم المركزي مما يفسح المجال أمام ظهور زعامة محلية.

1 ـ الإستقلالية السياسية داخل التبعية:

لم يكن نفوذ السلاطين قويا في مدينة تطوان وخصوصا بعد موت السلطان مولاي إسماعيل، فالمدينة تثور على السلطة، وكما أن السلاطين

---

[1] - هاشم العلوي القاسمي، **مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.1 ، 1401 / 1981 ، ص.52.

باتوا مجبرين أحيانا بتسليم حكمها لأحد الباشوات أو القواد يكون له نفوذ أعظم منهم في المنطقة، ويحكمها باستقلال في ظل تبعية للسلطة المركزية مثل أحمد بن علي الحمامي. وفي بعض الأطوار فإن المدينة تنفلت من الخضوع للمخزن وتعيش في شبه إستقلال ذاتي كما حدث في عهد القائد عمر لوقش. وفي فترة الإضطرابات التي أعقبت إخراج أتباع الباشا أحمد، فإن الأهالي اختاروا رجلا حدادا يدعى بايص ليكون خليفة للقائد.

ولما قتل أهل تطوان قائدهم محمد تميم سنة 1752 بعد أن كانوا قد اختاروه بأنفسهم،فإنهم وفدوا على السلطان مولاي عبد الله بقصد طلب تعيين قائد جديد عليهم، فقال لهم: أنتم قيدتموه وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم من ترضونه، كما لو أنه مثبط الهمة من فعلتهم، فاتفقوا على محمد بن عمر لوقش، فولاه عليهم وانصرفوا. [2]

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد عزل القائد محمد لوقش الذي اختاره الأهالي من قبل بدون أن يطلب رأيهم في ذلك، وذكر سكيرج عن سبب عزله أنه كان بين السلطان المذكور والقائد لوقش رضاع لولادته أيام خدمة والده مع السلطان مولاي إسماعيل، فكبرا معا متقارنين، ونشأ عن ذلك بعض عدم المبالاة من القائد المذكور من أمر سيدي محمد خليفة والده بمراكش، حتى أنه لما كتب إليه أن يصنع له مركبا في مرسى تطوان أجابه بجواب فيه جفاء أن قال ما أنا في أمر العيال، فأسرها سيدي محمد في نفسه، فلما بويع واستقر له ملك البلاد ورد على تطوان عام 1758 فقبض على محمد لوقش واستصفى أمواله، وقيل إنه هرب لضريح مولاي عبد السلام بن مشيش في جبل العلم.[3] ولربما لم يعرب الأهالي عن رغبتهم في بقاء توليه الحكم، مما جعل السلطان يظن أنه أصبح قادرا على جعلهم يشعرون بأنه أدرك مرادهم .وخبر رغبتهم، وبينما قام الأهالي بتقديم بيعتهم للسلطان وإعلان طاعتهم.

وشكل الأهالي في فترة الإضطراب والفراغ السياسي مجلسا لإدارة شؤون مدينتهم دعوه الديوان وذلك في نوفمبر1727 ترأسه الحاج عمر لوقش، ثم تخلى عن حكم تطوان سنة 1732، فأصبح زمام الأمر بيد المهدي بايص الذي كان الأهالي قد جعلوه في السابق بمثابة مراقب بجانب الباشا بوشفرة، وقد قرروا التقليص من راتب هذا الأخير لأنه لم يحسن التصرف في نظرهم

---

[2] - محمد أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، الجزء الأول، تقديم وتحقيق أحمد الكنسوسي،مراكش، ب. ت ، ص 199.

[3] - السكيرج، مصدر سابق، ص.35 .

عندما هاجم الباشا أحمد بن علي المدينة، حيث لجأ بوشفرة إلى الجبال المجاورة ريثما تهدأ الحرب بين الطرفين. ولم تكن تقيم في تطوان حامية عسكرية دائمة، وإنما كان الأهالي يشكلون فرقا بمثابة «مليشيات» شعبية لحماية المدينة والدفاع عنها فيها الرماة والطبجية وكانت المدينة تتوفر على ست عشرة قطعة من المدفعية. [4]

ولا يجب أن يغيب عن بالنا عامل آخر ساهم بقسط وافر في دعم الإستقلالية السياسية للمدينة، ويتمثل في عصابات الجهاد البحري أو القراصنة الذين يقيمون فيها، وهم أناس يعيشون حياة مليئة بالمصادفات والمخاطر وغير مستعدين للانقياد إلا قليلا كلما نزلوا إلى البر.

وستكشف بعض هذه العناصر عن مدى التجاذب الذي حصل بين الأهالي والمخزن، ولهذا ففرض عامل على المدينة لم يتم إلا في فترة تغلب المخزن وقهره للسكان، وعندما يشعر هذا الأخير ببعض الضعف فإنه يسعى لإرضائهم. وقد تقدم لنا قدوم أهل تطوان على السلطان مولاي عبد الله بعد مقتل القائد تميم، وتكررت الحادثة مع القائد عبد الكريم بن محمد لوقش الذي ولاه السلطان سيدي محمد بن عبد الله حكم تطوان في حدود سنة 1786، ولم تدم مدة ولايته أكثر من ستة أشهر إذ قام أهل تطوان ضده ورفعوا شكواهم بضرره للسلطان فعزله وولى عليهم أحد أعيانهم كان ضمن الوفد الذي توجه إليه وهو الحاج عبد الرحمن قردناش سنة 1787. [5]

وطلب مولاي اليزيد من أهل تطوان أن يقبلوا تعيين قائد من بينهم كان من أصدقائه القدامى وهو الحاج عبد الرحمن أشعاش. وكان السلطان المذكور قد تذمر منهم بعد توليه العرش ولا ندري سببه، إلا أنه كان قد قصد المدينة ليجعل الأهالي يحسون بثقل فورة غضبه، فقد ذكر سكيرج أنه حين دخل مولاي اليزيد تطوان وقع هرج كبير كادت الأرواح تزهق بسببه. وقد أورد جولي في الأرشيف المغربي حكاية غريبة على لسان بعض الناس تقول إنه لما وصل السلطان أمام ضريح سيدي طلحة الدريج فاضت مياه السيل وسدت الطريق أمامه بفعل بركة الولي المذكور، فأدرك مولاي اليزيد على التو ما ينبغي عليه فعله، فعاهد الله بالعدول عن نيته الشريرة، وإثر ذلك عادت مياه السيل إلى مجراها الطبيعي. ولما بلغ باب المدينة وهو باب النوادر وشرع يهم في ولوجه انقض أحد صلحاء المدينة وأمسك بلجام فرس

---

[4] - Braithwaite, OP.Cit, p.13 , M.G Salmon, Essai sur l'histoire politique du nord-marocain, vol . II, Paris, 1905, p.63.

[5] - سكيرج، ص.37 .

السلطان وأقسم يمينا انه سيقتلع عين كل من سولت له نفسه إلحاق الأذى بالمدينة، فدخل الذعر مولاي اليزيد وتغير وجهه.[6] وذكر سكيرج أن السلطان لما استقر بالمدينة أذن لجيش العبيد بنهب ملاح أهل الذمة، فخاف المسلمون أن تمتد أيدي النهب إلى ناحيتهم، فذهبت جماعة منهم إلى دار الشيخ الصالح المجذوب سيدي عبد الله الحاج البقال « يقولون له نحن في حرم الله ثم في حرمك من هذا الرجل يعنون مولاي اليزيد يريد أن يطلق السبيل في بلدنا وهو واقف يقول لا بأس عليكم ويضرب دفة الغرفة للحائط يسمع لها حسا ودويا وضجة ويقول أخرج يا هذا الخراي أما علمت حتى أنا سلطان وذلك يوم الخميس ويوم السبت خرج من البلد».[7]

ومن الملاحظ أن حادثة دخول مولاي اليزيد إلى تطوان كما رواها سكيرج الذي عاش الحدث تبين مدى الهلع الذي استشرى بين الناس والفزع الذي ملأ قلوبهم إلى حد أن الذاكرة الشعبية اختلقت فيما بعد حكاية هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، وقد مر بنا كيف أن تاريخ تأسيس المدينة أو إعادة بنائها قد حصن بالأسطورة وبالكرامة منذ أول وهلة، إلا أنه يجب الاحتفاظ بذلك، فأهل تطوان سيتمتعون إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر بشبه استقلال عن السلطة المركزية، بل وحتى في الوقت الذي سيكونون فيه أكثر انقيادا لها. إنهم على أي حال يظهرون ميلا إلى عدم الانضباط، وهذه الميولات نجد لها بعض التفسير في اعتقاداتهم الراسخة بالأسطورة التي تنسب إلى صلحائها دور التكليف بحماية المدينة ودرء الخطر عنها، فقد درجت على لسان الأهالي مقولة « ضامنها سعيد والطاغي يموت فيها بالحديد»، ولعل هذه المأثورة تجعلنا ندرك مقدار العسف الذي تعرض له سكانها في فترات معينة من جانب، وقدرتهم على الصمود في وجه الطغيان ومجابهته من جانب آخر.

2 ـ العلاقة الجبائية:

يطرح سؤال بالأساس في النصف الأول من القرن الثامن عشر حول ماهية العلاقة بين المخزن والرعية في المجال المالي؟. ويلاحظ في هذا العصر أنه لم يكن يتم التمييز بين السلطان والدولة من حيث المداخيل والنفقات، فالمداخيل متنوعة وتشمل الأعشار والغنائم المتأتية عن افتكاك الأسرى وأموال أبي المواريث والمغارم، وهي غير محددة ولا معينة،

---

[6] - Joly, Op.Cit, p.230.

[7] ـ سكيرج، ص.38 .

وأموال الحبس وغيرها. ولما كان في عهد مولاي إسماعيل قد استلزم تقوية الجهاز المخزني توفير مصاريف هائلة، فإن الشأن دفع بالسلطان إلى إعادة النظر في النظام الجبائي القائم على الضرائب الشرعية، فأحدث العمل بنظام النائبة التي فرضت على الرعية لأجل تحرير الثغور المحتلة، وكما تمت الزيادة في نسبة المكوس المفروضة على السلع بالمدن إلى أن تم تعميمها على سائر السلع في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وكانت عائدات القرصنة قد وجهت بدورها لبيت المال. إلا أن أهم الموارد ظلت هي المغارم والمكوس التي تمثل أهم الجوانب التي يتبين من خلالها الطابع الحقيقي للمخزن في علاقاته مع المجتمع أو الرعية، فقد ذكر الإنجليزي وندوس أنه سمع أن أهل تطوان كانوا تجارا كبارا، وأن بعضهم تخلى عن التجارة عندما تولى الإمبراطور السلطة ويعني مولاي إسماعيل، ظانين أنهم بهذه الوسيلة سيحتفظون بما لديهم سالمين.بيد أنه حدث العكس فقد فرضت عليهم المغارم والإيتاوات، واستمر هذا الفرض إلى أن استنفدت كل الثروات التي اجتمعت لديهم، وانتهى بهم المآل إلى خصاص بالغ.[8] ووصف عالم مغربي معاصر الحالة التي أضحى عليها أهل تطوان الذين كانوا في عهد مولاي الرشيد إذا سمعوا صريخا تهتز الأرض بخيولهم ورماتهم، إلا أنهم غدوا إذا سمعوا استغاثة من جهة البحر يخرجون يسعون إليها على أرجلهم وبأيديهم العصي والمقالع، وقد جاءهم الوهن والضعف من المغارم الثقيلة وإعطاء العدة.[9] وحيث أن مطالب المخزن كانت تتزايد باستمرار، فإنه من الطبيعي أن تكون موارد بيت المال غير كافية لصرف النفقات. ولما كانت الضرائب المستحدثة غير مشروعة في نظر الرعية، فإنها دخلت في جدل فقهي،[10] فقد أنكر عدد من الفقهاء التعسف في فرض الضرائب. وكان القواد والعمال هم الذين يتكلفون بجبايتها وجمعها، ولذلك كانت عملية الجباية قاسية ومطبقة بدون رحمة.ويظهر أن كل ما كان يستخلص من الرعية من الضرائب كان يخضع لأسلوب التأجير، فقد كان القواد والعمال في الحواضر والبوادي يلتزمون بأداء قسط معين للسلطان كل سنة، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من مخاطر

---

[8] - جون وندوس، **رحلة إلى مكناس**، ترجمة زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ب.ت ، ص.127 .

[9] - الحسن اليوسي، **رسائل أبي علي الحسن اليوسي**، دراسة وتحقيق فاطمة خليل، ط.1، 1401/ 1981 ، ص.42.

[10] - العلوي القاسمي، **مقدمة التقاط الدرر**، ص.47 .

على الرعية بسبب حرص الملتزم بالأداء على استخلاص ما التزم به أو أكثر مع ما يسلك في ذلك من أساليب تؤدي إلى الإضرار والإجحاف.[11]

وكان الباشا أحمد بن علي يستعمل سلطته المطلقة لإرغام الناس على دفع المكوس والمغارم فوق ما يطيقونه، وحين يزعم أنه في حاجة إلى المال ليفرض الضرائب على السكان، فإن المقربين منه يعانون من مطالبه مثلما يعانيه ألد أعدائه.[12] ولذلك فإن تصرفه هذا يثير عليه المعارضة حتى من بين أنصاره وأعوانه ناهيك عن الأهالي الذين أضمروا له من الحقد لتصرفه فيهم بالمغارم، فكانوا ينتظرون أقرب فرصة ليعبروا عن سخطهم وتحللهم من الإلتزامات والكلف المخزنية المفروضة عليهم. وقد حكى وندوس أن سكان تطوان باتوا فقراء، وأن الأهالي لا يمتلكون أي شيء إلا برضا هذا الباشا الذين يتحكم في ثرواتهم ويجعلهم كمستعبدين، وأن أي شخص اغتنى عن طريق التجارة أو الحرف يبذل كل جهد في إخفاء غناه وإظهار الفاقة.[13] وقد عبر الأهالي عن رفضهم الإنقياد لسلطة عاهل يلزمهم بأداء ضرائب مجحفة تذهب بجميع ثرواتهم، وكان ذلك من أكبر التظلمات التي رفعها أهل تطوان للسلطان أحمد بن إسماعيل ضد الباشا أحمد بن علي، وكما أن الإضرار بالناس في فرض الضرائب كان من أسباب تأخير عمر لوقش عن حكم تطوان، ومثل ذلك حدث لحفيده عبد الكريم لوقش الذي أقام حاكما على تطوان ستة أشهر ثم عزله السلطان سيدي محمد بن عبد الله لأن أهل بلدته رفعوا إليه شكواهم بضرره.[14] وهذا يبرز أن عنصر التعسف الجبائي كانت له أهمية قصوى في القرن الثامن عشر.

1 ـ علاقة توتر وصراع:

يمكننا وصف علاقة مدينة تطوان بالمخزن خلال هذا القرن بأنها كانت متوترة إذا ما اعتبرنا ما ميز هذه العلاقة من أزمات منذ وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وهي حقبة انعكست فيها أوضاع الحكم المركزي على علاقة المخزن بالمدينة، حيث يظهر عهد مولاي إسماعيل فترة المركزية وانقياد المدينة للسلطة، بينما عاشت المدينة قبل هذا العهد وبعده ككيان فاعل ومؤثر في صيرورة الحكم وفي العلاقة مع الخارج.

---

[11] ـ لحسن اليوبي، **الفتاوي الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية**، مطبعة فضالة ، المحمدية، 998/1419 ، ص.474 .

[12] - Braithwaite, Op.Cit , p.45.

[13] ـ وندوس، مصدر سابق، ص.42 .

[14] ـ السكيرج، ص.37 .

لقد مثل العهد الإسماعيلي مرحلة التوطيد الفعلي للسلطة الجديدة بالبلاد عموما، فكيف تم ذلك بالنسبة لمدينة تطوان؟ وإلى أي حد كانت درجة التفاهم بين المخزن الجديد ومجتمع المدينة؟. لقد فقدت مدينة تطوان ميزة تمتعها بشبه إستقلال عن الحكم المركزي الذي عاشته في عهد الحكام النقسيسيين لمدة ناهزت سبعة عقود، وذلك بعد استئصال آخر نفر منهم على يد السلطان مولاي إسماعيل. وفرض المخزن نظاما إداريا يتمشى مع طبيعة الحكم الجديد الذي يتطلب بناؤه واستمراره تحصيل مداخيل كبيرة لتحقيق رغبات السلطان، وهذا يعني بعد نزع سلاح الأهالي وسلبهم خيولهم لما أعد العسكر القوي من جيش العبيد إرهاقهم بالمغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات وتقديم العدة. وهذه سياسة قامت على امتصاص الولاة لدرجة تضطرهم إلى ابتزاز الأموال التي يطالبهم بها من الرعية، فيثير بذلك كراهية الناس لحكامهم الطغاة، وفي ذلك ضمان للحفاظ على العرش وبقائه.[15] ولهذا فبمجرد وفاة السلطان مولاي إسماعيل أعلن أهالي تطوان ونواحيها العصيان والثورة متذمرين من سياسة المخزن الممثل في الباشا أحمد بن علي الحمامي الذي كان نموذجا للحكم القاسي الذي طبق سياسة السلطان المذكور بكل صرامة. وهكذا تحين الأهالي الفرصة للعمل على تغيير طبيعة العلاقة التي فرضها المخزن على المدينة، تلك العلاقة التي تراكمت تناقضاتها لمدة زادت عن نصف قرن.

وعرف مشكل وراثة العرش بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل تعقيدا كبيرا بسبب كثرة أبنائه المطالبين بالحكم، وبسبب تدخل بعض زوجاته لأجل انتزاع السلطة لأحد أبنائهن. ولم تبق مسألة الشرعية في الحكم محصورة داخل القصر بمكناس وإنما تجاوزته إلى مختلف المدن والبوادي حيث عم الاضطراب واستشرت الفتنة، وأمسى الناس في فوضى عارمة، فكثر النهب وانتشر الخراب، وبات العرش المغربي ألعوبة في يد ديوان العبيد الذين أصبحوا يولون من شاءوا ويعزلون من أبناء السلطان. وكان أحمد بن إسماعيل قد نصبه العبيد بعد وفاة والده، إلا أنه كان ضعيف الإرادة ليس بيده شيء وإنما الحل والعقد كان بيد العبيد الذين فتكوا بوجوه الدولة فصفا لهم الجو واستبدوا بسائر الأمور. وكان هذا السلطان قد فتح خزائن البلاد ووزع كل ما كان فيها من مال على العبيد الذين ولوه العرش.

وكان حظ تطوان من القلاقل التي أعقبت وفاة مولاي إسماعيل وافرا، إذ أن أهلها لما رأوا أهل فاس قد تبرموا من ولاية السلطان أحمد لما بدا لهم من

---

[15] - Braithwaite, p.45.

أمره ما لا يحمد، وأنهم فتكوا بحاكمهم الروسي، فإنهم اتجهوا بدورهم إلى الثورة على الباشا أحمد بن علي بسبب ما وظف عليهم من أموال ثقيلة ضاقوا بها ذرعا، ومن الفظاظة التي مارسها عليهم. إلا أنهم بالرغم من الأحداث التي عرفتها مدينتهم لم يظهروا رفضهم للسلطان أحمد بن إسماعيل، وأوفدوا لديه ممثلين عنهم لتبرير تصرفاتهم. وقد حاول السلطان في بداية الأمر أن يصلح بين أهل تطوان والباشا، لكن هذا الأخير رفض الموافقة على شروط المصالحة.[16] وخلال فترة الترقب التي أعقبت بداية التصادم بين أهل تطوان والباشا، فإن الأهالي كونوا مجلسا يتكلف بتدبير شؤون المدينة دعي الديوان، وكان من بين نشطائه عدد من أعيانهم ومنهم الحاج عبد السلام لوقش وولده الفقيه عمر ومحمد قردناش وأحمد النجار والمهدي بايص، وكان هذا الأخير حدادا ويتميز بالدينامية والقوة، وقد عينه الديوان في أول الأمر ليقوم بمهام نائب الحاكم.[17]

وأمام هذا التوتر في العلاقة بين المدينة والسلطة المخزنية نتيجة للإنقلاب الذي عرفته مؤسسة الحكم بالمدينة، فإن السلطان اضطر إلى عزل الباشا أحمد عن حكم تطوان في شهر ذي القعدة 1139/ يوليو1727، وولى مكانه الباشا عبد المالك بوشفرة الوديي، وبعث في ذلك رسالة في نفس الشهر إلى القنصل الإنجليزي بتطوان والتجار النصارى المقيمين بها ومما ورد فيها:« السلام على من اتبع الهدى لتعلموا أننا ولينا بعون الله خالنا الباشا عبد المالك بوشفرة الوديي على كل البلاد التي كان ينعم بها خديمنا أحمد بن علي بن عبد الله من جبال وسهول خاضعة لحكمنا ما عدا طنجة والعرائش وأصيلا... وأمرنا خالنا عبد الملك بالإقامة في تطوان... وإنه سيمتعكم بنفس التودد والأمان الذي تمتعتم به مع أحمد بن علي وكما أننا كلفناه بأن يعتني بالتجار في أشخاصهم وممتلكاتهم والسلام».[18] وكان قد ورد الخبر على تطوان أن هذا المنصب اشتري بمبلغ خمسمائة دوكة ذهبية تسلمتها إحدى محظيات السلطان.

ووقع أول احتكاك لهذا الباشا الجديد مع أهل تطوان عندما زار التحصينات المشيدة خارج المدينة، حيث شجب الأشغال وأمر بإيقاف البناء، إلا أن أوامره قوبلت بالاستخفاف إذ رفض بايص الذي كلفه الديوان بمباشرة الأعمال الرضوخ لأوامر الباشا. وقد حاول هذا الأخير القبض على بايص

---

[16] - Ibidem, p.19.
[17] - Ibidem, p .21.
[18] - Ibidem, p.29 (نقلنا النص إلى العربية)

المذكور عبثا، فتبين له أن ليس لديه من وسيلة لضمان بقائه سوى التصرف باتفاق وانسجام مع الأهالي حتى لا يرغم على العودة من حيث أتى.[19] وسيظل دور الباشا المذكور محدودا نظرا لتعاقب أحداث الصراع، ولكون مجيئه إلى تطوان كان بحكم الضرورة التي يفرضها تواجد سلطة المخزن، وليس عن رغبة واعتبار لمطالب السكان وشكاويهم. ولهذا فوجوده إلى حد ما جعل الأهالي يتعاملون معه بحذر وببعض الإهمال، خاصة لما تبين لهم هروبه من مواجهة قوات الباشا أحمد واختفاؤه في الجبال المجاورة ريثما تنتهي المعركة.وعندما رجع إلى المدينة فإن بعض أعضاء الديوان استقبلوه على صهوة جيادهم، وكما أن أهل المدينة لم يفوضوا له سلطة كبيرة منذئذ، وأنهم تذاكروا في شأن الإنتقاص من راتبه. وهذا يعني أن سلطة المدينة أصبحت كليا في يد مجلس الديوان الذي فرض شروطا على تصدير البضائع إلى جبل طارق، وأرسل مبعوثين إلى السفير الإنجليزي روسل بقصد مكاتبة حاكم جبل طارق في شأن تزويد المدينة بالبارود مقابل الحطب.

ووصل رقاص في أواخر أكتوبر1727 إلى تطوان قادما من مكناس يخبر بأن السلطان رغب في إعادة أحمد بن علي إلى منصب الباشا في تطوان وسائر المدن والأمصار التابعة لحكومتها، وتمتعه بنفس الحقوق والسلطة التي كان يحظى بها في السابق، وفي نفس الوقت أمر بوشفرة بالقدوم إلى مكناس . واصطحاب السفير الإنجليزي روسل. وقد وقع هذا الخبر موقع الصاعقة على أهالي تطوان الذين أصيبوا بانهيار نتيجة للتغيير المفاجئ وغير المتوقع في موقف السلطان، فعقدوا مجلسا موسعا في دار الباشا بوشفرة، واتفقوا على الزيادة في تحصين المدينة والإستعداد للهلاك جميعا على أن يقبلوا سلطة أحمد بن علي.[20] وموازاة مع هذه الإجراءات سعى الأهالي إلى تدبير الأمر سياسيا بإظهارهم الامتثال لأمر السلطان، وإيفادهم عشرة منتدبين عنهم ليلتمسوا من السلطان الإستماع لتظلماتهم العادلة ضد الباشا أحمد والاحتفاظ بحكم بوشفرة، وكما بعثوا بهدية معتبرة لكبير وزرائه الباشا العبد امساهل الذي صدرت عنه الأوامر باسم السلطان.

وبينما كان الطرف المقابل ونعني به الباشا أحمد بن علي يحتفظ بالسفير المغربي أبغلي وبالهدايا القيمة التي جلبها أثناء سفارته إلى إنجلترا، وكان ذلك كافيا لتحويل اتجاه الأمور لصالحه، فكتاب السلطان أو وزراؤه كانوا يدركون أن الباشا المذكور لن يرفع يده عنها إلا إذا أعاده السلطان إلى حكمه

---

[19] - Ibidem, p .32

[20] - Ibidem, p.148.

السابق. وقد أبان هذا التضارب في المصالح عن موقف المخزن الذي فقد ثقة الناس فيه، فالباشا أحمد لم يستطع قبول أن ينزع منه قسم مهم من حكومته، ولم يكن أهل تطوان من جانبهم يعتقدون أنهم في مأمن ما دام الباشا المذكور في طنجة ويقوم بتخريب البلاد المجاورة لهم ويقوض تجارتهم. وبالنسبة للسلطة المركزية فإن تقسيم المنطقة بين باشوين جعل كل واحد منهما لا يفكر في أداء ضريبة، أو يعتبر نفسه ملزما بإرسال أي شيء إلى مكناس طالما أن كل ما يتم توفيره كان يستخدم إما في الهجوم على الطرف الآخر أو في الدفاع عن النفس.[21]

لقد كان السباق قويا بين الطرفين لكسب رضا السلطان وحاشيته، فبقدوم وفد تطوان وتقديمه للهدايا المؤلفة من القماش وسلع أخرى ذات قيمة رفيعة إلى السلطان وصاحبه الباشا الكبير امساهل، فإن الباشا أحمد بدوره بعث بجزء من الهدايا المجلوبة من إنجلترا وبالأموال لتفرق على وزراء السلطان، وفي نفس الوقت فإن وكيله بمكناس قدم للأميرات المحظيات وللباشا الكبير هدايا معتبرة. وقد أحدث ذلك إنقلابا خطيرا في موقف السلطان الذي لبى رغبة حاشيته في إعادة تعيين الباشا أحمد بن علي في عمالة تطوان، وأخل بالعهد الذي كان قد أعطاه من قبل للباشا بوشفرة ولوفد تطوان عند تقديمهم للهدايا. وقد أثار قرار السلطان المفاجئ ذعرا كبيرا بين أفراد الوفد الذين التجأوا للاحتماء بضريح أحد الصلحاء خوفا من أن يسجنوا أو يصيبهم مكروه.[22]

وهكذا رجحت كفة الباشا أحمد الذي نال تأييد السلطان وكبار رجال دولته وأسقط في يد الوفد الذي رجع إلى تطوان بخفي حنين. فاستعد أهلها لمواجهة زحف قوات الباشا المذكور حيث دارت معركة حامية وحاسمة في نفس الوقت بين قوات الباشا أحمد بن علي الريفي وأهالي تطوان يوم السبت 11 أكتوبر1727 عرفت بـــ «عيطة السبت»، وسيأتي الكلام عنها. وقد أدى هذا التوتر في العلاقة بين المدينة والمخزن إلى قطيعة سياسية حيث ولى الأهالي عليهم القائد الفقيه عمر لوقش، وكان ضمن أعضاء مجلس الديوان ومن ألد خصوم الباشا أحمد، وسيأتي الكلام عليهما.

وعرفت سنة 1728 على مستوى السلطة المركزية بالبلاد عزل وتولية ثلاثة سلاطين، فقد عزل العبيد السلطان أحمد بن إسماعيل في شعبان عام 1140 (أواخر1727) وولوا مكانه أخاه مولاي عبد المالك الذي بايعته تطوان

---

[21] - Ibidem, p.154.
[22] - Ibidem, p.244.

في مارس 1728، ووفد عليه القائدان عمر لوقش وبو الليف إلى مكناس لتقديم الهدايا المعتادة. إلا أن العبيد قاموا بعزله بعد عدة أشهر وأعادوا أخاه أحمد إلى العرش. وبعد موت هذين الأخوين في شعبان عام 1141 (1728) بويع مولاي عبد الله بيعته الأولى. وكان موقف تطوان من هذه الأحداث يتميز بالحياد، ولعل ذلك يعود لبعدها عن ميدان الصراع من جهة، ولخضوعها لحكم القائد لوقش الذي كان الباشا أحمد يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل من جهة أخرى.

إن الفترة الزمنية التي تولى فيها عمر لوقش حكومة تطوان ناهزت خمس سنوات وليس سبع كما ادعى السكيرج، وهي التي تمتد ما بين 1140 (1727) و1145 (1732). إلا أن التساؤل المشروع الذي سبق وأن طرحه داود هو من الذي تولى حكم هذه المدينة في السنوات التي تلت عزل لوقش إلى حين دخول الباشا أحمد بن علي إليها على غرة من أهلها عام 1151 (1738) بإذن من السلطان المستضيئ، حيث لم يقبلوا ولايته عليهم فدس إليه أنهم شقوا العصا وخالفوا الأمر، فأمره بالمسيرة إليهم.[23]

وبقيت المدينة بعد تأخير السلطان مولاي عبد الله للقائد الفقيه عمر لوقش عن حكمها بدون حاكم رسمي كما قال السكيرج، وكانت مدة غير قصيرة، ولعله كان هناك من يقوم بحكمها ولو على سبيل النيابة. والسكيرج الذي كتب عن هذه الفترة لم يفدنا في ذلك. ويحصل الارتباك أيضا عند المؤلفين الأوربيين في الخلط بين قائد المدينة وقائد المرسى بل وحتى قائد الحصار المضروب على سبتة، فتذكر المصادر الفرنسية أنه في سنة 1727 حل علج أصله من إشبيلية محل الباشا أحمد دعي القائد علي دون تحديد نطاق حكمه.[24] وهناك مسألة أساسية وهي شرعية الحكم بالنسبة للمخزن المركزي، إذ أنه من الناحية الشرعية فمتولي حكم المدينة وعمالتها هو الباشا أحمد بقرار من السلطان، ولكن إرادة السكان فرضت أمرا واقعا كان على المخزن أن يقبله ولو ظرفيا، لأنه في موقف ضعف وانكماش بسبب الاضطراب والفتنة التي نجمت عن الصراع حول العرش، وكما أن التحالف بين السلطان والباشا كان هشا ومرهونا بالظروف السياسية والمصالح المتبادلة، تدخل فيها طرف ثالث هم العبيد. وقد يكون تم اتفاق ضمني بين أهل تطوان والمخزن

---

[23] - أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 ، ص.284 .

[24] - Chantal de la verronc, Documents inédits sur l'histoire du Maroc .sources français, Paris , 1984, p.12.

المركزي بعد عزل القائد لوقش على أساس أن تظل المدينة بدون باشا مؤقتا مع وجود خليفة عنه من بين الأهالي، وقد نحتاج إلى وثيقة صريحة لتأكيد ذلك، إلا أنه مع وجود نص مخطوط قديم عثر عليه المؤرخ داود يتبين منه أن المهدي بايص كان خليفة للباشا أحمد بتطوان، ولم يتبعه في الانحراف على السلطان مولاي عبد الله، بل بقي على بيعته واستمر في نصرته في خطب الجمعة.[25] ولما تمت تولية المستضيئ من قبل العبيد بعد عزل إخوته كان لتطوان حظ من وباله، إذ لم يقدم عليه أحد من أهلها ولا دخلوا في بيعته، فكان ما ذكره المؤرخون الزياني وأكنسوس والضعيف من إذنه للباشا أحمد في اقتحامها والإيقاع بأهلها، فدخلها على حين غفلة من أهلها ونهبها وقتل نحو ثمانية من أعيانها. وهناك رواية في سبب قتل هؤلاء أوردها السكيرج في مخطوطه وهي أن جماعة من الأهالي اجتمعوا ليلا واتفقوا على عزل الباشا أحمد بن علي وتولية أحدهم، فأخبر بعض من كان حاضرا الجمع معهم القاضي محمد بن محمد بن قريش، فكاتب الباشا بذلك، فأمر باعتقالهم وتعليقهم، وبقي رجل منهم من أولاد بايص أراد أن يفدي نفسه بالمال، فكتب القاضي بذلك للباشا أحمد يقول أما فلان فلا تطمعن في فلسه وألحقه ببني جنسه ففعل الباشا ذلك. وذكر أنهم ظلوا معلقين مدة طويلة والمطر يتساقط عليهم ولم يستطع أحد التكلم في شأنهم حتى تقدم بعض الشرفاء إلى الباشا متشفعا فيهم.[26] وهذه الحكاية تقترب بعض الشيء مما أورده داود من أن الباشا أحمد قدم إلى تطوان وقبض على بايص وقتله مع الذين تضامنوا معه من أهل تطوان ومنهم محمد الديماني وعبد السلام الشودري، ولم يستبعد أن يكون هؤلاء المقتولون المعلقون هم الثمانية الذين أشارت إليهم المصادر الآنفة.

ولئن كانت مدينة تطوان قد سلمت من أضرار المواجهة العسكرية بعد مقتل الباشا أحمد بن علي، فإنها لم تسلم من الحصار الذي فرضه عليها بعض السلاطين على امتداد القرن الثامن عشر بسبب تشبث حكامها بالشرعية. وهكذا في إطار الصراع على العرش فإن مولاي المستضيء الذي كان لاجئا في سوس قدم إلى طنجة بطلب من أهلها فاستقر بها وبفحصها، وعزل عن حكمها القائد عزوز وولى مكانه القائد عمر ابن الباشا أحمد سنة 1747/1160، وأرسل في نفس الوقت الطالب زيد ومعه خمسمائة فارس وستمائة من الراجلين إلى معسكر سبتة لاستقدام القائد الباديسي ومن بقي معه

---

[25] - داود، ج.2 ، ص.215.

[26] - السكيرج، ص.26.

من القوات، فعرجوا على ناحية تطوان عند عودتهم، وأضرموا النار في المراكب القرصانية وفي قوارب الصيد المتواجدة بالنهر، وفي أحد مخازن الأدوات الملاحية ومستودع للمؤونة، وكما أحرقوا مغارس الكروم والمزارع والدور بضاحية المدينة، ثم أغاروا على تطوان ورشقوا أسوارها، ونهبوا الماشية والخيول والبغال قبل أن يعودوا إلى طنجة.[27] وعاد المستضيء لمحاصرة تطوان في جمادى الأولى عام 1161/ ماي 1748، وذلك لإرغام أهلها على مبايعته لأن غيرهم كأهل العرائش وأصيلا والقبائل بايعوه، فامتنع أهل تطوان ورفض القائد تميم نقض بيعة مولاي عبد الله إلا بموجب شرعي، وقد دام هذا الحصار مدة ثلاثة أشهر كان يضر بها بالمدفع وغيره.[28] وقد لجأ المستضيئ إلى طلب مساعدة الحاكم الإسباني في سبتة بقصد تضييق الخناق على تطوان، وأرسل أحد ثقاته وهو الحاج بوشتى أحرضان ومنحه صلاحية إبرام اتفاق مع الإسبان، وتم اللقاء بين الطرفين في مكان يدعى عين الحلوف.[29] وقد أمده الحاكم الإسباني بمدفع وخمسين جنديا من المدفعيين وصلوا إلى ضاحية تطوان يوم 2 شعبان/20 يوليو من نفس العام، إلا أنه لم يتمكن من الإستيلاء على المدينة.

وكان القائد محمد تميم الثاني قد ولاه أهل تطوان عليهم بعد مصرع الباشا أحمد، فوافقهم عليه السلطان مولاي عبد الله عام 1744/1157. وقد وصفه السكيرج بأنه كان رجلا عاملا قام ببناء أسوار المدينة من غير أن يدخل في أمر من الأمور التي يريدها أحدا من أهل البلدة، لهذا فإنه صير على بناء الأسوار من ماله خمسة وعشرين قنطارا، ثم وردت عليه عشرون قنطارا من اسطانبول ورثها عن أخ له توفي هناك، فصيرها في بناء الأسوار، وكما أصلح ما تهدم من القصبة المشرفة على المدينة[30]. فهل يفهم من ذلك أن القائد المذكور تفادى تكليف الأهالي مصاريف البناءات بسبب كثرة ما فرض عليهم من ضرائب ومغارم في عهد الباشا أحمد، أم أنه بتصرفه ذاك تحاشى كل تدخل من قبل الأعيان، أي أنه كان يرفض أن يصير تحت وصاية أحد منهم، وذلك ما ستبينه الأحداث. فقد بقي تميم حاكما على تطوان مدة سبعة أعوام، وقعت خلالها عدة حوادث محلية ارتبطت إلى

---

[27] - Alejandro Correa de Franca, Historia de Ceuta, Mans., libro sexto, Cap.4°, B.N. Madrid, p.324.

[28] - السكيرج، ص.29.

[29] - Correa de Franca, Op.Cit, p.343.

[30] - السكيرج، ص.30.

حد كبير بالانتماء «السوسيو- مجالي» لأهالي بعض الحومات الذين ألفوا عدم الانضباط والرضوخ للسلطة والسعي بالفساد مما أدى إلى قتله سنة 1750/1163♦. وكان القائد تميم لما شعر بقوة عصبية هؤلاء القوم أراد التنازل عن الحكم فأثناه عن ذلك الفقيه محمد اللبادي. وتظهر هذه الوقائع وما حدث في فترة حكم الباشا بوشفرة أن ممثل المخزن في فترة الاضطراب والصراع على الحكم لم تكن له من سلطة إلا بمقدار ما كان يتلقاه من دعم من الأهالي. وبعد مقتل القائد تميم افترق الناس على فرق، واختلفوا فيمن يتولى حكم البلد، وصادف الحال ورود محمد بن عمر لوقش من حضرة السلطان، فأشار عليهم أن يتوجهوا لديه ويعتذروا عن قتل تميم، ويفوضوا له أمر العامل، فائتمروا برأيه وذهب هو في جملتهم.[31]

وكانت تطوان إلى عهد السلطان مولاي عبد الله لا تزال تملك مقاليد حكمها بيدها، لأنها كانت في صفه ومن حزبه، ولهذا ولى على أهلها من اختاروه لأنفسهم، وهو القائد محمد بن عمر لوقش عام 1164/ 1751. وكل ما نعرف عن حكم القائد هو ما ذكره السكيرج من أنه كان شجاعا عارفا بأحوال الحرب، وهذا يعني أنه لم يكن رجل علم وأدب كوالده الفقيه عمر، وأنه قضى قسطا من صباه في القصر بمكناس إلى جانب والده، فكانت له بذلك صلة مع ابن السلطان سيدي محمد، وقد ذهب السكيرج إلى أنه كان بينه وبين سيدي محمد رضاع لوالدته أيام خدمة أبيه مع السلطان مولاي إسماعيل، فكبرا متقارنين، ونشأ عن ذلك بعض عدم المبالاة من لوقش حتى أنه لما كان سيدي محمد بن عبد الله خليفة عن والده بمراكش، بعث له وهو قائد بتطوان أن يصنع له مركبا، فأجابه بقول ما أنا في أمر العيال، فبلغه ذلك.

وقد شهد بداية عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1771 /1757) فترة إستعادة المخزن لهيمنته على المدينة ومؤسساتها، إذ ساهم قدومه إلى تطوان في انتزاع عدة صلاحيات من يد الأهالي، وتم كذلك إبعادهم عن تسيير شأنهم بأنفسهم، فعزل لوقش الذي كان الأهالي اختاروه حاكما عليهم بسبب جفاء ودلال صدر منه، ولاذ بضريح القطب مولاي عبد السلام بن مشيش. ولكن هناك اضطرابا في أخبار تنحية محمد لوقش عن حكم تطوان، وقد أورد داود في ذلك ثلاث روايات[32].

♦ انظر الفصل الثامن من هذه الدراسة.

[31] - الرهوني، ج.2 ، ص.60.

[32] - داود، ج.2 ، ص.253 – 255 .

وعاشت مدينة تطوان فترة هدوء وانقياد لسلطة المخزن طيلة عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد تعاقب على حكمها عدد من القواد اختارهم السلطان المذكور، ولم يفسد عليه ذلك سوى ابنه اليزيد الذي لجأ إلى الضريح المشيشي عام 1788/1203، وتصدى لعصيان والده ومخالفته، فخاف السلطان على بيت مال تطوان وطنجة والعرائش، فوجه له أخاه مسلمة في عسكر يقيمون بقربه ويمنعونه من النزول من الحرم المشيشي.[33] ثم وجه السلطان مع القائد العباس مائتين من الإبل ونحو الألفين من البغال على أن يحمل مال تطاون، ووجه المحلة مع القائد مسرور ينزل في بوصفيحة حتى يخرج المال. وفي محرم 1789/1204 ورد حاجب السلطان محمد العربي قادوس أفندي على الرباط بمحلته بقصد تطاون على أن يحمل ما بقي من بيت مالها إلى مكناس.[34] وفي آخر رجب بلغه خبر وفاة والده السلطان، فنهض لتطوان ودخلها يوم الجمعة أول شعبان، وفي يوم غد السبت أطلق يد عسكره في نهب ملاح يهود تطوان، فوجدوا فيه نحو المائة قنطار من المال وما احتوى عليه من السلع والكتان والملف، ومن ذهب وفضة وغير ذلك، وهدموا سقوف الديار وحفروها وهبطوا في الآبار، وغلطوا في ديار المسلمين المجاورين لليهود فنهبوها، فاشتد الفزع في الناس ودب الهلع بينهم، وكان حدثا عظيما[35].

ولما توفي السلطان مولاي اليزيد في جمادى الثانية من عام 1206/ 1791 بلغ الخبر لأخيه مولاي سلامة وهو محترم بجبل العلم، فوجه ولديه الرشيد وجعفر إلى تطوان مع كاتبه محمد بن الطاهر الحصيني للقبض على القائد عبد الرحمن أشعاش، فأنزلهما عنده وأكرمهما، وفي أثناء الليل هرب إلى مولاي عبد السلام.وكان سلامة قد بعث قائده عمر الرحيوي ليأتي بعيال أخيه اليزيد من تطوان، وعند عودته اعترضت سبيله جماعة من شرفاء العلم مع أشعاش، فنزعوا له المال الذي أتى به والملف والذهب والبارود.[36]

وعزل السلطان مولاي سليمان القائد عبد الرحمن أشعاش عن حكم تطوان، وولى مكانه القائد حمان الصريدي عام 1792/1207 وهو من العبيد، وكان الناس يمدحون ولايته.[37] وفي هذا العهد حاصر مولاي سلامة مدينة

---

[33] - الزياني، **البستان الظريف**، ص.476.
[34] - الضعيف، ص.198.
[35] - نفس المصدر السابق، ص.202 .
[36] - نفس المصدر، ص.246 .
[37] - الرهوني، ج.2 ، ص.67.

تطوان لمدة ثلاثة أشهر، فاقتلع أشجارها وكاد الناس يموتون جوعا، وكان في المدينة أخوه مولاي الطيب وقائدها حمان الصريدي. وسبب حصاره لتطوان كما رواه الضعيف هو أنه بعث لأحد أخواله من أولاد الرزين مائة مثقال على يد أحد الشرفاء من تطوان يقيمون له كسوة بها، فوصل الخبر للقائد الصريدي الذي قبض على الخياطين اليهود ونهبهم وسجن الشريف وضربه، فلما بلغ الخبر إلى سلامة أتى بأهل الجبل وفرض الحصار عليها، ولا زال يضيق على أهلها إلى أن بلغ الزرع ثلاثة عشر أوقية للمد وأكثر، ومات من أهل تطوان سبعون رجلا، ومن محلة سلامة أقل من ذلك.[38]

إن تتبع لحظات التوتر في علاقة المدينة مع المخزن من خلال ما سبق، يضعنا أمام ثلاثة أطراف كانت تتحكم في مجرى الأحداث بالمدينة، وتفرض وجودها بحسب الظروف التي يمر منها الحكم المركزي دون أن تختفي تماما، وهي: السلطان والباشا أو القائد وثم الأهالي وبالخصوص الأعيان الذين كونوا «مجلس الديوان»، وبين هذه الأطراف الثلاثة علاقات متقلبة تحددها المصالح والتحالفات التي تعاد صياغتها بصفة مستمرة. وبإمكاننا تمييز طبيعة هذه العلاقات عبر توالي ثلاث فترات: فترة انقياد المدينة للسلطة المركزية، حيث انتزع من الأهالي استقلالهم وسلاحهم وما واكب ذلك من فرض المغارم والجبايات الثقيلة، وهي فترة تجسدها ولاية باشا قوي هو أحمد بن علي، وفترة ضعف الحكم المركزي التي تلت وفاة السلطان القوي والجبار مولاي إسماعيل مما أدى إلى الثورة والفتنة والتكالب على العرش، ويمثلها على صعيد المدينة حكم الديوان واختيار القائد من البلد، ثم فترة استعادة السلطة المركزية هيمنتها من جديد وانصهار المدينة في نسق المخزن، وهي الفترة التي ارتبطت بعهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. إلا أن هذا التحقيب ليس صارما في نظرنا، وذلك بسبب تداخل المصالح وإعادة صياغة التحالفات مرارا، فمثلا، نجد فترة حكم السلطان مولاي عبد الله الذي ولي العرش سبع مرات تميزت على مستوى مدينة تطوان بتحول في علاقة السلطان مع أهل المدينة، وفي علاقته مع الباشا، وكذلك علاقة هذا الأخير مع الأهالي. وهذا يبين لنا أن علاقة التوتر والصراع مع المخزن لم تكن قارة وحادة كما يمكن أن يتصور، بل إنها كانت أيضا علاقات قائمة على أساس شرعي، وعلى التوازن وتبادل المصالح، وهو ما اصطلح عليه بعلاقة الأخذ والعطاء.

---

[38] - الضعيف، ص.262.

4 ـ علاقة الأخـذ والعـطاء:

يهمنا أن نتناول مسألة المقابل في العلاقة بين المدينة والمخزن المركزي، أي مسألة العطاء والأخذ. فمدينة تطوان لعبت دورا مخزنيا بارزا منذ قيام الدولة العلوية بالرغم من كونها ليس حاضرة المخزن بالمفهوم الذي ميز مدنا أخرى. إلا أن دورها تمثل فيما كانت تجلبه من مواد وسلع يستهلكها المخزن، فإلى جانب المواد المجلوبة من الخارج كالأثواب والحرير والخصص الرخامية، فإنها كانت تنتج لفائدة المخزن العدة والخزائن والقباب والملابس، وتبعث الأسارى إلى مكناس، وتدفع عشرات الآلاف من المثاقيل المتأتية عن وفر مستفاد المرسى الذي كان يعد أحد أهم الموارد المالية للبلاد، فمثلا بلغت صاكة وأعشار مرسى تطوان عن سنة أولها شوال 1769/1183 وآخرها رمضان1770/1184 ثمانية وأربعين ألف ريال وسبعين ريالا وخمس وثلاثين جزءا 48.070،35، بينما بلغ مستفاد مرسى طنجة عن نفس السنة 39.041،92. وبالإضافة إلى ضريبة الجزية التي كان يؤديها كل من يهود ملاحي تطوان وشفشاون، وما كان يحصل عليه المخزن من أنواع الجبايات الشرعية والعرفية التي تدفع في المناسبات كالهدايا والتكاليف التي تفرض عند الحاجة. وكانت هدية العيد عادة متبعة، فترسل المدينة إلى حضرة السلطان وفدا لتقديم التهاني مصحوبا بالهدايا وذلك في الأعياد الإسلامية الثلاثة: عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد المولد النبوي، وكانت مناسبة يتصل فيها السلطان بأعيان المدينة الذين يؤكدون له بيعتهم وينالون منه الرضى والبركة، وإلى جانب هذا المظهر المعنوي والروحي في الاستقبال يتم تقديم الهدية التي تكون في الغالب مبلغا ماليا كبيرا، ففي سنة 1165/ 1752 قدم أهل تطوان على السلطان مولاي عبد الله لحضور عيد المولد النبوي وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف مثقال.[39] وفي سنة 1755/1169 قدم عليه القائد محمد لوقش في أهل تطوان بهدية فيها مائة ألف ريال دورو وسلع ونصارى غنمتهم قراصين تطوان، فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين،[40] وفي هذا الفعل يتحقق المظهر المادي للعلاقة المذكورة.

وكان أهل تطوان لما قتل بعضهم القائد تميما، وقدم على السلطان وفدهم سنة 1751/1164 لأجل الاعتذار لم يعاقبهم، وقال لهم أنتم قيدتموه وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم ما ترضونه. وهذا الموقف يوضح لنا علاقة المقابل المبنية على الأخذ والعطاء القائمة بين السلطان المذكور ومدينة تطوان،

---

[39] ـ الناصري، ج.7 ، ص.184.

[40] ـ أكنسوس، ص.199 .

والتي ظل أهلها متشبثين ببيعته زمن محنته، ورفضوا التخلي عنها بالرغم من تهديد الباشا أحمد بن علي وفتكه ببعض الأعيان، وثم إغراءات المستضيئ وحصاره لتطوان، إلا أنهم برهنوا على مصابرتهم لكل ذلك وعلى تمسكهم بالشرعية. ويمكن أن نضيف إلى ذلك التقدير البليغ الذي كان السلطان مولاي عبد الله يكنه للفقيه عمر لوقش الذي اصطحبه إلى سوس وتوفي هناك. وكان السلطان قد سلم بوشاية الباشا أحمد فعزل لوقش المذكور عن حكم تطوان واستقدمه إلى مكناس، ثم تعرض هذا الأخير لزور ونكاية من بعض فقهاء مكناس كاد يؤدي إلى هلاكه لولا أن تدارك السلطان الأمر بعد تدخل والدته خناثة بنت بكار.[41] ويظهر أن السلطان ربما ندم مع نفسه على ما صدر منه في حق تطوان على عهد الباشا أحمد الذي يسعى في نهاية المطاف إلى مواجهة السلطان نفسه، ولهذا تجاوز هذا الأخير عن فعلة أهل تطوان وساعدهم على ما يرضيهم، فاختاروا من بينهعم محمد بن عمر لوقش، فولاه عليهم وذلك عام 1164 /1751.

وكان القائد محمد لوقش قد لجأ- كما تقدم- إلى جبل العلم وشيد دارا هناك وصاهر سيدي علي بن ريسون ببنته، ومن المرجح أن مصاهرته لشريف تازروت ساهمت بشكل من الأشكال في عودة علاقة الوئام بين المخزن وأسرة لوقش وخاصة بعد وفاة هذا الأخير، حيث رجع أبناؤه إلى تطوان برضى من السلطان، فعين أحدهم وهو عبد الكريم بن محمد لوقش قائدا على تطوان سنة 1201/ 1786، إلا أنه لم يقض سوى ثلاثة أشهر في الحكم، إذ ثار ضده أهل بلدته وعزلوه، ورفعوا شكواهم بضرره للسلطان، فأمره بالقدوم عليه لمراكش وسجنه ثم سرحه. وقيل إن سبب عزله هو أن الرايس فرجا شفع عنده في رجل قبضه وضربه، فلم يقبل شفاعته.[42] وذكر السكيرج أن أهل تطوان لما تجسسوا خبر خروجه من السجن وعزم السلطان على توليته من جديد عليهم، ذهب الأعيان إلى مراكش يطلبون نزعه، وكان في القوم رجل حسن المنظر من أعيان البلد وصاحب مال كثير هو الحاج عبد الرحمن قردناش، فولاه عليهم السلطان. ويفهم من سياق هذا الكلام ما كان لعلاقة المقابل من تأثير في سيرورة الشأن المحلي. وعندما تولى المولى اليزيد فإن عزل قردناش المذكور وألزمه ذعيرة ألف مثقال، وولى مكانه القائد عبد الرحمن أشعاش.[43] وبعد وفاة اليزيد ورد قاضي تطوان عبد السلام

---

[41] - داود، ج.3 ، ص.33 .

[42] - الرهوني، ج.2، ص..64 .

[43] - السكيرج، ص.37 .

بن قريش والأعيان والشرفاء والفقهاء على مولاي سلامة بالبيعة، ففرح بهم وفرق عليهم المال.[44] وبعد تغلب حزب مولاي سليمان، فإنه بعث لأشعاش وألزمه بدفع عشرة آلاف مثقال وعزله عن عمالة تطوان. وفي عهد هذا السلطان قدم على تطوان القائد محمد الحكماوي، فلم يقبله أحد « وحاص منه أهل البلد حيصة حمر النعم» وتوجه في رمضان 1797/1212 نحو المائة من أهل تطوان مع سيدي علي بن ريسون وأولاد سيدي عبد الله بن العربي إلى مكناس، وقدموا عشرة آلاف مثقال هدية طالبين أن لا يحكم فيهم الحكماوي بعد أن هموا بقتله إن دخل عليهم تطوان.[45]

---

[44] - الضعيف، ص.241

[45] - الضعيف، ص.301.

الفصل الرابع
سيرورة الشأن المحلي بالمدينة

يصعب علينا الجزم بكيفية سيرورة الشأن الداخلي لمدينة تطوان في القرن الثامن عشر، بيد أنه إذا سعينا لمقاربة المعطيات التي نتوفر عليها بخصوص الأحداث السياسية التي وجدت المدينة نفسها متورطة فيها أو شاركت في وقوعها، فإنه يكون بإمكاننا أن نتصور كيف تنوع شكل الحكم وتوزعت أصناف السلطة فيها. فهي تارة ضمن «شبه إقطاعية» تحت تصرف حاكم مطلق الصلاحيات، وتارة أخرى موزعة بين عصبيتين متنافستين تتنازعان النفوذ والسلطة، وطورا تسقط في يد طاغية حقيقي.[46]

وبالرغم من ذلك فإن الجهاز المخزني المحلي ظل يتركب في وحدته الهيكلية من نفس العناصر التي قد نجدها في باقي المدن المغربية التقليدية الأخرى مع بعض الاختلافات الظرفية والخصوصية. وقد اتصف هذا الجهاز منذ أن أخذ السلطان مولاي إسماعيل بزمام الأمور بالصرامة والقوة بتوجيه منه وإشرافه. وكان ذلك النظام متمشيا مع طبيعة الوضع الجديد الذي يتطلب في بنائه تحقيق مداخيل كبيرة لتلبية رغبات السلطان. وقد استمرت تلك الصرامة حتى في عهد أبنائه بالرغم من سيادة الفوضى واختلال نظام الحكم بسبب الصراعات الدامية بين المطالبين بالعرش. وقد أحدث الصراع والفتنة فراغا على مستوى السلطة السياسية للمخزن حاول بعض الولاة إستغلاله لفائدتهم لا سيما في باشوية تطوان.

ويمكننا أن نبحث عن أسباب الإختيار المخزني لممثليه في الظرفية العامة التي وجدت عليها الدولة المغربية الجديدة بصفة عامة، ومدينة تطوان بصفة خاصة. وبإمكاننا أن نميز بين صنفين من القواد الذين حكموا تطوان وذلك حسب درجاتهم والمهام الموكولة إليهم كالتالي:

* الصنف الأول، ويتمثل في نواب السلطان الذين كان يعهد إليهم بحكم الأقاليم والمناطق، وكانت سلطتهم غير محدودة ويملكون التفويض التام من السلطان. وقد كانوا يلقبون بلقب الباشا تشريفا لهم وتكريما مثل الباشا علي بن عبد الله الحمامي وابنه الباشا أحمد بن علي.

---

[46] - Joly, p.226.

* الصنف الثاني، وهم قواد المدينة الذين كانوا بمثابة خلفاء للباشا الذي يعينهم لحكم المدينة نيابة عنه بسبب تنقله بين تطوان وطنجة أمثال عمر لوقش ومحمد تميم وعبد الواحد بن علي. ولما اختفى منصب الباشا أصبح السلطان يعين مباشرة قائده على المدينة.

1 ـ القائد أو الباشا:

إن تسمية القائد أو الباشا مقرونة بشخصية الحاكم وقوته إزاء السلطة المركزية، فهو نائب السلطان والممثل الفعلي له، وبيده حق الإشراف على الأمن وحماية النظام ومراقبة القوات الموجودة في إيالته. وقد أطلقت تسمية الباشا على الحاكم في تطوان لما ظلت هذه المدينة هي الوحيدة في شمال المغرب التي استطاعت أن تحافظ على حكمها الإسلامي المغربي بعد احتلال الإيبيريين لكل من سبتة وطنجة والعرائش، فأمست تطوان بحكم موقعها المجاور للمحتلين الأجانب ثغرا يربط فيه المجاهدون، ومركزا وسط قبائل عديدة تشمل جميع القسم الشمالي للمغرب. وذلك ما جعل حكامها يتمتعون بسلطة كبيرة وصلاحية مطلقة في التصرف وفي فرض المغارم وجباية الضرائب. وفي القرن الثامن عشر أصبح هذا المنصب شبه موروث أو مقتصرا على أسر بعينها، كما هو الشأن بالنسبة لأسرة الحمامي الريفي وأسرة لوقش في تطوان.

وكانت باشوية تطوان أو عمالة شمال المغرب تمتد في نطاقها الأوسع من طنجة غربا إلى تازة شرقا، ومن تطوان شمالا إلى مصب واد سبو جنوبا. وهذا التحديد الجغرافي لحكومة آل الحمامي بالخصوص خضع لمراعاة الناحية العسكرية من حيث الصراع بين المخزن والمحتل الأجنبي.

وفي زمن حكم الباشا كان يساعده القائد في تولي شؤون الرعية والتصرف فيها، والقيام بأمور الخدمة الشريفة. وكان الباشا هو الذي يختار قواده ويعينهم بعد موافقة السلطان أو إخباره بذلك. ففي عهد الباشا أحمد بن علي الحمامي فإنه جعل إخوته قوادا بالمنطقة الخاضعة لسلطته، فعين عبد الواحد قائدا على تطوان، وعزوز قائدا بطنجة، وعبد الكريم في العرائش. وكان والده الباشا علي بن عبد الله الحمامي حاكما مفوضا في تطوان وبقية الشمال المغربي، فكان له أن يولي ويعزل باسم السلطان مولاي إسماعيل.

وقد توسعت دائرة نفوذ الباشا أو القائد حتى أن السلطان منحه ما خوله تولية قضاة بعض المدن والقبائل التي في إيالته، واختيار بعض أمناء المراسي فضلا عن تعيين المحتسب وأبي المواريث، وتوكيل من يراه على مال المنقطعين وغيرهم، والتصرف فيه والبيع في الأصول وغيرها والإبراء

والصلح على القانون الشرعي. وكانت بعض تصرفات القائد تتم على حساب سلطة القاضي، إلا أن ذلك لا يعني أنه كان يظلم الناس بجهله للقواعد الشرعية، وإنما كان يستند فيما يصدره من أحكام على العادات والتقاليد التي لا تتنافى مع قواعد العدل الشرعي.بيد أن بعض القواد ممن حازوا ثقة السلطان استغلوا منصبهم للقيام بأنواع التصرفات والمخالطات لصالحهم إلى أن استغرقت ذمتهم لجانب بيت المال، ومن بين هؤلاء القائد عبد الكريم بن زاكور الفاسي. وكانت توليته على تطوان عام 1757/1171 وقضى فيها نحو ثماني سنوات إلى أن عزله السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1765/1179 وسجنه وأمر ببيع سائر أملاكه في تطوان. ويظهر أن هذا القائد قد أساء التصرف في رباع المخزن وفي مال المنقطعين وغيره، وأنه زيادة على ذلك لم يول هذه الأمور ما يتطلبه من وقوف وتبصر بسبب انشغاله بالنظم والنثر والموسيقى، بحيث كان يجذب إليه كل من كان فيه أهلية لذلك، فكانت أيامه محفوفة بالهناء والسرور.[47] وقد وقف السلطان عند زيارته لتطوان سنة 1765 على كثير من الخروقات والشبهات التي ارتكبها القائد المذكور، وأنه بقي في ذمته أموال لبيت المال كان عليه أن يسددها، ولهذا أمر صهر القائد ببيع « جميع ما له من الديار بحضرة تطوان حاطها الله بما يظهر له ولمن يرى... وكل ما له من أثاث والخشب والزرع وغير ذلك مما هو له هنالك من غير معارض له».[48] وكان السلطان قد ولى مكانه القائد محمد عاشر الذي شغل منصب خليفة القائد في عهد محمد لوقش، وكتب إليه في صدد الوقوف على بيع أملاك ابن زاكور وذلك في آخر ذي الحجة 1179، ونصه:« خديمنا القائد محمد عاشر سلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد فنأمرك أن تقف وقوف جد وحزم مع حامله صاحب محمد الصفار حتى يبيع جميع أجنة ابن زاكور ودوره وحوانيته وجميع ما ينسب إليه مما بيده صهره وأخيه وغيرهما وأجبر أهل البلد على شراء ذلك كله واقبض من احتاج له القبض من المخالطين له حتى تستخلص ما تخلد في ذمته من بيت مال المسلمين منهم وعلى هذا يكون عملك والسلام في آخر ذي الحجة الحرام عام 1179».[49] وبعد مرور حوالي شهرين كتب السلطان للقائد عاشر المذكور يبين له كيفية العمل في قضية ابن زاكور واستغراق ذمته بموجب شرعي، وتفرق أملاكه على أصحابه الذين كانوا ينتفعون معه في الأمور

---

[47] - السكيرج، ص.37 .

[48] - داود، ج.2 ، ص.259 .

[49] - نفس المصدر، ص.260.

المخزنية ويتصرفون له في الأمكاس من غير كراء فيختلسون منه مالا، وأمر السلطان قائده بأن يقبض من أصحاب ابن زاكور ألفي مثقال قيمة الأملاك. وقد قام عاشر بتنفيذ أوامر السلطان في استغراق ذمة ابن زاكور، ونصـــه: «شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه يعرفون القائد عبد الكريم بن الفقيه الكاتب السيد عبد السلام بن زاكور معرفة تامة كافية يشهدون بأن مولانا نصره الله لما ولى ابن زاكور المذكور الإستقلال بأمر تطوان ويعلمونه دخل إليها لا مال له ظاهرا ولا باطنا ثم جعل يتصرف فيما يرجع إلى بيت مال المسلمين من أمر المنقطعين وغيرهم بأنواع التصرفات كلها من بيع وشراء واشترى أصولا وبناها لنفسه تصرفا كاملا حتى صار بذلك مستغرق الذمة لجانب بيت المال لكونه لا يعلمونه تملك شيئا قبل ذلك على هذه الحالة عرفوه من حين دخل تطوان إلى أن ضرب على يده يحقون ذلك ولا يشكون فيه وقيدت شهادتهم مسئولة منهم في أوائل صفر الخير عام ثمانين ومائة وألف».[50]

وكان تعيين القائد يخضع في الغالب لأمرين: إما لتزكية نفوذ أو رغبة الأعيان من الأهالي،[51] فالمخزن كان يوافق على اختيارهم لمن يولي عليهم لأنهم كانوا مصدر كل اعتراض مفترض على الحكم. وإما أن يكون تنصيبه تدبيرا طبيعيا من طرف السلطان الذي يسعى لترسيخ الحضور المخزني، فكان يعين أحد رجاله وخدامه ممن يستمدون سلطتهم منه فحسب، وكان هذا شأن تولية علي بن عبد الله وولده أحمد.

وكان يتم اختيار السلطان للقائد من الأعيان لاعتبارين كذلك: إما لثروته الطائلة ووزنه الإجتماعي كما هو الشأن بالنسبة لعمر لوقش وابنه محمد، ومحمد تميم وعبد الرحمن قردناش، وإما اعتبارا لأمانته واقتداره عند مزاولته لبعض المهام المخزنية مما أكسبه حسن التفات السلطان إليه كما هو حال محمد عاشر وعبد الرحمن أشعاش.

1.1 – القائد علي بن عبد الله الحمامي:

ينتسب إلى العائلة الريفية التي كانت لها من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة والتخطيط للحرب والحصار ما كان لأولاد النقسيس وأولاد أبي الليف في تطوان وناحيتها. ونشأ القائد علي في بادية الريف وبها شب

---

[50] - نفس المصدر، ص.261 .

[51] - عبد العزيز السعود، **تطوان خلال القرن التاسع عشر**، منشورات جمعية تطاون أسمير، 1996 ، ص.124 .

واكتهل، وكان لذلك تأثير في طبعه المتميز بالبساطة والصلاح والشجاعة في نفس الوقت، وهو ما يذكرنا بخصال أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، فهمه هو الجهاد والإخلاص للسلطان. وقد سار في الناس أفضل سيرة بالرغم من كونه أميا، وقد وصفه ابن الحاج في درره بأنه « كان من أفضل خلق الله وكان مولاي إسماعيل يشاوره في أمور النصارى وغيرهم ويعمل برأيه... وقد كان قواد الريف والقصر والعرائش وطنجة وتطوان ومن في حكمهم تحت أمره ونهيه ... ويأمر العمال بالعدل وينهاهم عن الجور وعن أكل أموال الناس بالباطل...».[52] وقد أورد سكيرج حكاية طريفة لا تخلو من غرابة عن توليته وهي أنه لما مات القائد أحمد بن حدو، قال السلطان مولاي إسماعيل لأهل تطوان من تريدون أن أعمل عليكم، قالوا له: من يريد سيدنا، فقال لهم: من طلع علينا الساعة نوليه الحكومة. فطلع القائد علي بن عبد الله الحمامي ابن عم القائد المذكور وكان رجلا مسكينا.[53] وكما أتى بحكاية أخرى تبين قناعة القائد المذكور وعدله بين الناس وعفته، حين أمره السلطان أن يقبض من أهل تطوان غرامة المائة مثقال التي فرضها عليهم، فإنه جمع كسوة أولاده وحليهم وذهب بها إلى مولاي إسماعيل وقال له: إنك أمرتني أن أجبي من الناس وذلك حرام شرعا، فهذا متاع أولادي، فرد عليه السلطان ذلك.[54]

ولا شك أن هذه الحكايات ومثلها بما فيها من الطرافة والغرابة في نفس الآن تفيدنا عن الصورة التي كان الناس في تطوان يرون فيها هذا القائد ويتحدثون عنه بها. ومما لا ريب فيه أيضا أن هذا القائد المجاهد قد غلب عليه الطبع في البداية بدل التطبع، فنشأته بعيدا عن المدنية جعلته يحتفظ بخصال العفة والقناعة ومجانبة الجور، وأن ذلك بلغ إلى السلطان فوقع منه موقعا حسنا. لكن السفير الفرنسي دوسانت - أولون وصفه بأنه كان عنيفا ومتقلب الأطوار يصب جام غضبه على أقرب أصدقائه، إلا أنه يصير إنسانا بشوشا عندما يستعيد سكينته.[55]

وكان علي بن عبد الله قد خلف ابن عمه القائد عمر بن حدو الذي مات من جراء الوباء في نوفمبر1681، فأسند إليه السلطان حكم إقليم الشمال، وفوض له فيه التفويض التام، وكلفه بمباشرة الكلام مع ملوك أوربا. وفي هذا الصدد بعث القائد علي بن عبد الله رسالة إلى عاهل فرنسا في نوفمبر1691

---

[52] - أحمد بن الحاج السلمي، **الدر المنتخب المستحسن** (مخطوط)، ج.9 ، ص 300 .

[53] - سكيرج، ص.12.

[54] - نفس المصدر، ص.13.

[55] - Pidou de Saint-Olon, Op. Cit, p.237.

يقول فيها: « إلى عظيم الإفرنج وكبير المملكة الفرنصيصية والضابط لأمورها... المعظم في قومه الملك لويش الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنه لا يخفاك ما أسنده إلينا مولانا أيده الله ونصره من أمر هذا الإقليم المشتمل على هؤلاء المراسي من ثغر طنجة وتطاوين والعرائش والمعمورة وفوض لنا في جميعها التفويض التام الشامل العام وأقامنا ها هنا بصدد أن نتكلم معك ومع غيرك من أجناس النصارى ويتكلمون معنا ونتقاضى الحاجات فيما بيننا في سائر ما يبيحه لنا الشرع العزيز...».[56] لقد كان على معرفة تامة بالسلطان مولاي إسماعيل، فهو الوحيد الذي كان يحظى بشرف مرافقته وهو يركب فرسه ورمحه في يده، وأن يحدث السلطان بدون تكلف.[57] ويعزى هذا الصيت الذي اكتسبه لدى السلطان إلى كونه تعرض في بداية الحصار لطلقات بندقية من عند الإسبان لم تكلمه، مما جعل السلطان يعده من الصالحين.[58]

وقد عاش علي بن عبد الله طورا في تطوان ثم انتقل إلى طنجة بعد سنة 1684، وعين خليفة عنه بتطوان القائد محمد تميم سنة 1679 الذي استمر في منصبه إلى أن أعفي في أبريل 1682 حيث سلم هذا المنصب إلى الحاج محمد بن علي لوقش الذي بقي فيه إلى سنة 1696، ثم تولى هذا المنصب عبد الواحد بن علي بن عبد الله.

وأمسى مرسى تطوان في هذا العهد يستقبل السفارات والبعثات الأجنبية الذاهبة نحو مكناس، ويشهد رسو المراكب الأوربية القادمة لحمل الأسرى الذين وقعت فديتهم. وكما كانت تطوان هي التي تزود القوات المحاصرة لسبتة بالأقوات وبعض العتاد. وكان القائد علي بن عبد الله هو القائم على ميدان الحصار بحيث أصبح منذ سنة 1694 مكلفا بقيادة القوات المغربية المحاصرة لسبتة، وقد أكسبته صفة زعيم المجاهدين مجدا وهيبة من ناحية، وكما أن التقدير الذي حظي به من طرف السلطان مولاي إسماعيل أوغر صدور منافسيه وطعن دواخل حساده في مكناس من ناحية أخرى فسعوا بكل الوسائل إلى كبت صيته والنيل من سمعته لدى السلطان، فاتهموه بالتقصير في القيام بواجبه في مقارعة نصارى سبتة والتشديد عليهم فكانوا يرددون بأنه لم يفتح سبتة لأن ذلك لا يوافقه، إذ أن الأرض التي يقوم عليها الحصار تشغل مساحات كبيرة من أغراس الكروم التي يعمل فيها العساكر بالسخرة،

---

[56] - Henry De Castries, S.I.H.M . 2 - Serie , France, Tome III , P.418.
[57] - Saint-Olon, P.236.
[58] - Dominique Busnot, Histoire de régne de moley Ismail Roy de Maroc, Paris, 1714, P.229.

ويجني منها هو أرباحا طائلة.[59] ولهذا ترددت الاتهامات والشكاوي به على السلطان إلى حد أنه أرسل أحد أقربائه لمحاسبة القائد المذكور، إلا أنه بخوفه الفطري أرضى الجميع بالمال وبالهدايا العجيبة التي كان يحملها كل عام عند قدومه على السلطان بمكناس، وأنهم هذا الأخير بأنه لم يستطع أن يقوم بأكثر مما قام به في محاصرته للنصارى.[60]

وكانت نظرة الممثلين الأجانب أو وكلائهم إلى هذا القائد يشوبها كثير من التناقض بخصوص موقفه من قضايا المهادنة والمتاجرة مع الأوربيين، فقد ذكر السفير الفرنسي سان- آمان سنة 1683 أن للقائد علي بن عبد الله علاقة مصلحية مع قراصنة الجزائر تجعله يعارض باستمرار إقامة الصلح، فهو يضع عدة عراقيل أو يخلق عدة أحداث لأجل نقض الصلح القائم بين ملك فرنسا وسلطان المغرب، لأنه صديق كبير للجزائريين، إذ أن تجارته الرئيسية تقوم معهم، فضلا عن أن أولئك القراصنة يطلعونه على معداتهم الحربية، وهو يقدم لهم كل أصناف المساعدة والحماية لسفنهم في فرضات ومراسي حكومته. وكما أنه يملك بعض المراكب والغلائط التي يجهزها بالسلاح من أجل القرصنة، ولم يتردد مطلقا في مصادرة بعض المراكب الأجنبية بقصد المتاجرة بها في قادس.[61] وتمكن من فرض نفوذه حتى على بعض القناصل وجعلهم في خدمته كالوكيل القنصلي الفرنسي بتطوان بواييه الذي كلفه بمكاتبة السلطات التجارية لمدينة مرسيليا لأجل تسهيل مهمة مبعوثة اليهودي يوسف العازر الذي كان يتاجر لحساب القائد المذكو. وكما كان يترقب من الرهبان الفادين ربحا كبيرا فضلا عن الهبات المألوفة.[62] ووصفه الأسير مويط بأنه شرير سجن الجميع ولم يقبل إطلاق سراح الرهبان ما لم يؤدوا له مكوس الأبواب وهي ستة وعشرون ريالا عن كل رأس. وعندما قبض المال منهم نفاهم إلى شاطئ مرتيل، ومنع الرهبان من العودة إلى مدينة تطوان تحت طائلة استرقاقهم.[63] ويزعم سان-آمان أن الباشا يقدم نفسه أمام السلطان كعدو

---

[59] - Joseph Gayoso, Relaciones del reyno de Mequinez respectivos a su estado y Govierno military, especialmente en la provincia de Algurves, frontera de Zeuta y estado presente del sitio de esta plaza, Mayo 1720, Ms. B.N.M, folio 35,V.

[60] - Aljandro correa de Franca, Historia de Ceuta, manu, Libro Cuarto, cap. 6°, p.226.

[61] - Henry De Castries, S.I.H.M, 2 ème série, Dynastrie Filalienne, Tome VI, p.177. note,1.

[62] - Ibidem, p.559 , note 2.

[63] - جرمان مويط، **رحلة الأسير مويط**، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990 ، ص.75 .

للنصارى، ولكنه في واقع الأمر يسعى جاهدا ليفرض نفسه كوسيط وحيد مع الأوربيين، بحيث كانت له علاقات جيدة مع الإنجليز، فهم الذين أعلموه باستعدادات الفرنسيين لتوجيه حملة ضد المراسي المغربية الرئيسية.[64] وبينما كان موقفه من الممثلين الفرنسيين وتجارهم يشوبه كثير من الاحتزاز والتشدد لأنه كان يعرف سوء نواياهم، فقد كتب القنصل الفرنسي بتطوان بيير إسطيل إلى غرفة تجارة مرسيليا سنة1701 يقول إنه إذا كانت الرغبة موجودة في توجيه حملة ضد مرسى تطوان، فإنه بالإمكان حمل القوات من سبتة وإنزالها بشاطئ تطوان ثم التوجه نحو المدينة. وهذه الحملة لا تحتاج إلى المدافع لأن أسوارها منهدمة، وبإمكاننا نهب هذه المدينة بسهولة والاستحواذ فيها على كثير من الثروات، ونجعل من نسائها وأطفالها أسارى.[65] ولم يختلف القنصل الفرنسي دولا مكدولين عن سابقيه سنة 1708 فوصف الباشا علي بن عبد الله بأنه رجل نزوي ذو مزاج متقلب، ويجب التشريفات والتعظيم إلى أقصى حد، وبأنه عاجز عن تمييز الأمور إذ لا يمكن التفاوض معه حول التجارة لأنه يقطع ذلك بعنف حالما يشعر بمخالفة رأيه، ولذلك فهو يبحث بين الفينة والأخرى عن مبررات لتعطيل التجارة. وكان حينما تأخذه النزوة في بعض الأحيان يستقدم النصارى إلى ميدان حصار سبتة حيث جعل إقامة له هناك، فيقبضهم لمدة تتراوح بين خمسة عشر يوما وعشرين يوما قبل أن يسألهم عن سبب قدومهم.[66]

إن المعلومات التي وردت في تقارير الممثلين الأجانب ومذكراتهم وبالخصوص الفرنسيين منهم عن هذا القائد تكشف لنا عن وجه آخر من دوره المخزني لم تذكره المصادر المغربية، إما عن جهل بالأمور أو ضعف في إدراكها لا سيما عندما يتعلق الشأن بالمتاجرة والعلاقة مع الأوربيين. ولا يمكن أن نغفل أن احتكاره للسلطة السياسية والعسكرية وامتداد نفوذه على مساحة شاسعة ومفتوحة على البحر، مكنه من كسب مغانم ومنافع جوهرية وأساسية متأتية من استغلال الأرض الخصبة،ومن الجبايات وعائدات القرصنة والنشاط التجاري. وكما استفاد كثيرا من المبادلات مع أوربا فسمح لنفسه بحق احتكار الشمع والجلود من تطوان سنة 1708، وهما السلعتان

---

[64] - Cossé – Brissac, Les sources inédites de l'histoire du maroc. France, Tome VI, p.177 , note,1.

[65] - J.L.Miége, Tétouan a travers les siècles (lettre du consul P.Estelle, SI236) , Tetouan,1996, p.32.

[66] - Ibidem, (Correspondance de Consul De la Magdeleine avec la chambre de Commerce de Marsseille, J.1583), p.36.

اللتان تزايد الطلب عليهما آنذاك، وربط علاقات مع مدن أوربية مثل ليفورنة وأمستردام ولندن بواسطة التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون لحسابه، وجعل له وكيلا بجبل طارق اليهودي أبراهام بنيدر سنة 1705.

ولكننا إذا سلمنا بأن القائد علي بن عبد الله كان يتاجر مع المدن المذكورة ومنها مرسيليا أيضا، فهذا يعني أنه كانت له المصلحة الكاملة في الحفاظ على المهادنة مع الأوربيين وإبقاء الصلح معهم عكس ما ادعاه سان- آمان، ولنا أن نستثني من ذلك إسبانيا، وكان القائد علي كتب في ذلك للعاهل الفرنسي فقال: «... فتعلم أن أهل اصبانية لا يخفاكم شدة الكره الذي بيني وبينهم ووجه عداوتي معهم وكرههم في إنما هو لما رأوا في من الحرص والمهاوشة لهم في هذه البلدان التي كانت لهم في بر الإسلام كالعرائش والمعمورة التي انتزعناها بفضل الله من أيديهم وكمدينة سبتة التي أنا مجد في الظفر بها بعون الله فمن أجل ذلك صاروا يكرهونني...»[67] وكان الباشا قد شيد دارا كمحل لإقامته دعيت الدار البيضاء في مكان مرتفع بالقرب من أفراك الذي بناه المرينيون، وبعيد عن متناول المدافع الإسبانية، وهو يريد أن يبرهن بذلك للإسبان أنه لن يرحل من المعسكر ويرفع الحصار حتى يسترجع مدينة سبتة. وهذه الثقة «المطلقة» كانت موجهة أيضا لإقناع السلطان بعزمه في نيل مقصده، وكما اتخذ منها ذريعة لأجل المكوث بالشاطئ حيث الباب مفتوح أيضا لإجراء المفاوضات مع الأجانب وتعهدها. وكما يبين موقفه من التجار الأوربيين ومن قضية افتكاك الأسارى الفرنسيين «... ولا يخفاك أيضا أن التجار وغيرهم من النصارى الخطار إذا وفدوا على هذه البلاد واجتمعوا بأسارى جنسهم يحرضهم الأسارى على السعي في فكاكهم ويطلبون منا أن نكون لهم واسطة وعونا في ذلك ونتسبب لهم فيه فساعدناهم لذلك ووقفنا لجلب خاطرهم ورضاهم عند مولانا أيده الله حتى استجاب لنا وقبل منا ما طلبناه منه..».[68]

وإن هذا الوزن السياسي الذي كان يتمتع به الباشا المذكور، والتجاوب الذي كان يلقاه من السلطان فيما يخص شؤون العلاقات مع أوربا وقد أسبغ عليه صفة «نائب السلطان» على سائر المغرب، ونعته طورا ب «وزير أسطولنا» وحينا آخر بالمكلف بالعلاقات مع الأجناس، فكل هذه التسميات والنعوت تعد بمثابة صك تراض حذق بين سلطة انبثقت من أسر شريفة مؤسسة لحكم مركزي، وسلطة أضحت قائمة ومدعمة بواسطة «أوليغارشيه»

---

67 - داود، مصدر سابق، ج.2 ، ص.23 –24 .

68 - نفس المصدر والصفحة.

أندلسية وموريسكية حصلت أيضا على تزكية من المخزن المركزي. كل ذلك كان يوازيه النفوذ والصيت الذي كان يتمتع به في باشويته، فهو يعين من يراه أهلا لشغل منصب ويفوض له كتفويض السلطان، وإليه يلجأ البعض لالتماس العزل من الوظيف وهكذا. ونقدم مثالين عن ذلك: الأول تعيينه لمحمد عاشر خطة أبي المواريث على تطوان ونواحيها عام 1701:

«الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم. من فضل الله سبحانه وبركة سيدنا أيده الله ونصره يستقر مسطورنا بيد ماسكه الأنجد الذكي الأنبه الزكي الأنوه المتقي السيد محمد عاشر التطاوني ليعلم الواقف عليه من أصحابنا ومن إلى نظرنا من المدائن والقرى والمداشر والبوادي والحواضر أننا وليناه خطة المواريث وما يلحق بها ويندرج تحتها كالموات وبطون الأودية وما لفظه البحر والركاز وغير ذلك من حقوق بيت مال المسلمين عمره الله وفوضناه بأتم تفويض وأكمله في إعمال الصلح إن تعين له وتفويت ما إختار تفويته وبيع ما أراد بيعه دون معارض ولا مانع وعليه في ذلك كله بتقوى الله العظيم والسعي في نيل ثوابه الجسيم واجتناب سخطه النقيم وأن ينتهج في عمله نهج الشرع القويم أخلده الله وأن لا يرتكب في هذه الخطة شيئا مما لا يسوغ له شرعا والله بمنه يتولى توفيقه ويجعل الخير أنيسه ورفيقه بمنه ءامين والسلام وبثامن ربيع النبوي عام ثلاثة عشر ومائة وألف كتبه خديم المقام العلي بالله علي بن عبد الله الحمامي رعاه الله».[69]

[69] - نفس المصدر، ص.33 .

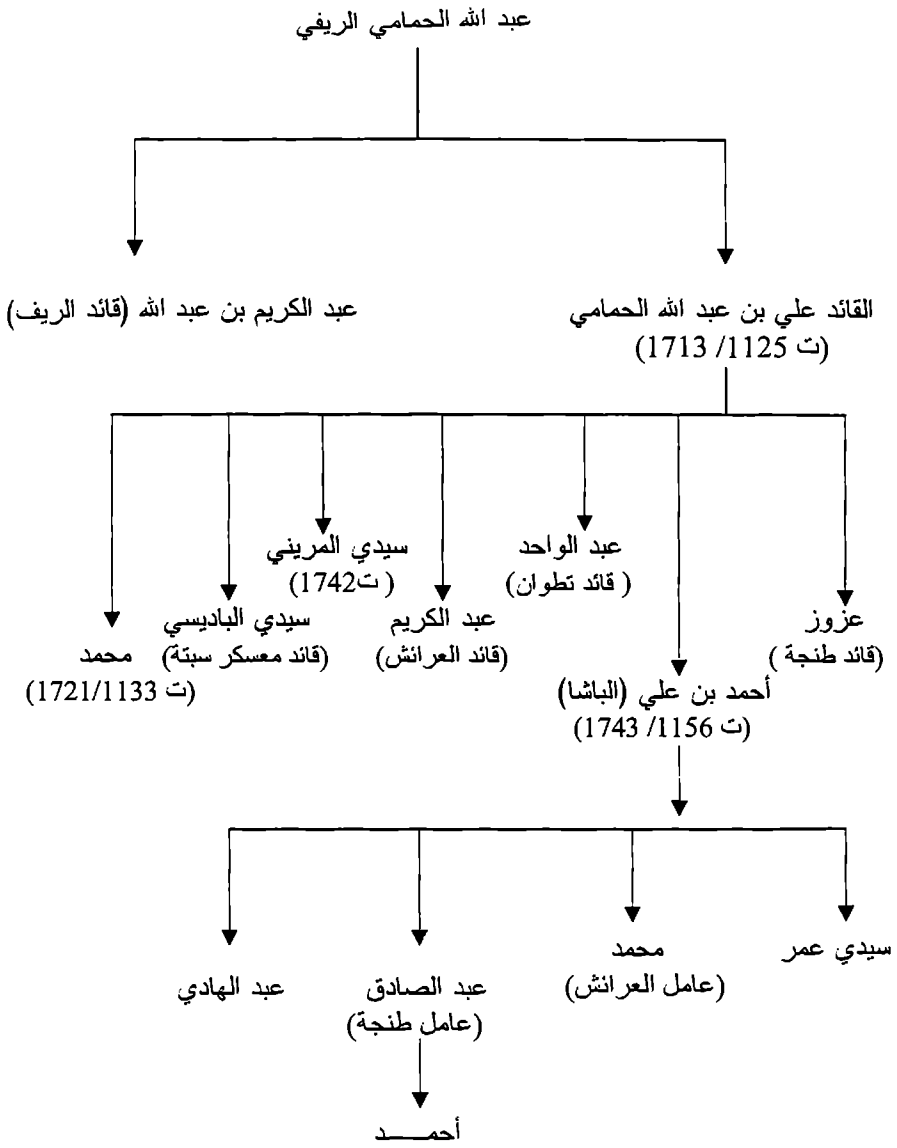

شجرة عائلة الحمامي الريفي في القرن الثامن عشر

والمثال الثاني رسالة كتبها قاضي شفشاون علي بن عيسى الشريف العلمي حوالي سنة 1740 إلى القائد علي بن عبد الله يطلب عزله عن ولاية القضاء بتلك المدينة.

« وأعلمك أن ولاية القضاء والحكم بين المسلمين قد صعبت علي في هذا الزمان الذي كثر فيه البغي والطغيان حتى تغير الحال... وتعذر تنفيذ الأحكام الشرعية والعمل بالسنة وارتكب الناس البدع ومحدثات الأمور... ولأجل هذا عزلت نفسي عن الحكم بين المسلمين وفررت إلى رب العالمين... فأحب منك وأرغب إليك وأتوسل بالله تعالى أن تعزلني عن هذه الولاية... فإن ولايتي كانت على يدك وتحت نظرك..».[70]

وقد توفي القائد علي بن عبد الله في قمة الحظوة والسلطة في شعبان عام 1125 موافق غشت 1713 بمدينة طنجة التي كان قد انتقل إليها بأمر من السلطان مولاي إسماعيل بعد استرجاعها من يد الإنجليز، وخلفه ابنه أحمد الذي ورث عن أبيه كل أمجاده وتراثه.

1.2- الباشا أحمد بن علي الحمامي:

- شخصية أحمد بن علي. ولد حوالي سنة 1093 هـ / 1682 م◆ ونشأ وترعرع في كنف السلطة حيث كان والده القائد علي بن عبد الله مفوضا من لدن السلطان مولاي إسماعيل في تطوان وبقية الشمال المغربي. وقضى أحمد معظم صباه متنقلا بين مدينتي تطوان وطنجة في وسط إجتماعي غلبت عليه سمة المدنية والرفاهية، فكبر بعيدا عن كل مظاهر التقشف والتعفف وخشونة الطبع وتجنب الجور في الأحكام، أي كل ما اتسم به سلفه،لكنه توفرت له ظروف مواتية لتلقي تعليم أحسن وكما أنه كان منذ شبابه على اتصال بالأجانب، وبذلك تكونت لديه فكرة عامة عن أحوال النصارى وعوائدهم.

وكان أحمد بن علي معتدل القامة وذا بنية قوية وهيئة مهابة، ومع ذلك لم يتصف بالشجاعة، فيه ميل نحو السمنة وسمرة البشرة مما أكسبه مظهرا رجوليا، إلا أنه كان شخصا متعجرفا شديد التكبر.[71] وقد وصفه بهذا النعت أيضا المهندس الإسباني كيوصو عام 1720. وكما كانت للباشا أحمد نفس طموح للتنظيم والعمران، وكذلك رغبة كبيرة في الحصول على هدايا وحب

---

[70] - نفس المصدر، ص.40 .

◆ قدر القبطان الإنجليزي بريث ويت الذي زار تطوان عام 1727 عمره بنحو 45 سنة.

[71] - جون وندوس، **رحلة إلى مكناس**، مصدر سابق، ص.60 .

جم للمال،[72] وبالرغم من ذلك فإنه كان من أكثر رجال الدولة استقامة في عصره.[73]

1.2.1- علاقته بالسلطة المركزية :

أ- الخضوع لسطوة السلطان . عهد إليه والده في حياته عمالة تطوان وطنجة، ولما توفي سنة 1713 أسند إليه السلطان مولاي إسماعيل ما كان لنظر أبيه وكساه من ألقاب عزه ومفاخره لقب الباشا، وكلفه بمهام الاتصال بالسفراء الأجانب، فناب عن السلطان في توقيع اتفاق مع الإنجليز في تطوان بتاريخ 27 يوليو1714. وكان أحمد بن علي قد تعرض في بداية توليه لمنافسة عمه عبد الكريم بن عبد الله عامل الريف الذي كان قد ثار ضده السكان وأجبروه على الفرار واللجوء إلى تطوان، وبعد أن سئم توجه إلى مكناس وسعى كل ما في جهده لإزاحة ابن أخيه عن الباشوية، إلا أنه هزم من قبل ممثل الباشا في مكناس، وتم اشتراؤه من السلطان بستة قناطير من الفضة وبيعت كل ممتلكاته وأودع السجن.[74]

وألفى الباشا أحمد نفسه حينما آل الأمر إليه أمام قضية الرباط على سبتة وحصارها وقد مر على ذلك نحو من العقدين دون أن يتم فتحها، ووجد بجانبه أيضا جيشا من المجاهدين الريفيين يعتمد في بقائه واستمراره على ما يسمح له به الباشا للحصول على الأقوات ويجود به من رواتب، ورأى تحت سيطرته مقاطعة ممتدة من وهران على البحر المتوسط حيث الحدود مع إيالة الجزائر شرقا إلى المعمورة على ساحل المحيط الأطلنطي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى نهر سبو جنوبا على مساحة تعادل مملكة البرتغال، مع ما يتطلب ذلك من مظاهر ونفقات غير عادية. وقد فرضت عليه سطوة السلطان مولاي إسماعيل أن يقضي أولى سنوات حكمه وديعا هادئا ومترددا بين مدينتي تطوان وطنجة وحصار سبتة.

ولكي يحافظ الباشا أحمد على مظاهر حكمه ونفوذه، ويسدد المصاريف الواجبة للجيش والمبالغ العظيمة التي كان ملزما بدفعها للسلطان أو إلى حاشيته وحريمه بين الفينة والأخرى، فإنه لجأ إلى الاستحواذ على أراض ومساحات كبيرة قام باستغلالها فلاحيا، وفرض على الناس ضرائب كثيرة وغرامات. لقد أخذ هذا الباشا على نفسه ليس على مستوى الابتزازات التي

---

[72] -Chantal de la veronne, Sources françaises de l'histoire de Maroc aux XVIII ème siècle. Revue d'Histoire Maghrebine, n° 21-22 , Tunis, 1981 , p.103.

[73] -Salmon, Essai sur l'histoire politique du nord- marocain, op. cit, p.65.

[74] - وندوس، مصدر سابق، ص.123

مارسها في حق الرعايا فحسب، وإنما أيضا على مستوى السلطة بالخصوص التي كان يستأثر بها والمبالغ فيها في نظر السلطان، لدرجة جعلته يشعر بخوف كبير عند زيارته للسلاطين.

وفي سنة 1721 قدم الباشا أحمد على السلطان مولاي إسماعيل بمعية السفير الإنجليزي ستيوارت، وكان لم يزره منذ ثلاث سنوات، ولهذا فإن الباشا استقدم معه إخوته الستة عشر بالإضافة إلى أبناء إخوته، وكأنه بذلك يسعى أو يحاول أن يظهر أمام السلطان بمظهر القائد المتمكن بعشيرته، وفي نفس الوقت بمثابة إجراء قد يقيه من غضب السلطان أو يخفف من سخطه المرتقب، وهو ما حدث بالفعل، فمولاي إسماعيل اتهمه بالتهاون عندما هزمه الإسبان وطردوه من معسكره بسبتة. وقد أشار إلى هذه الواقعة القادري، فقال:« وفي غرة المحرم فاتح عام 1133 خرج النصارى من البحر إلى البر من ناحية سبتة ووقعت غزوة عظيمة... ومات من المسلمين نحو الألف وتزحزح المسلمون إلى وراء ونهبت محلة المسلمين ودخل الرعب والخوف تطاون...».[75] وكانت حياته معرضة لخطر كبير حيث هدده السلطان ووصفه بأنه غير صالح للقيادة، وقد ظل الباشا في حالة هول ورعب كبير لمدة ثلاثة أسابيع متواصلة حتى سقط مريضا من شدة الخوف مما أدى إلى تدهور حالته الصحية،[76] وبعد أن أرعبه السلطان بما فيه الكفاية، فإنه سمح له بالدخول إلى القصر لرؤية إحدى أخواته التي كانت من ضمن زيجات السلطان. ولم يأذن له بالعودة إلى منطقة حكمه إلا بعد أداء غرامة ثلاثمائة قنطار من الفضة، بالإضافة إلى الهدايا التي جلبها وقوامها ذهب وفضة وبضائع غالية الثمن كان قد اقتناها، وأعداد من الخيول الصغيرة والبغال ومنتجات منطقة حكمه. ولأجل توفير الغرامة المفروضة فإن الباشا اضطر إلى تجريد حريمه الخاص من الحلي والناض لجمع القدر المطلوب بعد أن جبى كل ما أمكنه استخلاصه من الرعية.[77] ولكي يظهر السلطان رضاه على خديمه فإنه أعاده إلى حكومته وأهداه جارية مع ست عشرة من الإماء وأربعة وعشرين عبدا من حرسه الخاص مزودين بأسلحتهم للقيام بخدمته.[78] ومقابل ذلك، حتى لا يفقد السلطان هيبته وصرامته أمام الحاشية والرعية معا، فإنه صب جم غضبه على مرافقي

---

[75] - القادري ، **نشر المثاني**، مصدر سابق،ج.3 ، ص.252 .

[76] - وندوس، ص.72.

[77] - نفس المصدر، ص.122 .

[78] - Dominique Meunier, Le consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfeild (1717-1728), R.H.M, n° : 19-20, Tunis, 1980, p.261.

الباشا المذكور ومن بينهم العربي الشاط، الذي سجنه السلطان بعد قدومه من تطوان، وكان الشاط قد أقام مدة طويلة بجبل طارق بدون إذن من السلطان ولا علمه، وحيث اجتمع بنساء مسيحيات وشرب الخمر وكما اتهم بالكفر وأنه ممن دعوا الإسبانيين إلى غزو بلاد المغرب. ولما بلغت هذه الأخبار سمع السلطان فإنه قرر أن يضع حدا لحياة هذا الشخص بكيفية قاسية حيث أعدم عند أحد أبواب المدينة.[79]

وكانت الحاجة إلى المال تدفعه لفرض إيتاوات على الناس، ولا يفلت منها حتى أقرب المقربين عنده، فإنهم كانوا يقاسون من مطالبه ما يقاسيه ألد أعدائه، وكان هو في تصرفه ذلك لا يختلف في شيء عما يصنعه السلطان مع قواده من فرض للغرامات والإيتاوات ونحوها. وقد قدر الإنجليزي بريث ويت أن الباشا أحمد كان يقدم للسلطان وحاشيته من الأموال مائة وعشرين قنطارا من الفضة وأربعين ألف ليبرة من الذهب فضلا عن الهدايا. وعندما أعلن عن خبر وفاة مولاي إسماعيل في رجب 1139/مارس 1727، وأصبح جيش وصفان البخاري بقيادة الباشا امساهل مسيطرا على الأوضاع بالعاصمة مكناس، فإنهم أعلنوا عن بيعة الأمير أحمد الذهبي سلطانا خلفا لأبيه. وقد أقر أهل تطوان مبايعتهم السلطان أحمد بن إسماعيل لأنهم اعتقدوا أن بقاءه في الحكم سوف لن يدوم طويلا. وكان هذا السلطان قد أرسل أخاه مولاي علي إلى تطوان على رأس أربعمائة فارس لأخذ البيعة من الباشا أحمد بن علي الذي كان قد لجأ بعياله نحو طنجة، ووعد مبعوث السلطان بالقدوم إلى مكناس حالما تهدأ الأحوال بالجبال.[80] وكان السلطان المذكور قد ترك كل عامل على عمالته وكتب للباشا بذلك، وبعث له الشريف مولاي الطيب في عشرين فارسا من خدامه واثنين من كتبته بقصد جمع القبائل التي كانت تحت نظر الباشا من غمارة وصنهاجة السراير وأهل الريف وتمسمان لأجل تأكيد البيعة، وفي نفس الوقت منحه كل الإمتيازات التي كان يتمتع بها أيام والده مولاي إسماعيل. وفي شوال (يونيو) من العام المذكور وفد أحمد بن علي بالبيعة والهدية، وقدم معه من أصحابه ألف وخمسمائة من الخيل والرماة،[81] فألقى السلطان القبض عليه وألزمه أداء غرامة مائتي قنطار من الفضة، وكما تعرض منزل وكيله بمكناس للنهب.[82]

---

[79] - Ibidem, p.103.

[80] - Correa de Franca, Historia de Ceuta, Libro Quinto, Cap.8º, p.273.

[81] - عبد الكريم بن موسى الريفي، **زهر الاكم**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 ، ص.64 .

[82] - Meunier, Le Consulat anglais à Tétouan, op. cit, p.296.

ووصل الخبر في شعبان عام 1140/ مارس1728 بخلع السلطان أحمد الذهبي وتولية أخيه مولاي عبد الملك، وفي نفس الوقت سرى خبر بأن الباشا أحمد بن علي قد فر نحو جبل طارق عند الإنكليز الذين كانوا يساعدونه بالعتاد وينقلون له المدافع والمهارس أثناء حربه ضد تطوان، وبأن الباشا المذكور وأتباعه من أهل الريف يرفضون بيعة عبد الملك. إلا أن الباشا لكي يحبط كيد خصومه قدم إلى مكناس حيث أودعه السلطان في السجن مع أخوين له، وطالبهم بمائة قنطار من الفضة.[83]

ب- ا التلاحم بالصهر. شكلت علاقة الصهر إحدى الصيغ الأساسية لنسج خيوط الشبكة المخزنية التي تقوم بدورها على علاقة الأخذ والعطاء. فقد مر بنا أن السلطان مولاي إسماعيل كان قد عقد على بنت قائده على الشمال علي بن عبد الله الحمامي، وأن هذا السلطان طلب من الباشا أحمد بن علي في مارس 1726 أن يحضر زوجة لأحد أبنائه، وألزمه بمصاحبة العروس إلى مكناس إذا رغب في الاحتفاظ بحكومته. وهكذا انتظر السلطان قدوم الباشا الذي كان منشغلا في ميدان حصار سبتة ليعقد قران إحدى كناته على ابن السلطان[84]. وفي أواخر يناير 1728 جاء أحد الوصفان إلى تطوان مبعوثا من طرف السلطان أحمد الذهبي لغرض خاص وهو طلب القران بأخت الباشا التي كانت سيدة رائعة، إلا أن الباشا التمس مختلف الأعذار لتأخير سفر أخته معتقدا بدوره أن حكم السلطان لن يستمر طويلا.[85] وكان الباشا قد عقد فيما بعد على ابنته فتيحة زوجة حرة للسلطان المستضيئ، إلا أنها لم تتمكن من التمتع بزواجها بسبب الطوارئ الناجمة عن سلوك هذا الأخير سبلا غير آمنة.[86]

وإن مثل هذه المصاهرات التي حدثت بين السلاطين وعائلة الحمامي الريفي لا شك أنها شكلت ضمانة لدوام الولاء لشخص السلطان، وفي نفس الوقت تزكية للحاكم الذي يستمد شرعيته من السلطان بعينه، وكما أنها لحمت مصالح الطرفين لمدة زمنية ليست بالقصيرة كان الأمر خلالها قائما على تبادل المصالح وتكاملها، بل إنه يعسر جدا الفصل بين مصالح السلطان ومصالح الباشا، وخاصة وأن هذا الأخير عرف كيف يستغل تزحزح ميدان القوى في الصراع المحتدم بين الإخوة على العرش.

---

[83] - Correa de Franca, Op.Cit, p.277.
[84] - Meumier, Op.Cit, P.282.
[85] - Braithwaite, p.309.
[86] - Correa de Franca, Op.Cit, p.343.

ج - الإستقلالية والسعي للانفراد بالسلطة. أدت الحروب القاسية التي عانى من ويلاتها المغاربة نتيجة احتداد الصراع بين أبناء مولاي إسماعيل على العرش، إلى تضييق الخناق على كثير من المناطق والأقاليم بالبلاد، ما عدا جزء من التراب الوطني ظل يرزح تحت وطأة حكم الباشا الحاذق أحمد بن علي، وقد أولى اهتماما خاصا بالثورات والإنقلابات التي كانت تحدث على السلاطين، وكما كان من المؤكد أنه لم يتخلف في تشجيع طرف ضد آخر ودعمه بالقوة والمال كي يجني ثمار تفرقة كلمة المطالبين بالعرش، فقد وصفه الزياني «أنه (الباشا) في أواخر عهد مخدومه بدأت تظهر عليه علامات التمرد والنزوع إلى الإستقلال».[87]

لقد نجح هذا القائد في فرض نفسه بناحية بعيدة عن مركز السلطة إلى درجة أنه تمكن من الوصول إلى إستقلال شبه مطلق عن الحكم المركزي، بل وطمح في الاستفراد بالحكم.

وكان أحمد بن علي الرجل الأقوى بناحية الشمال الغربي للبلاد إن لم يكن في سائر أنحائها قد برز في عهده كشخصية ثانية في الدولة بعد السلطان. إنه كان يحمل لقبا ذا دلالة كبيرة، ويتصرف تصرف السيد المطلق في إقطاعيته، ويحتفظ بحامية عسكرية مكونة من بضع مئات من العبيد وثمانمائة فارس وآلاف الراجلين من الريفيين الذين يتكلف بنفقتهم في غالب الأحيان. وقد حاول أن يتجاوز بنفوذه المنطقة الخاضعة لحكمه بأسباب ترتبط بإرادته في لعب دور سياسي بارز على مستوى البلاد، إلا أن سلطته ما لبثت أن وجدت حدودها عند أسوار قصر السلطان كما سيتبين.[88]

إن المقومات الأساسية لقوة هذا الباشا تكمن في الثروة التي جمعها، وفي تبعات الحكم السياسي الذي تمتع به في منطقة حكومته.إنه راكم ثروة هائلة بسبب تعاطيه للفلاحة في سهول أنجرة، وقيامه بالمتاجرة في منتجات الحبوب وقطعان الماشية والجلود والشمع مع جبل طارق بالخصوص.

وحصلت النفرة بين الباشا أحمد بن علي والسلطان مولاي عبد الله سنة 1730 عندما ورد إلى مكناس للقاء السلطان المذكور، ولما دخل عليه برفقته أحد القواد، فإن السلطان ضرب ذلك الرجل برصاصة في رأسه فطار مخه

---

87 - أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 ، ص.215 .

88 - Abdelmajid Benjelloun, Le pouvoir personnel et l'autonomisme dans le Tétouan de la première moitié de XVIII° siècle : l'exemple signification du Caid Ahmed Ben Ali Riffi, Colloque : Tétouan, 1993, p. 98.

على الباشا أحمد الذي ملكه فزع شديد مع من كان حاضرا، ولما خرج من القصر أقسم أن لا يحضر عنده أبدا.[89]

وتمكن الباشا بفضل دهائه وعمل صنائعه من أن يفرض نفسه من جديد على جميع حدود منطقة حكمه في السابق بعد أن عزل السلطان القائد الفقيه عمر لوقش عن حكم تطوان سنة 1732/1145. وإنه فكر في العودة إلى محاصرة سبتة حيث شرع في غشت من نفس السنة في بناء سراي جديد، وولى أخاه عبد الكريم قائدا على المعسكر بينما ترك حكم تطوان لأخيه القائد عبد الواحد وانسحب هو نحو طنجة.[90]

وفي هذه الأثناء بلغ السلطان مولاي عبد الله أن الباشا المذكور ادعى الإمارة مما أوغر صدره عليه، فطير بعض أتباعه الإعلام له بذلك. وكان السلطان قد أمره بالقدوم إلى حضرته بمكناس،فخاف الباشا أحمد بطشه، ووجه له هدية عظيمة تشتمل على نفائس وأموال كثيرة مع ثلاثمائة من أعيان أهل الريف قدموا على السلطان من طنجة، فأمر بقتلهم عن آخرهم. فكان قتلهم بسبب نفور أحمد بن علي منه وسعيه في إفساد مملكة السلطان.[91]

واستقل الباشا أحمد بنفسه في طنجة، ولم يعد يبعث بمبالغ مالية للسلطان، وكما لم يخبره بتمردات السكان بسبب الزيادة في الضرائب المستخلصة منهم. وأما السلطان فأصبح بدوره في وضع لا يحسد عليه بسبب تهديدات العبيد بخلعه. وسيتيح له ذلك الفرصة للتدخل بشكل مباشر في الصراع حول السلطة، ففي شعبان عام 1740/1153 حين نصر العبيد عبد الله بن إسماعيل في البيعة الثالثة، امتنع أحمد بن علي من القدوم عليه وتحصن بطنجة، ولم يبعث له بهدية ولا بكتاب ولا برسول ولم يعبأ به، فاغتم السلطان من أجله كثيرا.[92] وخرج الباشا أحمد في قواته من طنجة إلى القصر وأحوازه فقام بجباية الأموال من أهل الغرب وممن ليس من حزبه، فوجه إليه السلطان جيشا من عبيد الرمل، فلما سمع به الباشا فرق الراتب وتهيأ للخروج لهم، إلا أن نصفهم انضاف إلى صفه لافتراق كلمتهم. واتفق الباشا مع عبيد الرمل على خلع مولاي عبد الله وبيعة أخيه زين العابدين الذي كان عنده بطنجة، فبايعه الباشا بطنجة وتطوان وبالجبال، ثم هيأ له كتيبة من عبيد

---

[89] - ابن الحاج، **الدر المنتخب**، ج.9 ، ص.1 .

[90] - Correa de Franca, Op.Cit, Libro Quinto, Cap.9°, p.296 .

[91] - **الدر المنتخب**،ج.8 ، ص.222 **والبستان الظريف**، ص. 247 .

[92] - **تاريخ الضعيف**، ص.134 ، **نشر المثاني**،ج.4 ، ص.25 .

الديوان وغيرهم وتوجهت به إلى مكناسة، فبايعوه في ربيع الأول عام 1154/ يونيو 1741 .[93] ولما رأى ديوان العبيد أن السلطان الجديد على قدر الحال وليس معه المال نبذوه ورجعوا إلى تولية عبد الله للمرة الرابعة في شهر رمضان من نفس العام. ثم إن أحمد ين علي أكثر من الإرسال إلى العبيد ووعدهم إن خرجوا على مولاي عبد الله ونصروا مولاي المستضيئ يوصلهم بما وعدهم به، فاتفقوا على خلعه وبيعة أخيه بيعة ثانية في شهر ذي القعدة من سنة 1741/1154. وفي آخر محرم العام 1155 ورد كتاب من الباشا المذكور لأهل فاس يدعوهم إلى بيعة المستضيئ والدخول في طاعته فامتنعوا.[94] وفي هذه السنة تزوج السلطان المستضيئ بنت الباشا أحمد بن علي وصنع لها عرسا كبيرا.[95]

ونهض جيش العبيد من شيعة مولاي عبد الله حاركا للباشا أحمد، وسار إلى أن وصل واد المخازن، ثم مر بالقصر فوجد أمامه جيش الباشا حيث التقى الجمعان، فكانت الهزيمة على العبيد، فقطع رؤوسهم وبعث بهم إلى القصر، وبعد هذه الوقعة دخل الباشا المدينة وقد استقبله أهلها بالطبول والهدايا.[96]

وكان أحمد بن علي قد أبرم صلحا مع إسبان مدينة سبتة (1742)، وهو حدث بدون سابقة من طرف رجل دولة مغربي كان قائما بمحاصرة الثغور المحتلة. وكانت الغاية من هذه المهادنة هي ضمان مناطقه الخلفية بالشمال بهدف تخويف السلطان مولاي عبد الله ودفعه إلى التنازل عن العرش لأخيه مولاي المستضيئ. وكان هذا الأخير قد فر إلى ناحية صهره الباشا يستنشده على قتال أخيه بعد أن عزله العبيد في ربيع الأول في عام 1156 / 1743.

وقوي صيت الباشا أحمد واشتدت شوكته واغترت نفسه بالأجفار، فنهض داعيا لنفسه، وحكى سكيرج: « أن طالبا من الطلباء أتاه بكتاب فيه خبر ينبئ عن مملكته فأعطاه مالا على ذلك وانصرف وما بقي حديث المملكة في مسامع الباشا. فبينما هو هابط من غرسته التي بالمقاصب من كيتان إذ تعرضت له امرأة هجالة وقالت له يا سيدي نصرك الله إن أهل مدشري عملوا على أن أعطي واجبي في الضريبة التي عليهم. فقال لها لا تعطي شيئا

---

[93] - **البستان الظريف**، ص.296 ، الضعيف، ص.135 ، **الاستقصا**،ج.7 ، ص 155 .

[94] - **البستان الظريف**، ص.307 .

[95] - الضعيف، ص.141.

[96] - نفس المصدر والصفحة.

ودارك حرم والتفت لبعض أصحابه وقال له إسمع ما تقول هذه المرأة نصرك الله يصير جفر الطالب حق...».[97]

وذكر الضعيف أن الباشا المذكور« رأى في بعض الأجفار أنه سيدخل مدينة فاس بالطبل وسيتولى عليها فاعتز بذلك وأخذ في جمع العدة والسلاح والمال».[98]

وكان الباشا قد شرع في تذليل الصعاب التي من شأنها أن تعثر أطماعه في الإستفراد بالحكم، وذلك بالتمهيد لنفسه في كسب المشروعية الروحية من ذوي الحل والعقد، فادعى انتسابه للشرفاء من أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش، وبعث لأهل جبل العلم المال والعلف والكتان وأغدق عليهم لكي يشهدوا له بالشرف. وكان بعض من علماء تطوان وفقهاء القصر والعرائش وطنجة وشفشاون قد رضخوا لأمره فشهدوا له به، وبعث لمولاي الطيب بوزان على أن يشهد له بذلك أيضا فامتنع.[99]

وصمم الباشا أحمد على النزال، فنهض في جيش كبير أوائل محرم 1156/ 1743 وسار إلى أن نزل بمكان يسمى العسال على ضفاف نهر سبو، وقصده إكراه أهل فاس ومن انضم إليهم من قبائل العرب، وقدم بعده المستضيئ ومعه العبيد. ولما بلغ خبر قدومه قنط أهل فاس « ووقعت فتنة كبيرة ودهش الناس من هول هذا الريفي انتهبت المواشي وماتت جوعا وارتفعت الأسعار بفاس ولحقهم الدهش. وفي كل صباح ومساء تخرج المدافع وتقرع طبول الباشا وطبول المستضيئ».[100] وكان قصد الباشا أيضا هو ترويع السلطان عندما ألقى بقواته في اتجاه فاس، وقد حاول مولاي عبد الله إقناعه بالتراجع ووعده بأن يظل باشا على الشمال، إلا أن أحمد بن علي كان عزمه الحقيقي هو إخراج السلطان من فاس. ثم إن هذا الأخير استصرخ البربر فأجابه منهم آيت ادراسن وكروان حيث قال لهم: «جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي كان خديمنا وأطغاه ما اكتسب من المال في خدمتنا... وجره إلينا أخونا المستضيئ وأراد الاستيلاء على بلادنا وفي الحقيقة إنما هي بلادكم.. وما قصده إلا إهانتكم..».[101] والتقى الجمعان يوم 22 صفر 1156/ يونيو1743، فانهزمت جيوش الباشا والمستضيئ وتركوا أخبيتهم وما اشتملت

---

[97] - **نزهة الإخوان**، ص.18 .

[98] - **تاريخ الضعيف**، ص.142 .

[99] - نفس المصدر والصفحة.

[100] - **البستان الظريف**، ص.309 .

[101] - نفس المصدر والصفحة.

عليه. وحدث سيدي محمد بن عبد الله عن هذه الوقعة فقال:« فلما وقعت هزيمة العدو وكنت في خمسين خيلا من أصحابي والوداية وقصدنا المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد بن علي وأحرزتها... فحملوا لنا عشرين بغلة من الريال في ربائعه وحملنا على ثلاثين جملا من الملف والكتان... وحملوا لنا قبتين قبة أحمد بن علي وقبة أخرى لعلها للمستضيئ.. »،[102] وفر الباشا احمد إلى طنجة والمستضيئ لبني حسن.

وفي مهل جمادى الثاني من العام خرج مولاي عبد الله ومعه الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر ونزل بوزان، وبقي يقصر المراحل لتجتمع عليه الجنود حتى وصل إلى القصر، وخرج أحمد بن علي الريفي من طنجة في أهل الرف والخلط والطليق وأهل الفحص وجبالة والعبيد ومؤازرة أخيه عبد الواحد قائد تطوان، فالتقى الجمعان من جديد بناحية القصر في 14 جمادى الثانية 1156 موافق 6 غشت 1743، فكانت الهزيمة على الباشا، واحتز رأسه، وعلق بباب الشريعة بفاس إلى أن جاء الشفيع فيه من عائلة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي من الجزائر، فقبل السلطان شفاعتهم وكتب بإنزاله.[103] وكان قد فر أثناء المعركة ولده القائد محمد في جماعة من عائلته إلى طنجة ومنها ركبوا البحر إلى جبل طارق، وكما كان من الفارين القائد الناصر الذي قدم إلى معسكر سبتة حيث كان القائد البديسي أخو الباشا وأخبره بالهزيمة، فلجأ إلى الإسبانيين بسبتة، وكذلك فعل نحو مائتين من أتباع الباشا من بينهم قواد عسكره الناصر وعلي وعيسى وسلام «أمزغار» ومحمد «المنوحي» وسيدي المرابط، أتوا جميعا بخيولهم وأمتعتهم وسائر حوائجهم إلى حاكم سبتة الذي منحهم حماية عاهله، إلا أنه لم يسمح لهم بدخول المدينة مخافة من عدوى الوباء الذي كان متفشيا في صفوف الجيوش المتحاربة.[104] ووفد على إثرهم إلى سبتة القائد عبد المجيد أحد أقرباء الباشا حيث أخبر بموته وأخيه عبد الواحد، وبأن جثته حملها بعض أصدقائه ودفنت بالعرائش، وكما أخبر بأن عبد الكريم عم الباشا الذي اتهمه هذا الأخير بالتجسس لصالح مولاي عبد الله وسجنه، قد عين قائدا على طنجة.[105]

---

[102] - نفس المصدر، ص.314 .

[103] - انظر عن هذه الوقعة **الدر المنتخب**، ج.9 ، ص.26 **ولسان المقال**، ص.32 ، **ونشر المثاني** ،ج.4 ، ص.45 ، **وتاريخ الضعيف**، ص.145 .

[104] - Historia de Ceuta, libro sexto, Cap.2°, p.311.

[105] - Ibidem.

وهكذا إنتهت «ملحمة» هذا القائد الذي لم يظهر مثيله بالبلاد، ولم يقم مقامه أحد من بعده، وكما أن السلطان تفطن إلى مكمن الخطر فاستخلص من عماله وكتابه ما كان عندهم من الأموال، واستعمل على كل قبيلة رئيسا منهم ولم يضم جميعهم لأحد خشية أن يثور عليه كما فعل الباشا المذكور. وكان معظم الناس يكاد يجمعون على أنه بعد موت السلطان مولاي إسماعيل، فإن الباشا أحمد بن علي كان باستطاعته أن يصير سلطانا على المناطق التابعة لحكمه لو أنه كان أقل قساوة في إدارته وأقل جشعا في حب المال وأكثر شجاعة وبأسا.[106]

1.2.2- علاقته بالأهالي :

أ - إستبداد المتسلطن . وصفه الضعيف بأنه كان صاحب كبر وخيلاء وذا أنفة، وأنه إذا خرج تبعته الخيل بالقادة مشهرين بالسروج من الذهب، وأنه كان يخرج في عيد الأضحى في ستين من القادة، كل قادة بين عبد زنجي ونصراني.[107] وذكر الإنجليزي وندوس أن الباشا لما قدم لاستقبال السفير ستيوارت لدى نزوله بمرسى تطوان سنة 1720 كان محاطا بإخوته وبحوالي مائتين من الفرسان وثلاثمائة من المشاة. وعند دخول الوفد إلى مدينة تطوان استقبله حشد كبير من الناس وهم يصيحون مرحبين، بينما صعدت النسوة إلى سطوح المنازل لمشاهدة موكب الباشا وهن يزغردن،[108] وفي قصر الباشا كان نحو من ثمانية أو عشرة من أعيان المدينة واقفين خلف الباشا وهو يتحادث مع السفير الإنجليزي، وبعد الانتهاء تجول الوفد في حدائق القصر وإصطبلاته التي كان بها عدد كبير من الجياد الأصيلة.[109]

وكان الباشا يتصرف كعاهل في رعيته فيتحكم في حياتهم وثرواتهم، وكان الأهالي أقرب إلى المستعبدين لا يملك الشخص أي شيء إلا برضى الباشا الذي يعتبر الحاكم المطلق في منطقته.[110] وقد بلغت به سطوة الحكم إلى أنه عندما نسوته كن يشتهين البرتقال من قصبة أزجن من مصمودة بالقرب من وزان حيث عين على هذا الإقليم قوادا من أهل الريف، يبعث الكراريط لأهل تلك القصبة يحفرون على قواعد الأشجار من أصل فروعها، ثم يحملونها على الكراريط بثمارها ويأمر قواد تلك القبائل بجرها إلى محل

---

[106] - Braithwaite, p.45.

[107] - **تاريخ الضعيف**، ص.144 .

[108] - وندوس، ص.35

[109] - نفس المصدر، ص.36 .

[110] - نفس المصدر، ص.42

إقامته، ويخرج الباشا مع حاشيته لاستلام تلك الأشجار والفرسان يلعبون بالبارود والطبول تضرب عليهم، ثم يدخلون الأشجار لوسط الدار فتدور بها الجواري والنساء والصبيان، ويقطفون منها البرتقال بأيديهم.[111]

ولعل القارئ يظن في هذا الوصف شيئا من الغلو، وهذا سلوك درجت عليه الكتابات التاريخية لتلك الفترة، ومع ذلك فلا يعني أن الرجل كان متعففا في استغلال نفوذه وسلطته، بل إن عنايته بمظاهر الأبهة والتعظيم وسعيه لتقليد السلطان في كثير من المناسبات كان من مبررات تطلعه للملك، وبالتالي مبررا منطقيا لاحتزاز رأسه من قبل السلطان والإحتواء على أمواله وما ترك من عدة وسلاح وخيل وذخائر نفيسة.

ب - التبعية الشخصية . تستعمل عدة مصطلحات للإشارة إلى علاقة التبعية الشخصية مثل صنائع، وأتباع وأشياع وموالي وأصحاب، وكلها تدل على شبكة الزبائن التي ترتبط بالجهاز المخزني حين يكون في وضع قوة. ولم تنقص الباشا أحمد بن علي القوة السياسية ولا العسكرية، بل إن نفوذه لم يقتصر على منطقة حكمه فحسب، وإنما استطاع أن يخترق القصر السلطاني بمكناس بأن جعل له صنائع أشياعا يعملون على تلميع سمعته لدى السلطان، ويبذل من أجل ذلك الغرض الأموال الوفيرة والسلع الثمينة للسلطان ولحريمه ولزمرة من حاشيته. وكان من أبرز هؤلاء القائد عبد الرزاق، ولعله كان من زمرة « قواد روسهم » الذين شكلوا وحدة خاصة كانت رهن إشارة السلطان مولاي إسماعيل بمكناس، ينقلون أوامره إلى رؤساء الجيش ويتجسسون عليهم. وكان هذا الشخص محل ثقة كبيرة عند الباشا أحمد بن علي، ويكن له تقديرا واعتبارا كبيرين، وقد أنفق هذا الأخير أموالا طائلة حتى يحتفظ صاحبه بمكانته إلى جانب السلطان. وكان عبد الرزاق رجلا حاذقا وملاقا وشديد الإحتراس والتعلق بمصالح الباشا، ويجيد أكثر من غيره عرض الهدايا وتقديمها في الوقت المناسب. وقد عرف كيف يستغل مكانته ليصبح من أهل الثراء مقارنة مع أقرانه من المغاربة، فقد امتلك دارا كبيرة بمكناس، وكان له اصطبل به عدد من الخيول الجيدة والبغال الثمينة، وكان يعمل في خدمته نحو مائة من الخدم.[112]

وكان للباشا أحمد بن علي حاشية من غير أفراد عشيرته تتكون من كتاب ومساعدين كانوا من بين أشهر رجال تطوان وأدبائها وتجارها، ومنهم

---

[111] - الضعيف، ص.143 .

[112] - Braithwaite,p.349.

الكاتب محمد بن سليمان الذي كان مساعدا للباشا في السياسة والتدبير وعين دولته ومسمعها.[113] والكاتب محمد بن يعقوب وكان من الشعراء الذين ارتموا في أحضان الباشا وتسابقوا في مدح شخصه وأعماله وهجو خصومه، وكما كان من أشياعه الكاتب عيسى الجزيري ومحمد الموفق الثعالبي الجزائري والرايس خليل وأصله من الشرق وغيرهم،بل إنه كان من المتقربين إليه والمستفيدين من فضله قاضي تطوان محمد بن محمد بن قريش، فقد ذكر سكيرج أن القاضي المذكور كان عينا للباشا، فكاتبه في شأن بعض الأهالي الذين اجتمعوا ليلا بقصد أن يعزلوه ويولوا رجلا منهم، وكان من بين المجتمعين خليفة الباشا بتطوان المهدي بايص الذي استمر على بيعته للسلطان مولاي عبد الله، ولم ينحرف عنه كشأن الباشا أحمد، فقدم هذا الأخير إلى تطوان وقبض على هؤلاء وعلق سبعة منهم، وبقي بايص الذي أراد أن يفدي نفسه بالمال، فكتب القاضي ابن قريش إلى الباشا « أما فلان فلا تطمعن في فلسه وألحقه ببني جنسه ففعل الباشا ذلك».[114]

وفي ميدان التجارة ارتبط بشخصه عدد من التجار ومنهم العربي الشاط ومحمد أبغلي وأبراهام بنيدر، وهذا الأخير من يهود تطوان كان مقيما بجبل طارق حيث اشتغل وكيلا تجاريا للباشا، وأصبح يتقن الإنجليزية فكلفه بمصاحبة السفير محمد أبغلي إلى إنجلترا كمترجم. وقد قدم هذا اليهودي خدمات جلى للأسطول الإنجليزي سواء لقيامه بدور المترجم الذي شغله إلى جانب الأميرال شارل ويجر، أو بالثقة التي تمتع بها نتيجة عمله لتزويد القوات البحرية والحامية العسكرية لجبل طارق بالأقوات.[115] إلا أن أبرز شخص اصطنعه وهيأه لخدمة مصالحه في خارج البلاد هو التاجر محمد أبغلي.

ومثلما كان له صنائع وأشياع موالين له، وجد أفراد يتجسسون عليه ويبعثون بمعلومات عنه إلى السلطان، إذ أن هذا الأخير لم يكن يأمن لحكم قائده الذي لم يكن بدوره يزوده بالأخبار الصحيحة، وخصوصا حول مسألة حصار سبتة أو قضية المتاجرة مع الأجانب ولا فيما يتعلق بالجبايات التي يستخلصها من الرعية، وكان من بينهم عم الباشا عبد الكريم بن عبد الله الذي كان منافسا له في البداية على حكم المنطقة ثم أصبح يشي به للسلطان مولاي عبد الله، وكان للباشا أخ اسمه عبد الكريم أيضا عينه قائدا على العرائش ثم

---

[113] - محمد بن الطيب العلمي، **الأنيس المطرب** ص.207 .

[114] - السكيرج، ص.26 .

[115] - Braithwaite, p.388 .

عزله وسجنه لشهرته بأنه جاسوس السلطان، وقيل هو الذي أخبر مولاي عبد الله بأن الباشا « مُصْبِحُكَ بجيشه »، فبادر السلطان بالهجوم على عدوه.[116] وكان أحد كتاب الباشا وهو الحميدي يكاتب السلطان مولاي عبد الله بكل نازلة وقعت عند الباشا أحمد ولا يدع شاذة ولا فاذة إلا وأعلمه بها، فكتب صاحب فراش السلطان بذلك للباشا وأعلمه بالخبر، وقد كافأه هذا الأخير فبعث لأحد أشياعه بفاس أن يدفع له ألف مثقال مقابل بطاقة فيها وشاية بالباشا، وأدخل كاتبه السجن بطنجة ولم يخرج منه إلا بعد دخول مولاي عبد الله إليها على إثر مقتل أحمد بن علي.[117] ويذهب بنا هذا السياق إلى تأكيد ما ذهب إليه الإنجليزي بريث ويت من أن الرشوة والإبتزاز والعمالة كانت متفشية بشكل مريع في دواليب القصر.

ج – **قضية التاجر أبغلي**. كان محمد بن علي أبغلي من كبار تجار مدينة تطوان وأمين المرسى بها، وكما كان من بطانة الباشا أحمد بن علي وأعوانه، وقد أشار هذا الأخير على السلطان مولاي إسماعيل بتعيينه سفيرا إلى انجلترا. وكان السلطان في أول الأمر اختار لهذا الغرض الرايس عبد القادر بيريس الذي قاد سفارة إلى إنجلترا سنة 1723، إلا أن الباشا أظهر معارضته لهذا التعيين، ورفض تزويد بيريس لدى قدومه إلى تطوان بأي شيء بذريعة أنه لم يؤمر في ذلك، وبأن المعني ليس أهلا لتسلم كميات كبيرة من الشمع والنحاس ليقتني بثمنها سلعا في إنجلترا لفائدة السلطان.[118] وقد وجد بيريس نفسه في ضيق شديد إذ كان ينقصه المال الكافي لمتطلبات سفره، ولم يحصل على قرض مائة ريال إلا بصعوبة كبيرة. وفي أثناء ذلك علم السلطان بدسيسة الباشا، ولأجل إصلاح الأمر فإنه كلفه باختيار سفير جديد سيما وأن له علاقة متينة بالأجانب وبالأخص الإنجليز وأنه كان يتمتع في السابق بحرية اختيار المبعوثين إلى الملوك النصارى، فاختار صنيعته التاجر محمد أبغلي. وحسب بريث ويت فإن السلطان كان قد اختار لهذه السفارة أيضا بدلا عن أبغلي ولد الحاج عمر لوقش الذي كان ينوب عن والده بديوانة تطوان، لكن يظهر أن مناورة الباشا أفشلت هذا الاختيار.[119]

وكان خـــروج هذه السفارة مـــن مرسى تطوان في 20 ربيع الأول 1138 /27 نوفمبر 1725، وقد أرفق الباشا صاحبه بحاشية مهمة مكونة من

---

[116] ـ داود، **تاريخ تطوان**،ج.2 ، ص.225 .

[117] ـ السكيرج، ص.22 .

[118] - Braithwaite, p.54.

[119] - Ibidem, p.126.

نحو العشرين شخصا منهم مفتي السفارة الحاج عبد السلام والكاتب محمد بن عبد السلام والأمين علي الزعيم وعدد من الخدم الذين يساعدون السفير ويهتمون بملابسه ومطبخه، والتراجمة فضلا عن الموسقيين،[120] وحمله رسالة إيصاء به إلى الوزير المفوض دوق نيوكاسل: « بعد السلام اعلم أن حامل الهدايا صديقنا وخديم سيدنا حفظه الله السيد السفير محمد أبغلي اختير من قبل سيدنا وأرسل سفيرا إلى بلاط الملك العظيم جورج بغرض تثبيت بعض المصالح أوكله بها السلطان في ذلك، ولأجل إتمام بعض الأغراض.. ولهذا نحبك أن تشد أزره كما هي عادتكم المألوفة...».[121]

وقد عهد السلطان للسفير المغربي بمهمة على غاية الأهمية، فعلاوة على الموضوع الأساسي وهو عقد صفقة لشراء السلاح، هناك مطالبة الإنجليز بمعاملة عادلة لليهود المغاربة الذين يتجرون في جبل طارق، ثم قضية مركب كان يحمل بضاعة يمتلكها تجار من تطوان أسره قراصنة إنجليز بالرغم من كونه كان يحمل راية بريطانية.[122] وكما كان السفير المغربي يحمل تعليمات تؤكد على رغبة السلطان في إرسال مبعوث آخر إليه من إنجلترا.[123]

ولقد مثل أبغلي في إنجلترا شخصية ذات شأن بما حظي به من حسن استقبال وتشريف حيثما حل، إذ كان يحاط بمظاهر الفخر في كل مكان كان يؤمه، وقد وصفته التقارير البريطانية بأنه كان في منتهى اللطافة في المعاملة والحصافة في الرأي وله ذوق سليم، وأنه لما زار مبنى الأكاديمية البريطانية لم يتردد في إبداء بعض الملاحظات وتقديم بعض الأفكار الأمر الذي يدل على ثقته بنفسه. ومما لاريب فيه، أن شخصية التاجر التطواني محمد أبغلي ساهمت بما فيه الكفاية في إنجاح المهمة التي سافر من أجلها، ولربما كانت الغيرة من بين الأسباب التي جلبت نقمة الباشا أحمد عليه، فقد أظهر أبغلي قدرة فائقة في التفاوض مع الإنجليز والحصول على هدايا فاخرة التي حملها إلى السلطان. وهذه رسالة بعثها إلى الوزير المفوض الإنجليزي دوق نيوكاسيل مؤرخة بلندن في 16 ذي القعدة 1138/ 16 يوليو 1726: « الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. صاحب المجد والرياسة والفضل

---

[120] - عبد الهادي التازي، **محمد بن علي أبغلي سفير السلطان مولاي اسماعيل لدى الملك جورج الأول ملك بريطانيا**، الأكاديمية، العدد 2 ، 1985 ، ص.42 .

[121] - Mcunier, p.279.

[122] - لتازي، محمد بن علي أبغلي سفير السلطان مولاي اسماعيل، ص.41 .

[123] - زوجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900** ، ص.128 .

والسياسة الوحيد في عصره الدوكي دونوكاسل السلام التام... إني عزمت على الإقلاع والسفر لحضرة سيدي وأردت منكم أن تعينوا لي سفينة في ست جمع ومسئلة وجب علي أن أعرضها على مسامعكم وأطلبها منكم محبة فيكم وبسبب ذلك إن شاء الله يدوم هذا الصلح بيننا وبينكم... وهو أن سيدي يريد أن يأتيه أحدا من بساطكم لزيارته وبقصد تجديد العهد والود الذي بينه وبينكم ولا يخفى على كريم علمكم أن صيت هذا الصلح بلغ خبره لكل قطر وكم من واحد من أجناس النصارى أراد أن يحصل محبة سيدي وصحبته فما وصل لذلك... فلأجله أردت إبقاء هذه المحبة ودوامها مع أنكم تعرفون سيرة سيدي... وقد كتب بذلك لكم في كتابه الشريف ونبه عليه، وخبر الحاج عبد القادر بيريس قد تقدم علمكم به أن سيدي رد عليه جميع ما جاء به وما قبل له شيئا من ذلك كله. وحاصله فعقولكم الراجحة لا يكبر عليها في هذه المحبة والصحبة التي بيننا وبينكم شيئا... وقد كتب سيدي على مسئلة تلك البلندرة التي حرثت بقرب جبل طارق وأخذها المركيس برزقها وناسها ومات منهم من مات تحت الأسر وهرب من هرب والباقي منهم خرج وقد تشكوا على سيدي أهل الرزق وها وكيلهم جاء صحبتنا بموجب شرعي على العادة المعروفة في ذلك وقد جاء في كتاب من كاتب سر سيدي على أن نتكلم في شأن اليهود الذين بجبل طارق أن لا يخرجهم أحد ولا يؤذيهم أحد وهذا شرط من شروط الصلح الذي بيننا وبينكم وقد جاء في الخبر من جبل طارق بأن حاكمه أراد أن يخرجهم فلأجله أردت أن يكون بأيدينا كتاب لحاكم جبل طارق يبقى بأيدينا فإن كل من يتولى أمر تلك البلاد لا نحتاج معه لكلام إذا كان الكتاب بأيدينا وكذلك يريد سيدي إذا هرب أحد من رعيته ودخل جبل طارق بمال أحد ويكتب عليه لحاكمه لا يمنع ويأتي لخلاص ما عليه والسلام. وفي السادس عشر من ذي القعدة الحرام عام 1138 خديم المقام العالي بالله محمد بن علي أبغلي رعاه الله أمين».[124]

وأقلعت سفينة بريطانية في 30 مارس 1727 من إنجلترا وعلى متنها سفير السلطان محمد أبغلي والقنصل العام الإنجليزي جان راسل، ورست بجبل طارق يوم 29 أبريل من نفس السنة، وهناك فوجئت السفارة بخبر وفاة السلطان مولاي إسماعيل وبوقوع عدة اضطرابات وفتن بالبلاد، فقرر السفيران المكوث بجبل طارق ريثما تهدأ الأحوال وتنجلي الأمور. ولما علم أبغلي بما جرى بين الباشا أحمد بن علي وأهل تطوان من صراع دموي استعصي عليه الأمر، واحتار إلى أين تكون وجهته، وقد توصل بعدة رسائل

---

[124] - Meunier,p.285. (Barbary States. S.P.71/17, f 83).

من الباشا يحثه على القدوم إليه وبعث بعض الأشخاص لإقناعه ولكن بدون جدوى.وقد أقلق هذا التصرف الباشا أحمد بن علي الذي بعث رسالة من طنجة إلى القنصل البريطاني في تطوان هاتفيلد مؤرخة في 14 رمضان 14/1139 يونيو1727: « إن ما نرجوه منكم هو أن تجدوا وسيلة لتبعثوا لنا بأبغلي من جبل طارق بأقصى ما يمكن من السرعة، ونرجوكم مكاتبة الأميرال والحاكم لأننا نتمنى بعون الله أن نكافئ الإنجليز على ما قد يسدوه لنا من خدمة ومعروف وخاصة في هذا الوقت إن بعثوه إلى طنجة بأسرع ما يمكن. وإذا أظهر رغبته في التوجه إلى تطوان فلا يقبل منه ذلك بأي حال من الأحوال، لأننا هيأنا في طنجة كل الترتيبات الضرورية لاستقباله هو وما أتى به... علاوة على ذلك فقد أصبحت السبل بين طنجة وتطوان منعدمة الأمن من كثرة قطاع الطرق. أما إذا عبر عن رغبته في البقاء بجبل طارق أو تعذر بأسباب ما للتأخر، فأرجو أن لا يعطوا أي اعتبار لما يبديه من رغبات، بل عليهم أن يبعثوا به إما عن طواعية أو كرها، فإننا نعتزم عند وصولنا إلى مكناس التحدث مع السلطان فيما يخص مصالح الإنجليز».[125]

ولما كان السفير أبغلي قد حمل عدة هدايا نفيسة من ملك إنجلترا إلى السلطان، فإن الباشا من جانبه كان يدرك تمام الإدراك الحاجة الأكيدة والجشع الكبير لوزراء السلطان ونساء القصر في مكناس في الحصول على نصيب من تلك الهدايا، علاوة على أن المصالح الخاصة للباشا ستمضي قدما. فاضطر للذهاب عند السلطان للدفاع عن نفسه لما حدث بينه وبين أهل تطوان وبدون سفير ولا هدايا، إلا أنه أوحى للسلطان أحمد الذهبي بكتابة رسالة إلى القنصل راسل في ماي 1727 لحثه على القدوم إليه رفقة الباشا أحمد بن علي.[126]

وقد أضحت حالة أبغلي مثيرة للشفقة وأصبح بين المطرقة والسندان، فلا هو قادر على أن يتوجه لمخدومه في طنجة ويترك عائلته وبيته وسائر أملاكه في تطوان عرضة للنهب والخراب بسبب تهديد الأهالي له، ولا هو بإمكانه الذهاب إلى تطوان لأن ذلك سيؤدي إلى هلاكه - لا محالة - إذا ما تمكن الباشا احمد بن علي من إستعادة سيطرته على المدينة. وأمام شدة

---

[125] - مينة مادني، **تاريخ الثورات في امبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل**، ترجمة ودراسة، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، السنة الجامعية 1999- 2000 ، ص.86 .

[126] - Braithwaite, p.27.

الحيرة فإنه فكر في اللجوء إلى ليفورنة إذا ما أمكنه الانفلات بجميع أمواله والهدايا التي معه.[127]

وكان الأميرال الإنجليزي يتوصل بعدة رسائل وطلبات من أهل تطوان ومن عند الباشا في شأن السفير أبغلي، فالتطوانيون يلحون على ضرورة إرساله إلى تطوان، ويؤكدون رغبتهم في عدم السماح له بالعودة إلى طنجة، وبأن السلطان غضب على الباشا. وكان هذا الأخير من جانبه يحمل على خصومه من أهل تطوان ويلح على ضرورة بعث أبغلي إلى طنجة. إلا أن الأميرال شارل ويجر لم يرغم أبغلي على شيء حتى تتضح الأمور أكثر، وفي نفس الوقت، سعى جاهدا للحصول على عفو الباشا عليه. وقد قيل إن الباشا تعهد للأميرال وأقسم له بالأيمان المغلظة بعدم الإساءة لأبغلي إذا ما عاد إلى طنجة.[128]

ووصل الرايس عبد القادر بيريس إلى تطوان يوم 22 غشت قادما من مكناس، وكان سبب مجيئه هو مصاحبة السفيرين البريطاني راسل والمغربي أبغلي حيث كانت رغبة أفراد القصر شديدة في الحصول على الهدايا. وقد أجرى بيريس عدة محادثات بجبل طارق مع الأميرال والحاكم حول سبب تأخر عودة أبغلي إلى المغرب، وبين أن هذا الأخير أعفي من منصبه كسفير. وكان لهذه التحذيرات تأثير على مستقبل أبغلي الذي نصح بالتفكير بجد في الرحيل من جبل طارق، لأنه ليست من مصلحة الإنجليز إثارة غضب السلطان ومعاكسته.[129]

وأمام اشتداد قلق أبغلي وفزعه، فإن الأميرال حصل من الباشا مقابل ما قدمه له من هدايا واستعطاف على عفو على أبغلي، وبذلك شجعه على النزول بطنجة. وقبل أبغلي التوجه إلى طنجة رافضا مرافقة بيريس لأنه يعرف ما كان يكنه له من عداوة وما يتمناه له من أذى لأنه حصل على هدايا رفيعة أتى بها في سفارته، ثم لأنه من خدام الباشا أحمد. وقد رضي الباشا بهذا القرار لأنه كان يفضل أن تصل الهدايا إلى يديه ليستفيد منها ويوزعها لمصلحته، فضلا عن أن عددا من المقتنيات الموجودة مع أبغلي كان قد اشتراها من مال الباشا الخاص.[130] وقد أظهر الباشا جفاوة كبيرة عند استقباله لأبغلي الذي دخل في موكب رسمي وقد أطلقت مدافع المدينة عدة

---

127 - Ibidem, p.38 .
128 - Ibidem, p.39.
129 - Ibidem, p.52.
130 - Ibidem, p.53.

طلقات لقدومه، إلا أنه ما لبث أن قلب له الدهر ظهر المجن، فلم يكن الباشا ليسمح لصنيعته الذي وضع فيه الثقة وأمنه على أسراره، وفضله على الكثير من ذوي المرتبة والجاه أن يدير ظهره أمامه، ولا أن يغفر له رفضه القدوم إليه. ولهذا سرعان ما نقم عليه وجرده من متاعه، فأصبح يعيش في حالة وضيعة، وقد ذكر بريث ويت أنه وجده يسكن في بيت صغير بني سقفه من القش ولم يكن معه خادم، وقيل إنه كان يشارك أخاه في دكان صغير في طنجة.[131]

د- العسف الجبائي. جعل الباشا أحمد بن علي قوادا من عشيرته من أهل الريف على جميع القبائل والمدن في المنطقة التي كانت تابعة لحكومته. وقد سعى بذلك لضمان الولاء والإخلاص لشخصه، وفي نفس الوقت قيام هؤلاء الحكام على ساق الجد في استخلاص الجبايات والمغارم التي كانت تفرض على السكان، وكان جلهم يتجاوز في ذلك الحد ويفرطون.ولم يكن أهل تطوان وحدهم من المتضايقين من كثرة التكاليف التي أرهقت كاهلهم، بل كان سكان البوادي المجاورة جد متضايقين بدورهم ومتذمرين من فرط الضرائب، علاوة على أعمال السخرة التي كان يلزمهم بها في أراضيه التي كان يستغلها في الفلاحة بنواحي أنجرة والفحص، وكانت عنده قبيلتان من أهل الجبل محررتان لأجل السلاق للصيد.[132] وكما أن أهل الريف بلغوا في مدته من الجور الغاية لما كان يرهقهم به من المغارم وإرسال الحركات لجمعها. وأرغم السكان بنفقة ثلاثمائة إلى أربعمائة من العبيد كانوا في جملة حرسه وعسكره، وكانت مهمتهم هي ضمان بقاء المنطقة تحت حكمه. وكان الباشا يتصرف فيها تصرف الحاكم الإقطاعي في إقطاعيته فيستحوذ على الأرض والدور والخيل وكل شيء طاب له، وكان الرجل يدفع النائبة على رأسه من سوق إلى سوق، فمنهم من يعطي العشرين مثقالا عليه وعلى أولاده، وآخر عشرة مثاقيل وآخر خمسين أوقية. وكان يقبض النائبة من الأيتام والأرامل والمساكين والضعفاء.[133] وقد اشتدت معاملته لبعض أهل تطوان حتى أن كل شخص اغتنى عن طريق التجارة أو الصناعة يبذل كل جهده في إخفاء غناه وإظهار الفقر، فإذا بلغ الباشا إثراء أحدهم فإنه يأمر بوضعه في السجن حيث يتم جلده وتعذيبه إلى أن يظهر ما عنده، فقد حكى هاتفيلد القنصل الإنجليزي بتطوان فقال:« عند مروري البارحة أنا والمستر نوبل أمام السجن رأيت

---

[131] - Ibidem, p.384.

[132] - الضعيف، ص.144 .

[133] - نفس المصدر والصفحة.

رجلا معلقا من رجليه ومكبلا بالحديد وعلى انفه لقاقيط ولحمه يقطع بالمقص ورجلان يضربانه بالعصا ويطلبان منه المال. وهذا الرجل اشترى بثمن خمسمائة دوقة، ويحاولون استخراج هذا المبلغ منه بواسطة التعذيب..».[134] وهذه الحكاية بالرغم مما فيها من تفاصيل دقيقة عن حالة التعذيب الفظة، فإنه تجب الإشارة إلى العداء المستحكم الذي كان بين الباشا والقنصل المذكور الذي أصبح غير مرغوب فيه في تطوان بعد قضية الحجرة النفيسة.

وقد عظم الضرر على الناس لكثرة الضرائب، فمنهم من ترك أولاده وفر بنفسه، ومنهم من اختفى وصار يغزل القطن، ومنهم من أدى ما عليه من المغارم حتى افتقر ولم يبق بيده شيء وسار هائما على وجهه. وقد زاد من قنوط الأهالي وكربهم تعنت الأجلاف من أعوان الباشا، فقد ذكر السكيرج أن جده لأمه كانت له أرض يحرثها بخمسة أزواج من غير الأغراس والأجنة، وكان يؤدي المغرم حتى نفد ما كان عنده وسافر وترك زوجته وأولادا صغارا في الدار من غير شيء، فأقبلت العريفة والجابي لأجل أخذ الضريبة التي على الزوج، فأظهرت الزوجة العسر، فجعلا ثدييها في الصندوق وسدوه وصعدت العريفة فوقه والجابي يضرب المرأة حتى أغمي عليها، ثم أمسك بفأس وهدم الدار عليها.[135]

ولم يستثن الباشا أحدا من الناس من دفع الضرائب والإيتاوات كلما ألزمته الظروف بجبايتها بما في ذلك أصحابه والمقربين إليه، فكان يقبض النائبة من الأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين. وروى السكيرج أن مولاي الطيب شريف وزان بقي مدة من ثلاثة أشهر يريد ملاقاة الباشا، فلما لقيه قال له: إن مولاي إسماعيل أمر أن لا يشاركني أحد في الظلم، وأنت تطلق أحفادك ينصفون الناس في المداشر، علي بعهد الله إن شعرت بواحد منهم أتى مدشرا لقطعت رأسك.[136]

إلا أن جانب القسوة في شخصية الباشا كان يوازيه أو يعدل منه جانب الحلم عنده، وهذا السلوك يعكس بوضوح سياسة المخزن القائمة على الجمع بين الشدة واللين، فجانب الشدة يمارسه بالخصوص الأعوان تحت ضغط الباشا وترهيبه، وأما جانب الرأفة فيشخصه الباشا نفسه، فقد أورد سكيرج

---

[134] ـ وندوس، ص42.[وعادة تقديم المال قصد القضاء على شخص، وكذلك شراء شخص ليصبح تحت تصرف المشتري بصفة كلية عملية كانت تمارس من طرف المسلمين واليهود على السواء].

[135] ـ السكيرج، ص.24 .

[136] ـ نفس المصدر والصفحة.

واقعة حدثت لجده حين قبضه حاكم تطوان من قبل الباشا أحمد ويدعى المزوري وأدخله السجن على ضريبة فرضها عليه، فلما دخل السجن وجده مملوءا بالناس، ثم لجأ إلى الباشا في طنجة ليشتكي، فلما حضر لديه أعلمه بالأمر، فكتب له كتابا يعفيه من الأداء وجعل داره حرما.[137] وكانت للباشا أخت تسكن بزنقة المقدم بتطوان قرب دار الصغير، ولما كان أهل تطوان يفرغون أجنتهم في الخريف، فإن أولاد الصغير أعطوا أخت الباشا مدا من الزبيب وآخر من التين، فلما قدم أخوها جاءته بالزبيب والتين وقالت له: هذه هدية أولاد الصغير لنا، فقال لها بقي من أهل تطوان من يحبنا، وجعل زنقة المقدم كلها لسكنى أولاد الصغير.[138]

هـ- **العراك مع أهل تطوان.** عانت مدينة تطوان والمناطق المجاورة لها من جور الباشا أحمد بن علي ونكايته، ولهذا فبمجرد وفاة السلطان مولاي إسماعيل فإن أهل الجبال المجاورة لتطوان كانوا أول من حمل السلاح في وجه حاكمهم الباشا المذكور بما أضمروا له من الحقد لتصرفه فيهم بالمغارم. وقد ذكر السكيرج أن أهل قبيلة وادراس بعثوا للباشا طالبين أن يعبروا معه المد (أي حربه) بزعامة محمد بن العربي بن الشيخ التهامي الوزاني. فجمع الباشا أعيان تطوان وتخابر معهم في موضوع حربه للجبليين، فأجابوه بما يرضيه، فخرج إليهم فكسرهم وقطع منهم رؤوسا وبعث بها إلى تطوان وذهب لثغر طنجة.[139]

وكانت المعلومات التي توصل بها حاكم سبتة من أحد المخبرين أفادت بأن الجبليين انتهزوا فرصة غياب الباشا الذي لجأ إلى طنجة احترازا من السلطان الجديد، فقاموا بالهجوم على الريفيين في المنطقة حيث ولد أحمد بن علي وحيث أفراد عائلته وأقربائه وأصدقائه، فخربوا الدور ونهبوا المواشي والخيول وقتلوا كل من اعترض سبيلهم،[140] وكان يتزعمهم محمد بوالليف صاحب الصيت الكبير والسلطة القوية في المناطق الجبلية،وهو سليل أسرة أندلسية عريقة، ويتميز بالشجاعة، وكان من أشد الناقمين على الباشا بسبب ما فرضه عليه من تكاليف تعسفية ومغارم ثقيلة، وكما كانت له صداقات كبيرة

---

[137] - نفس المصدر، ص.23 .

[138] - نفس المصدر، ص.25 .

[139] - **نزهة الإخوان**، ص.16 .

[140] - Correa de Franca, libro quinto, Cap.8º, p.272.

ومصالح مع أعيان تطوان الذين وعدوه بالوقوف إلى جانبه حالما قيامه بالثورة ضد الباشا أحمد بن علي.[141]

وبعد هذا الحادث طلب الباشا أحمد من أهل تطوان مساعدته على معاقبة الثوار، إلا أنهم أبوا متذرعين بأنهم إن خرجوا من المدينة، فإن الجبليين سيغتنمون الفرصة للنزول إلى المدينة ونهبها. فلجأ الباشا إلى رفع الحصار المضروب على سبتة لكي يستخدم عسكره في غرضه، إلا أن أغلبهم انفضوا من حوله ولم يبق معه سوى عدد قليل بالإضافة إلى نحو أربعمائة من العبيد، وأتاه أخوه القائد عزوز بنجدة من طنجة قوامها خمسمائة فارس يوم 19 مارس، ولكنه تعرض للهجوم من قبل الثوار الجبليين الذين قتلوا له خمسة وعشرين فارسا وجرحوه بواسطة رمح اخترق ساقه واستقر في بطن الفرس.

وهذا التطور في الأحداث يظهر أن أهل تطوان لم يكونوا حقيقة هم أول من أثار الفتنة والتمرد ضد الباشا أحمد بن علي. وكان هذا الأخير قبل خروجه من تطوان لمحاربة الجبليين قد نصب قائدا عليها أخاه عبد الواحد، وترك معه جيش العبيد ليتحكم فيها.[142] إلا أن الأهالي لم يظهروا سوى قليل من الاحترام لأوامر هذا القائد الذي وجد صعوبات جمة في إلزامهم بالطاعة بعد غياب الباشا، وقد نادى أحدهم أن على كل الريفيين مغادرة المدينة في وقت محدد وإلا تم هدر دمهم، فبعث القائد من يقبض على محرك هذه الفتنة، فنشب صراع أجبره وأتباعه على اللجوء إلى دار الباشا بذريعة الدفاع عنها. وقد أورد السكيرج حكاية عن بدء الصراع بين أهل تطوان والريفيين لا تخلو من أسطورة تراجيدية بدأت بتنازع تطواني وريفي على قب ماء في حمام السوق الفوقي أفضى إلى هرج ومرج، فاجتمع على كل فريق إخوانه ونشأ عن ذلك مقتلة عظيمة،[143] وقد خاف القائد أن تمتد أيدي الأهالي إلى مخزن البارود فأمر بتفجيره، وانهدم بسبب ذلك ستون بيتا دكت كلها من أساسها. وقد تحدث عن هذه الواقعة الإنجليزي بريث ويت بصفة شاهد عيان، بينما أورد السكيرج رواية تخالف ذلك وزاد على أن دار الباشا انقلبت بما كان فيها وانهدم المسجد الجامع القريب منها وكل ما والاها من الدور لدوي الإنفجار.[144] وفي أثناء ذلك لجأ القائد مع أسرته إلى حرم أحد الأضرحة ومنه فر إلى أخيه الباشا بطنجة. ولما بلغ الخبر لهذا الأخير أرسل إلى أهل

---

[141] - Braithwaite, p.12 .

[142] - Ibidem, p.13.

[143] - **نزهة الإخوان**، ص.17.

[144] - نفس المصدر والصفحة.

تطوان يطلب منهم الصلح على أن يتعاهدوا بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش وإحضار كتاب صحيح البخاري وغيره فامتنعوا.[145]

وحالما هرب القائد إلى طنجة فإن القوم قاموا بهدم قصر الباشا وتخريب أجنته مثلما فعل الجبليون من قبل بدار نزهته وبساتينه خارج المدينة. إلا أنه رغم هذه الحوادث العدائية فإن الأهالي لم يعلنوا معارضتهم للسلطان أحمد الذهبي بل بايعوه، وسعوا إلى تبرير تصرفاتهم مدعين أن الباشا هو الباعث لكل الحقد والشحناء بسبب بغيه وقهره للناس، وأنه بعدما شيد قصرا لا يليق إلا بمقام السلطان وجعل بساتين بديعة امتنع عن تسديد رواتب العمال ومستحقات الأهالي الذين زودوه بمواد البناء. وهكذا بعثوا وفدا عنهم يحمل هدايا للسلطان ولكبار وزرائه، ويلتمس منه التخفيض من ثقل المكوس وإيفاد باشا جديد للمدينة.[146]

ووصل إلى تطوان يوم 4 يوليو خبر تعيين قائد فاس الجديد عبد المالك بوشفرة الوديي باشا على تطوان. ولكي يرضي السلطان الطرفين المتصارعين فإنه قسم حكم المنطقة بين الباشاوين، إلا أن الإعتقاد الذي كان سائدا هو أن الباشا أحمد كانت لديه تعليمات من السلطان باسترجاع حكم المدينة حينما تسمح له الظروف بذلك، أو عندما يقدر على التصرف بقواته الخاصة.[147]

وكان السلطان أحمد بن اسماعيل قد بعث في منتصف يوليو 1727 رسالة إلى القنصل الإنجليزي بتطوان هاتفيلد، وإلى سائر التجار النصارى المقيمين بالمدينة يعلمهم بتولية الباشا عبد الملك بوشفرة حكم تطوان وما ولاها، وبتقسيم المنطقة الشمالية بينه وبين أحمد بن علي. وورد خبر من مكناس أن هذا المنصب اشتري بمبلغ خمسمائة دوكة ذهبية سلمت لمحظية السلطان.[148]

وقبل أن يصل الباشا الجديد إلى تطوان كان أهلها قد استعدوا غاية الإستعداد واستكثروا من العدة، وحصنوا المدينة بالمدافع والأسوار ورتبوا العسة «وتشبروا على أرودان أمام المدينة بالأنقاض وعلى قصبة الذيب وجهة الرياض».[149] وقد حدثت مناوشات بين الباشا أحمد والجبليين حينما كان ذاهبا إلى مكناس وأثناء عودته منها حيث تعرض له بوالليف في جمع

---

[145] - نفس المصدر ص.18 .

[146] - Braithwaite, p.16.

[147] - Ibidem, p.21.

[148] - Ibidem, p.29.

[149] - عبد الملك بن موسى الريفي، **زهر الأكم**، ص.65 .

كثير من أهل الجبال والفحص وأسريف، والتقى الجمعان على مشرع الحاشف جنوب طنجة في آخر شوال 1139/ يونيو1727، فكانت الهزيمة عليهم. وشن أهل قبيلة بني مصور وجبل حبيب هجمات متفرقة على قوات الباشا أحمد بن علي وقاموا بأعمال نهب، فزحف إليهم في عسكر من أصحابه وأوقع بهم حتى أذعنوا له بالطاعة.[150] وهكذا أصبح السبيل ممهدا أمام الباشا المذكور لقصد مدينة تطوان والانتقام من أهلها لما أظهروه من العداء نحوه والاستعداد لمحاربته. ففي صباح يوم 19 سبتمبر1727 (2 صفر 1140) أطلقت مدفعية القصبة طلقات نارية تنذر بتقدم قوات الباشا نحو المدينة، وقد جاء في ستة آلاف من الفرسان والمشاة مهددا بتخريبها بعد أن قام بإحراق الأراضي التي مر بها في طريقه. وسرى الاعتقاد بأنه يحمل إذن السلطان في القيام بما يعده رد الاعتبار لنفسه، أو أنه يعتقد أن السلطان أصبح ضعيفا أو عاجزا عن ردعه، إلا أن الأهالي كانوا يجمعون على أنه لم يتصرف هكذا إلا بموافقة السلطان وتأييده لأجل إخضاعهم لأنهم يعتبرون من أنصار مولاي عبد الملك.[151]

وخلال الثلاثة أيام التالية ظل الباشا يحاصر المدينة بينما احتفى المدافعون عنها بسلاحهم وراء الشبارات،وقد نصبوا فوقها ست عشرة قطعة مدفعية بالإضافة إلى ما كان عندهم بالمدينة والقصبة.وقد وقعت مناوشة بين فرسان المدينة وفرسان الباشا أحمد، إلا أنهم تراجعوا أمام أكثر من ثمانمائة فارس بينما لم يكن فرسان المدينة يتعدون المائة.[152] وفي يوم 22 من سبتمبر رفع الباشا الحصار ورجع إلى طنجة بعد أن أخذ معه عددا وافرا من رؤوس الماشية، وأما أهل تطوان فأقاموا المتاريس لعسسهم على طول خطوطهم الدفاعية، وبنوا حصنا مربعا أمام باب المدينة لنصب إثني عشر مدفعا كبيرا.[153]

وفي أوائل أكتوبر حل بتطوان وفد من مكناس بقيادة علي بن عطا ثم انضم إليه الخصي الأسود قائد رأسه، وأشاع أن مهمته هي إبرام المصالحة بين الباشا أحمد وأهل تطوان. ولكن الحقيقة أن الباشا المذكور بعثهم كجواسيس لمعرفة ماذا يجري في المدينة، بل إن أهل تطوان كانوا يشكون أيضا في الباشا بوشفرة مقتنعين بأن السلطان لم يقرر تقسيم حكم المنطقة إلا

---

[150] ـ نفس المصدر والصفحة.

[151] - Braithwaite, p.79.

[152] - Ibidem, p.80.

[153] - Ibidem, p.81.

تحت ضغط الظروف، ولم يفعله بمحض اختياره ولا رغبة في إقامة العدل لصالح المدينة.[154] وفي يوم 5 أكتوبر ظهر الباشا أحمد بن علي على مقربة من تطوان في قوات أكثر عددا من الهجوم السابق، وما أن اقترب من المدينة حتى أطلقت مدفعية القصبة عدة طلقات إنذارية وأسرع الأهالي إلى استحكاماتهم، وفي الغد أتى مرسول من عند الباشا يطلب منهم أداء أربعين ألف دوكة كتعويض عن الأضرار والخسائر التي لحقت بدوره وبساتينه وممتلكاته، وهدد بهجوم كاسح للمدينة في حال امتناعهم. وقد أجابه مجلس الديوان بأن ليس له سوى البارود والكور لإطلاقها عليه.[155]

وفي ظهر يوم السبت 11 أكتوبر 1727 (24 صفر1140) بينما كان الأهالي منشغلين في مراقبة معسكر الباشا أحمد، إذ بوغثوا بمجموعة كبيرة من الفرسان قادمين من الجبل المشرف على المدينة في محاولة لعزلها عن الاستحكامات الدفاعية، وقد جعلت شدة المفاجأة المدافعين يغادرون شباراتهم واستحكاماتهم ويلجأون إلى المدينة دون إطلاق رصاصة واحدة، مما سهل للريفيين دخول المدينة من كل ناحية، فأخذ فرسانهم يلاحقون الأعيان الذين أثقلتهم أسلحتهم وأثخنوا فيهم السيوف. وكان عسكر الباشا في فوضى عارمة، واختلطوا بالأهالي، واشتغلوا بنهب المدينة والملاح والقيسارية. وكان ذلك سببا في إنقاذ المدينة لأن الأهالي استعادوا رباطة جأشهم وصعدوا إلى سطوح المنازل وأخذوا يطلقون النار على الريفيين الغارقين في السلب إلى أن أخرجوهم جميعا من المدينة.[156] وقد حكى السكيرج عن هذه الوقعة التي سميت عند أهل تطوان «عيطة السبت» أن الفقيه عمر لوقش لما سمع بمقدم الباشا أحمد في جيش كبير خرج بمحضر الصبيان وعدد من الناس على رؤوسهم المصاحف ليرغب الباشا في السلم، فلقيه محمد العزري وهو رجل من السانية من حومة العيون أخبره بأن البلدة اقتحمت، ومنعه من المضي في طريقه وأن يترك الصبيان يعودون إلى ديارهم وهدده بضرب عنقه بالسيف إن هو أبى، « وذهبا معا مارين على القيسارية فلما وصلا إلى النجارين تلاقيا بعض الطياش من محلة الباشا أحمد فالفقيه ضرب رأس أحد الطياش والعزري ضرب رأس آخر... ولما وصلا تربيعة الملح المقابلة لضريح سيدي علي بركة، دخلاها وكان على الفقيه كسوة رفيعة فنزع الحايك عنه وتمنطق به ونزع العمامة وتمنطق بها أيضا وبقي على رأسه طربوشا فقال

---

[154] - Ibidem, p.121.
[155] - Ibidem, p.122.
[156] - Ibidem, p.126.

لمن حضر الدعاء فأجابوه بمثل ما قال إلى أن أكمل الدعاء وهم يجيبونه وعض الطربوش الذي كان على رأسه بأسنانه وانخرط من سيفه فخرج من التربيعة وهو يقول دارت الكسرة على أهل الريف...».[157] ورغم ما يظهر في هذه الرواية من مبالغة في إظهار قوة الفقيه لوقش، فإن سلوكه ذلك أمام الملأ وهو من كبار الأعيان وموظفي المخزن من شانه أن يجيش عواطف الناس ويملأها قوة وعزما، بل إن المتزعمين من الأهالي استغلوا العامل النفسي لدى الناس لإثارتهم، فوظفوا الأسطورة وخرق العادة حينما أشركوا حتى الأموات من صلحاء تطوان في المعركة، فقد روى السكيرج « وشاهد الحاضرون سيدي الحاج علي بركة رجلا ما بين الطول والقصر يميل للغلظ مختلطا بالشيب عليه قفطان أخضر ومن فوقه تشامير بيضا رقيقة... وفي يده سيف مسلول وهو خارج من مزارته وهو يقول دارت وعاينوا أيضا رجلا رقيقا طويلا شائبا عليه كسوة بيضاء وفي يده سيف وهو طالع في حومة سيدي الصعيدي نفع الله به وهو يقول دارت.. وعاينوا أيضا رجلا عليه قشابة وفي رأسه وفرة الشعر والسيف في يده وهو يقول دارت.. زعموا أنه سيدي علي الفحل نفع الله به...».[158]

وأمر الباشا جنوده بمهاجمة القصبة، وكان إطلاق النار حاميا ومتواصلا، وقام هؤلاء بنشر راياتهم على الأسوار محاولين تسلقها، لكن لم تكن لديهم سلاليم ولا مدافع لإحداث ثغرة بها، ولهذا لم يستطيعوا الوصول إلى قصبة الذيب التي كان تحصن فيها القوم، وكان بينهم رجل طبجي يدعى برقادة وكبيرهم بايص، فوجهوا المدفع لدار الباشا وضربوها بالكور. وذكر السكيرج أن بايص المذكور كان يحمل مدفعا صغيرا على كاهله يدعى «الزربزان» ويخرجه في العدو.[159] وهكذا اضطر الباشا إلى سحب عسكره الذين تعرضوا لخسائر كبيرة أثناء تراجعهم، واشتد غضبه بسبب الهزيمة، وقام بحرق كل الأشياء التي تم نهبها ووجدها في معسكره وكما عاقب كثيرا من جنوده.وقد دامت المعركة داخل المدينة وعلى سطوح منازلها نحو ثلاث ساعات، واعترف الأهالي بأنهم فقدوا فيها ثلاثمائة وخمسين رجلا من بينهم عدد من الأعيان، فقد قتل أحد أبناء الحاج (عبد السلام) لوقش الذي كان السلطان قد عينه محل أبغلي في السفارة إلى إنجلترا، وأصيب أخوه الذي كان يقوم مقام والده بجروح في رأسه، وقدروا خسائر قوات الباشا بألف شخص

---

157 ـ **نزهة الإخوان**، ص.20 .

158 ـ نفس المصدر، ص.21 .

159 ـ نفس المصدر والصفحة.

منهم حسبما يحكون عدد من أقاربه.[160] أما السكيرج فذكر أن السيف تحكم في الفريقين ومات من أهل الريف وقتئذ أربعة آلاف إلا ثلاثمائة ومن أهل تطوان ألف وثمانمائة.[161] بينما روى ابن موسى الريفي أن أهل الريف قتلوا من التطوانيين ما ينيف على الألف ولم يرو عدد القتلى من بينهم.[162]

وخرج الأهالي خلال الليل وقاموا بجر المدافع التي تركوها عند اشباراتهم إلى المدينة، ونصبوها فوق الاستحكامات التي جعلوها في الشوارع والطرقات، ووضعوا الحراسة على سطوح منازلهم. وفي يوم الأربعاء (14 أكتوبر) حاول الباشا معاودة الهجوم على المدينة، فاقتحم نحو إثني عشر من رجاله فجوة في سور فندق، إلا أنهم قتلوا بطريقة شنيعة. وبذلك اتضح للباشا أحمد أنه لا يمكنه عمل أي شيء بدون مدفعية، فرفع معسكره وارتحل نحو طنجة.[163]

وقد خلفت هذه المعركة بالإضافة إلى عشرات المئات من القتلى خرابا كبيرا ودمارا مس أيضا مئات من منازل المدينة ودكاكينها، وعرض بالتالي كثيرا من التجار إلى الإفلاس التام. وكما انتشرت جثث القتلى خارج المدينة بينها وبين خطوط القتال حيث تركت لتنهشها الكلاب بسبب رفض الأهالي دفنها بالرغم مما يمكن أن يتسبب ذلك في السعار للكلاب أو في انتشار وباء الطاعون.[164]

1.2.3- علاقته مع الأجانب :

الجانب الدبلوماسي والتجاري. كون أحمد بن علي لنفسه مع الأجانب من إنجليز وإسبان وفرنسيين عدة علاقات في وقت مبكر، وكما أنه كان شديد الفضول لمعرفة كل ما يجري في أوربا، ولهذا فإن كل شخص قدم إلى تطوان عن طريق البحر سواء كان مسلما أو يهوديا أو نصرانيا وجب عليه تقديم فروض الطاعة والإحترام للباشا، وكان ذلك مناسبة يطلع فيها على أخبار ما يقع بأوربا. وكما لا يغيب عن بالنا أيضا الإستفادة التي حققها من العلاقات الدبلوماسية التي كان يبرمها المخزن مع البلدان الأوربية، وذلك لتعزيز مكانته كدبلوماسي بارز، ومفاوض متمكن، وتصرفه كوزير للشؤون الخارجية في الدولة الإسماعيلية. ففي يناير 1714 وصل إلى مكناس القبطان

---

[160] - Braithwaite, p.131.

[161] - **نزهة الإخوان**، ص.21 .

[162] - **زهر الأكم**، مصدر سابق، ص.65 .

[163] - Braithwaite, p.131.

[164] - Ibidem, p.134.

الإنجليزي جورج بادون بهدف افتكاك الأسرى الإنجليز، وإقامة مهادنة دائمة بين إنجلترا والمغرب، فتمكن من إبرام معاهدة سلم وصداقة ومتاجرة في تطوان في 27 يوليو من نفس العام، وقد وقعها نيابة عن السلطان الباشا أحمد بن علي.[165]

ومنذ احتلال الإنجليز لجبل طارق سنة 1704 فإن أحمد بن علي ربطْ معهم علاقات متميزة لكون إنجلترا كان لها قنصل بمدينة تطوان، إلا أنه غادرها سنة 1715 فلم يعد بها قنصل رسمي، ولهذا فإن التاجر أنطوني هاتفيلد سيشغل منصب الوكيل القنصلي ريثما تمت توليته سنة 1717 بعد توسط الباشا أحمد الذي طلب من العاهل البريطاني تعيين هاتفيلد قنصلا في تطوان فوافق على ذلك. وكان الباشا يأمل في أن يجعل من هذا الشخص مساعدا له وشبه شريك في العمليات التجارية التي كان يقوم بها في جبل طارق، فقد تمكن الباشا من جمع ثروة هائلة عادت بالأساس إلى التجارة المزدهرة التي كان يزاولها مع جبل طارق عبر وسطاء عديدين من أهمهم اليهودي بنيدر، وينحدر من ملاح تطوان، وكان يقيم بالصخرة ويتاجر لفائدة الباشا. وقد ساهم ذلك بدون شك في تدعيم الروابط الحميمة التي تربطه بحاكمها. ومقابل ما كان يتزود به الإنجليز من الأقوات، فإن الحامية العسكرية بجبل طارق كانت تزوده بالبارود والبومب وتقدم له مساعدة معتبرة عند صراعه مع أهل تطوان.[166]

وبسبب علاقته بالأوربيين فإن السلطان مولاي إسماعيل أوكل إليه أمر مباشرة التفاوض مع الأجانب حول المهادنة وافتداء الأسرى وأشياء أخرى، فقد كتب السلطان رسالة إلى الأميرال الإنجليزي كرنوال مؤرخة بمكناس في جمادى الثاني عام 30/1129 ماي1717 يبين له أنه أعطى لخديمه الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الإذن في مباشرة الكلام معهم.[167] وكانت إنجلترا قد عينت شارل ستيوارت القائد الأول لأسطول بحري مفوضا لمباشرة أمور السلم والمهادنة مع السلطان، ووصل إلى جبل طارق في 20 أكتوبر 1720، ومنه بعث رسالة إلى باشا تطوان أحمد بن علي يخبره بوصوله وبكونه يتمتع بكل الصلاحيات للتفاوض في شأن السلم، ويذكره في هذه الرسالة بأن «الأمة الإنجليزية تقدر احترامكم الكبير لها وكذلك الاستعداد الدائم لإبرام صداقة

---

[165] - ب.ج، روجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية- المغربية حتى عام 1900** ، ص.123

[166] - Salmon, Op.cit, p.69.

[167] - Meunier, p.241

أبنتم دائما عنها اتجاهها وسلم بين البلدين.. ».[168] وقد رد الباشا برسالة تبين رغبته الشديدة في الدفع بإبرام المعاهدة مع الإنجليز، ورحب بقدوم السفير البريطاني إلى بلاد المغرب وأخبره بأنه سيبذل كل جهوده ليقضي وقتا ممتعا في بلده، وأنه يحب الإنجليز أكثر من أي نصارى آخرين.[169] وكتب السلطان مولاي إسماعيل إلى السفير البريطاني يدعوه إلى التفاوض مع الباشا في تطوان في أمر افتكاك الأسرى، وأرسل التاجر اليهودي موسى بن عطار الذي استخدم عدة مرات في إبرام اتفاقيات سابقة.

وأصبحت بين الباشا والأوربيين وبالخصوص جنس الإنجليز مودة كبيرة ومكاتبة، ولم يكن هو يتردد في تقديم الوعود الباهرة للتجار الأجانب كلما تراءى له أن بإمكانه جني بعض الثمار من ذلك، وكما أنه لم يكن يفي بكلامه إلا بمقدار ما يعتقد أن مصلحته تقتضي الوفاء به، أو أن عدمه من شأنه أن يضر بمستقبله في الحصول على الأرباح. ويذكر بريث ويت في هذا الصدد أن التجار الإنجليز المقيمين بتطوان لطالما قاسوا من انعكاسات سلوكاته، فقد كان الباشا أرغم أحد ربابنة السفن الإنجليز بالذهاب بمركب له نحو جبل طارق بقصد المتاجرة، فبعث القنصل الإنجليزي في تطوان رسالة إلى حاكم الصخرة يوضح فيها ملابسات الأمر حتى لا يتعرض الربان المذكور للعقاب بسبب جلبه للمركب. وألح الباشا على القنصل ليتدخل كي يتم صرف المركب نحو العرائش، ولما لم يستجب لأوامره فإنه رماه في السجن ونزع منه سيفه.[170] وهدد الباشا أحد التجار الإنجليز ويدعى بوسفيل برميه في السجن إذا لم يسدد قيمة مركب له غرق في عرض البحر قبالة مالقة، لأن تأمينات قادس لن تدفع سوى نصف الخسارات، وأمر القاضي بأن يجر بوسفيل أمام العدالة، فحكم عليه بالأداء أو الحبس، ولذا فإن القنصل اضطر إلى دفع الألف دولار ليجنب التاجر المذكور الدخول إلى السجن.[171]

وكانت العلاقة بين الباشا أحمد والقنصل البريطاني في هذه الفترة قد تدهورت كثيرا وخصوصا بعد قضية الحجر المزيف، الأمر الذي جعل الباشا يلح على ضرورة استبداله بأحد غيره يقوم مقامه بتطوان، وكلف التاجر أبغلي بهذه المسألة في سفارته، وفي نفس الوقت بعث الباشا أحمد من تطوان رسالة إلى الوزير المفوض الإنجليزي نيوكاسل مؤرخة في أواخر ربيع

---

[168] - وندوس، ص.31 .

[169] - نفس المصدر، ص.34 .

[170] - Meunier, p.271. (1724/9/25 رسالة هاتفيلد إلى دوق نيوكاسل مؤرخة في تطوان)

[171] - Ibidem, p.277 .(1725/6/29 رسالة هاتفيلد إلى دوق نيوكاسل مؤرخة بتطوان)

الأول 1138 / دجنبر 1725، ومما قاله:« ... وإننا نلح كثيرا على أن تعينوا رجلا آخر بدله يكون مناسبا للطرفين، ولا يكون مشابها لهاتفيلد الذي أتى بأشياء لا تلائم مكانته ومنها أنه كتب لأعيان مخزن سيدنا يخبرهم بأنه يملك حجرا كريما أصفر اللون ثمنه ثلاثة ألف ريال ويطلب وساطتهم لدى السلطان ونصحه باقتنائه... وكتب لي سيدنا في الموضوع وألح في إرسال الحجر المذكور، فتسلمته من عند هاتفيلد وأرسلته إلى سيدنا، ولما وصله وتفحصه ألفاه مصبوغا وحتى الصباغة زالت منه، فاتضحت حينئذ شائبته وتبين غشه بجلاء. ولقد اغتاظ سيدنا كثيرا واتهمني بالضلوع في ذلك، ولولا مراعاته للإنجليز الذين يعرفهم جيدا ويحافظ على صداقة متينة معهم لكان عقابه صارما».[172] وكان السفير أبغلي وبتكليف من الباشا أحمد قد بعث لدى وصوله إلى إنجلترا رسالة إلى الأميرال شارل ويجر يقترح عليه ترشيح جون راسل في منصب القنصل بتطوان. وقد أعفي هاتفيلد من منصبه سنة 1727 ولكنه ظل يتردد بين تطوان وجبل طارق، وقد سجنه الباشا سنة 1729 بسبب الديون عليه التي بلغت سبع ألف ليرة تم طرده من المدينة.[173] وكانت إنجلترا قد قررت عدم السماح لليهود المغاربة بالإقامة بجبل طارق بعد الإتفاق مع الإسبان، لأن هؤلاء يعتبرون استقرار اليهود بجبل طارق أمرا مشينا.[174] ولم يكن الباشا راضيا عن هذا البند، وكما كان يحز في نفسه كثيرا أن يسمع باحتمال أية تسوية للخلاف بين حامية جبل طارق والإسبانيين، فقد كانت مجموع مداخيله تتوقف تقريبا على ما يحصل عليه من جبل طارق، إذ أن ما ينهبه من السكان قد يكون قليل الفائدة أو منعدمها إذا لم يتوفر لديه مكان يروجه فيه.

وأرسلت الحكومة البريطانية سفيرها صوليكفر سنة 1734 لزيارة السلطان مولاي عبد الله في مكناس حاملا معه رسالة من العاهل جورج الثاني. وقد عاد إلى تطوان وبصحبته مائة وستة وثلاثون من الأسرى. وكتب السلطان رسالة مؤرخة في 6 صفر 1147/ 8 يوليو 1734 إلى الباشا فحواها كالتالي:« إلى أخينا في الله حفظه الله الباشا الأصلح أحمد بن علي بن عبد الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته... وصلتنا رسالتك ... وما قلته لنا في سبيل وصول السفير الإنكليزي إلى تطوان ودخوله المدينة. وصلتنا رسالته وقرأناها وفهمنا محتواها، وكل ما جاء من أجله ويرغب فيه يمنح له وفقا

---

[172] - Ibidem, p.236. (قمنا بترجمة نص الرسالة من الفرنسية إلى العربية)
[173] - Ibidem, p.236.
[174] - Ibidem, p.290.

للقواعد والأعراف وأما بخصوص افتكاك الأسرى والكلام في شأن النصارى فيكون طبقا لما كان معمولا به في عهد والدنا... وعلى يدك بموجب ما تعرف. وعندما يصل السفير لبلاطنا فإننا سنرده إليك لأجل التباحث وضبط الأمور...».[175] وقد أبرم الباشا مع المبعوث الإنجليزي مهادنة في 15 دجنبر 1734.

لقد كان الباشا أحمد بن علي ينوي تحقيق توافق وانسجام جيد مع كل من معقلي جبل طارق وسبتة، ولهذا خطط بذكاء لقيام مبادلات مع الأول وحصل منه على تجارة طائلة بسبب تردد الإنجليز على مرسى تطوان وطنجة لاقتناء المواد والأقوات. واستطاع كذلك أن يحصل على انتفاع المقيمين في ميدان الحصار وسكان المداشر المجاورة لسبتة من هذا التوافق دون أن يتعرضوا لخطر الهجوم منها. وذهب به حسه التجاري إلى أن يسمح في هذا الإتفاق الضمني بتقديم خطوة نحو تحقيق المهادنة، ورسم النواحي التي لن يتعرض فيها سكان سبتة للمضايقة، ونفس الشيء بالنسبة لأتباعه. وهكذا ففي سنة 1742 شرع الإسبانيون الواثقون من شبه هدنة مع المغاربة في الإقتراب من الشواطئ المغربية بقصد اصطياد السمك، بل وبلغ بعضهم إلى الدار البيضاء حيث يقيم الباشا لأجل اقتناء حاجاتهم وخرجوا للقنص ورعي القطيع.[176]

---

[175] - De la verrone, Revue d'Histoire Maghrébine, nº 25 - 26 , p.132 . (ترجمنا النص عن الإسبانية)

[176] - Correa de Franca, libro sexto, Cap.1º, p.301.

1.3 – القائد الفقيه عمر لوقش:

اشتهرت عائلة لوقش في تطوان منذ منتصف القرن السابع عشر، وقد عرفت بأصلها الأندلسي وهو ما ذكر في الوثائق المعاصرة، وكما أن إسم هذه العائلة كان يكتب في البداية لوكس، وهو نطق يدل على الأصل الإسباني ويوحي بالإسم الإنجيلي «سان لوكس»، ويفرض ذلك أن هذه العائلة لم تستقر في تطوان إلا حينما تم طرد الموريسكيين من إسبانيا سنة 19/1610-1018هـ. وأول شخص ينتمي لهذه الأسرة ذكرته المصادر الأجنبية هو محمد بن علي لوكس حيث جاء في المصادر الغميسة لتاريخ المغرب أنه ارتد عن الإسلام وعمل في صفوف الحامية العسكرية الإنجليزية بطنجة، ثم فر منها ورجع لدينه. واستخدم كاتبا لدى كل من الخضر غيلان والقائد عمر بن حدو، وكان ضمن أعضاء سفارة القائد أحمد بن حدو إلى إنجلترا سنة 1682. وكما اشتغل كاتبا عند السلطان مولاي إسماعيل حيث كان يترجم له الرسائل من الإسبانية، ثم عين قائدا لمرسى تطوان ما بين سنوات 1685 و1697. [177] وقد وصفه دوسانت أولون بأنه حاذق ونشيط وداهية وبأن طبعه يتوافق مع لون شعره الأحمر، وذكر أنه كان بمثابة قائم مقام بحرية الباشا علي بن عبد الله.[178] والشخص المذكور هو أخو الحاج عبد السلام الذي ذاع صيته في عهد السلطان مولاي إسماعيل وكان ذا جاه ووجاهة وثروة عظيمة، إلا أن المؤرخين المغاربة والأوربيين على حد سواء اعتادوا على الخلط بين شخصية محمد بن علي لوكس وأخيه الحاج عبد السلام وولد هذا الأخير الفقيه عمر بسبب تشابه مهامهم. والظاهر أن أفراد هذه العائلة استخدموا في بلاط السلطان مولاي إسماعيل، إلا أننا لا نعرف متى تم ذلك بالضبط، وحسب الوثائق الفرنسية فإن الحاج عبد السلام بن علي لوكس استخدم ككاتب عند القائد علي بن عبد الله الحمامي ما بين سنوات 1706 و1714، وذكر إبن زيدان أن مولاي إسماعيل استنابه عنه مع الدول الأجنبية وولاه وظائف أخرى،[179] وكان ولده أبو حفص عمر كاتبا لدى السلطان مولاي إسماعيل ولا ندري تاريخ هذا الوظيف. وذكر الزياني أن السلطان

---

[177] - Henry de Castries, S.I.H.M. France, Tome II, p.344,note 3.

[178] - Pidou de Saint- Olon, Op.Cit. p.129.

[179] - عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج.5 ، ط.2 ، الدار البيضاء، 1410 / 1990 ص 485

المذكور ولاه حكومة تطوان لما ضعف عن الخدمة السلطانية بسبب كبر سنه، وتبعه في ذلك أكنسوس والناصري.[180]

وقد نبه محمد داود إلى هذا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء ومن نحا نحوهم.[181] وفي رأينا فإن الغموض الذي اكتنف أسماء أفراد هذه العائلة اقترن بالفترة المضطربة التي شهدتها تطوان وباقي البلاد المغربية حينما قام أبناء السلطان مولاي إسماعيل يتنازعون على الحكم فيما بينهم، وهي فترة غامضة في تاريخ تطوان جعلت المؤرخين يتناقضون بخصوص الأدوار التي قام بها أفراد هذه الأسرة، لا سيما وأنهم مارسوا جميعا وظائف مخزنية، وكانوا على صلة قريبة من أسرة الحمامي الريفي التي حكمت المنطقة. إلا أن الغموض الذي لف هذه الفترة وجعل المؤرخين يخلطون بين هؤلاء الأشخاص ومنهم مؤرخ تطوان داود الذي حاول فك هذا الإلتباس، ينقشع بتقصينا لمذكرات القبطان الإنجليزي بريث ويت الذي وفد على تطوان ضمن سفارة القنصل العام البريطاني جون راسل في ربيع 1727، فقد ذكر أن الوفد الإنجليزي قام يوم 25 شتنبر بزيارة الحاج لوقش الذي كان أمينا للديوانة بتطوان خلال سنوات عديدة، ولكنه لم يذكر إسمه الشخصي (وقد ظن داود أنه محمد لوقش) وأنه يبلغ السبعين من عمره وهو حبيس الفراش بسبب مرضه حيث كان ابنه ينوب عنه في مهمته. وقد زال هذا اللبس لدينا بسبب رسالة بعثها التاجر الإنجليزي ريادون المقيم بتطوان إلى القنصل السابق بها هاتفيلد المقيم بجبل طارق مؤرخة في 25 مارس 1728 يخبره فيها بأنه ذهب إلى الحاج عبد السلام لوقش للتأكد من خبر في غاية الغرابة ويتعلق بدخول السلطان أحمد الذهبي إلى المسجد لأداء الصلاة وهوثمل جدا حتى سقط على الأرض. وكان هذا الحادث سببا في قبضه وتولية أخيه مولاي عبد الملك.[182] ونستنتج من هذا الكلام كذلك أن الشخص الذي أشارت إليه المصادر المغربية بأنه كان كاتبا عند السلطان مولاي إسماعيل ولما كبر سنه ولاه على إخوانه هو بدون شك الحاج عبد السلام بن علي لوقش والد الفقيه عمر لوقش. وإذا تأكدت توليته فإنها كانت في تبعية للباشا أحمد بن علي الحمامي. وأوضح بريث ويت أن هذا الشخص كان من الرحالة الكبار وأنه يجيد التكلم باللغة الإسبانية ولطيف مع كل الأجانب. وحسب ما رواه التجار الإنجليز فإنه من أكثر الناس فطنة في هذا البلد، وله إلمام واسع بعدة علوم وبالخصوص

---

[180] - **البستان الظريف**، ص.284 **والجيش العرمرم الخماسي**، ص.180 **والاستقصا** ج. 7

[181] - **تاريخ تطوان**، ج.2 ، ص .108 .

[182] - Braithwaite, p.413.

الرياضيات التي تعلمها عن طريق كتب المؤلفين الإسبان. وقد اعتاد السفراء الأجانب وبالأخص الإنجليز الذهاب لزيارته وتقديم الهدايا له كلما وردوا على هذه المدينة، وذلك بسبب ما له من وزن ونفوذ داخل المدينة.[183] ويعد الحاج عبد السلام من أصحاب الثراء إذ تفوق ثروته عشرين ألف ليبرة إستيرلينية وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا البلد. وقد عرف كيف يحمي ثروته من جشع الباشا بسبب حذقه ومهارته في اتخاذ الإحتياطات، وحتى يضمن استمرار ثروته في أسرته فإنه جعل إثنين من أولاده فقيهين، إذ أن الفقهاء لاتنهب أموالهم في هذه البلاد.[184] وتؤكد لنا هذه المعلومات صحة ما ذهبنا إليه بخصوص الالتباس الآنف الذكر، فالحاج عبد السلام كان له من بين الأبناء إثنان اشتغلا بالعلوم الشرعية وهما عمر وأحمد، وحصلا معا على إجازة الشيخ أحمد بن سليمان الأندلسي الفاسي عام 1715/1127. [185] وكان لوقش المذكور بمثابة الحكيم حيث كان أعيان المدينة يزورونه لاستشارته إبان الثورة التي عرفتها المدينة ضد الباشا أحمد بن علي.

---

[183] - Ibidem, p.83.

[184] - Ibidem, p.84

[185] - داود، ج.3 ، ص.21.

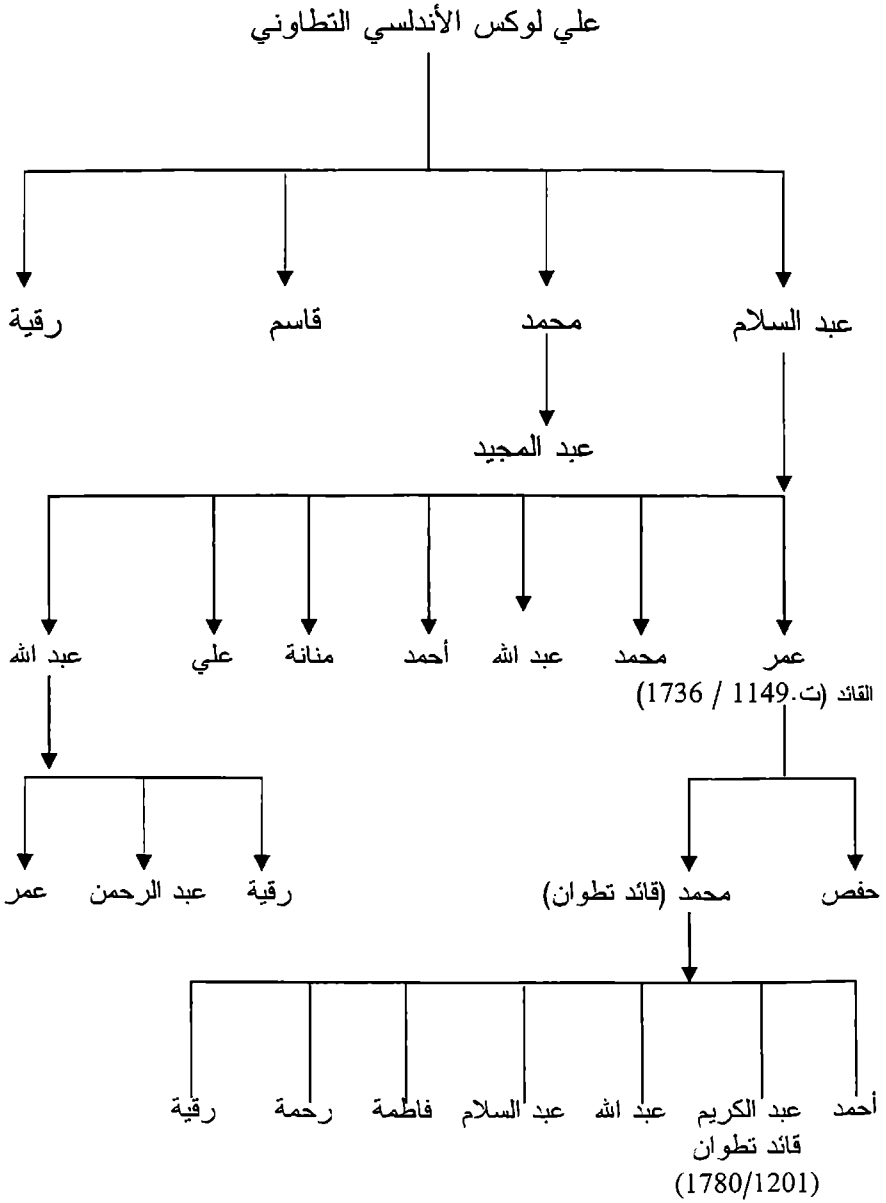

شجرة عائلة لوقش في القرن الثامن عشر

وأما شخصية إبنه الفقيه عمر فلم تظهر على مسرح الأحداث بتطوان إلا باحتدام الصراع مع الباشا أحمد بن علي بوقوع معركة «عيطة السبت» حيث كان قبل ذلك غائبا عن بلدته. وقد ذكر السكيرج أن عمر المذكور قدم من فاس يوم الإثنين (19 صفر1140) ويوم السبت الآتي بعده وقعت الحسرة.[186] ولعل سفره إلى فاس كان بقصد العلم أو طلب التجارة أو هما معا، وقد كان تردده على مدينة فاس مبكرا، فقد ذكر العلامة الشيخ أبو الإسعاد الكتاني في كتابه « فهرس الفهارس» (ج.2، ص.32) أن أبا حفص عمر بن عبد السلام لوكس كان من جملة الأشخاص الذين أجازهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الفاسي بكتاب « المنح البادية في الأسانيد العالية»، وقد تمت هذه الإجازة في 16 جمادى الثانية عام 1127 (1715)، وهي نفس السنة التي أجازه فيها أيضا الشيخ أحمد ابن سليمان الأندلسي الفاسي. وكما حصل على إجازة الشيخ حسن المدابغي الشافعي المصري سنة 1137 (1724)، وفيها كانت إجازته للشيخ علي السقاط الفاسي المصري، حيث يظهر أن لوقش المذكور كان في ذلك العام بمصر[187]. ونستنتج من كل ذلك أن الحاج عمر لوقش كان رجلا عالما مشاركا ومدرسا، وقد حلاه الشيخ الدابغي المصري بهذه التحلية فقال:« العلامة الفهامة المحقق المدقق الإمام الفقيه والدراكة النبيه المحدث المفسر الأصولي المتكلم النحوي اللغوي الأديب المنطقي الجدلي اللوذعي الألمعي الأنفسي سيدي عمر بن عبد السلام المدعو لوكس لقبا..».[188] وإن مركزه العلمي والديني غلب في بداية الأمر على ميله الحربي والقيادي رغم كونه عرف كيف يجمع بين حمل القلم والسيف، لأنه كان من سيرته إذا جلس للتدريس جلس متوشحا آلة الحرب كأنه سياف.[189] وكما تقدم لدينا فإن الفقيه عمر لوقش لما سمع بمقدم الباشا أحمد في جيش جرار يحاول به اقتحام المدينة وإخضاعها لسلطته، فإنه خرج بصبيان الكتاتيب القرآنية (محضرة المسيد) ومعهم عدد من الناس حاملين المصاحف على رؤوسهم ليمنع وقوع الإقتتال. ولربما كان يعتقد أن النزاع بين أهل تطوان والباشا أحمد يمكنه أن يحل بالوسيلة السلمية، وهذا هو وازع كل فقيه وعالم إذ عليه أن يصلح بين الفئتين المتقاتلتين، ولما استحال إدراك الأمر وبغت إحداهما على الأخرى بأن

---

186 - **نزهة الإخوان**، ص.20 .

187 - داود، ج.3 ، ص.24 .

188 - نفس المصدر السابق، ص.22 .

189 - محمد الموفق الثعالبي الجزائري، **تنبيه ذوي الألباب ليحذروا من تدليس لوكس الكذاب**، مخطوط بالمكتبة الملكية، الرباط، رقم 5348 ، ص.7 .

اقتحمت طلائع من قوات الباشا البلدة، فإنه لم يبق من عذر أمامه بعد أن اتقدت حميته وأذكي حماسه كما مر بنا. وقد وجد داود في كناش مخطوط بفاس « وكان الفقيه السيد عمر الوقاش التطاوني أول من انتدب لقتال الباشا المذكور وتبعه غيره من أهل تطاون وأنه بعد ذلك في ناديه أفتى بالقتال... فتألفت عليه جموع مدينته... وأرسوه لما بدا لهم من حميته... وفي أنفسهم حكموه وأكبروه لذلك وعظموه..».[190] وفي رأينا فإن العداء الذي استحكم بينه وبين أحمد بن علي يعود في أساسه إلى ما فرضته ظروف المجاورة والمعاصرة لبعضهما، فالفقيه عمر لوقش كان له حضور قوي على المستوى السياسي بالمدينة، وطبيعة علاقته بالسلطة المحلية التي يمثلها الباشا علاقة متوترة، وهو المؤهل شرعا ليعبر عن إنكاره لأمر ما صدر عن الحاكم، أو يمتنع عن تزكية تصرف ما يراه منافيا للشرع. فطبيعة هذه العلاقة بين السلطة والفقيه هي سر تلك الحساسية الشديدة التي نلمسها عند عمر لوقش اتجاه الباشا أحمد بأن أمواله مدنسة بالحرام، فقد روي أن الباشا المذكور لما شيد دار نزهته بضاحية كيتان صنع طعاما فاخرا وحضر أكابر البلد وأعيانهم، وكان من بينهم عمر المذكور فامتنع عن أكل الطعام وقال للقوم أما أنا فلا آكل الحرام.[191] ولا شك أن المكانة التي اكتسبها بالمجال السياسي ارتبطت بشكل وثيق بمكانته في المجال الإجتماعي، فلو لم تكن له بين الناس الكلمة المسموعة والتأثير النافذ لما أرسوه عليهم، وهذا هو ربما قصد الزياني حينما كتب « ولما حرك لهم الباشا أيام الذهبي ودخل تطوان على غرة من أهلها وتداركوا أمرهم وحاربوهم مع أميرهم الوقاش المذكور إلى أن أحرجوه».[192] وقد كان الحاج عمر لوقاش أحد أعضاء مجلس المدينة ومن متزعميه، برز في المعركة التي دارت ضد الباشا أحمد بن علي وعرفت بـــ«عيطة السبت»، والتي أظهر فيها الفقيه لوقش ضربا من الشجاعة والإقدام، وهو الشيء الذي لم يظهره الرايس عبد القادر بيرس الذي كان ضمن أعضاء الديوان، والذي كان قد تسلح هو وخدامه للمشاركة في المعركة ثم غير موقفه خوفا على نفسه والتجأ مذعورا إلى الدار حيث نزل السفير الإنجليزي وحاشيته وجل الأجانب بالمدينة. وكان الباشا عبد الملك بوشفرة بدوره قد فر إلى الجبال المجاورة ولم يعد إلى المدينة إلا بعد أن سمع بانصراف الباشا أحمد وقواته.

---

[190] - داود، ج.2 ، ص..145 .

[191] - الموفق الثعالبي، مصدر سابق، ص.84 .

[192] - **البستان الظريف**، ص.288.

وجاء الأمر إلى تطوان بتعيين الباشا أحمد بن علي من جديد على المدينة وسائر المناطق التي كان ينعم بها في السابق، وفي نفس الوقت بقدوم بوشفرة إلى مكناس مصحوبا بالسفير روسل والهدايا التي كانت حاشية السلطان تنتظرها على أحر من الجمر، وقد أزعج هذا الخبر الأهالي الذين اتفقوا على أن يبعثوا عشرة من ممثليهم إلى مكناس ليلتمسوا من السلطان الإنصات لشكواهم المشروعة ضد الباشا أحمد ويعيد بوشفرة إلى منصبه، وزودوا الوفد بهدية جد مؤثرة للباشا الكبير العبد امساهل الذي صدر عنه هذا الأمر باسم السلطان. وأثناء إقامة وفد تطوان في مكناس فإن السلطان أقنع ثانية من طرف الباشا المذكور وحريم القصر بإعادة تولية الباشا أحمد على تطوان، فغادر الوفد قاصدا بلده يوم 5 دجنبر1727.

والظاهر أن أهل تطوان لما يئسوا من تلبية طلبهم في تنحية خصمهم عن حكم بلدهم عدلوا عن حكم الديوان وأسندوا أمرهم إلى متزعمهم عمر لوقش بعد اتفاق كلمتهم. وقد وجد المؤرخ داود في مخطوط تطواني كتب في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ما يلي:« فاجتمع أهل تطوان على الفقيه العلامة السيد عمر لوقش لظهور نجدته في يوم الإخراج وما بعده ولأصالته وثروته ببلده وهم لكلام من كان كذلك أسمع، فولوه أمرهم ووافقهم عليه أمير وقتهم».[193]

1.3.1 - خطته في الحكم. كان القائد عمر لوقش يدرك أن مواجهة الباشا أحمد بن علي الذي لديه من القوات ومن السلاح ما يشبه به السلطان، وله من خزائن المال ما لا ينفد وما يكنزه من الذهب والفضة ما لا يحصى، تبقى في حكم العسير، لذا إشترط على أهل البلد أن يمدوه بأموالهم فقبلوا، وكان من اللازم تنفيذ الشرط مع ما يضطره أحيانا من العسف عند الإتيان بالناس على أشد الأحوال وإغراق ذممهم بالمال. وقد روي أن أحدهم ويدعى فرج ذهب عقله بسبب ما كلف عليه من مال.[194] ويقول أحد مناوئيه من أنصار الباشا أحمد إنه اتخذ العلم حرفة ليتوصل إلى الرياسة، وإن الجهال والأغبياء من أهل البلد هم الذين ولوه عليهم وصدقوه، لأنه قال لهم إنكم إن أمرتموني لن تغرموا ولن تسخروا أبدا. وإنه أعطى الغوغاء مالا كثيرا ليكون أميرا

---

[193] - **تاريخ تطوان**، ج.2 ، ص.167.

[194] - الموفق الثعالبي، ص.74 .

عليهم، وخاض في أموال كثيرة المستحقة لبيت مال المسلمين، وتبوأ على ما يبدو له من متروك من انقطع.[195]

وقد استعان القائد عمر لوقش في تدبير شؤون حكومته في تطوان بحاشية من أتباعه كانوا يسهرون على تنفيذ أوامره وضمان سلطته، ومنهم قاسم فرطوط والرحمون والكوط وراغون والصغير والديمان واللبادي وهلال وغيلان، وكما كان له خليفة بتطوان هو أحمد النجار، إلا أنه حدث خلاف بينهما أدى إلى سجن النجار، وكان هذا الأخير أحد الممثلين العشرة الذين ذهبوا للتشكي من الباشا أحمد وأحد أعضاء مجلس الديوان، ولعل النجار هذا هو الذي ذكره بريث ويت في مذكراته بأن كانت له سلطات واسعة في المدينة، وأنه كان عدوا لدودا للباشا المذكور. وقد وفد إلى الجبليين من طرف المدينة لحثهم وتحريضهم على محاربة أحمد بن علي، إلا أنهم ألقوا القبض عليه وسلموه للباشا المذكور. وقد وجد هذا الأخير في أسر النجار ورقة ضغط قوية لأن حياة هذا الرجل تهم الجميع لما له من نفوذ وتأثير داخل المدينة، ولما له من أقرباء وأصدقاء مما يسمح بعقد اتفاق مع الباشا، وإذا ما تعذر ذلك فإنه من شأنه أن يسبب انقساما داخل مجلس الديوان بالمدينة. وهكذا لكي يجعل أسيره يتصرف بطريقة ناجعة تعهد له بحياته وحريته إن هو تمكن من تطويع أهل تطوان لاستقبال الباشا، وهدده بالقتل الفوري إن انتهت المفاوضة إلى نتيجة عكسية.[196] إلا أنه لم يكن من مصلحة الباشا قتل الأسير التطواني مخافة أنه إذا ما حدث واعتقل أخ للباشا أو أي شخص من ذويه وشيعته من قبل أهل تطوان،فإنه سيكون بإمكانه أن يبادل به أسيره، فضلا عن ذلك، فإن قتل الأسير سيزيد في تعميق الضغينة والعداوة في صفوف أقربائه وأصدقائه ويغلق أمام الباشا باب كل أمل في إخضاع المدينة.[197]

وكان أهل تطوان قد بايعوا مولاي عبد المالك بعد عزل أخيه أحمد من قبل العبيد، فأثبت القائد عمر لوقش في حكم تطوان، وتعهد هذا الأخير مع أبي الليف أمام السلطان على كسر القوات الإسبانية في سبتة.

ولما تمت تولية السلطان مولاي عبد الله قدم عليه القائد عمر لوقش على رأس وفد من أعيان تطوان إلى مكناس في ماي 1728 لتقديم البيعة له، فاستقبله السلطان استقبالا معضدا واستحسن تصرفه، ودعا الوفد التطواني

---

[195] ـ نفس المصدر، ص.75 .

[196] - Braithwaitc, p.399.

[197] - Ibidem, p.400.

إلى اختيار باشا جديد، لكنه ترك الإختيار للسلطان.[198] وقد سلم السلطان حكم المدينة إلى القائد مسعود الروسي في تبعية لعمر لوقش، إلا أنه لا تعرف فيما كانت تتمثل هذه التبعية، وكما أنه لم تعرف عنه أية أخبار ما عدا ما ذكره صاحب تاريخ سبتة، والذي ذكر أيضا أن السلطان أعاد حكم المدينة إلى عمر لوقش وأضاف له قبيلتي بني سالم وبني معدان.[199] فهل كانت هاتان القبيلتان منتزعتين في السابق من نفوذ حاكم تطوان؟ ولماذا تم تخصيصهما في هذا التعيين؟. إن هذه المعلومة يكملها خبر ورد على سبتة في أوائل يوليو يذكر أن أبا الليف تزعم حلفا شمل قبائل بني حزمر والأخماس والحوز وبني حسان وغمارة في مواجهة جيش السلطان. وحسبما يفهم من التعيين المذكور أن السلطان تمكن من فصل التحالف الذي كان قائما بين أهل تطوان والجبليين عندما أسند أمر القبيلتين المذكورتين إلى لوقش. وفي خضم الاضطرابات والحيرة التي خصت الأحداث تتضح بعض الشيء مواقف الأطراف، فولاء عمر لوقش للسلطان يفسر كما سنرى مستقبلا كيف أن مصيره سوف لن ينتهي مأساويا كما حدث بالنسبة لأشخاص آخرين من معاصريه ومحيطه وبالأخص الباشا أحمد بن علي.

1.3.2 - علاقته مع سبتة. كان حاكم سبتة الكوندي دي شارني يتوصل بمعلومات عن داخل البلاد من مصادر مختلفة، من فلاحين بسطاء أو عموم الناس الذين يتم أسرهم، ومن مخبرين من الأهالي الذين يأتون بالأخبار التي تفيد عن الأحداث الواقعة، وكان من بين هؤلاء شخصيات مرموقة أحيانا ممن يسعون في طلب ود الإسبان. وعلاوة على ذلك، كان يستقي الأخبار من تجار القوافل الذين يردون من فاس بالخصوص لبيع بضائعهم في سبتة.[200]

وورد في مخطوط «تاريخ سبتة» أنه قدم إليها في يوم 4 غشت 1727 أكثر من أربعين من المغاربة يحملون أسلحتهم، وطلبوا من الكوندي إبرام هدنة تمتد حتى الفنيدق، وفي يوم 11 منه حضر نحو مائتين من المغاربة رفقة زعيمين عن مدشري الكوف وواد الزرجون، وقد أصبح أحدهما ويدعى أركاز من أخلص عملاء حاكم سبتة الذين يطلعونه على أحوال البلاد، وقد لجأ في فبراير 1728 إلى سبتة فارا بأسرته وملتمسا حماية العاهل الإسباني بعدما شاع خبره بين الناس. وكان هذا اللجوء السياسي لأركاز إلى سبتة قد

---

[198] - Meunier, p.294. (رسالة هاتفيلد إلى شارل ويجر مؤرخة في 17 ماي 1728)

[199] - Correa de Franca, Libro quinto, Cap.8º, p.283.

[200] - Guillermo Gozalbes Busto, Un lustro en la historia de Tetuán del siglo XVIII (1727-1737), Coloquio : Tetuàn en el siglo XVIII, 1993 , p.46.

تسبب في مضايقات كبيرة لأبرز الرجال من ذوي النفوذ في تطوان وعلى رأسهم القائد عمر لوقش الذي بعث خليفته القائد محمد عاشر في 16 شتنبر 1728 مع جماعة من أعيان تطوان إلى سبتة، وكلفه بتسليم رسالة إلى حاكمها يناشده فيها بإرجاع أركاز وأسرته إلى بلده، ويمنحه الأمان ويقدم له سبحة أحد صلحاء المنطقة. وتكلم عاشر مع الإسبان أيضا في قضية افتكاك الأسرى الإسبانيين الموجودين بتطوان، وفي مسألة المبادلات بين المدينتين.[201] وبعد موافقة البلاط الإسباني على مقترح لوقش بعث حاكم سبتة أحد أبناء أركاز برسالة إلى تطوان يبين فيها استعداده للاتفاق بشأن افتكاك الأسرى النصارى وإقامة تفاهم جيد ومتاجرة مع المسلمين. وتوصل في 11 نوفمبر برسالة من عند القائد عمر لوقش ينكر فيها إتفاقه على قيام تبادل بين المدينتين أو تفاهم بينهما، وينسب الكلام في ذلك إلى أصحاب أبي الليف في عهد الباشا بوشفرة.

وقد مر بنا أن القائد عمر لوقش كان قد وعد السلطان بكسر شوكة إسبان سبتة، أي متابعة الحصار الذي كان مضروبا عليهم من قبل، والظاهر أن تعاقب الأحداث بالمنطقة ومنها التهديد المستمر للباشا أحمد بن علي باقتحام تطوان وإخضاعها، وكذلك محاولات لوقش إخضاع بعض مداشر الحوز لسلطته حيث حدثت عدة مواجهات بين سريته وأهالي واد الزرجون والكوف، وكان هؤلاء يقيمون علاقات تبادل تجاري مع إسبان سبتة ويزودون حاميتها بما تحتاجه من الأقوات، علاوة على ذلك، كانت بهذه الناحية أراضي فلاحية يستغلها الباشا أحمد، فصعب على القائد لوقش إقامة الحصار، وهو ما استغله الباشا المذكور لإفساد العلاقة التي بينه وبين السلطان مولاي عبد الله، حيث كتب له بأن إسبان سبتة خرجوا لمقاتلة المسلمين فلم يحاربهم لوقش، فاستاء السلطان من ذلك وأمر أن يقبض عليه وتستصفى أمواله.[202]

1.3.3 عزله عن الحكم. جمع القائد عمر لوقش إلى الرياسة العلم والأدب، فحينما اتفق له الظفر على الباشا أحمد بن علي الذي لم يكن له في الحسبان دبت في رأسه نشوة الرياسة وشبت في نفسه نخوة السياسة، فقال قصيدته المشهورة يفتخر فيها على أهل الريف ويخبر فيها عن نفسه، ومما جاء فيها:

بلغت من العلياء ما كنـــت أرتجي وأيامنا طابت وغنى بها الطيـــر
ونادى البشير مفصحا ومصرحا هلم أبا حفص فأنت لهـــا البـــدر

---

[201] - Correa de Franca, p.279.

[202] - داود، ج.2 ، ص.205.

شرعت بحمـــد الله للملك طالبـــا وقلت وللمولى المحامد و الشكـــر
أنا عمر الموصوف بالجود و السخـــا أنا عمر المذكور في ورد الجفـــر
ملكت بلادي و انتهيـــت لغيرهـــا وعما قريب يعظم الجاه و القـــدر
وذدت بسيـــف العـــز كـــل معانـــد وقمت فقومي في الوغى لهم الذكر
ففرطوط والرحموني والكوط عصبتي وراغون كنزي والصغير به الظفر
هلالـــي بدا لمـــا هـــلال أجابـــني وغيلان إذ لبـــى به وفـــر الوفـــر
قد دام بالديمان مجـــدي وســـؤددي وفخري باللبادي باد كمـــا الفجـــر
لنا المجد والعليا لنا الملك في الورى لنا الدين والدنيا لنـــا العز والفخـــر
ودولة أهل الريف حتما قد تمزقـــت ولم يبق بالتحقيق عندي لها جبـــر

وقد نعت جل المؤرخين المغاربة الذين كتبوا عن هذه الفترة القائد عمر لوقش بالطيش والحمق لأنه طمع في الحكم، وكما وردت لديهم القصيدة التي أجابه بها محمد بن بجة الريفي حذو النعل بالنعل[203]. ومن الذين تصدوا لهجوه وأهل بلده القاضي الأديب أحمد بن محمد الحميدي في قصيدة مماثلة ورد فيها:[204]

يا أهل تطوان لا در دركـــم ولا سقى أرضكم من مزنـــة مطـــــر
.. وأكذب قولهم باب النـــوادر إذ أدى ضراغم أهل الريف فانذروا
.. لذتم وعدتم لحصن الذيب ويلكم هل يعصم الذئب من أسد إذا زأروا
بر الهمام أبو العباس نجل علـــي في حلفـــه وانقضى منكم له الوطر
لولا شفاعة ربات الحجال لكـــم لم تبـــق عـــين منكم ولا أثـــر

ويظهر أن سعيه للملك وإلى الحكم بلغ خبره حتى إلى الديار المصرية حيث أن رجلا من المتصوفة كان يعرفه لما كان هنالك،فلما سمع بما انتقل إليه من شروعه في طلب الملك، وهذا يعني الخروج على السلطان والقيام عليه، كتب إليه يلومه بطريقة النصيحة، ونفس الشيء كتب به أحد أعيان أهل الريف الفقيه أبو عبد الله محمد العبد سلامي التمسماني.[205] وكما يتجلى من خلال تلك القصيدة المنسوبة إليه اغتراره بالجفر الذي جعل فكره طائشا كما قيل حتى ادعى ما ادعاه. وقد اعتبر بعض المؤرخين أن ذلك كان سببا

---

[203] - انظر: **البستان الظريف**، ص.288 و**الجيش العرمرم**، ص.180 و**الدر المنتخب**، ج.8، ص.107 و**الاستقصا**،ج.7، ص.180، و**إتحاف أعلام الناس**، ج.5 ، ص.490 - 492 و**تاريخ تطوان**، ج.2، ص.172 -175.

[204] - الموفق الثعالبي، ص.19 .

[205] - نفس المصدر السابق، ص.20 .

في إخراجه من بلده وتغريبه.[206] إلا أن آخرين ممن عاصروا هذه المرحلة التاريخية التي عاشتها البلاد أوردوا أسبابا أقرب للواقع السياسي الداخلي حينذاك، فالسكيرج قدر تأخير عمر لوقش عن حكم تطوان عام 1146 (1733) بسبب إضراره بالناس من كثرة المغرم، وكل من قدم إلى ثغر طنجة حيث الباشا أحمد يشهد بذلك حتى أكمل مائة رجل في بينة وبعثها إلى السلطان مولاي عبد الله، فأرسل ابنه من وراء القائد لوقش وبقيت المدينة بدون حاكم.[207] ومر بنا أن داود عثر في مخطوط قديم أن سبب عزل لوقش المذكور هو وشاية من الباشا إلى السلطان بأن هذا القائد لم يحارب إسبان سبتة لما خرجوا لمقاتلة المسلمين، فاستاء السلطان من ذلك وأمر بعزله. وهذا السبب يؤكده ما ورد في زهر الأكم « وفي سنة 1144 (1731) نظر أمير المؤمنين في حرب سبتة على ما بها من الروم فبعث إليها خديمه الباشا أحمد بن علي الريفي فسار إليها بجموعه وحشوده ونزل عليها وحاصرها.. وفي تلك السنة ولاه قيادة مدينة تطاون وأحوازها، وجمع له عمالتها كلها إلى بلاد قارت وعزل على مدينة تطاون قائده الفقيه العالم السيد عمر الوقاش وأسكنه معه بحضرة مكناسة..».[208]

وقد قال الفقيه عمر لوقش قصيدة شعرية بعد عزله عن الحكم يظهر فيها حسرته على ضياعه، وكما يتبين منها أن الناس أو على الأقل قسم من الأهالي لم يتحسر على عزله، فمن الأكيد أنه كان له أعداء ارتاحوا لتأخيره، فضلا عن وشاية الباشا أحمد التي لعبت دورا مهما في هذا العزل:

لئن فاتني أمر ونهي على الورى ... فما فاتني علم الهدى والدقائق
وإن كنت يا تطوان فارقت ماجدا ... فسيري فأنت اليوم مني طالق
فما فيك من خير رضيت زعانفا ... لهم في مروج اللؤم منك نقانق
رعاع من أهل الريف ما تم عنهم ... بأجمعهم الأخؤون وشارق
فقل للذي أضحى بعزلي شامتا ... رويدا فللدهر الهضوم رواشق
وقل للذي أضحى بهجو يشينني ... قصرت وقد طالت عليك الشواهق

والذي نعرف أن عزله عن حكم تطوان كان عام 1145 (1732) وأن السلطان استدعاه لحضرته مكناس، وقد ذكر القاضي العميري أنه في العام المذكور ثارت فتنة بين فقهاء مدينة مكناس، ذلك أن الفقيه عمر لوقش كان

---

[206] - داود، ج.2 ، ص.200 .
[207] - السكيرج، ص.25 .
[208] - ابن موسى الريفي، مصدر سابق، ص.72 .

قدم من تطوان بعد أن كان تأمر بها إمارة أوغرت عليه الصدور، وأساءت ذكره لدى السلطان، فاستقدمه إلى مكناس، فأقام بجامعها الأعظم يدرس التفسير، فانكفأت عليه الطلبة وكثر ذكره وشاع على ألسنة من يجلس إليه حمده وشكره، فسعى الحساد لإفساد ذات البين بينه وبين السلطان ونكبته لولا لطف الله. وقد كتب في ذلك السلطان سيدي محمد بن عبد الله في رده على رسالة الفقيه عبد السلام بن سودة المري:«... إنك تعلم أن السيد عمر الوقاش التطواني من علماء المسلمين لما شكى به ولد علي بن عبد الله وذكر لأبينا رحمة الله عليه أنه لا يصلح جلوسه بتطوان ورحله أبونا إلى مكناسة واشتغل يدرس بالجامع الكبير بمكناس الفقه والحديث والتفسير وأقبل عليه جميع الخلق في مكناس ودخل من الحسد والحقد في أولاد العميري للسيد عمر المذكور ما لا يكيف، واجتمعوا هم ومن وافقهم من ظلمة الطلبة وقالوا لأبينا رحمة الله عليه إن عمر هذا الذي يقرأ بالمسجد لا يحسن الفقه والحديث، وهو اليوم يقرأ التفسير ومن قرأ التفسير وهو لا يعرفه فقد ذكر العلماء أن المدينة التي يكون فيها تخلى... وأصغى أبونا إلى الكلام المذكور ووجه للسيد عمر المذكور من قبضه وسمر له كبلا ووجه به إلى ولد علي بن عبد الله، وحضر لطف الله ولم يصل إليه ولو وصل إليه لقتله شر القتل، والحمد لله الذي لم يمت ذلك العالم على يد أبينا... كان من حق العالم الذي كان مصدرا في ذلك الوقت بفاس... أن يكتب به إلى أبينا ويقول له أفدي لك أبي وأمي بل أفديك بنفسي ومالي الخ أن لا تصغي لقول الظلمة أولاد العميري في السيد عمر الوقاش فإنه خير دين يحسن قراءة التفسير كما ينبغي وقولهم فيه بهتان وزور... وحين سمعت جدتنا قدس الله روحها ما وقع بالفقيه المذكور ركبت وتوجهت في الحين لأبينا للدار البيضاء [قصره بدار الدبيبغ بفاس] وأنا عاقل أتستر من ورائها فلما قربت من الدار دخل عبيد الدار لأبينا وقالوا لا لا هاهي قريبة، خرج أبونا بالفور وتلقاها وقبل رجليها... وأقسمت له بالله تعالى قائلة والله لا أنزل من هذا الكدشي حتى تبعث الخيل يردون السيد عمر الوقاش المذكور. فبعث أبونا رحمة الله عليه قائدا من قواده ومعه عدة من الخيل للفقيه المذكور على مرحلتين من مكناس، وحين توجهت الخيل للفقيه المذكور حكت جدتنا لوالدنا رحمها الله القضية التي كانت بين الفقيه المذكور وأولاد العميري، وبينت له أنما كان ذلك حسدا منهم. ولما رجع الفقيه المذكور تلقاه والدنا بالبشاشة والبرور وأقبل عليه غاية الإقبال ونبذ أولاد العميري وراء ظهره، وكان يدخل على والدنا صباحا ومساء ويشاوره في الأمور ويشفي له الغليل في المسائل التي كان يسأله عنها في كل فن من

الفنون... وبقي مع والدنا حتى توجه معه لتارودانت وكان لايفارقه ليلا ولا نهارا، فقال له والدنا هذه البلاد العلم فيها قليل والجهل كثير بقراءة العلم ينتفع بك المسلمون، فاشتغل بتدريس العلم بالجامع الكبير بتارودانت..».[209]

وأقام بها يدرس العلم إلى أن مرض وتوفي بها عام 1149 (1736) ودفن قبالة جامعها، وأنه يعرف بالفقيه الغربي.[210]

2 - القاضـــي:

كان وظيف قاضي المدينة من المناصب السامية في إدارة المخزن نظرا للتمييز بين سلطة الشرع التي يمثلها هو وسلطة التنفيذ التي يملكها ممثل المخزن أي القائد والباشا، ثم إن شخصية القاضي مهمة لأنها تضاهي شخصية القائد في الجاه المخزني. ومنصب القاضي شرعي ولذلك كان يختار من بين كبار الفقهاء النزهاء بالمدينة، ولو أنه أحيانا كان يتحكم في تعيينهم أو بقائهم في المنصب مقدار تودهم لممثل المخزن والسعي لكسب رضاه، فمثلا كان القاضي محمد بن قريش عينا للباشا أحمد بن علي يخبره بالشاذة والفاذة.[211]

وكان الشأن في القاضي أن يكون من العلماء الذين درسوا العلوم الشرعية والفقه المالكي، واشتغلوا بشؤون القضاء والفتوى ومارسوا حرفة العدالة. فهو يحكم في القضايا الشرعية فينظر في المسائل الشخصية من نكاح وطلاق وميراث ونحو ذلك، وفي البيوعات وسائر العقود والالتزامات وجميع المعاملات من تصفح للرسوم والفصل بين الخصوم بالمشهور من مذهب مالك أو الراجح أو ما به العمل.

إلا أن تنفيذ أحكام القاضي كانت تبقى خاضعة لإرادة صاحب السلطة التنفيذية في غالب الأحيان وهو القائد المخزني، والذي كان بدوره يتولى إجراء الأحكام على محكوميه مستندا في ذلك إلى سلطته السياسية التي يخولها إياه السلطان. وهذا ما يطرح التساؤل إلى أي حد كان الفصل مثبتا بين السلطتين؟ والجواب هو أن ذلك يتعلق بشخصية القاضي ومنزلته العلمية ومقدار نزاهته وجده واجتهاده.[212]

---

[209] - داود، ج.3 ، ص33 –34 .

[210] - ابن زيدان، ج.5 ، ص.494 .

[211] - السكيرج، ص .28 .

[212] - عبد العزيز السعود، **تطوان في القرن التاسع عشر**، ص.152 .

وكانت تولية خطة القضاء تتم بعد إجماع علماء المدينة وأعيانها على انتخاب فقيه معين، فيكتب قائد المدينة بذلك إلى السلطان الذي يوافق في غالب الأحيان. وكان جل قضاة تطوان وعمالتها في القرن الثامن عشر من الفقهاء المدرسين، وغالبا ما يجمعون إلى وظيفهم مهنة الفتوى والخطابة في الجامع الأعظم، فمن جملة ما يحلى به اسمه قاضي تطوان وخطيب جامعها الأعظم، وكانت المرتبة التي تلي هذا المسجد هي مرتبة الخطبة في جامع العيون. وقد تناوب على هذه الخطة في تطوان خلال القرن الثامن عشر قضاة ينتمون إلى أسر معدودة احتكر أفرادها هذين المنصبين لعقود متتالية، ونذكر منهم الفقيه المدرس عبد الرحمن بن علي الزلال قاضي مدينة تطاوين من سنة 1706/1118 إلى1715/1127، وقد توفي عام 1718، وشغل ابنه محمد بن عبد الرحمن الزلال منصب نائب القاضي بالثغر التطاوني.[213] وتولى الفقيه المدرس العالم محمد بن محمد بن قريش من بعده وظيف القضاء بتطوان بالإضافة إلى الإفتاء والخطبة في الجامع الأعظم ثلاث مرات من سنة 1716/1128 إلى 1719/1131 ومن سنة 1721/1134 إلى 1725/1138 ثم من عام 1146 /1733 إلى 1743/1156. [214] وقد ذكر سكيرج أن القاضي المذكور عزل عن القضاء عقب وفاة الباشا أحمد بن علي الريفي. وخلال هذه المدة تولى منصب نائب القاضي بتطوان أفراد من أسرة ابن طريقة وهم الفقيه عبد الكريم بن سعيد بن طريقة من عام 1714/1126 إلى 1141/ 1728، والفقيه محمد بن أحمد بن عبد المجيد بن طريقة عام 1152 / 1739، والفقيه المفتي والخطيب بالجامع الأعظم محمد بن العربي بن قاسم بن طريقة عام 1156 /1743، وقد ولي قضاء تطوان وعمالتها عام 1161 / 1748.

ويظهر أن أسرة ابن قريش ستستعيد احتكارها لمنصب القضاء بالمدينة منذ منتصف القرن الثامن عشر، فقد أعيدت تولية القاضي محمد بن محمد بن قريش سنة 1751/1164 وظل في وظيفه إلى حدود سنة 1756/1170 حيث تولى مكانه نائبه عبد السلام بن محمد بن قريش. وقد توفي القاضي محمد بن قريش عام 1758/1172 ودفن قرب ضريح سيدي علي بن مسعود الجعيدي.[215] وقد ظل وظيف القضاء بهذه المدينة مناوبا بين فقيهين من الأسرة المذكورة هما عبد السلام بن محمد بن قريش وابن عمه عبد الكريم

---

213 ـ محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج.2 ، ص.287 .

214 ـ نفس المصدر، ص.288 .

215 ـ محمد الطيب القادري، **التقاط الدرر**، ص.442 .

بن أحمد بن قريش، وذلك من عام 1170 إلى 1190 (1756-1776).[216] وكان عبد الكريم بن قريش قد سافر لأداء مناسك الحج عام 1196 (1782) وتوفي هناك، فاستقل عبد السلام بن قريش بقضاء تطوان إلى سنة 1792/1207. ومما وصف به القاضي المذكور الفقيه الأجل العلامة المدرس الأكمل الخطيب البليغ الأمثل قاضي محروسة ونواحيها وخطيب جامعها الأعظم ومفتيها. ومثل هذه الأوصاف والنعوت كان العدول يطلقونها جزافا على القضاة بقطع النظر عن استحقاقها أو عدمه، ولعلهم كانوا يقلدون فيها تقليدا سلكه سابقوهم إما تملقا للقضاة ونفاقا، وإما ترسيخا له حتى يأتي دورهم أيضا، فجل القضاة في تطوان تعاطوا لخطة العدالة قبل أن يتقلدوا منصب القضاء. ولم نقف على تاريخ إعفائه أو وفاته،[217] وقد ولي بعده منصب القضاء الفقيه عبد الرحمن بن محمد الحايك واستمر قاضيا إلى سنة 1797/1212.

ويتبين مما سبق أن أسرتين على الأقل تناوبتا أو توارثتا على الأرجح منصب قاضي المدينة ونائبه لعقود طويلة من القرن الثامن عشر، وهاتان الأسرتان هما أسرة ابن طريقة وأسرة ابن قريش.

وكانت هذه الظاهرة التي عرفتها مدن مغربية أخرى توحي بكثير من الريبة والقلق لدى المخزن المركزي، الأمر الذي دفع السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى اتخاذ بعض التدابير في حق هذا الوظيف، ومنها تقديم النصح والوعيد للمتولين لخطة القضاء، فأصدر ظهيرا ينظم العدلية سنة 1788 أوضح فيه المعايير التي يستلزم اتباعها من طرف القضاة أثناء حكمهم في أية نازلة، وميز بين الأحكام التي يستوجب اتباعها في مجال العبادات، وما يقتضي العمل به في مجال المعاملات.[218]

وقد أمر السلطان القضاة بكتابة الأحكام التي يوقعونها بين الناس في كل قضية ويكون المكتوب في رسمين، وأسند أمر ذلك للولاة والعمال ليقفوا فيه حتى يجري عليه عمل القضاة. وأوجب على القاضي أن يحكم في حقوق الناس بالمتفق عليه ثم بقول الأكثر وهو المشهور، ثم بأحد القولين المتساويين على أن يجتهد في أحدهما، وهو قول الشاطبي، خشية ضياع حق المساكين.

---

[216] - داود، مصدر سابق، ص.291 .

[217] - نفس المصدر، ص.293 .

[218] - عبد الوهاب الدبيش، **تنظيم القضاء في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله**، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الثالثة، مطبعة الأمنية، الرباط، 1993، ص.193 .

وتساءل السلطان أين القضاة الذين لا يهملون حق المساكين، واعتبر أن نظرهم اليوم إلى صاحب المال لماله وصاحب الجاه لجاهه، فيحكمون لهم ويغلبونهم على المساكين بالقول الشاذ.[219]

وكانت العادة في تطوان أنه إذا توفي شخص وترك أولادا صغارا لم يجعل لهم وصيا عليهم، فإن القاضي هو الذي يعين لهم شخصا ينظر في شؤونهم، ويسمى ذلك الشخص مقدم القاضي. ويعتمد القاضي في تقديم الشخص المعين على شهادة تثبت بأن الأولاد مهملون، وأن فلانا هو أحسن من يقدم عليهم لثقته وأمانته. ويبقى اليتيم المهمل تحت رعاية مقدم القاضي إلى أن يصل سن الرشد.[220] وهذه شهادة في الموضوع ونصها:« الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه يعرفون الصبيين محمدا والعربي ولدي السيد محمد بن محمد الصباغ أتم المعرفة وأكملها ويشهدون مع ذلك بأنهما يتيمان مهملان لا وصي لهما من أب ولا مقدم من قاض وأنهما مفتقران لمن ينظر لهما في جميع أمورهما وكافة شؤونهما وأن أولى من يتقدم عليهما لذلك المعلم محمد بن أحمد البرجي به دعي التطاوني المعروف عندهم بمثل المعرفة المذكورة بثقته وأمانته... وقيدوا بذلك شهادتهم مسئولة منهم في منتصف جمادى الأولى عام ستة وخمسين ومائة وألف»[221] (الشهود) (1743).

وقد أصدر السلطان أمره لمن يتولى خطة القضاء « أن لا يباع على غائب أو محجور ذكرا أو أنثى فيما يستقبل من تاريخ كتابنا هذا عقار أو ربع، فإن اطلعنا على رسم يتضمن ذلك فإنا نعاقب القاضي عليه بالعقوبة الشديدة ويفسخ ذلك.. ».[222]

ولم يفت السلطان أن ما أصاب العدلية في البلاد من فساد الأحكام تعداه إلى خطة الإفتاء إذ اقتصرت الفتاوي على مختصر خليل وشروحه. وقد أقسم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لقضاة وقته أن من أفتى منهم بغير فتوى الأقدمين المذكورين في رسالته، فإنه يعاقبه عقوبة شديدة نكالا لمن بعده.[223]

---

219 - عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، الدار البيضاء،1990 ، ص.192.

220 - داود، مصدر سابق، ص.344 .

221 - نفس المصدر والصفحة.

222 - عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج.3 ص.200 .

223 - المصدر السابق، ص.203 .

وإن كان القاضي يتولى تسيير شؤون العدلية فإنه يختار مجموعة من العدول يتكلفون بتحرير الشهادات المتعلقة بالمعاملات والعقود المتعلقة بالحياة العائلية بكيفية شرعية. وقد ألزم السلطان القاضي بالتثبت في الشهود والإكثار منهم نظرا لضعف العدلية. وقد كان بعض الشيوخ يقول كل الناس عدول إلا العدول. وقد نعتهم السلطان في رسالته بأهل الدكاكين الذين هم أسرع الناس إلى الزور.[224]

وهذه رسالة كتبها السلطان مولاي سليمان إلى القاضي عبد الرحمان الحايك يقره فيها على ولاية القضاء بتطوان ويرشده ويأمره بعدم التراخي في أمر الشهود:

« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الفقيه العلامة القاضي السيد عبد الرحمن الحايك أعانك الله وأصلحك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد فقد أمضينا لك تولية خطة القضاء وقلدناك سائر أمورها فنأمرك أن تقدم فيها على ساق الجد والاجتهاد وأن تترك عنك التراخي في الأمور، وأن تنظر في أمور الشهود ولا تبق منهم إلا من يرضيك حاله وتقبل شهادته شرعا، ومن ليس أهلا لذلك فلا تقبله كائنا من كان، وكذلك نأمرك أن لا تغفل عن فصل القضايا.. واستعن بعلماء الوقت عليها ولا تطول أمرها، ولا تخف في ذلك لومة لائم وراقب الحق سبحانه ولا تلتفت إلى مخلوق فإن الله يكفيك كل مخلوق، وكذلك الوكالة لاتقبلها إلا من امرأة أو عاجز لمرض أو نحوه، أما غير ذلك فلا. وأعلم أنك قد قلدت أمور المسلمين في الفصل بينهم بما حكمت به الشريعة... وربنا يوفقنا وإياك والسلام في منتصف رمضان المعظم عام 1209 ».[225]

وكانت ولاية خطة القضاء بتطوان لا يستقر فيها القاضي مدة طويلة، بل كانت تتم مناوبة بين فقهاء المدينة، فقد ورد على القائد عبد الرحمن أشعاش كتاب من السلطان مولاي سليمان يأمره بأن يجعل قضاء المدينة مناوبة بين فقهائها بحيث يقضي الواحد منهم في الوظيف ثلاثة أشهر، ثم يولي غيره مكانه إلى أن تظهر نجابة أحدهم وحسن سيرته في الأحكام وضبطه للأمور ويثبت ذلك عند الناس.[226] ويظهر أن الشخص الذي توفرت فيه هذه الشروط أو بعضها على الأقل هو القاضي عبد الرحمن بن محمد البرنوسي الذي ولى قضاء تطوان في محرم سنة 1806/1221، وحلي بالخير الدين الأعدل الحافظ

---

224 - نفس المصدر، ص.204.

225 - داود، ج.7 ، ص.218.

226 - نفس المصدر، ص.220 .

الحجة الأنبل الخليفة من مولانا السلطان المنصور المعظم. وقد كانت لمولاي سليمان في هذا القاضي ثقة كاملة حيث وجه له رسالة ونصها: « وقد أطلقنا لك اليد في كل ما يحكم فيه القضاة وزدناك كل ما يجب علينا النظر فيه من أمور المسلمين من غير منازع ولا يد لأحد عليك في ذلك، فانظر في الأئمة والأحباس والنظار ومن كان يستحق مرتبا وقائما بوظيفه ومن لا وشد روحك في أمور الدين وول وأعزل وعاقب، فإن البدع عمت وتهاون الناس بأمور الدين وتولا الأحباس أهل الجاه ممن لا يستحق، ومن عارضك في ذلك أعلمنا به... وابعث بكتابي هذا إلى الحاج عبد الرحمن أشعاش ونأمره أن يشد عضدك في ذلك وأن يتركك وما كلفناك فإن ظهر له أمر في أمرك أعلمنا ولا يكف لك يدا..».[227]

وكانت خطة العدالة المرتبطة بالقضاء يتولاها الفقهاء في تطوان، وقد أورد داود لائحة طويلة بأسماء العدول في القرن الثامن عشر.[228] والعدول هم مرجع الناس فيما يصدر منهم من المعاملات خصوصا ما كان يعود منها إلى المال كبيوعات الربـــاع والعقارات، والوصايا المختلفة لزاوية أو حفدة أو لصدقات معلومة، والمواريث والمفاصلات، وإجـــزاء الأرض أو المـــاء أو معاوضة مع الحبس إقرارا أو تصييرا. وكان الإشهاد لديهم في مختلف الشؤون يعتبر من الإجراءات الضرورية والعادية التي يجريها أهالي تطوان على أنفسهم. وكان العدول يجلسون في دكاكين خاصة بهم تقع في الغالب بالقرب من الجامع، وتدعى هذه الدكاكين المتلاصقة سماطا. وكانوا يتقاضون أجورهم من الزبناء وبحسب أهمية ما يحررونه لهم من شهادات ووثائق، وكان راتبهم مبنيا على سخاء زبنائهم أو عدمه ولا ضابط له. وكما كان العدول يتمتعون بتأثير أكيد في حياة المدينة، وبعضهم كان يستطيع أن يرقى لمرتبة القاضي.

ونورد مثالا لوثيقة عدلية وهي رسم بقسمة ماء أحد الصهاريج على القدر الذي يستعمله كل واحد من المستفيدين حسب الخط الذي يملكه وتعود لعام 1758 « الحمد لله نسخة رسم والثبوت عقبه نصه الحمد لله وقع الاتفاق بين السيد قاسم بن أحمد بيرة والحاج محمد بن سعيد السلاوي والحاج عبد السلام سطاش والمكرم علي السمار والسيد محمد عطوا والمكرم قاسم الطالب والطالب قاسم بورطو في قسم ماء الصهراج الكائن ببوحصادة على أربعة وعشرين يوما يأخذ السيد قاسم بيرة المذكور أربعة أيام ونصف يوم

---

[227] ـ نفس المصدر، ص.227 .

[228] ـ المصدر السابق، ج.2 ، ص.296 –300 .

منها ويأخذ الحاج محمد السلاوي يومين ونصف يوم ويأخذ المكرم قاسم الطالب ثلاثة أيام ويأخذ الطالب قاسم بورطو يوم ونصف يوم ويأخذ الحاج عبد السلام سطاش ستة أيام ويأخذ المعلم علي السمار ثلاثة أيام وكل الأيام بلياليها ومن كان في الحاجة منهم يأخذ نوبة واحدة ويعطيه لغيره وعلى ما قرر وسطر بوقوع الإتفاق على ما ذكر شهد به عليهم وهم بأكمله وعرفهم في ثالث شوال عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف عبد الكريم بن سعيد بن طريقة وفقه الله وبعده بخط من يحب ثبت قابلها بأصلها فماثلته وأشهد الفقيه الأجل العالم الأكمل قاضي تطوان وهو عبد السلام بن قريش كان الله له ووفقه بمنه أعزه الله تعالى بمنه وحرسها بصحة المقابلة وثبوت أصلها عنده الثبوت التام بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفي رابع وعشرين ذي القعدة الحرام عام اثنين وسبعين ومائة وألف عبد الله السمار وفقه الله بمنه ومحمد بن عمر الورياغلي وفقه الله».[229]

ويتبين من هذه الوثيقة أنها نسخت من رسم قديم وتتم مقابلة المنسوخ مع الأصل المنتسخ منه، ويسجل ذلك عند قاضي الوقت الذي يضع علامته الرسمية على النسخة الجديدة ثم يشهد عليه عدلان بصحة الأصل المنسوخ منه وثبوته لديه الثبوت التام.

3 – المحتسب :

حظيت مؤسسة الحسبة في الدولة المغربية عبر العصور باهتمام من طرف المخزن، وهذا الاهتمام يعكسه مستوى وخبرة العناصر التي يقع عليها الاختيار لمزاولة هذه الخطة. فمهمة المحتسب هي السهر على تطبيق الضوابط الشرعية في مجالي الاقتصاد والأخلاق وتنظيم المعاملات التجارية، وهي إذن متعلقة بمورد هام من موارد الدخل العام وهو السوق، إذ كان المحتسب يراقب السلع والأسعار في الأسواق، ويتفقد الموازين والمكاييل والمقاييس، ويفصل في المعاملات بين المستهلك والبائع. ويكون الغرض من هذه المهمة هو حمل الباعة على الإلتزام بقوانين السوق وتقويمهم إذا أخلوا بها. ولم يكن إشراف المحتسب على مراقبة الحرف والصنائع يكتسي صبغة سياسية إلا في مسألة مطالبة الحرفيين بأداء الضرائب وأنواع المغارم.[230] وكما كان يباشر أمور المرافق العمومية كالحمامات والفرارين من الناحيتين الصحية والأخلاقية، والعناية بالنظافة، ويسهر على تنفيذ الأوامر والآداب

---

[229] - نفس المصدر، ص.319 .

[230] - العلوي القاسمي، **مقدمة التقاط الدرر**، ص.181 .

الشرعية في ذلك، بحيث كان مرتبطا بصفة مباشرة بالحياة اليومية. ولهذا فخطة الحسبة كانت تقتصر في هذا العصر على الفقهاء دون غيرهم نظرا لارتباط مهامها بالشرع.

وكان تعيين المحتسب يتم بواسطة القائد أو العامل الذي يختار شخصا لهذا المنصب ويقترحه على السلطان الذي يزكيه في غالب الأحيان. ولعل تفسير هذه الطريقة يرجع إلى طبيعة العلاقة المفروضة بين القائد والمحتسب، إذ لم يكن هذا الأخير يتلقى أوامره من السلطان إلا نادرا، فهو يخضع لسلطة القائد وتعليماته، ولهذا فحدود مهام المحتسب كانت تتسع أو تضيق بحسب قوة أو ضعف شخصيته.[231]

وكان المحتسب يتقاضى راتبا عن مهامه يدفعه له ناظر الأحباس العامة، وكما كان يجعل لنفسه إتاوة هامة على حساب أهل الحرف والصنائع، فضلا عما يستخرجه من بعض الربح في مراقبة الموازين والمكاييل.

4 – الأمنـاء:

كان الجهاز المخزني المحلي يضم إلى جانب القائد والقاضي والمحتسب موظفين يختارهم المخزن ويعينهم ومن بينهم الأمناء، ولا سيما أمناء المرسى والديوانة بالنسبة لمدينة تطوان. فكان السلطان يطلب من القائد أن يرشح بعض رجال المدينة لتولي هذا المنصب. وكان القائد يعتمد في اختياره للأمناء على مقاييس الأهلية ومراعاة المصلحة، ولكنه ليس من الأكيد أن اختياره كان في جميع الحالات يستند إلى اعتبار المصلحة العامة وحدها، بل كانت تتدخل فيه اعتبارات ذاتية تتصل بالقرابة والوساطة.[232] وكانت المدة الزمنية التي يقضيها الأمناء في مناصبهم متفاوتة، فبينما كان البعض يقضي فترة قصيرة في مزاولة المهمة، نجد البعض الآخر يشغل هذا المنصب لمدة طويلة، بل هناك من الأسر التي توارثت هذا المنصب خلفا عن سلف في تطوان مثل أسرة لوقش التي شغل أفرادها منصب أمانة المراسي لعدة عقود من القرن الثامن عشر. ويلاحظ أنه كلما طالت مدة التولية كان ذلك مدعاة ليصير المنصب وراثيا في أعضاء عائلة الأمين.[233] وينتسب جل الأمناء إلى فئة إجتماعية معينة هي فئة الأغنياء وأهل الوجهات، فقد درج العرف على

---

231 ـ السعود، مصدر سابق، ص.154.

232 ـ نعيمة هراج التوزاني، **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن**، المحمدية، 1979 ، ص.52 .

233 ـ نفس المصدر، ص.58 .

أن أمانة المراسي بالخصوص يتولاها كبار التجار من أهل المدينة والذين هم أعرف الناس بالأسواق والمبادلات وأكثرهم اتصالا بالأجانب. ونقدم مثالين لأمينين في تطوان عاش أحدهما في أوائل القرن الثامن عشر وهو الحاج عبد السلام لوقش، وآخرهما في أواخر القرن المذكور وهو محمد البروبي. فقد تحدث القبطان الإنجليزي بريث ويت الذي زار تطوان سنة 1727 عن الأمين لوقش الذي شغل هذا المنصب في عهد السلطان مولاي إسماعيل، وذكر بأنه كان من أصحاب الثراء حيث فاقت ثروته عشرين ألف ليبرة إسترلينية، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا البلد، وبأنه كان على إلمام كبير ببعض العلوم، وأن الأهالي كانوا يستشيرونه في كثير من شؤونهم، وكما كان الأجانب يزورونه كلما وفد أحدهم إلى المدينة.[234] وأما محمد البروبي فكان أمينا لمرسى تطوان منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ونظرا لأقدميته في منصبه فإنه أصبح من كبار الشخصيات بالمدينة وأهمها إطلاقا، وكان يمارس مهامه بالديوانة في إستقلال تام عن القائد عبد الرحمن أشعاش،[235] ولم تكن هذه الإستقلالية في المهام من باب الفصل بين السلط في حقيقة الأمر، وإنما كانت تعكس إلى حد ما الصراع الذي كان بين الرجلين، وتجسد في الواقع ذلك الصراع التقليدي الذي شهدته بعض الحواضر المغربية بين خدام المخزن والأعيان المحليين، وتجلى هذا الصراع بينهما في مناسبات وهي لما أصر الأمين البروبي على فتح أمتعة الرحالة البولندي بوتوكي الذي كان ضيفا على القائد أشعاش، وعندما برز على الساحة بعد موت مولاي اليزيد ووصول مولاي سليمان إلى الحكم، حيث طلب أهل تطوان من السلطان المذكور عام 1796 تعيين محمد البروبي قائدا عليهم، فرفض ذلك وأعاد أشعاش لمنصبه.[236]

والواقع أن الثراء المكتسب لدى الأمناء إنما هو لاحق لغنى الأسرة التي يرشح أفرادها لمنصب الأمانة والمثال على ذلك واضح لدينا بالنسبة لأسرة لوقش، وفي نفس الوقت فإن ثروة هؤلاء تشكل ضمانة مادية لما قد يصدر عنهم من مخالفات أو إختلاسات يحتاج المخزن إلى محاسبتهم عنها وتغريمهم عليها.[237] وكان السلطان يأمر أمناء المراسي بالإنفاق على بعض المشاريع أو تأدية رواتب بعض الموظفين اعتمادا على ما لديهم من مداخيل. ولم يكن

---

[234] - بريث ويت، ص.84 .

[235] - Potocki, Op.Cit, p.11.

[236] - الضعيف، ص.300 .

[237] - هراج التوزاني، مصدر سابق، ص.63.

هؤلاء الأمناء يستحوذون على جميع الشؤون المالية في عمالتهم، حيث كان تحصيل ضريبة الجزية مثلا التي يؤديها أهل الذمة خارجا عن اختصاصهم ومتوقفا على القائد الذي يتسلم مبالغ الجزية ثم يدفعها إلى أمين الديوانة.

5 – ناظر الأحبـاس:

كان السلاطين يعتبرون النظر في الأوقاف من اختصاصات القضاة الشرعيين، فكان نظار الأحباس بمنزلة نواب عن القضاة يديرون الأحباس تحت إشرافهم ومراقبتهم الشرعية. ويتولى ناظر الأحباس جمع مداخيلها من إيرادات الأملاك المحبسة والإنفاق منها على المصالح العمومية، وتسديد بعض الرواتب وإنعامات السلطان. إلا أن هذه المهمة تتميز على صلتها بما يقوم به الأمناء لا تتصرف في الأموال العامة للمخزن، بل تتكلف فقط بإيرادات الأملاك التي حبسها أصحابها لمقاصد خاصة. وكان السلطان مولاي إسماعيل لما رأى كثرة الأوقاف بالبلاد وخشي من ضياعها، أمر النظار في كل جهة بإحصاء الأحباس وتسجيلها في دفاتر خصوصية يمكن التعرف منها على أملاك الأحباس ومقاصد المحبسين. وعندما تولى السلطان مولاي عبد الله أصدر ظهيرا سنة 1729/1143 بمثابة تجديد للنظارة العامة التي كانت موجودة في حياة والده.[238]

وكان عدد النظار كثيرا في المدن والنواحي حتى كان لكل وقف ناظر خاص إما من قبل صاحبه أو من طرف القاضي أو باختيار من أهل البلد، فلما ولي السلطان سيدي محمد بن عبد الله شرع في جمع أحباس مدينة واحدة أو ناحية في يد ناظر واحد سعيا في لم شعثها وحرصا في تشديد مراقبتها.

وإلى جانب هذه الوظيفة وجدت وظيفة **أبي المواريث** ومهمته النيابة عن بيت المال في حيازة ما هو مال للدولة وصيانته من متخلف من لا وارث لهم، وما ألحق بذلك مما ليس عليه ملك لأحد من الناس كالأراضي الموات وبطون الأودية وما لفظه البحر والركاز وغيره، وكلا الوظيفتين يعينهما المخزن.

---

238 ـ محمد المكي الناصري، **الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1412 هـ / 1992 م ، ص.18 .

الفصل الخامس
علاقة المدينة مع الخارج

حظيت مدينة تطوان بأهمية بالغة من قبل البلدان الأوربية المتنافسة والمجاورة للمغرب بسبب موقعها الجغرافي المتاخم للثغور المحتلة، فقد كان الحكام الإسبان ينظرون إليها من خلال منظور مزدوج باعتبارها المدينة القريبة من معقل سبتة مما يجعلها الثغر الأكثر خطورة على التواجد الإسباني بتلك الناحية في حالة قيام نزاع بين إسبانيا والمغرب، وبالمقابل، فهي تشكل الموقع الكثير الفائدة والمنفعة في فترة الوئام،وفي هذه الحالة يصبح بإمكان سبتة التزود بالأقوات إنطلاقا من تطوان وجوارها لأن حصوله من شبه الجزيرة يكون جد عسير. ولم يتقاعس الإنجليز من جانبهم في ربط علاقات متينة مع الجزء الشمالي من البلاد وبالخصوص مع تطوان حتى يمكنهم أيضا التزود بالمؤن والأقوات لفائدة سكان جبل طارق، وقد راهن الإنجليز على مسألة تدهور العلاقة بين المغرب وإسبانيا بفعل الحصار الذي ضربه السلاطين على سبتة، وكما استغل المغرب بدوره التقارب مع إنجلترا في محاولة تحقيق عزمه باسترجاع سبتة. وأما فرنسا فقد فطنت مبكرا لأهمية تطوان وسلا في تنشيط مبادلاتها الخارجية فسعت إلى فرض احتكارها على تجارة المرسيين. ومما يعزز الأهمية السياسية لمدينة تطوان كذلك دورها في عمليات افتكاك الأسرى الأوربيين.

1 ـ الدور الدبلوماسي لتطوان :

تقدم لنا الوثائق المختلفة والمصادر الأجنبية بالخصوص أمثلة تبين حقيقة الدور الدبلوماسي الذي كانت تقوم به مدينة تطوان داخل النسق المخزني في القرن الثامن عشر وقبله، حيث كان الإتصال مع ممثلي الأجناس من سفراء ومبعوثين وكذلك القناصل المتواجدين بالمراسي المغربية يتم عن طريق باشا تطوان أو قائدها الذي كانت سلطته تشمل جل إقليم الشمال الغربي من البلاد. وبذلك أضحت تطوان عاصمة دبلوماسية للمغرب ينزل بها سائر المبعوثين الأجانب قبل الشروع في التوجه إلى مكناس حيث السلطان،وكانت إقامتهم في الغالب تقتصر على تطوان حيث تجري المفاوضات مع ممثل السلطان القائد علي بن عبد الله الحمامي، وفي هذا الصدد كتب القائد المذكور رسالة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر في نوفمبر 1691 يعلمه: «إلى عظيم الإفرنج

وكبير المملكة الفرنصيصية... المعظم في قومه الملك لويس الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإنه لا يخفاك ما أسنده إلينا مولانا أيده الله ونصره من أمر هذا الإقليم المشتمل على هؤلاء من ثغر طنجة وتطاوين والعرائش والمعمورة وفوض لنا في جميعها التفويض التام الشامل العام وأقامنا ها هنا بصدد أن نتكلم معك ومع غيرك من أجناس النصارى ويتكلمون معنا ونتقاضى الحاجات فيما بيننا في سائر ما يبيحه الشرع العزيز...».[240]

وقد أسهمت العوامل الجغرافية والسياسية في توطيد هذا الجانب بالنسبة لمدينة تطوان بسبب قيامها بدور الوسيط بين المغرب وأوربا، ويتجلى ذلك من خلال تواجد عدد من النصارى بها من رهبان وتجار وقناصل وغيرهم، وتكليف عدد من تجارها بسفارات وبعثات نحو أوربا، وتقليد عمالها مهمة المفاوضة مع مبعوثي البلدان الأوربية. وظلت مدينة تطوان تمارس هذه المهام الدبلوماسية طيلة القرن الثامن عشر، وكان السلطان مولاي سليمان قد أكد هذا الدور لما كتب للهيئة القنصلية الأوربية في نوفمبر1792 يخبرها بتوليته محمد بن عثمان المكناسي على تطوان، وتفويضه مباشرة الكلام مع الأجناس« ...أما بعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه محمد بن عثمان,.. بعثناه لتطوان وولياه أمرها وأمر من بها مفوضا له في ذلك. وقد حملنا على بعثه وتوليته غرضان أحدهما أن تطوان أعظم ثغور المسلمين ومقصد لكل واحد من المسلمين ومن أجناسكم.. والغرض الآخر هو جعله واسطة بيننا وبينكم بحيث كل من يعرض له منكم أمر خاص.. فليعرضه عليه ويتفاوض معه فيه لأنه أعلم بأحوالكم وهو يبعث لنا أغراضكم وعلى يديه يأتيكم الجواب من عندنا... فما عندنا أحد نصبناه للكلام معكم سواه. وفي سادس عشر ربيع الأول سنة سبع ومائتين وألف».[241]

1.1 - السفارات والمعاهدات :

كان السلطان مولاي إسماعيل قد توصل برسالة من عاهل فرنسا لويس الرابع عشر مؤرخة في 12 أبريل1681 جوابا على رسالة تلقاها من قائد المراسي والمدن البحرية عمر بن حدو أخبره فيها باستعداد السلطان لمباشرة الكلام مع الفرنسيين، وقد كلف ملك فرنسا القبطان دولابار بملاقاة مولاي إسماعيل لأجل إبرام معاهدة حمل معه مشروعها.[242] لكننا لا ندري هل تم

---

[240] - داود، ج.2 ، ص.23.

[241] - داود، نفس المصدر، ج.3 ، ص.385 .

[242] - Henry De Castries, Op.Cit, Tome I, p.534.

ذلك فعلا أم لا، وكل ما نعلمه هو أن السلطان بعث الحاج محمد تميم التطواني خليفة القائد علي بن عبد الله على تطوان إلى باريس ليس بصفته سفيرا، وإنما كمبعوث للقائد عمر بن حدو نائب السلطان على الغرب مكلف بالاستخبار عن مخططات لويس الرابع عشر. وكان محمد تميم قد أبحر على متن سفينة القبطان دولابار في شتنبر 1681، ونزل بميناء بريست في 17 أكتوبر، ووصلت البعثة إلى العاصمة الفرنسية يوم 30 دجنبر 1681.[243] وكانت مقابلته للعاهل لويس الرابع عشر في 4 يناير 1682، ثم تفاوض مع الوزيرين كولبير دوكرواصي وسنيلي. ويبدو أن العناية الفائقة التي حظي بها المبعوث المغربي وحاشيته من قبل البلاط الفرنسي وحكومته كانت الغاية منها هي أن تصبغ عليه صفة سفير رسمي لتسهيل عملية إبرام معاهدة 1682 وفق الشروط التي كان يؤملها العاهل الفرنسي. وقد جاءت تلك المعاهدة التي وقعها محمد تميم والوزيرين الفرنسيين المذكورين في سان جرمان – أن- لاي في 20 محرم 29/1093 يناير1682 مشتملة على عشرين شرطا تتناول احكام المهادنة والمتاجرة بين الجانبين، ومنها: أن توقف جميع العمليات الحربية بين قوات الدولتين برا وبحرا. وأن لرعايا الدولتين حق المتاجرة في كلا البلدين وكما لهم حرية الملاحة، وأنه يحق لسفنهما القرصانية والتجارية الرسو بالموانئ والمراسي التابعة لهما، وتقديم كل أنواع المساعدة للمراكب وأطقمها ومسافريها عند الإقتضاء. ونص الشرط السابع على أن أيا من الطرفين المتعاقدين بإمكانه افتكاك رعاياه من الأسر بواسطة 300 ليرة (مائة قرش ريال) عن كل رأس. وهذا الشرط ألغى اقتراح السلطان بأن يكون افتكاك الأسرى مشتركا عن طريق التبادل.[244] وجاء في الشرط الثاني عشر أن العاهل الفرنسي بإمكانه أن يجعل قنصلا فرنسيا في كل من سلا وتطوان أو في أي مكان آخر يراه مناسبا لأجل مساعدة التجار الفرنسيين، وتكون للقنصل المذكور كامل الصلاحية والسلطة القضائية في فض النزاعات التي قد نشأ بين الرعايا الفرنسيين.

ويظهر أن السلطان مولاي إسماعيل أبدى عدم رضاه عن بنود هذه المعاهدة، ولهذا أرسل العاهل لويس الرابع عشر مبعوثا عنه لديه هو سان - أمانس لأجل حصول على مصادقة السلطان على المعاهدة المذكورة، وقد تزود المبعوث الفرنسي بتعليمات من عاهله في30 يونيو 1682 في شأن السعي للحصول على سلم قار والعمل على جني كل فائدة ممكنة للتجار

---

243 - Ibidem,Tome II, p.201.

244 - Ibidem, p.204 , note 2.

الفرنسيين القلقين من نشاط القراصنة في كل من سلا وتطوان ومراسي أخرى.[245] إلا أن هذه السفارة لم تكلل بالنجاح بسبب صرامة موقف القائد علي بن عبد الله أثناء التفاوض مع السفير سان- أمانس، وقد اتهم هذا الأخير حاكم تطوان بأنه يخلق الحوادث لنقض الصلح القائم بين العاهلين، وبأنه حليف للقراصنة الجزائريين، ويملك عدة مراكب وغليونات يسلحها من أجل القرصنة، وبأنه يريد الحصول على فديات باهضة عن الأسرى الفرنسيين الذين يحتجزهم.[246] ووقعت في أثناء ذلك حوادث عكرت صفو العلاقات التي كانت في طور التمهيد، ذلك ان قائد القوات البحرية الفرنسية أسر قبالة مدينة الجزائر مركبا محملا بالرخام كان قد استولى عليه أحد الرياس البحريين بتطوان ويدعى محمد التاج. وقد احتج القائد علي بن عبد الله أمام قنصل فرنسا بتطوان بوايي الذي بعث رسالة إلى شيوخ بلدية مرسيليا مؤرخة في 17غشت 1683 في ذلك الشأن. وكما تتحدث رسالة أخرى مؤرخة في 26 نوفمبر 1683 عن طرطن في ملك التاجر الفرنسي بيير ميسونيي المقيم في تطوان والتي أسرت في طريقها نحو الجزائر من قبل غليونات إسبانية وهي تحمل علما أبيض[247].

وبسبب تعذر تنفيذ شروط المعاهدة من الجانبين، فإن السلطان مولاي اسماعيل بعث رسالة إلى الملك لويس الرابع عشر مؤرخة في 9 شعبان 1095 / 22 يوليو 1684 جاء فيها:

«.. إلى عظيم الروم بفرانصيه لويس الرابع عشر... أما بعد فاعلم أن الذي ظهر لنا أن ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ... ودليل ذلك أننا ما زلنا ما قبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئا. ففلامنك الذين ليس لهم رئيس وما عندهم إلا الديوان تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم وثبتوا فيها ووفوا بها. والإنكليز تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها فحين ذهب خديمنا لبلادهم... وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسرى لوجوهنا... وأولائك الذين كانوا قد قدموا إليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولا من أصحابنا ولا ممن له معرفة معنا... ثم بعد ذلك قدم لعلي مقامنا صاحبكم أنبشدور وأتانا بشيء من الخرق مع فالصوا الحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره ... ومع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانيا

---

[245] - Ibidem, p.203.
[246] - Ibidem, p.372.
[247] - Ibidem, p.398.

سيفطناه بها وظننا أنك ولا بد تراعي الخير وتبعث لنا عشرين مسلما تجبر بها خواطرنا ... وثانيا قبضنا لك سفينة قبل أن يقع الكلام بيننا وبينك ... وهي موسوقة بالسكر وتبغة وثقفناها نحو من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا أحدا يمد يده فيها وقلنا إنك تراعي خيرنا وتعمل لأولائك المسلمين طريقا وتسرحهم... وأعظم من ذلك كله هو أن رئيسا من بلادنا إسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذي أتانا خط يده على أنه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان... وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره وبعثها مع أصحابه ستة وعشرون مسلما وتعرضوا لها سفنكم وأخذوها وثقفتها أنت أياما ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدمتهم في الغراب... فحتى الآن فالذي ظهر لنا أنه ما يليق بك معنا إلا الشر وإن أردت تثبيت المهادنة وانبرام الكلام فيها وإمضاء حجتها فابعث لنا من عندك قونص بالتفويض على هذا الأمر.. والسلام على من اتبع الهدى وفي التاسع من شعبان المبارك سنة خمسة وتسعين وألف».[248]

وبعد انتظار الجواب طويلا فإن السلطان مولاي إسماعيل أذن لقائده علي بن عبد الله في أن يبعث إلى فرنسا من جديد الحاج محمد تميم لدعم مطالب الرايس محمد التاج، فكتب في ذلك القائد المذكور رسالة إلى ملك فرنسا مؤرخة في7 ربيع الأول 11/1096 فبراير1685. وبعد أكثر من شهرين توصل السلطان من لويس الرابع عشر برسالة مؤرخة في 6 ماي 1685 يخبره بأنه أعطى أوامره بقصد إعادة سفينة التاج مقابل ضمانة المدعو تميم بأن السلطان سيعمل على إرجاع المركب الذي في ملك المسمى كروازي وكذلك قيمة البضائع التي كان يحملها.[249]

ويتبين من خلال الوثائق أن سفارة الحاج تميم الثانية إلى فرنسا كانت بقصد ملاقاة ملكها واطلاعه مشافهة على أمور من لدن السلطان المغربي، إلا أنه وصل مدينة طولون ثم عاد منها بدون طائل. ولما طالت المدة ولم يأت جواب يعتمد عليه، فإن القائد علي بن عبد الله تفاوض مع قنصل فرنسا في تطوان إصطيل واتفقا على أن يقدم شخص له التفويض العام من العاهل الفرنسي للحل والعقد والربط يتم معه الوقوف على ساق الجد والإهتمام حتى يصل إلى حضرة السلطان، ويستوفي كل من الجانبين جميع الأغراض

---

[248] - Ibidem, p.434- 437.

[249] - Ibidem, p.496.

المهمة.[250] إلا أن الملك الفرنسي شأنه شأن الملوك الأوربيين قلما كانوا يبعثون بسفراء متميزين إلى السلطان، وهذا كان يقلق هذا الأخير ويغيضه ويفشل السفارة الأجنبية. وكان مولاي إسماعيل قد كاتب لويس الرابع عشر في ذلك بتاريخ غرة ربيع النبوي عام 22/1103 نوفمبر 1691:

« ... أما بعد فاعلم أنه ورد على مقامنا العلي بالله النصراني التاجر ولد اصطيله القونص ورغم أن بيده من عندكم إبر وتفويض واستظهر لنا بمكتوب على لسانكم... غير أننا لم نعتمد على قوله ولم نر الكلام معه في شيء من ذلك لكونه تاجرا... إذ ليس من شأن التجار الدخول في الكلام مع الملوك وأن يكونوا وسائط فيما يعرض بينهم... فإن كان لكم غرض في الكلام بجد وخلوص نية فابعث إلينا واحدا من كبار أصحابكم الذين يوثق به...».[251]

وقد ظلت قضية مصادقة السلطان على معاهدة 1682 حجر الزاوية في العلاقات بين المغرب وفرنسا، فكلفت هذه الأخيرة سفيرها دو سانت أولون سنة 1693 بالسعي لدى السلطان لإحراز مصادقته عليها، إلا أنه عاد إلى فرنسا بدون نتيجة. وأضحت العلاقات الرسمية مقطوعة بين البلدين منذ أن استدعى الوصي فيليب أورليانس قنصله سنة 1718 بسبب الإجراءات الجمركية التي فرضها المخزن على المبادلات الخارجية، وقد مست هذه التدابير بالخصوص كل من مرسى سلا ومرسى تطوان، فقامت فرنسا بحذف قنصليتها بهما. وسبب آخر يكمن في كون فرنسا كانت تساعد الإسبان على مواجهة الحصار المفروض على سبتة بنقل المدفعية والعتاد الحربي إلى المعقل المذكور.

ولم تكن العلاقات الرسمية قد استؤنفت بعد بين فرنسا والمغرب عندما قدم التاجر الفرنسي أندري روى في خريف 1733 بهدف إقناع السلطان مولاي عبد الله بعقد اتفاق يتعلق بالمتاجرة والملاحة وافتكاك الأسرى، وقد رد السلطان على ذلك برسالة وجهها إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر مؤرخة في 22 جمادى الأولى 31/1146 أكتوبر 1733 جاء فيها : « ... إلى صاحب كلمة الفرانصيص لويز كينز السلام على من اتبع الهدى. وصلتنا براءتك مع صاحبك أندريس على شأن الفدية والصلح فإذا أحببتم الفدية فادفعوا لنا البارود نعطوكم النصارى وإذا لم تدفعوا لنا البارود مالنا معكم

---

[250] - رسالة قائد تطوان إلى ملك فرنسا بتاريخ جمادى الأولى عام 1098 / أوائل أبريل 1687. المصدر السابق، ج.3 ، ص.36 .

[251] - نفس المصدر، ص.414 .

كلام ولا سلام. وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى عام ستة وأربعين ومائة وألف».[252]

واستأنف البلاط الفرنسي في أواخر عام 1764 المفاوضات مع المخزن المغربي بواسطة أحد التجار الفرنسيين المقيمين بالمغرب ويدعى سالفا، فبعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1765 الرايس علي مرسيل إلى فرنسا لتقرير الصلح معها، وقد نتج عنه أن السلطان رخص للفرنسيين شراء كل ما يحتاجون إليه من طعام وإدام بسبب الغلاء الذي كان عندهم، وكما سمحت هذه الهدنة بقدوم الفرنسيين إلى مدن البلاد من تطوان والعرائش وسلا والقصر وفاس ومكناس، وجعلوا يدخلون أسواقها من غير أن يعارضهم أحد.[253]

وقد أدت المفاوضات بين الجانبين إلى التوقيع على معاهدة المهادنة والصلح والمخالطة في 30 ماي 1767 بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله والكونت دو برونيو المبعوث فوق العادة للملك لويس الخامس عشر. وكان من نتائجها المباشرة عودة العلاقات القنصلية المقطوعة بين البلدين منذ بداية القرن عندما اتخذت تدابير اتجاه التجار الفرنسيين مما أدى إلى إلغاء قنصلية سلا سنة 1703 وقنصلية تطوان سنة 1722.[254]

وقد نصت بنود تلك المعاهدة على أنه بإمكان العاهل الفرنسي أن يجعل القناصل بالمراسي المغربية لتقديم المساعدة للتجار والرياس والبحارة الفرنسيين، ويكون لهؤلاء القناصل حق التقدم على قناصل باقي الأجناس، وكما يكون محل سكناهم محترما. وأنه بإمكان رعايا الدولتين أن يسافروا ويتاجروا بكل أمان، ولا تلزم التجار الفرنسيين أية ضريبة زيادة، وإذا سافرت مراكبهم نحو المراسي المغربية فإنها تصحب معها الورقة المسماة بالباصبورط من عند أمير البحر المرتب بكل مرسى من مراسيهم فيها إسم المركب ورئيسه وبيان ما اشتمل عليه من الوسق، ومن أين جاء وإلى أين يذهب وعليه طابع أمير البحر. وإذا سافرت المراكب المغربية إلى الإيالة

---

[252] - De la veronne, Sources francaises.. Correspondance politique, Maroc, Vol.1, fol.153.

[253] - القادري، **نشر المثاني**، ج .4، ص.172 .

[254] - Pierre Grillon, La Chambre de Commerce de Marseille et le consulat de France au Maroc pendant la mission de Louis Chenier (1767- 1782), Hesperis- Tamuda, 4, 1963 , p.70.

الفرنسية فإنها تصحب ورقة بخط يد القنصل المرتب بالمراسي المغربية من ذللك الجنس فيها إسم المركب ورئيسه وما اشتمل عليه.[255]

واستؤنفت العلاقات بين المغرب وإنجلترا عام 1689 بعد توقف لم يدم طويلا، وكان السلطان مولاي إسماعيل قد أظهر رغبته في عقد إتفاقية مهادنة وصداقة مع بريطانيا. وأرسل العاهل البريطاني سنة 1689 قوة بحرية كبيرة بقيادة أدميرال إيلمر للدخول في مفاوضات مع المخزن، وقد قابل مبعوث العاهل القبطان ديلافال قائد تطوان علي بن عبد الله الذي كان أيضا بمثابة قائد عام لساحل البحر، فأبرما إتفاقية سنة 1699 كانت عبارة عن هدنة لمدة ثمانية أشهر في انتظار أن تتحسن الظروف للتوقيع على معاهدة نهائية. وفي أعقاب ذلك أرسل السلطان سفارة إلى لندن كلف بها التاجران التطوانيان أحمد بن محمد قردناش والحاج علي الصبان، وذلك بقصد جلب أزندة البنادق والبارود تنفيذا لشروط الإتفاقية المذكورة.[256] وكان السلطان مولاي إسماعيل يسعى للإستفادة من الصراع الأوربي بالحصول على معونة الإنجليز لاسترجاع سبتة من أيدي الإسبان. وقد دفعه حماسه لتوثيق العلاقة مع بريطانيا إلى الإلحاح بالشروع في المفاوضات، وقد تمت مفاوضات بين ممثل السلطان القائد علي بن عبد الله ومبعوث الملكة آن وهو بول مثوين في أواخر عام 1704 أدت إلى تمديد أجل الهدنة البحرية لعام آخر،[257] وتبين أن الإنجليز كان غرضهم هو الحصول على الأقوات لأجل تموين حامية جبل طارق، وزعم مبعوثوهم للسلطان أنهم سيساعدونه على استرجاع سبتة المحتلة، وشاع في هذا الصدد خبر إبرام حلف بين الدولتين.

وأرسل السلطان مولاي إسماعيل في مارس 1706 مبعوثا خاصا عنه إلى الملكة آن وهو أحمد بن محمد قردناش، وكانت المهام التي كلف بها هذه المرة هي مطالبة الملكة المذكورة بإرسال سفير عنها لاستكمال المفاوضات التي كان مثوين قد شرع فيها لعقد معاهدة صلح وصداقة، وأن يسعى للحصول على بقية البارود وأزندة البنادق والمال، وأن يلتمس مساعدة القوات الإنجليزية في استرجاع سبتة، وثم أن يؤكد لملكة بريطانيا استعداد السلطان بصفته صديقا لإمداد حامية جبل طارق بكل ما تحتاجه من الأقوات.[258] فقد كانت الحامية الإنجليزية جد معزولة ومحاصرة من طرف الإسبان، وبالرغم

---

[255] ـ الناصري، **الاستقصا**، ج.8 ، ص.31 .

[256] ـ روجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية**، مصدر سابق، ص.108 .

[257] ـ نفس المصدر، ص.113 .

[258] ـ نفس المصدر، ص.114 .

من الحوادث التي كانت تقع بين الفينة والأخرى والناجمة عن نشاط القرصنة في البحر، فإن بريطانيا كانت تسعى للحفاظ على علاقات ودية مع السلطان، فبريطانيا الأنجليكانية لم تكن تعترف بالسلطة البابوية، وكما لم تكن معنية بالبراءات البابوية التي تحرم على البلدان المسيحية تزويد المسلمين بالآلات الحربية، بل إنها كانت ترغب في مقابل امدادهم بالأسلحة والبارود الحصول على الإذن بوسق الحبوب واللحوم والخشب من بر المسلمين.

وكانت سفارة قردناش قد واجهت مصاعب دبلوماسية بعد الأخبار التي وصلت إلى لندن في يوليو من نفس العام وأفادت عن قيام قراصنة مغاربة بأسر مركبين إنجليزيين وإرسال بحارتهما إلى مكناس. وكما أنه فشل في إقناع الملكة آن بعقد تحالف مع السلطان ضد إسبانيا لأجل إخراجها من سبتة، إلا أن السلطات البريطانية سلمت بحق السلطان الحصول على ثلاثة وثلاثين من الأسرى المغاربة او ما يعادل قيمتهم من البارود وأزندة البنادق أو المال، وذلك في مقابل الأسرى الإنجليزيين الذين حصل عليهم القبطان ديلافال. وفي يناير 1714 أرسلت العاهلة البريطانية الأميرال جورج بادون سفيرا لدى السلطان مولاي إسماعيل بهدف افتكاك الأسرى البريطانيين وإقامة سلم دائم بين البلدين، وقد تمكن من إبرام معاهدة مهادنة وصداقة وتجارة في تطوان في 27 يوليو 1714 وقعها نيابة عن السلطان قائد تطوان أحمد بن علي.[259] إلا أن الإنجليز لم يوفوا بكل ما تعهدوا به، ولذلك استمرت أعمال القرصنة بين البلدين بالرغم من إقامة القنصل بالمر في تطوان في المدة ما بين 1714 و1715. وفي محاولة للتخفيف من تأزم العلاقات فإن إنجلترا عينت تاجرا مقيما بتطوان هو أنطوني هاتفيلد قنصلا لها في ماي 1717، وكان قبل ذلك يشغل مهام الوكيل القنصلي بها، وجاء تعيينه بناء على طلب باشا تطوان.[260] وكان السلطان مولاي إسماعيل قد كتب رسالة إلى الأميرال كرنويل مؤرخة بمكناس في جمادى الثاني 30/1129 ماي1717 جوابا على رسالة هذا الأخير التي يدعي فيها أنه مبعوث العاهل البريطاني ويحمل سلطات واسعة لإبرام الصلح، وقد أوضح السلطان في رسالته أنه لم يتكلم مع أي من الأجناس حول شؤون البحر، وأن الذين تفاوضوا معهم هم خدامه علي بن عبد الله وابن عمه أحمد بن حدو وابنه أحمد بن علي، وبأن السلطان عهد إلى هذا الأخير بتلبية كل رغبات السفير بادون مبعوث الملكة آن إلى المغرب سنة 1714 بشرط أن يتفاوض مع الخديم المذكور للوصول إلى إبرام معاهدة، إلا

---

[259] - نفس المصدر، ص.123

[260] - Meunier, Op.Cit, p.238.

أنه اتضح أن الإنجليز لم ينفذوا ما التزموا به.[261] وقدم القبطان نربوري في خريف 1718 في شأن افتكاك الأسرى، وهدد بمحاصرة المراسي المغربية وتخريب تجارتها، وبأنه لن يتفاوض في شأن السلم إلا بعد تسريح الأسرى. وقد نبذ السلطان تصرفات المبعوث البريطاني ورده لأنه لا يحمل رسالة من الملك تخول له التفاوض معه، وعاتبه في نفس الوقت على ما حصل في جبل طارق من طرد اليهود المغاربة وحجز أموالهم.[262] وبعد تكرر الإنتكاسات قرر العاهل البريطاني إرسال شارل ستيوارت القائد الأول للأسطول البحري مفوضا في بحث أمور السلم مع سلطان المغرب. وقد وصل إلى جبل طارق في أكتوبر 1720 وكتب رسالة إلى باشا تطوان أحمد بن علي يخبره بوصوله وبتمتعه بكامل الصلاحيات للتفاوض في شأن الصلح. وكان التاجر أحمد قردناش قد حمل رسالة من الباشا أحمد إلى السفير البريطاني تبين رغبته الكبيرة في الدفع بإبرام معاهدة مع إنجلترا، وقد ارتأى السفير المذكور أنه من الأنسب أن تجري المفاوضات بخليج تطوان بعد سماعه بوصول مبعوث السلطان التاجر اليهودي موسى بن عطار.[263] وبعد مفاوضات مفصلة قدم السفير أثناءها قدرا من البارود والأقفال والكبريت والمنسوجات وكل الأسرى المغاربة الذين يوجدون بإنجلترا، أتى رد السلطان القاضي بإبرام معاهدة السلم والتجارة. وبعث العاهل البريطاني رسالة إلى سفيره عليها خاتمه الملكي وموقعة بيده يوافق فيها على كل ما فعله. ووقع على المعاهدة نيابة عن السلطان باشا تطوان أحمد بن علي وخازن السلطان موسى بن عطار، ثم السفير الإنجليزي ستيوارت باسم العاهل البريطاني، وذلك بمرسى تطوان في 17 يناير 1721 (18 ربيع الأول 1133). وقد تضمنت هذه المعاهدة نحوا من خمسة عشر بندا من بينها:

«- **البند الأول**: وتضمن الإتفاق بين العاهلين على سلم عام وحقيقي سواء في البر أو البحر أو الأنهار.

- **البند الثاني**: بإمكان السفن أو المراكب التابعة لملك بريطانيا أو أي من رعيته استعمال مراسي السلطان دون التعرض لأي خطر. وكما يمكنها المتاجرة بحرية..

وتعفى كل السفن أو المراكب التي في ملك العاهلين أو رعاياهما والتي تصل إلى أي ميناء أو مرسى تابع لأي منهما فارة من الأعداء أو ملتجئة

---

[261] - Ibidem, p.241.

[262] - Ibidem, p.250.

[263] - وندوس، ص.32 .

خوفا من كارثة بحرية أو حادثة من أداء حقوق الرسو أو دفع البارود أو النقود أو أي شيء آخر...

- **البند الرابع:** إذا صادفت قراصين السلطان في طريقها مراكب تابعة لرعايا ملك بريطانيا العظمى، فإنه... يخلى سبيلها على الفور بعد تقديمها جوازات موقعة من طرف الملك المذكور أو أميرال البحر. وإذا صادفت أية مراكب حربية أو قرصانية تابعة لملك بريطانيا أو رعاياه أي مركب في ملك السلطان أو رعاياه، فإن على الرياس إظهار جواز موقع من طرف حاكم المنطقة التي ينتمون إليها مع شهادة القنصل الإنجليزي.

- **البند السابع:** لملك بريطانيا أن يعين قنصلا يقيم في أي مكان بالمدن والمناطق التابعة للسلطان. ويجب أن يعامل بالاحترام اللازم. وللقنصل المذكور والوكلاء حق اختيار وسطائهم الخاصين بهم، كما لهم حرية التنقل من منطقة لأخرى برا أو بحرا. ولا تعرض ممتلكاتهم للحجز مهما كان السبب.

- **البند الثامن:** لا يلزم أي قائد أو مالك لسفينة إنجليزية بالمتاجرة أو بشحن أية مواد أو بضائع كيفما كانت. ويبين هؤلاء للقنصل المقيم بالمنطقة أو في غيرها عدم رغبتهم في القيام بذلك.

وكما لا تحجز أية سفينة أو يحتفظ بها. ولا يخرج أي ربان أو بحار من أي مركب.

- **البند الحادي عشر:** تم الإتفاق على عدم اعتبار ارتكاب عمل مخالف لما اتفق عليه من طرف رعايا جلالتي العاهلين خرقا للبنود السالفة وللسلم العام، وألا ينتج عن ذلك عداوة..».[264]

وازدادت العلاقات وثوقا بين البلدين لما أرسل السلطان مولاي إسماعيل في نوفمبر 1725 الرايس عبد القادر بيريس في بعثة إلى الملك جورج الأول، ثم تلته بعثة أخرى عام 1726 برئاسة أمين ديوانة تطوان محمد بن علي أبغلي الذي أوكلت إليه مهام اقتناء البارود لفائدة السلطان، ومطالبة السلطات الإنجليزية بمعاملة عادلة لصالح اليهود المغاربة الذين يقيمون بجبل طارق بقصد المتاجرة، وكذلك التأكيد على رغبة السلطان في إرسال مبعوث آخر إليه من إنجلترا.[265] وفي هذا السياق جاءت سفارة جون راسل الذي وصل إلى مرسى تطوان في 15 شتنبر1727 على متن سفينة «ليون» ونزل برفقة الرايس بيريس، واستقبله الباشا عبد المالك بوشفرة في موكب رسمي كما

---

[264] - نفس المصدر، ص.

[265] - روجرز، ص.128.

يستقبل به كل مبعوث بريطاني، وقد صادفت هذه السفارة قيام غليان وثورة بالبلاد وانقسام بين أبناء مولاي إسماعيل الذي كان قد توفي قبل قدوم السفارة البريطانية بقليل. وقد تعنى السفير راسل كثيرا في مباشرة المفاوضة ولم يستقبله السلطان أحمد بن إسماعيل إلا بعد عناء كبير، وكان قد فكر في الإنسحاب من المفاوضات عندما طرح الشرط المتعلق بإقامة المسلمين واليهود المغاربة في جبل طارق ومينورقة.[266] وكان الإنجليز قد أقروا منذ سنة 1705 ليهود تطوان بحق السكنى والإقامة بجبل طارق حيث شيدت أول دار في ملك اليهودي أبراهام بنيدر سنة 1706 والذي كان يتاجر لحساب القائد علي بن عبد الله الحمامي، لكن إسبانيا كانت تمانع في إقامة اليهود بمنطقة جبل طارق وعمدت في معاهدة أوتريخت سنة 1713 إلى فرض شرط على الإنجليز يمنع أي يهودي من الإقامة في الصخرة.

وكانت معاهدة السلم والتجارة التي أبرمت بين المغرب وإنجلترا سنة 1721 قد اتخذت قاعدة للاتفاقيات المقبلة مع الإنجليز، فأضيفت إليها ستة فصول بمقتضى الإتفاق المبرم بمكناس في 14 يناير1728 (فاتح جمادى الثاني عام 1140) والذي وقعه عن الطرف الإنجليزي السفير جون راسل، وعن الطرف المغربي بالتفويض الباشا أحمد بن علي والرايس عبد القادر بيريس، وقد تضمنت تلك الفصول ما يلي:

– **الفصل الأول:** لجميع المسلمين واليهود من رعية السلطان حرية المتاجرة بجبل طارق أو جزيرة مينورقة خلال مدة ثلاثين يوما فقط. ولا يحق لهم إقامة سكنى عادية في أي من هذين الموقعين. وكما لهم الحرية الكاملة في الخروج...

– **الفصل الثاني:** إن جميع رعايا الجلالة البريطانية المقيمين بالمغرب لن يلزموا بالمثول أمام القاضي أو المأمورين القضائيين من البلاد، ولكن النزاعات التي تكون لهم مع الأهالي يتم رفعها إلى ولاة المدن التي يقيمون بها بحضور القنصل البريطاني...

– **الفصل الثالث:** إن جميع خدم رعايا الجلالة البريطانية سواء كانوا من الأهالي مسلمين أو يهودا يعفون من سائر المكوس مهما كانت طبيعتها...

– **الفصل الرابع:** إن جميع رعايا الجلالة البريطانية من المسافرين وغيرهم الذين يتم أسرهم من قبل رياس سفن السلطان على متن بعض المراكب الأجنبية لأي جنس كان، يتم تسريحهم على الفور وإرسالهم إلى جبل طارق.

---

[266] - Meunier, p.293 . (1727 (رسالة راسل إلى ديلافاي مؤرخة بتطوان في 27 شتنبر

- **الفصل الخامس:** بمقتضى المعاهدة الحالية فإنه يؤذن للإنجليز في شراء الأقوات بالسعر الجاري في مختلف المراسي الخاضعة للسلطان لغرض تموين الأسطول البريطاني ومدينة جبل طارق، مع كامل الحرية في شحنها دون أداء للحقوق الجمركية..

- **الفصل السادس:** إن جميع شروط المعاهدة الأخيرة (لسنة1721) وعددها خمسة عشر.. تبقى قائمة وسارية المفعول».[267]

وهكذا فالفصل الأول من البنود المضافة لمعاهدة 1721 أعطى للمغاربة مسلمين ويهودا حق المتاجرة في هاتين المدينتين لفترة ثلاثين يوما فقط دون أن يسمح لهم بحق الإقامة بهما. وحرمان التجار المغاربة اليهود بالخصوص من الإقامة كان سيؤدي بدون شك إلى قطع العلاقات بين البلدين وبالتالي قطع كل مصادر التموين بالنسبة لجبل طارق. وقد كان الباشا أحمد بن علي من أشد المعارضين للقرار الإنجليزي، وكما أن السفير محمد أبغلي التطواني كتب في شأن اليهود الذين بجبل طارق رسالة في يوليو1726 إلى الوزير المفوض البريطاني دوق نيوكاسل أن لا يخرجهم أحد ولا يؤذيهم، واعتبر ذلك شرطا من شروط الصلح بين المغرب وإنجلترا. بيد أن السلطات البريطانية كانت ترى المصلحة في جانب إرضاء الإسبان بدل تلبية الشرط المغربي. وهكذا فمنذ عودة القنصل هاتفيلد إلى تطوان في يناير 1727 فإنه بدأ يلح في ضرورة ترحيل المغاربة لأن الإسبان كانوا يجدون في إقامة اليهود بجبل طارق أمرا مشينا.[268]

وعاد جون راسل إلى المغرب سنة 1729 حيث حصل على تصديق السلطان مولاي عبد الله على معاهدة السلم والتجارة التي أبرمها ستيوارت في سنة 1721، وكما أحرز على موافقته في افتكاك ثلاثة وعشرين أسيرا إنجليزيا وترحيلهم إلى إنجلترا، وخلف إدوار بليك كنائب قنصل في تطوان.

ووصل إلى المغرب في ماي 1732 القنصل صوليكفر خلفا لراسل الذي ظل في إنكلترا. وكانت العلاقات بين البلدين لا زالت تتعرض لبعض التقلبات بسبب تبدل الأحوال السياسية بالبلاد نتيجة الوضع المرتبك الذي كان عليه السلطان، وانقلابات العبيد على السلاطين وخلعهم من جانب، واستمرار نشاط أعمال القرصنة السلاوية بالخصوص ومطاردتها من قبل السفن الإنجليزية من جانب آخر. وكان من بين التعليمات التي سلمت للسفير المذكور المطالبة باسترجاع مركب إنجليزي أسره السلاويون وعلى متنه نحو من ثمانين

---

[267] - Braithwaite, Op.Cit, p.341 -342.

[268] - Meunier,p.290 . (رسالة إلى دوق نيوكاسل مؤرخة في 3 فبراير 1727)

برتغاليا وحوالي ثلاثين ألف قرش. وقد انتقل صوليكفر من جبل طارق نحو تطوان وسلم رسالة إلى الباشا أحمد كلفه بنقلها إلى السلطان.[269] وقد تذرع القنصل المذكور بمعاهدة السلم والتجارة واعتبر أن المغاربة خرقوا التزاماتهم في المعاهدة، بينما كانت حجة السلطان أنه طالما وجد على متن السفن البريطانية ركابا أو ملاحين من الإسبان أو البرتغاليين فإنها تصير غنيمة شرعية.[270]

وفي عام 1734 وفد صوليكفر على تطوان، ومنها ارتحل إلى مكناس حاملا رسالة من العاهل البريطاني جورج الثاني إلى السلطان مولاي عبد الله، وقد جلب معه عدة هدايا لم ترق السلطان، وقد نصحه الباشا أحمد بأن يرسل في طلب أشياء أخرى من قادس وجبل طارق. وعاد القنصل الإنجليزي إلى تطوان في شهر شتنبر من نفس العام وبصحبته مائة وأربعة وأربعون أسيرا إنجليزيا. وكلف السلطان باشا تطوان بالمفاوضة في أمر افتكاكهم وفي شأن الصلح. ويظهر أن هذه السفارة كللت ببعض النجاح رغم تواضع الهدايا المقدمة للسلطان، ويرجع ذلك بالأحرى إلى السفن الحربية الإنجليزية التي جعلت قرصانين يحرثان وأحرقت إثنين آخرين بالمرسى، وهذا الخطب جعل خدام المراسي يتظلمون ويطلبون من باشا تطوان التدخل لدى والدة السلطان للاخنائة التي أخبرته بالأمر. وهكذا مثل السفير أمام السلطان الذي عجل في الحين بقضيته حسبما كان يطمح إليه. ولما عاد إلى تطوان كتب من هناك رسالة إلى الوزير دوق نيوكاسل يبلغه بأن القائد أحمد بن علي مصمم على تقاضي ثلاثمائة وخمسين كراونا إنجليزيا فدية عن كل أسير أو قيمته من البارود، وطلب من السفير تعويض المركبين المحروقين، وفي نفس الوقت فإنه لن يسمح للسفن الإنجليزية بحمل ركاب من جنسيات أخرى. وكلف السلطان الرايس بيريس بمرافقة السفير إلى إنجلترا بغرض تسليم الهدايا والبارود وتأكيد الصلح.[271] وفي الوقت الذي كان فيه السفير الإنجليزي ينتظر الإذن له من السلطان بقصد الإبحار، ورد الخبر من مكناس بأن العبيد ثاروا عليه وعزلوه وبايعوا أخاه مولاي علي سلطانا. وأشيع أن هذا الأخير وعد بأن لايلزم رعيته بأداء أية ضريبة إضافية خلال ثلاث سنوات. وقد كتب هذا السلطان إلى باشا تطوان يعطيه موافقته على كل ما أبرمه مع السفير البريطاني، ويأمره بالإستعداد للقدوم إلى مكناس في رفقة

---

[269] - Veronne, R.H.M, n° 23-24, p.119.

[270] - روجرز، ص.131.

[271] - Veronne,R.H.M, n° 25-26, Doc.87,p.123.

السفير المذكور حتى يسلم له عددا من الأسرى البرتغاليين أقتيدوا تحت العلم البريطاني بنفس ثمن أسرى دولته.[272] وقد كان صوليكفر قد اصطحب معه سابقا عددا من الأسرى لم تكتمل فديتهم المطلوبة، ولم تتم تسوية الدين حتى بعد موته، فعينت إنجلترا وليم لاتون خلفا له، والذي وصل إلى خليج تطوان في يناير 1747، وقد طالبه السلطان بالمبلغ الذي تعهد صوليكفر بدفعه وقيل إنه دفعه للباشا أحمد بن علي. وعاد لاتون ثانية إلى تطوان بعد عامين قادما من جبل طارق للتفاوض مع قائد تطوان محمد تميم، وتم التوصل إلى اتفاق في ماي 1749 تعهد فيه المبعوث البريطاني دفع فدية عن الأسرى ممن تقرر إطلاق سراحهم، وكذلك المبلغ الذي كان السلطان لا يزال يدين صوليكفر به، غير أنه نشأ خلاف بين القائد تميم والقنصل لاتون أدى إلى حبس هذا الأخير ونقل الأسرى الإنجليز إلى مطامير تطوان.[273] وفي عام 1751 تمكن القنصل بتكرو من تجديد معاهدة السلم والتجارة مع السلطان، وقد تشدد هذا الأخير في موقفه من قضية عدم السماح لرعاياه بالإقامة بجبل طارق، إذ صمم على عدم منعهم، فاضطر بتكرو إلى سحب المادة التي نصت على ذلك المنع.[274]

ولما ولي سيدي محمد بن عبد الله عرش البلاد صرح للممثل البريطاني بأنه لن يقبل رسالة إلا من العاهل جورج الثاني نفسه يأتي بها مبعوث تكون لديه كامل الصلاحيات. وكما جدد العمل بالمعاهدة السابقة لمدة عام آخر ابتداء من أول دجنبر 1757. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يرغب في الإنفتاح على العلاقات السياسية والتجارية مع البلدان الأوربية، وقد لجأ إلى استعمال ورقة الأسرى الأوربيين بغرض إجبار تلك الدول على الإنفتاح على المغرب وفق الشروط التي كان يريدها أو يرغب فيها.

ولهذا فإن عملية افتكاك الأسرى الإنجليز الثلاثمائة وخمسين نتيجة غرق ثلاث سفن إنجليزية قبالة الشواطئ في نوفمبر 1758 كانت الأصل في إبرام معاهدات جديدة للسلم والمتاجرة بين المخزن وبريطانيا. وسيدفع نجاح هذه السياسة بالسلطان إلى تطبيق نفس الشكل من التعامل مع بلدان أوربية أخرى فيما بعد، ومن بينها يجدر إبراز حالة الإنفتاح السياسي والإقتصادي مع إسبانيا في عهد الملك كارلوس الثالث.[275]

---

[272] - Ibidem, p.129.

[273] - روجرز، ص.136.

[274] - نفس المصدر، ص.137.

[275] - Ramon Lourido Diaz, El rescate de varios centenares de cautivos ingleses y el tratado de paz anglo-marroqui de 1760, C.B.E.T, n° 13-14, 1976, pp.98-140.

لقد كان الإنجليز في جبل طارق قبل هذا التاريخ وبالرغم من إبرام معاهدة السلم والتجارة مع السلطان عام1751 مستمرين في دعم المتصارعين على العرش المغربي، وهذا الأسلوب في التعامل لديهم كان سببا بالتحديد في أن سيدي محمد بن عبد الله لما كان خليفة عن والده بعث احتجاجا شديدا سنة 1756 للسفير هيد باركر يتهم فيه حاكم جبل طارق بالتدخل بشكل مباشر في الشؤون الداخلية للبلاد. فهل حاول السلطان استغلال حادث الغرق الطارئ للبحارة الإنجليز قبالة شواطئه للقيام بخطوة إضافية لتدعيم العلاقات التي باتت مفتوحة مع بريطانيا؟، أو بمعنى آخر التسريع بالإنتقال من معاهدة مؤقتة إلى أخرى نهائية. فلربما يكون السلطان هو الذي نصح رئيس البحارة الغرقى القبطان بارطون في أن يكتب إلى حكومته، وأوعز له ما يجب أن يعرضه على سلطات بلاده لأجل الحصول على الحرية. فقد ذكر أن المعاهدة المبرمة سنة 1758 كانت لسنة واحدة فقط، وهي على وشك الإنقضاء، وعندما ستنتهي فإن السلطان سيجعل من البحارة الغرقى أسرى حقيقيين إذا لم يبادر العاهل البريطاني بإرسال سفير إلى المغرب لإبرام معاهدة سلم متين ودائم.[276] ولأجل الوصول إلى إتفاق سريع اجتمع حاكم جبل طارق بقائد تطوان عبد الكريم بن زاكور في 5 أبريل 1759 على ظهر سفينة بريطانية قرب خليج تطوان، وقد وعد الحاكم الإنجليزي القائد المذكور إن هو أفلح في صرف نظر السلطان وحماسه عن المطالبة بالفدية في حق الغرقى، فإن العاهل البريطاني سيبعث له بهدية عظيمة تكون عربونا عن إمتنانه للمساعدة المقدمة وكذلك امتنان الأمة الإنجليزية لتدخله الودي، وقد أجاب القائد بأنه سيبعث أحد أعيان تطوان له نفوذ داخل القصر لإقناع السلطان حتى يفوض لعامل تطوان مسألة استيفاء إجراءات تحرير هؤلاء الغرقى.[277] إلا أن السلطان لم يكن يحظى العامل لديه بالثقة إذ أرسل أحد خدامه اليهود ويدعى بنغريمو إلى تطوان للتفاوض، وفي نفس الوقت أبحرت سفينة نحو مرسى تطوان وعلى متنها القبطان ميلبانك لنفس الغرض، وقد وصلت في 26 أكتوبر 1759، وتمكن بعد مفاوضات من عقد معاهدة سلم وتجارة في 28 يوليو 1760 تضمنت أهم بنودها ما يلي:

«- **البند الثاني**: إذا حرثت سفينة إنجليزية في شواطئ المغرب بسبب العاصفة أو غيرها، فإنها تكون محمية وبإمكانها الإبحار في أمان [ونفس الشيء بالنسبة لسفن السلطان].

---

[276] - Ibidem, p.109.
[277] - Ibidem, p.110.

- **البند السادس**: إذا حرثت سفينة أو غرقت بسبب كارثة أو عاصفة أو حادث آخر في أي مكان من بلاد السلطان وتكون في ملك العاهل البريطاني أو في ملك رعيته، فإن السفينة والأشخاص والثروات التي توجد بها يتم ردها بدون أي ضياع أو تنقيص، ويسلم كل ذلك للقنصل أو أي شخص يعينه مالك المركب، ويسرح الأشخاص ويسمح لهم بالخروج متى شاءوا..

- **البند الثاني عشر**: يشرع في السلم بعد توقيع هذه المعاهدة ولن يكون بعد أسر ولا بيع أو شراء لأحد من رعية ملك بريطانيا في أي مكان من البلاد..

- **البند الثالث والعشرون**: يلزم التصريح بجميع بنود المعاهدة ونشرها بين رعية الدولتين. ولأخذ الإحتياط فإنه ينبغي لكل رايس سفينة أو قرصان أن يتزود بنسخة من هذه الشروط تكون على متن سفينته حتى لا ينتهك السلم...».[278]

وبالرغم من هذا التفاهم بين الجانبين، فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان يشعر بأن الإنجليز لا يبدون نفس المودة التي يبديها الهولنديون والدانماركيون، فقد غضب لما لقيه من إهمال من الجانب البريطاني لمطلبه بإصلاح إحدى عرباته، وقد كتب في ذلك القنصل العام بوبهام إلى وزيره هاليفاكس في تطوان في 28 يناير 1764 يقول إنه تلقى رسالة من السلطان يشكو فيها عدم إعادة عربته ويتهمه بإهمال شؤونه وإنه لا يستحق أن يكون قنصلا لإنجلترا، وكما هدده بالطرد من البلاد إذا لم تصله العربة.[279] وتعرضت العلاقات السلمية بين البلدين إلى أزمة أخرى في مارس عام 1771 بسبب حادث غرق سفينة إنجليزية عند رأس نون، وقد أسر رجال القبائل بالمنطقة البحارة الناجون وباعوهم مع قائد سفينتهم لقائد أكادير الذي أرسلهم إلى السلطان في مراكش. وقد كتب قائد السفينة إلى القنصل العام في تطوان سامبسون يطلب نجدته. وقد تدهورت العلاقات بين السلطان والقنصل العام المذكور إلى حد أن هذا الأخير اضطر إلى الهروب من تطوان نحو جبل طارق لتجنب غضب السلطان.[280]

وأرسل السلطان مبعوثا خاصا إلى بريطانيا هو يعقوب بنيدر من يهود تطوان، وقد وصل إلى لندن في غشت 1772 لإبلاغ الملك جورج الثالث بما

---

[278]- Jacques Caillé, les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed ben Abdallah (1759 – 1790), Paris, 1960, p. 72.

[279] - روجرز، ص.148.

[280] - نفس المصدر، ص.152.

عرضه الإسبان على السلطان في نوفمبر 1770 بدفع مائتي ألف ريال مقابل وقف التجارة الإنجليزية مع المغرب والإمتناع عن تموين جبل طارق، وبأنه قد رفض عرض إسبانيا لصداقته الكبيرة مع بريطانيا. وأعرب في مقابل ذلك عن أمله للترخيص لبنيدر في اقتناء المدافع وغيرها من الأسلحة من بريطانيا والتي يحتاجها لمحاصرة معقل سبتة،[281] وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد قرر سنة 1774 إخراج سائر النصارى من تطوان بمن فيهم الإنجليز. واستقر رأي الملك جورج أن يستقر قنصله العام في طنجة وكما طلب الإذن من السلطان للاحتفاظ بدار انكليزية في مرسى تطوان.

لقد كان السلطان يعرف كيف ينتهز فرصة إجراء المفاوضات مع بريطانيا لطلب ما يحتاجه من السلاح والبارود، وبينما كانت التقارير القنصلية تؤكد على الأهمية التي توليها بريطانيا لشمال المغرب فيما يرجع لحاجاتها من الصوف والأقوات. وكان رهانها جد مهم منذ بداية القرن الثامن عشر، وخصوصا منذ إستيلائها على جبل طارق عام 1704، إلا أن الوجود الإنجليزي المحاصر من قبل الإسبان لم يكن ليستمر بدون الإرادة الحسنة للمخزن ولا سيما باشا تطوان وطنجة أحمد بن علي الحمامي الذي يعود له الفضل في السماح بتموين الحامية البريطانية وتنشيط الحركة التجارية مع الصخرة. لقد كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعلم المنافسة الأوربية فكان يسعى لاستغلالها لصالحه أكثر ما يمكن، وقد تميزت سياسته بإيثار واضح للإسبان وبغض للإنجليز الذين كان يعتبرهم أسوأ الأمم.[282] ولكن ولده مولاي اليزيد نهج سياسة متميزة تماما عن التي سلكها والده، فمنذ توليته العرش أعلن للقناصل الأجانب عن نيته في العيش في سلام مع إنجلترا ومحاربة الأمم الأخرى وبالخصوص إسبانيا لأجل استرجاع مدينة سبتة، والإنتقام من بلاط مدريد الذي جعل أسلافه يبرمون معاهدات جد مجحفة بالمخزن المغربي.[283] وفي هذا السياق أبرم معاهدة مع عاهل بريطانيا جورج الثالث في 4 شعبان عام 1205/ 8 أبريل 1791 تضمنت ثلاثة وأربعين شرطا من بينها:

«– **الشرط الأول:** .. وهو أن يكون القونصو بأي بلد شاء من مراسي سيدنا أو في كل مرسة ويسكنون في أي بلد شاءو من جميع مراسي إيالة

---

[281] ـ نفس المصدر، ص. 153.

[282] ـ نفس المصدر، ص.142.

[283] - William Lempriére, Voyage dans l'Empire de Maroc et de Royaume de Fez, Paris, 1990 , p.263.

سيدنا بالموضع الذي يختاروه لسكناهم من الذي يظهر لهم فيه منفعة الراي متاعهم وتجارهم برا وبحرا.

– **الشرط الثالث:** كل من يريد من جنس الإنجليز التجارة بإيالة سيدنا يأتي إليها ويتسبب فيما يشاء مما هو مسرح للوسق عن أمر سيدنا ومتى أراد الرجوع لبلاده لا يمنع منه ولا يجبر عليه في المقام ببلاد المسلمين ومن أراد منهم أن يشتري دارا أو يبنيها على يديه أو يجعل مخازن لسلعه لا يمنع من ذلك...

– **الشرط الرابع:** كل من هو تحت سنجاق الإنجليز مستقرا بإيالة سيدنا هو في أمانه لا في مالهم ولا في رقابهم ولا يسب أحد في دينهم ويتعين لهم موضعا لدفن موتاهم...

– **الشرط السابع:** إذا كان خصام بين مسلم ونصراني إنجليزي ولم يدعنوا للفصال فلا يفاصل بينهم قاضي البلد ... فلا يكون فصالهما إلا عند خليفة سيدنا والقونصو أو خليفته في البلد التي يكونوا فيها.

– **الشرط التاسع:** إذا كان أحد من المسلمين في قيد الأسر عند أحد من أجناس النصارى غير الإنجليز وكان من إيالة سيدنا فهرب لسفينة من قراسين الإنجليز أو لبلد من بلدانهم فلا يعطوه وهو في الأمان إلى أن يبلغونه لبلاد المسلمين. كذالك إذا هرب أحد من نصارى الإنجليز الذين هم عند الاصبنيول بسبتة وبادس والنكور ومليلية ووهران ووصل إيالة سيدنا فلا رجوع له للبلاد التي هرب منها بل يدفعه حاكم البلد التي يخرج فيها لقونصوه أو خليفته ليوجه به لبلاده.

– **الشرط الرابع عشر:** آل جرمانية المحسوبون من جملة رعية الإنجليز وسكان جبل طارق من أي جنس كانوا هم محسوبون من جملة الإنجليز في كل أمر من الأمور حتى كأنهم من أبناء لنكلاطرة. كذلك كل بلد من بلدان النصارى أخذوها الإنجليز فأهلها بعد أخذها يكونوا من جملة الإنجليز. كذلك من يكون من رعية الإنجليز أو تحت سنجاقه مميز عند سيدنا وأراد سيدنا أن يميز الغير من جنس آخر فلا تكون أفضالية عليه وإنما يكون في التمييز سواء.

– **الشرط الخامس عشر:** سفر خدام سيدنا نصره الله في البحر إذا تلاقوا مع رعية الراي المذكور يكون بينهم الأمان التام بحيث لا تلحق مضرة لواحد من الآخر. وإذا سافر مركب من مراكب سيدنا في البحر يحمل معه كاغد حاكم البلد التي سافر منها من إيالة سيدنا مع كاغد قونصوا البلد...

– **الشرط التاسع عشر:** كل من يكون من رعية سيدنا نصره الله مسافرا في مركب تكون الجرة بينه وبين الإنجليز وأخذوا الإنجليز تلك المراكب فالمسلمون وأموالهم وسلعهم في الأمان ... وكذلك قراسين سيدنا نصره الله إذا كانت لسيدنا الجرة مع جنس من أجناس النصارى وأخذوا المسلمين مركبا من مراكبهم ووجدوا فيه نصارى إنجليز فهم وأموالهم وسلعهم في الأمان...

– **الشرط السابع والعشرون:** قراسين الإنجليز يأتون لجبل طارق بقصد حراسته ويقرسنون بقربه إذا احتاجوا إلى الفريشك يأتون لمرسى سيدنا ويأخذونه. وإن لم يريدوا القدوم إليه بأنفسهم يبعثون من ينوب عنهم في أخذه من إيالة سيدنا ويوجه به إليهم من غير صاكة...

– **الشرط الرابع والثلاثون:** كل مركب من مراكب الإنجليز إذا نزلت به فرتونة وأفسدت له شيء في مركبه ودخل لمرسى من مراسي سيدنا يصلح ما فسد له في مركبه يقف معه حاكم البلد والموكلون بالمرسى وغيرهم إن توقفوا عليهم وينزلون سلعهم للبر حتى يصلحون مركبهم ويردونها إليه من غير أن يلزمهم عليها أعشار. وعلى هذه الحالة يكون كل من يدخل من المسلمين لبلاد الإنجليز.

– **الشرط الخامس والثلاثون:** إذا حرث مركب بمراسي المسلمين ونواحيهم يغيثونه ويعينوه على خروج السلع وغيرها من إقامة المركب ويكون الجميع في أمان سيدنا نصره الله. وجميع الوسق ورائس المركب وبحرياته يدفعهم حاكم البلد لقونصوهم أو خليفته ليوجه بهم وبأمتعتهم لبلادهم. وعلى هذه الكيفية يكون كل من يحرث من المسلمين ببلاد الإنجليز...

– **الشرط الثامن والثلاثون:** من أراد من تجار الإنجليز أن يأتي لبلاد المسلمين بآلات الحرب من بارود وخفيف وسلاح وغير ذلك من جميع آلات الحرب فلا يلزمه عليه عشر.

– **الشرط الأربعون:** كل شرط كان لنا مع سيدنا ومولانا إسماعيل ومولانا عبد الله بن إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل لا زالوا على ما كانوا عليه من غير ما هو مذكور في الورقات يمنته فهو جديد.

– **الشرط الحادي والأربعون:** إذا وقع كلام بين الرعيتين برا وبحرا مما يسوء الخاطر فلا يفسد الصلح ولا يفسخه إذ لا بال لذلك حتى يتحقق الأمر ويتوضح وذالك لا يفسد المحبة... وكل من جنا من الرعيتين جناية يؤدب عليها.

- **الشرط الثاني والأربعون:** إن قدر الله بما يخسر الخواطر أو يفسد الصلح... كل من هو إنجليز أو من رعيته أو تحت سناجقه او محسوب عليه بإيالة سيدنا هو في أمان سيدنا يجعل لهم سيدنا أجلا مدة ستة أشهر حتى يبيعون ديارهم... ويبيعون أمتعتهم ويقبضون ديونهم فحينئذ يتوجهون في الأمان في أي مركب وجدوا ولا تلحقهم مضرة ولا إهانة...»

ويجدد نص الإتفاق ما تم في المعاهدات السالفة بين البلدين إلا أنه يشكل قاعدة أساسية للاتفاقات المبرمة لاحقا بين المغرب وبريطانيا وبالخصوص معاهدة سنة 1801 التي نقلت حرفيا جميع تلك الشروط.[284]

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعد توليه العرش قد سعى إلى إعادة تنظيم البلاد التي مزقتها الحروب الأهلية والفتن السياسية التي امتدت زهاء ثلاثة عقود، بالإضافة إلى تراجع البنيات الاقتصادية والإنتاجية وتوقف النشاط البحري والتجاري وما واكب ذلك من جفاف وأوبئة. ولذلك فإنه أخذ على عاتقه بناء مخزن قوي ومركزي قائم على المشروعية كما على القوة. ولأجل تحقيق هذه الإهداف وجد نفسه ملزما باللجوء إلى الإنفتاح على السلم والتجارة مع البلدان الأوربية، حيث أنه بإمكانه أن يجد لديها الموارد المادية والعتاد الحربي لكي يضمن سياسته الداخلية، وكانت إسبانيا الدولة الأوربية المؤهلة أكثر لتحقيق هذا التقارب، ولم يكن من سبيل أمثل في الوصول إلى علاقات سياسية متميزة سوى عرض افتكاك الأسرى بين الجانبين. وهكذا بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله رسالة إلى العاهل الإسباني كارلوس الثالث مؤرخة في 13 أبريل 1765 يعرض عليه تسريح مجموعة من الأسرى ويعبر عن رغبته في أن يسرح الملك الإسباني بدون أسرى مغاربة.[285] وبعث هذا الأخير إلى المغرب في أواخر نفس العام رجل دين فرنسيسكاني يدعى برطلومي خيرون ليتعرف على نوايا السلطان وليطلعه في نفس الوقت على نوايا العاهل الإسباني بقصد إبرام معاهدة صلح بين إسبانيا والمغرب. وجاءت مبادرة من كارلوس الثالث سنة 1766 بإطلاق سراح المغاربة الأسرى في ولاياته، وأثر ذلك في سيدي محمد بن عبد الله الذي استجاب بمبادرة مماثلة وقبل بالتفاوض حول شروط السلم، وعين لذلك الغرض السفير أحمد الغزال الذي رحل إلى إسبانيا في رفقة القس خيرون. وقد انتقل السفير المغربي إلى قرطاخنة بهدف تقديم صدقات للأسرى المسلمين، وفي

---

[284]- khalid Ben Srhir, Le traité de Moulay Yazid avec l'Angleterre (1791), Hesperis - Tamuda, Vol.xxix, Fas.1 ,pp.129-149.

[285]- R.L.D, Los misioneros franciscanos y su participacion en el tratado de paz hispano- marroqui de 1767, Archivo Ibero- Americano, 1974, p.132.

نفس الوقت للتحقق من أعداد الأسارى الذين يزعمون أنهم مغاربة لكي يضمنوا افتداءهم السريع. وقد صادف أنه كان في جزيرة إبيثا ثلاثة أسرى تطوانيين وهم سعيد الشريف وأحمد بكاري (أو بخاري) وقاسم الريفي الذين قضوا في الأسر أكثر من إثنتي عشرة سنة، وعندما علموا بقدوم الغزال كتبوا له مخبرين بوضعيتهم ومتوسلين إياه في أن يهتم بافتكاكهم. وقد سلم الغزال رسالتهم إلى خورخي خوان الذي بعثها إلى مدريد في بداية عام1767 وتم فك أسرهم بفضل مساعي الحكومة الإسبانية التي عوضت مالكيهم بالمال، وأرسلوا إلى قرطاخنة حيث أبحروا منها إلى تطوان على متن غليوطة الرايس معمر.[286]

وقد سبق إبرام معاهدة مع إسبانيا عدة اتصالات قام بها قائد طنجة عبد الصادق بن أحمد مع حاكم سبتة دييغو أوصوريو الذي اقترح بإذن من عاهله على السلطان التداول في مسائل تأمين حرية الملاحة والتبادل التجاري وتحديد الرسوم الجمركية.[287] وكان عبد الصادق المذكور قد تدخل بطلب من أوصوريو لرفع الحصار عن معقل سبتة وتوسيع الحدود حتى موضع أفراك.[288] وقد غضب السلطان من ذلك سيما وقد بلغته أخبار عن قيام الإسبانيين بعمليات تهريب نشيطة عبر الحدود مع سبتة مما أضر كثيرا بمداخيل الديوانة وبيت المال، وقد اشتكى من ذلك التجار اليهود الذين كانوا يستأجرون من السلطان القسط الأوفر من الرسوم الجمركية بالمراسي.[289] وفي هذا الصدد بعث كاتب السلطان سمويل سنبل رسالة إلى حاكم سبتة في مارس 1766 يذكره بأن التجارة الحرة مع هذا المعقل يحرمها الشرع الإسلامي باعتبار أن سبتة كانت جزءا من هذه المملكة، ولهذا فكل واحد يحفظ حدوده.[290] وكانت احتجاجات السلطان مباشرة وجازمة وبإخطار رسمي إلى الملك كارلوس الثالث في رسالة مؤرخة في 10 ذي القعدة 1179 / 20 أبريل 1766 « أن تأمر حاكم سبتة وحاكم مليلية بأن يقفا عند الحدود المعلومة لهما مثلما أمرنا قوادنا المتولين عليها أن يقفوا عند حدودهم

---

[286] - M.A.P, Tres tetuanies cautivos en Ibiza, liberados en 1767, Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuan, n° 21-22 , 1980, p.328.

[287] - V. Palacio Atard, Primeras negociaciones entre Espana y Marruecos en 1765, Revista "Hispania", n° 11 , 1951, p.658.

[288] - A.H.N, Estado, Leg.4344 (رسالة حاكم سبتة إلى الراهب خيرون بتاريخ 18 يناير 1766)

[289] - M.A.P.y.R.L.D, En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782, Hésperis-Tamuda, Vol.XX- XXI, fax.unique, 1982-83, p.201 .

[290] - A.H.N, Estado, leg. 4344, caja 2.

المعروفة لديهم وأن لا يتعدى أحد من الجانبين. وهذا الإحتزاز منا خشية أن يقع أمر من إحدى الجهتين يكون فيه ما يفسد المهادنة. ونحن المسلمون عندنا الوفاء بالعهد من أعظم أمور الدين...».[291] وقد اتخذ السلطان إجراءا صارما في حق قائد طنجة عبد الصادق بسبب سوء تصرفه، فقبض عليه لما قدم إلى مكناس وسجنه مع مائة من أهل الريف من قرابته وأتباعه، وتوجه إلى طنجة فنهب داره ونقل إخوانه بأولادهم إلى المهدية.[292]

وكان الإسبان يسعون إلى سلم حذر ويحتاطون في مسألة الثغرين المحتلين، وفي مقابل عداوة المغاربة كانوا يأملون في تسوية تسمح بتوسيع أرض المعقلين لغرض منحهما إمكانة العيش والبقاء، ولتيسير ذلك فإن السلطات الإسبانية بحثت منذ سنة 1765 عن أشخاص يقيمون في تطوان تكون لهم معرفة بالبلاد وقدرة على الاطلاع على حقيقة نوايا التقارب التي أفصح عنها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد استفادت في ذلك من خدمات يونانيين كانا مقيمين بتطوان ومنحتهما الجنسية الإسبانية وهما ديمتريو كوليطي وخورخي بطسياطي، فضلا عن دور الراهب فرنسيسكو غونثاليث حامل لقب «حارس الملجأ الفرنسيسكاني» بتطوان.[293] إلا أن السلطان كان مستعدا لإبرام المهادنة في البحر لإنهاء أعمال القرصنة وأخذ الأسارى، ولم يكن على استعداد للتعهد باحترام سبتة ومليلية، ولا تحمل تبعة التوسع كيفما كان قليلا للثغرين المذكورين، ولهذا كانت التعليمات التي حملها الغزال هي المهادنة في البحر وليس في البر. وبعث العاهل الإسباني من جانبه سفيرا فوق العادة إلى السلطان يحمل نص مشروع معاهدة مهادنة وصلح وهو خورخي خوان الذي رافق أحمد الغزال لدى عودته إلى المغرب، وقد وصل السفيران معا إلى خليج تطوان يوم 20 فبراير 1767.[294] وبقي السفير الإسباني مقيما بتطوان في منزل عبد الهادي بن أحمد مدة شهرين، وبعد مفاوضات تمهيدية أبرمت أول معاهدة صلح بين المغرب وإسبانيا، وقد وقع نصها الإسباني السفير خورخي خوان بمراكش في فاتح

---

[291] - Ibidem (ترجمنا هذه الفقرة عن النص الإسباني للرسالة)

[292] - أكنسوس، مصدر سابق، ص.229 .

[293] - R.L.O, La ciudad y region de Tetuan durante el sultanato de Mohammad IV a través de la documentacion espanola, Tetuan, 1944, p.18.

[294] - M.A.P, La acogida dispensada a Jorge Juan por la ciudad de Tetuan en febrero de 1767, Cuadernos de la biblioteca Espanola de Tetuan, n°7, 1973, p.76.

محرم 1181/ 28 ماي 1767، وبينما حمل النص العربي طابع السلطان سيدي محمد بن عبد الله، واشتمل على تسعة عشر شرطا كالتالي:[295]

« **الشرط الأول:** أن يكون هاذا الصلح موفى الشروط المعتبرة في المهادنة من الأمن والأمان برا وبحرا والصلح على التأبيد.

الشرط الثاني: أن يكون السفر على الباصابرط المعهودة لا على الكتابة فقط ومن لم توجد عنده الباصابرط من المراكب يذهب به القرصان ذي سيدنا نصره الله للبلاد القريبة من الموضع الذي قبض فيه ويدفع لحاكمها وقوارب الحواتة لا يطالبون بإحضار الباصابرط من الجانبين إذا التقت بهم القراصين.

الشرط الثالث: إذا التقى القرصان بسفن البازركان لا يطالبها إلا بإظهار الباصابرط ولا يفتش فيها ولا يصعد للمركب بقصد رؤيا الباصابرط إلا رجل واحد ومن وجد تحت سنجقهم من عدو الإيالة المولوية فهو آمن على نفسه وماله.

الشرط الرابع: إذا حرث مركبهم بكوشطة سيدنا أيده الله فإن صاحب البلاد وأهلها يعينوهم في إخراج وسقهم وجميع آلة سفنهم وهم يؤدون أجرة من يعينهم على ذلك وكذلك يفعل بسفن سيدنا إن قدر الله بشيء من ذلك.

الشرط الخامس: أن يكون السبب بين الجانبين على الأمن والأمان يسافر بعضهم لبلاد بعض بالمراكب في أي وقت أرادوا وينزلون بأي مرسى شاءوا يشترون من السلع ما يحبون بغير واسطة في بيع ولا شراء ويباشرون ذلك بأيديهم ولا يحجر عليهم إلا ما كان ممنوعا شرعا وكذا الكنطر بنضوا ولهم أن يذهبوا في أي بلاد من بلاد سيدنا شاءوا.

– **الشرط السادس:** بيان قدرة الداخل والخارج من الوظيف الواجب في جميع مراسي سيدنا نصره الله حتى لا يبقى فيه خلاف ومراكب الكرة لاوظيف عليها في حق مخطاف ولا في غيره.

– **الشرط السابع:** للقونصوا المعين من طاغيته للإقامة ببلاد سيدنا نصره الله أن يجعل من القنصوات ما شاء ونظر الجميع إليه لتقدمه من طاغيته على ما يحتاج تجارهم وسفنهم من الأمور المتعلقة بذلك ويكون القونصوا وما تحته من القنصوات محترما عند سيدنا أيده الله وكل ما يشتريه القونصوا لنفسه من مأكول ومشروب لا وظيف له عليه.

---

[295] - Tamuda, Ano IV, Tetuan, 1956, semestre I, pp.86-92.

- **الشرط الثامن:** أن يصطادوا الحوت من مراسي سيدنا أعزه الله على شرط وهو أن يأتي الصياد من الإصبنيول وبيده خط حاكم البلاد التي يأتي منها فيدفعه لحاكم بلاد سيدنا وهو يجدد له كتبا آخر من عنده مضمنه أنه أذن له في الاصطياد من موضع كذا إلى موضع كذا.

- **الشرط التاسع:** إذا وجد مركب متستر بالكوشطة المولوية تحت حجر أو جرف سواء كان ألجأه للتستر الريح أو فرتونة أو كان غير عارف بالمحل فإنه يقبض ويوتى به للقنصل بقصد الاستفسار فإن كان من أهل الخيانة يسجنه القونصوا ويكتب به لطاغيته وإن كان بريا من العيب والخيانة يسرح في الحين.

- **الشرط العاشر:** الهارب من المدن الأربعة سبتة ومليلية والنكور وبادس يرده أهل العسة للموضع الذي أتى منه ولا يقبلوه إلا إذا أسلم وكذلك أهل عسة الإصبنيول يردون من هرب من المسلمين لناحيتهم.

- **الشرط الحادي عشر:** إذا دخل أسير لبلاد سيدنا نصره الله وكان من الاصبنيول فهو محرر ومن هرب من أسارى المسلمين لبلاد الإصبنيول فهو محرر.

- **الشرط الثاني عشر:** إذا تخاصم الاصبنيول فيما بينهم فالحاكم في نازلتهم هو القونصوا فإذا لم يوجد القونصوا في الوقت فالقاضي يسجنهم حتى يحضر القونصوا ويفصل في نازلتهم.

- **الشرط الثالث عشر:** إذا مات أحدهم فحيط بميراثه القونصوا إن لم يحضر وارثه أو عين وكيلا على رزقه في حياته فإن لم يحضر القونصوا فيؤمن متخلفه عند قاضي البلاد وحتى يحضر القونصوا يحوز المتاع من يد القاضي.

- **الشرط الرابع عشر:** كل مركب يرد على مراسي اصبانية يعمل الكرنطينة فإذا أتى بخط يد القونصوا الذي ببلاده وأن البلاد لا بأس بها ولا مرض فيها فلا كرنطينة عليه ويدخل البلاد من حينه.

- **الشرط الخامس عشر:** إذا هرب نصراني وكان أسيرا بإيالة سيدنا نصره الله ووصل مركب الاصبنيول فهو محرر وكذا إذا دخل سبتة أو لأحد المدن الثلاثة وكذلك الأسير المسلم إذا هرب لمركب سيدنا أيده الله أو لبلاد الاصبنيول فهو محرر يذهب حيث شاء.

- **الشرط السادس عشر:** إذا حدث عيب في بعض الاصبنيول فلا ينقض الصلح بسببه وإنما يقبض القونصوا للفاعل ويرفع أمره لعظيمه

ويؤجل لفصل النازلة ستة أشهر فإن فاتت الشهور المذكورة ولم يات فصلها من الطاغية فالصلح منقوض.

– **الشرط السابع عشر:** إن قدر الله بنقض الصلح يمهلون ستة أشهر لجمع مالهم ثم يذهبون لبلادهم في أمن وأمان يركبون من أي مرسى شاءوا بأموالهم وأولادهم.

– **الشرط الثامن عشر:** إن سيدنا نصَره الله تبرأ من أهل كنارية من اصطيادهم الحوت بكوشطة وادنون إلى ما وراءه ولم يبقى عليه درك فيما يقع بهم مع عرب البلاد حيث لم تنلهم أحكام ولا قرار لهم وإنما ينزلون بخيمهم حيث شاءوا ويذهبون حيث شاءو وهلاك أهل كنارية محقق مع هؤلاء العرب وأما ما كان من كوشطة أكادير إلى ناحية الغرب فهو تحت ظل أماننا وقد جعل أيده الله لأهل كنارية أن يصطادوا بكوشطة أكادير وأسقط عنهم الوظيف وأبقى هاتيك الكوشطة بقصد أهل كنارية وغيرهم من الإصبنيول لا يزاحمهم فيها أحد مراعة للصلح والمهادنة.

– **الشرط التاسع عشر:** طلب الوسع في الأرض للمدن الأربعة سبتة ومليلية والنكور وبادس فكان الجواب عن ذلك من سيدنا نصره الله أن الملوك المتقدمة جعلوا تلك الحدود القائمة الآن بمحضر العلماء والقضاة والجماعة من المسلمين من زمن أخذ هذه المدن المذكورة وأنزلوا عليها خطوط أيديهم وألزموا نفوسهم أن يقفوا عند تلك الحدود لا يقع فيها نقص ولا زيادة وكل سلطان يتولى أمر الرعية يشهد عليه عمارة تلْك الحدود بالعسة والحراسة إلى وقتنا هذا فلا يمكننا أن نزيد فيما هو مشهود به علينا ولا على من قبلنا من الملوك ولو كانت هذه المسئلة جائزة في الدين لقضيناها لكم مراعة للصلح وحيث وقع الطلب في تصحيح الحدود المذكورة وأردتم أن يحضر رجل منكم وآخر من قبلنا حتى تعرفون هاذه الحدود وتتحققونها حتى لا يبقى فيها خلاف ها نحن جعلنا وكيلنا للوقوف مع وكيلكم.قائد تطوان والذي يفعل مع صاحبكم أمضيناه وتخط الحدود بالأحجار».

وهكذا فإن هذه المعاهدة نصت على حرية المتاجرة بين رعية البلدين، وعلى حق إقامة القناصل الإسبان ونوابهم والسماح لرعاياهم بالصيد، وكذلك تسليم الفارين من الجانبين.بيد أن السلطان رفض القبول بتوسيع حدود الثغرين المحتلين، ومثلما رفض إقامة مركز إسباني للصيد جنوب البلاد، وبينما ألزم الشرط التاسع عشر الطرفين بتعيين حدود المعقلين، وقد عين السلطان وكيلا عنه هو قائد تطوان محمد عاشر للوقوف على تحقيق الحدود

مع وكيل الإسبان، إلا أن القائد المذكور لم يباشر ذلك لأنه لم يتوصل بإذن من السلطان بتسوية مسألة الحدود.

وقد بدا جليا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعمل بجهد جهيد لتجهيز جيشه بالسلاح الثقيل الصالح لحصار طويل الأمد للمدن المحتلة، مثلما أيضا تمكين جنده من تكوين عسكري،ولهذا اقتنى كميات كبيرة من المدافع من الدانمارك والسويد وإنكلترا، واستجلب تقنيين في المدفعية والبنب من تركيا. ومنذ استرجاع الجديدة عام 1769، فإنه أظهر رغبة أكيدة في استعادة بقية الثغور التي تقبع تحت السيطرة الإسبانية. ولهذا فعندما قام بتجميع الأسلحة الثقيلة بقصد الحصار استدعى القنصل العام لإسبانيا لإخباره بأن الواجب يملي عليه محاصرة سبتة، ولكي يظهر أن الأمر ليس مجرد كلام، فإنه أبعد عن تطوان وناحيتها جميع الممثلين الإسبان وأفراد رعيتهم وكذلك سائر الأوربيين المقيمين هناك، وكان من بين المرحلين قنصل إنجلترا المقيم بتطوان سامسون، وكذلك قنصل البندقية، وكما قام بإجلاء عدد من اليهود نحو شفشاون حتى يتفادى بذلك تسريبهم لأية معلومة إلى الأوربيين.[296] وكان هذا الخروج القسري للأوربيين من تطوان قد تم في يناير 1772، وفي أواخر عام 1774 انفصمت العلاقات بين البلدين عمليا بسبب حصار مليلية. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد أقسم يمينا بأنه لن يسمح لأي نصراني بالعودة للإستقرار في تطوان، ولكنه بعد فشله في محاصرة مليلية أراد أن تعود تطوان إلى سابق عهدها بخصوص انفتاحها على الخارج،[297] ولكي لا يقع في الحنث فإنه فكر في تشييد حي بضاحية تطوان تكون الإقامة فيه مقتصرة على المسيحيين واليهود، واختار بقعة أرضية ملائمة لهذا الغرض، وحرص بحضوره على تخطيط حدودها، وأرسل في طلب معلمي البناء والنجارة للشروع في العمارة معتمدا في ذلك على مال التجار البنادقة.[298] إلا أن جميع هذه الاستعدادات لم تراوح مكانها، فحسب المعلومات التي بعثها نائب القنصل المذكور إلى إسبانيا تبين أن السلطان تراجع عن فكرته واستدعى القضاة والمفتين لاستصدار فتوى تبطل اليمين الذي كان تلفظ به في السابق بشأن عدم السماح للقناصل الأوربيين والنصارى عموما بالسكن في تطوان.[299]

---

[296] - R.L.D., la cuidad y region de Tetuan.. Op.cit, p.24.

[297] - A.H.N , Estado, Leg.4312 15 (رسالة من نائب قنصل اسبانيا في تطوان مؤرخة في يونيو 1779)

[298] - Ibidem.

[299] - R.L.D, Op.cit, p.31.

وبعد أشهر من رفع الحصار دشنت مرحلة جديدة من المفاوضات بين البلدين مهد لها الراهب الفرنسيسكاني الذي سعى إلى رأب السلم المصدوع. وكان البلاط الإسباني في مدريد يتوصل بالمعلومات عن المغرب بواسطة الراهب المذكور الذي كان جاسوسا حقيقيا مقيما في مكناس،وكذلك عن طريق الوكيل القنصلي خورخي بطسياطي المقيم في قادس، وقد عرفت هذه الفترة أيضا إحداث القنصلية العامة في طنجة حيث عين على رأسها خوان مانويل غنثالث سلمون. وقد جرت عدة مراسلات بين الوزير فلوريدا بلانكا والراهب بولطاس في شأن قيام إسبانيا بشراء احتكار مراسي كل من تطوان وطنجة والعرائش، وقد طلب من الأخير أن يستعمل إسما مستعارا لأحد المسلمين أو اليهود عند التعاقد مع المخزن، إلا أنه لم يتم التوصل إلى هذا الاحتكار بسبب منع السلطان، وكان أعوانه قد أشاعوا بأنه تنازل لمدة سنة عن مراسي تطوان وطنجة والعرائش مقابل مائة أسرى من المسلمين ومائة ألف مثقال.[300]

وبالرغم من بعض الحوادث التي بدت خطيرة فإن سياسة الود بين العاهلين ظلت هي الصبغة التي طبعت الفترة التي وقعت فيها سفارات كل من الغزال سنة 1766 وخورخي خوان عام 1767 وابن عثمان سنة 1779. وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد بعث برسالة إلى الملك كارلوس الثالث في 31 أكتوبر 1779 يقول فيها:« ...أما بعد فإنه لا يخفانا ما أنت عليه من المحبة في جانبنا العلي بالله التي أوجبت لك عندنا التمييز على غيرك من عظماء النصرى. وقد وجهنا إليك كاتبنا السيد محمد بن عثمان ليتفقد أحوال أسارى المسلمين الذين بأيديكم... (و) تجديدا لعهدكم وتاكيدا لمودتكم ومحبتكم التي ثبتث عندنا ويبلغكم كلامنا الذي أوصيناه عليه ويصلكم معه عشرة آلاف مثقال من سكتنا صدقة على جميع الأسارى الذين في إيالتك وغيرها مثل رومة والجبوة والكرنة ومرسيلية... وبعثنا إليك ستة من النصرى مالطية تذكرة ومحبة... ونحن معكم على الصلح والمهادنة صدر الأمر به في عشرين شوال ثلاثة وتسعين ومائة وألف».[301]

وعرض السفير ابن عثمان على ملك إسبانيا أوامر السلطان سيدي محمد بن عبد الله والتي قلدها له لكي يتفاوض بشأنها مع الوزير المفوض كوندي فلوريدا بلانكا،وكانت نتيجة مباشرة الكلام إبرام اتفاق أرنخويس في 30 ماي

---

[300]- Vicente Rodriguez Casado, Politica marroqui de Carlos III, Madrid, 1946, p.333.
[301] - A.H.N, Estado, legajo 4348.

1780 والذي تمت فيه العودة إلى صلح ومهادنة 1767 بينما لم يتطرق فيه لمسألة حدود سبتة. ومما يتضمن النص العربي ما يلي:[302]

« **الأمر الأول.** أن لنجليز لما علموا بأنكم عزمتم على محرابتهم بعثوا إلينا يريدون أن يوجهوا لنا ستة من السفن أو ثمانية يترددون بين جبل طارق ومراسينا في حمل السلع والقوت وغير ذلك ويكونون تحت سنجقنا وذلك منهم حيلة ومكيدة فأطلعنا على دسايسهم لأن مرادهم أنكم إذا جعلتم الجيرة معهم وحاصرتم جبل طارق كما فعلتم تبقى تلك المراكب تدخل إلى جبل طارق تحت سنجقنا فأنتم لا تتكلمون معهم مراعات لنا وهم يجلبون إليهم جميع ما يحتاجون إليه. فلما فهمت مرادهم قلت لهم لا حاجة لنا بمراكبكم ولا نفعل شيئا من هذا الأمر. والآن فأنتم أولى بأن تبعثوا لنا ثلاثة من المراكب أو أربعة يحمل كل مركب خمس عشرة ماية قنطار أو نحوها ويكونون في غاية التوثق أردناهم أن يحملوا القوت من بعض بلادنا التي فيها الزرع كثير إلى البلاد التي فيها الزرع قليلا وتبعثوا لنا في كل مركب الريس والبلوط واليكتجي ومسطارس ونحن نجعل فيه البحرية ويحملون القوت كما ذكرنا والكراء الذي يستحقونه نعطيهم إياه سرا وفي الظاهر إنكم أعطيتم المراكب من غير كراء كما تقتضيه محبتكم فينا.

الجواب عليه من حضرة سلطان إصبانية. وهو أن السلطان كرلوس يبعث لسلطان المغرب السفن المذكورة كما ذكر وطلب إلا أن تكون بحرية السفن كلهم إصبنيول ليلا يقع نزاع بينهم وبين المسلمين.

الأمر الثاني. إن تجار المسلمين أهل تطوان كانوا قبل اليوم يبيعون ويشترون في جبل طارق ويحملون إليه الجلد وكانوا يرون مراكب إنجليز تحمل الجلد إلى (من) جبل طارق إلى برصلونة ويربحون فيه ربحا كثيرا. واليوم حيث بطلت تجارتهم من جبل طارق طلبوا منا أن يتاجروا في برصلونة ويتوجهون إليها حتى يتلاقوا مع من يشتركون معهم ويرتبون تجارتهم، وبعد ذلك يتكاتبون مع أصحابهم المذكورين في السلع التي يبعثونها إليهم، وشركاهم كذلك يبعثون إليهم ما يكتبون لهم عليه. والمراكب المذكورة أعلاه حين تفرغ وسقها من القوت تتردد بين تجار تطوان وشركاهم ببرصلونة يحملون إليهم الجلد وغيره مما يخرج في برصلونة ويحملون منها الحرير وما أشبهه. وكل من يتجر من تجاركم مع تجار بلدنا إلى بلادكم إلا

---

[302] - A.H.N, Estado, legajo 3372, carpeta 14 / Tamuda, Ano VI, semestre II, Tetuan, 1958, pp.327-335.

من له عقل ومروة لا يرضى المسايل التي تنقصه عندنا ولا يوافق عليها وفي هذا الأمر صلاح لرعية الجانبين.

الجواب عن هذا الأمر أن المراكب المذكورة تمر إلى برصلونة بقصد التجارة متى شاءت بحيث أنهم يعطون المال المعين للتجار وهذا العمل يعمله سلطان اصبانية في بلده وساير مملكته.

شروط آخره تضم جواب سلطان اشبانية

أولها: أن تجار اصبنيول يقدمون على مراسي سلطان الغرب تطوان وطنجة والعرائش وسلا ومكدول وغير ذلك من مراسيه بقصد التجارة يكونون مقبولين آمنين على أنفسهم وأموالهم لا يقربهم أحد بسوء ولا بمكروه.

الأمر الثاني: أن ما يلزم تجار اصبنيول في خارج ما يحملوه من السلع من بلاد سلطان الغرب يكون محدودا معلوما من غير زيادة ولا نقص وأن يميز تجار اصبنيول عن غيرهم.

ويزيد على ذلك أن هذا عينه يعمل سلطان اشبانية في بلاده مع تجار سلطان مراكش.

الثالث: رعية سلطان الغرب يأتون إلى مراسي اصبانية بقصد التجارة في مالقة وبرصلونة وقالص وغيرها من المراسي وجميع تجار السلطان المذكور يكونوا مقبولين ومؤيدين ويقضون جميع ما يتوقفون عليه من مؤنتهم وإصلاح مراكبهم وجميع ما يحتاجونه يشترونه.

الرابع: تجعل لمراكب سلطان الغرب علامة عندهم وعند مراكب اصبنيول ليلا يلتبسون بمراكب أهل الجزاير...

خامسا: إذا قدر الله وأخذ الاصبنيول جبل طارق ودخلت في حكم اصبانية يعامل سلطان الغرب جبل طارق معاملة بلاد اصبانية.. وكما أن سلطان اصبانية يكون معينا لمراسي سلطان الغرب... حتى تكون بلاده كلها بالأمان وإن حاربها عدو ينهض سلطان اصبانية لمحاربته وكذلك يعمل سلطان الغرب مع سلطان اصبانية.

ويزيد على ذلك وعلى هذا الفحوى يجب أن يفهم هذا الفصل الخامس.

السادس: إذا أراد سلطان اصبانية أن يعين من يريد أن يستلزم لسلطان الغرب بالمال الذي يريده ويعينه وهو يتولى قبض صاكة ما يخرج من المأكولات من مرسى العرائش وطنجة وتطوان يكون له ذلك.

السابع: تجار اصبانية وغيرهم من رعية سلطان اصبانية الذين يكونوا في بلاد سلطان الغرب لا يكلفهم أحد بشيء قليل ولا كثير ولا يكلفون بإنزال أحد عندهم بديارهم وينفقون عليه كرها.

الثامن: رعية اصبنيول الذين يكونوا في إيالة سلطان الغرب إذا اكترى أحدهم دارا بسنين معينة بكراء معلوم فإن صاحب الدار لا يكلفهم بزيادة على الكراء المتفق عليه ولا يخرجهم من الدار إلى أن تنقضي المدة التي وقعت عليه العقدة وعلى النصارى المذكورين أداء الكراء المعين.

التاسع: إذا أراد قنصل اصبنيول أو خليفته أو أحد من التجار أو من رعية اصبنيول أن يبتني دارا في إيالة سلطان الغرب ويعمرها فله ذلك. فإذا أراد أن يبيعها أو يكريها أو يهبها لمن شاء فلا يمنع من ذلك ولا يتعرض له أحد.

العاشر: إذا أراد سلطان نابلوس يعمل الصلح مع سلطان الغرب فتكون له ولرعيته الهدنة والطمانية مع الأمان والسلامة ويتاجرون النابوليتان في مملكته كما يتاجرون تجار اصبنيول ويعاملون معاملتهم في المحبة والتجارة وتبطل العداوة والمحاربة مع رعايا سلطان نابلوس وسلطان الغرب.

حرر في أرنخويس في شهر مايه سنة 1780
محمد بن عثمان لطف الله به
3 محرم 1195 »

وأقر السلطان سيدي محمد بن عبد الله المعاهدة في أواخر عام 1780، فكتب في ذلك فلوريدا بلانكا مخبرا ملكه بأن السلطان كبرهان على امتنانه لصداقة إسبانيا التي يعدها دائمة وأثيرة على الجميع، فإنه أمر بإخراج سائر الإنجليز من مرسيي طنجة وتطوان، ومنعهم من وسق الأقوات والسلع منهما، وعلى العكس من ذلك، فإنه رخص للإسبان في وسق كل ما يحتاجونه.[303] وكان السلطان قد بعث في نفس الشأن رسالة إلى العاهل الإسباني.

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من عبد الله محمد بن عبد الله إلى عظيم اصبانية كارلوس الثالث. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنه منذ ورد علينا من عندكم كاتبنا البشدور

---

[303] - Manuel Conrotte, Espana y los paises musulmanes durante el Ministerio de Floridablanca, Madrid, 1909, p.249.

السيد محمد بن عثمان وهو يحدثنا بما رآه وعاينه من محبتكم الخالصة ومودتكم الصادقة في جانبنا أنت وولدك سلطان نابلس وأثنى عليكم ثناء حسنا من وقوفكم في جميع مئاربنا وقضاء أغراضنا كما هو معروف فيكم. فأوجب ذلك أن تكون مرتبتك عندنا لا يدركها أحد من ملوك النصارى وأنك عندنا مميز ومقدم على كل أحد وكذلك رعيتك مجازاة لمحبتك فينا بمثلها. وأما الإنجليز فقد أخرجناهم من مرسى طنجة وتطوان ولم يبق لهم فيها نفع وكل ما كانوا يحملون منها من المأكولات فقد منعناهم منه وجعلناه مقصورا على رعيتك ومراكبك وشروط الصلح التي جعلتم مع السيد محمد بن عثمان المذكور أمضيناها وتصلكم مع كتابنا هذا ممضية فابعثوا لنا نسختها التي بقيت عندكم بعد أن تمضيها. ونحن معكم على المهادنة والصلح التامين والسلام. كتب في طنجة رابع المحرم الحرام فاتح سنة خمسة وتسعين ومائة وألف».[304]

وهكذا تم تثبيت الصلح والمهادنة المرغوب فيهما بمقتضى معاهدة 1780 ثم سفارة ساليناس سنة 1785، مما أدى إلى تدعيم العلاقات بين المغرب وإسبانيا. إلا أنه في أواخر عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سيخيم ظل ابنه اليزيد على هذه الصداقة المتبادلة، وكان قد عظم صيته وصار يكاتب القبائل، وأمسى أعوان والده السلطان يطلعونه على أخباره إلى أن بلغه خبر موته في رجب 1204.

وقد كان الساسة الإسبان يراقبون تطور الأحوال بالبلاد عن قرب، وذهب بعضهم إلى حد أن موت السلطان سيدي محمد بن عبد الله سيفضي إلى تحطيم مملكته، وكان هذا رأي القنصل العام خوان منويل غنثالث سلمون الذي استغل وجوده في مدريد عام 1789 ليطلع الوزير كوندي دي فلوريدا بلانكا على المنافع التي يمكن أن تجنيها إسبانيا من استغلال الفوضى التي ستحل بالمغرب، واقترح مشروعا خطيرا هو الإعداد باحتراس لحملة عسكرية ضد طنجة،[305] وكما اقترح أن يبعث على وجه السرعة خبير يقوم باستطلاع المواقع الدفاعية ومعاينتها ودراستها، وبأنه سوف لن يمنع من ذلك لأن كافة رجال المخزن أصدقاء للقنصل. وقد كرر مقترحه في رسالة بعثها إلى فلوريدا بلانكا بتاريخ 6 نوفمبر 1789 [306]، إلا أن هذا الأخير لم يهتم بجد بهذه الفكرة.

---

[304] - A.H.N, Estado, legajo 3372, carpeta 14.

[305] - T.G.F, Intento de inutilizacion de la plaza y corso de Tanger, Tamuda, Ano , Tetuan, 1954, semestre II,p.193.

[306] - A.H.N, Estado, legajo 4321.

وغداة بيعة السلطان مولاي اليزيد اقتبل القناصل الأوربيين المقيمين بطنجة في مكان قريب من تطوان وذلك يوم 20 أبريل 1790، وصرح أمامهم بأنه يعتبر نفسه في حالة حرب مع كافة الدول باستثناء إنجلترا وراغوسا، وأجلهم أربعة أشهر لإعادة ما قد يتعين إرجاعه بين المتخاصمين، ولعله كان يتوجه في كلامه إلى نائب القنصل الإسباني أنطونيو غنثالث سلمون. ولقد كان سلوك السلطان الجديد واضحا وعدائيا تجاه إسبانيا، فأعمال القرصنة والاستعدادات لمحاصرة سبتة ثم الأمر بطرد الرهبان الفرنسيسكانيين يؤكد ذلك. إلا أنه وفي الجانب الأخر، فإن مولاي اليزيد قابل في 28 من نفس الشهر نائب القنصل الإسباني وأعرب له عن نيته في الإحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع إسبانيا، ووعد بكتابة رسالة إلى الملك كارلوس الرابع يخبره فيها بوفاة والده سيدي محمد بن عبد الله وتوليه العرش، ويطلب منه إيفاد سفير للمصادقة على المعاهدات المبرمة مع والده. وقد بعث هذه الرسالة بتاريخ 16 شعبان 1/1204 ماي 1790، وجاء فيها:« ... إلى عظيم جنسه اصبانية كارلوس الرابع لاص صبانياص السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فاعلم أن سيدنا ومولانا الوالد قدس الله روحه قد صار إلى عفو الله ورحمته... ونحن قد ولانا الله تبارك وتعالى من فضله وكرمه وجوده كلمة الإسلام.. وقد تلاقى معنا قونصوكم أنطونيو يطلب منا أن نكون معكم على ما كنتم به مع والدنا رحمه الله من الصلح والمهادنة فأجبناه لذالك لمدة أربعة أشهر من تاريخه يأتي علينا باشادوركم يجدد معنا الصلح والشروط ولا تروا منا خيرا إن شاء الله. وقد سرحنا لجنسكم ما كنتم توسقونه من الفريشك من ثغورنا الجهادية تطوان وطنجة والعرائش والسلام في منتصف شعبان المبارك عام 1204».[307]

وحدث في تلك الفترة أن بعض أفراد قبيلة قلعية المجاورين لمليلية قاموا بأعمال دفعت نائب القنصل الإسباني بمطالبة السلطان بمعاقبتهم وإجبارهم على الالتزام بشروط المعاهدات. وبينما كان مولاي اليزيد قد شرع في جمع الأعتدة الحربية في تطوان بقصد مهاجمة سبتة، طلب نائب القنصل من السلطان الإفصاح عن نواياه إزاء إسبانيا لأنه في اعتباره لا يمكن التوفيق بين قدوم السفير في مستقبل قريب وبين الإستعدادات لمحاصرة سبتة وتهجمات المغاربة المجاورين لمليلية.[308] وكان رد مولاي اليزيد أن وجه

---

[307] - ماريانو أرييلس بالاو، **رسائل عربية حول المغرب في عهد مولاي اليزيد**، فصلة من مجلة " تطوان" العددان 3-4 ،59 - 1958، ص.26.

[308] - A.H.N, Estado, legajo 4322.

رسالة إلى نائب القنصل بطنجة أنطونيو غونثالث سلمون مؤرخة في 6 شوال 19/1204 يونيو 1790 يقول فيها: « ....أما بعد فقد وصلنا كتابك وقرأناه وعرفنا جميع ما ذكرت فيه ونحن باقين معكم على الصلح والمهادنة كما ذكرنا لكم حين كنا بتطوان. وحين يقدم علينا باشدروكم نجدد معكم الصلح والمهادنة كما ذكرنا لكم حين كنا بتطوان. وحين يقدم علينا باشدوركم نجدد معكم الصلح إن شاء الله. ونزول باشدوركم يكون بالعرائش ويقدم علينا في البر...».[309]

وكان الملك الإسباني قد عين القنصل العام بطنجة خوان منويل غنثاليث سلمون وزيرا مفوضا، فوصل إلى خليج طنجة يوم 12 غشت 1790. واتجه السلطان إلى العرائش يوم 28 منه ليستقبل السفير الإسباني، إلا أن هذا الأخير رفض النزول من السفينة وطالب بتعويضات عن الإهانة التي لحقت بالدار القنصلية في طنجة،وكان السلطان قد بعث باليد المقطوعة للوزير أفندي قادوس لتعلق بباب دار القنصل الإسباني.[310] وفي يوم 22 سبتمبر انسحب السفير من مرسى طنجة بعد أن استصحب معه كافة الإسبانيين المقيمين هناك وفيهم أخوه نائب القنصل الذي تحيل في الهرب فبعث لكاتبي السلطان الحدراني وبونافع وأرشاهما، فبعثا له بكتاب فيه طابع السلطان على أن يركب البحر بغير إذن السلطان. وفي نفس الوقت أسرت البارجة الإسبانية غرابين سلاويين عند رأس سبارطيل كانا متجهين نحو الجزائر، فاغتاظ السلطان مولاي اليزيد لخروج نائب القنصل وأسر المركبين، وأمر بقبض قائد طنجة ملوك بن عبد المالك الريفي فقطع رأسه ونهب داره، وكما قطع رأس كل من الحدراني وبونافع وعلقهما بباب العرائش،[311] وانتقم من المقر القنصلي الإسباني في طنجة بأن جعله مسكنا لليهود.[312] وكلف السلطان ابن عمه مولاي علي قائد ميدان الحصار في سبتة بإرسال كتاب إلى الملك الإسباني يعرض فيه عمل السفير المذكور ويلقي عليه مسؤولية القطيعة الممكنة، فكتب رسالة أرخت في 21 محرم 30/1205 سبتمبر 1790، وجاء فيها:«.. أما بعد السلام كما أمرنا سيدنا نصره الله نقدم لسبتة ونكتب منها لحضرتك كتابنا هذا ونعلمك بخبر الباشدور الذي قدم من حضرتك لعند سيدنا نصره الله قدم لمرسى طنجة أقام بالمركب ولم ينزل إلى البر... ثم إنه في

---

[309] - ماريانو أريباس بالاو، مصدر سابق، ص.131.

[310] - الضعيف، ص.218.

[311] - نفس المصدر، ص.221.

[312] - Potocki, Op.Cit, p.88.

آخر الأمر قال إنه جاءه الأمر بالنزول وأنزل بعض الشيء وحمل معه القونصوا يظهر بذالك أنه يأتي بالهدية ثم إنهم أطلقوا قلوع المراكب وسافروا فجاءوا لناحية العرائش فتلاقوا مع مراكب لسيدنا نصره الله كان وجههم لناحية الجزائر وتونس لقضاء بعض الأغراض بعد أن أخذوا البصبرط من عند خليفة قونصوكم على العادة ولم يكن عند سيدنا عمل على الفر. وأما سيدنا نصره الله كان معكم على الصلح وكان ينظر قدوم باشدوركم ليتلاقا معه وينظر ما أتى به ويتفاوض معه في شأن الصلح وأما قونصوكم ما قبل الصلح معنا من جانب الفعل الذي كان يفعل في الدار البيضاء وخيانته فالفرينسية امتاع الزرع الذي كان يوسق هو وقدوس وبن عبد المالك وهذا ما نعلمك به».[313] وهذا التفسير لأسباب الخلاف يقترب كثيرا مما عبر عنه حاكم سبتة أروطيا في رسالة وجهها إلى الوزير دوكي دي فلوريدا بلانكا حيث أن الأسباب التي أدت إلى القطيعة بين العاهلين تشكل انتقادا لنشاط كل من القنصل العام خوان منويل وأخيه وخليفته أنطونيو اللذين لم يكن ينظر إليهما بارتياح بسبب سلوكهما المشبوه.[314] وكانت خطة خوان منويل سلمون تهدف الحصول على أكبر فائدة ممكنة من المقابلة مع السلطان والاحتفاظ بعلاقات في نفس المستوى الذي كانت عليه إبان حكم والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وفي نفس الوقت ممارسة الضغط عليه بتنفيذ مشروع احتلال طنجة الذي سيسمح بمراقبة التجارة على الساحل الأطلنطي المغربي. إلا أن إسبانيا بسبب ظروفها الداخلية والخارجية لم تحاول مهاجمة المغرب ولا احتلال طنجة كما كان يدبر، وإنما فضلت طريقا أقل كلفة وهو اصطناع بعض العملاء من المغاربة وتسخيرهم لخدمة مصالحها، وكان سلمون هو متولي هذه الخطة وكانت قناعته هي «لا يغلب المورو إلا المورو»، فتقرب من الوزير محمد بن العربي أفندي قادوس الذي كانت بينه وبين الإسبان مكاتبات ورسائل وهدايا، وكانوا يبعثون له الرخام والزليج وعود البرازيل لبناء داره بمراكش،[315] وكما أنه لعب دورا مهما في إقناع سيدي محمد بن عبد الله بوضع أمواله لدى الإسبان، وكذلك عبد الرحمن بن بناصر العبدي الذي أخذ يندب قبائل دكالة والحوز للخلاف على مولاي اليزيد، وكان يكاتب الإسبان من مرسى آسفي ويبيع لهم الزرع، وكانوا يمدونه بالبارود والأنفاض

---

[313] - أريباس بالاو، ص.134.

[314] - A.H.N, Estado, leg.4321.

[315] - لضعيف، ص.216.

والعدة والمال،[316] ومنهم أيضا محمد الزوين الذي كانت له علاقة متينة ومفيدة مع خوان منويل سلمون،[317] وقائد طنجة ملوك بن عبد المالك، والطالب عمر الذي كان يخبر القنصل الإسباني بكل شاذة وفاذة، ومحمد المفضل في تطوان الذي كان يزود حاكم سبتة بالأخبار.[318]

ولأجل تفادي حدوث قطيعة بين البلدين فإن الملك كارلوس الرابع أرسل كتابا إلى السلطان اليزيد دعاه فيه إلى إيفاد سفير كالسيد محمد بن عثمان إلى مدريد للاتفاق على شروط صلح جديد، وقد قبل مولاي اليزيد الاقتراح الذي عرضه عليه كارلوس الرابع فأوفد ابن عثمان المذكور لمباشرة الكلام فيما عسى أن يكون فيه صلاح ووفاق، ولكن هذا الأخير طال مقامه في إسبانيا ولم يحصل على أية نتيجة بل وامتنع عن القدوم، فعزله السلطان من مهمته وأسندها لابن عمه مولاي علي.[319] وأرسل مولاي اليزيد إلى حاكم سبتة رسالة تتضمن ثلاثة شروط التي على أساسها ينبغي أن يكون الصلح وهي كالتالي:« ... وهي التخلي عن مدننا أو دفع الجزية عنها وإلا فالقتال والمحاربة... والآن فإن أتيتم بمليون من المال صيرناه على جيشنا السعيد وقبلتم الشروط الثلاثة المذكورة رفعنا عنكم آلة الحرب ولا نحتاجكم لرفعها في البحر فنحن عندنا القوة العظيمة على جرها ... وإلا تقبلوا الشروط الثلاثة وتاتوا بالمليون من المال فليس إلا الحرب والقتال ونحن المسلمون الغدر عندنا حرام وقد أعلمناكم وجعلنا لكم شهرا وعشرة أيام من الثاني من غشت آخرها الحادي عشر من شتنبر .. وفي الثالث عشر من ذي الحجة الحرام عام خمسة ومائتين وألف».[320]

وكان ملك إسبانيا قد أعلن الحرب بدوره على المغرب، وأطلقت حاميته العسكرية في سبتة النار على القوات المغربية المحاصرة، وفي نفس الوقت ساندت إسبانيا ثورة هشام أخ السلطان، فبعثت له المال والعتاد والسلاح في بارجتين جعلتهما تحت إمرة أنطونيو سلمون، فاضطر مولاي اليزيد إلى رفع الحصار عن سبتة والتوجه لمحاربة الثوار، وكما حاول استدراك تدهور العلاقة مع الملك الإسباني فدعاه إلى الصلح والمهادنة في رسالة مؤرخة في 4 أكتوبر 1791: « ... إلى عظيم صبانيات والهند الري كارلو الرابع السلام

---

316 ـ نفس المصدر، ص.225 .

317 - A.H.N, Estado, leg.4322.

318 - A.H.N, Estado, leg.4330.

319 - A H.N ; Estado,leg.4326. (رسالة مولاي اليزيد إلى حاكم قادس في 28 يوليو 1791)

320 - Ibidem.

على من اتبع الهدى. أما بعد فاعلم أننا كتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يعقد معك الصلح والمهادنة وها كتابنا معلم بخطنا وبطابعنا الشريف يصلك لباشدورك الذي توجهه لنا بحيث يأتي في الأمان هو ومن يرد معه ويرجع لكم في الأمان ولا يرى منا إلا الخير بحول الله.. في 5 صفر الخير عام 1206 ».[321]

وقد توفي مولاي اليزيد أثناء حربه لأخيه مولاي هشام في فبراير 1792، وبويع أخوه مولاي سليمان الذي كان عليه أن يجابه منافسة أخويه حول العرش. وبتوطيده للحكم اختفت الأسباب التي أدت إلى قطع العلاقات بين إسبانيا والمغرب، وظهرت الحاجة إلى إبرام معاهدة جديدة بين البلدين. وقد سعى بعض المغامرين الإسبان ممن قُتَ في عضدهم بإسبانيا لفرض نفسه كوسيط دبلوماسي بين بلده والمغرب، ففي منتصف أبريل 1793 رست سفينة برتغالية بمرسى تطوان وعلى متنها شخص يدعى كوندي دي إشبيلي في حاشية قليلة العدد، واستقبله محمد بن عثمان الذي كان السلطان مولاي سليمان قد عينه في أواخر 1792 عاملا على تطوان وكلفه بمباشرة العلاقات مع القناصل الأوربيين. وكان القنصل العام الإسباني خوان منويل سلمون قد تخبر بقدوم الكوندي المذكور بواسطة عميله في طنجة المدعو الطالب عمر.[322] وقد حذر سلمون عامل تطوان حتى لا يفاجأ بمقترحات غير قانونية ولا مرتكزة على الوثائق المرعية للشروع في مفاوضات، واستدرك أنه من الأجدر طرده من المغرب، فكتب في ذلك رسالة إلى ابن عثمان، وقد أجابه هذا الأخير:« صاحبنا العزيز علينا القونصوا منويل سلمون أما بعد فإنه بلغنا كتابكم... على شأن النصراني إشبيلي... هذا الرجل لم يدع أنه مكلف ولا مرسلا وإنما جاء كغيره من الناس مع رفيق وخادم ليس بيده كتاب ولا وكالة ولا شيء يتكلم به ولو تكلم بشيء وهو خال من التوكيل عليه لم يسمع منه شرعا ولا طبعا ولو أظهر شيئا من ذلك لبعثنا لك نستفهمك عنه...».[323] وكانت هذه الرحلة التي قام بها دي إشبيلي إلى تطوان واتصاله بعاملها قد أثارت قلقا وإزعاجا لدى القنصل العام الإسباني، خصوصا وأنه شاع في مراسي المضيق أن الكوندي المذكور أتى مطوقا بمهمة تجديد شروط الصلح والمتاجرة بين البلدين بمناسبة إنتقال الحكم إلى كارلوس الرابع في إسبانيا

---

[321] - Ibidem,leg.4350.

[322] - M.A.P, Un viaje del conde de Expilly a Tetuan, Hésperis- Tamuda, Vol.XXIX, fas.1, 1991, p.29.

[323] - A.H.N, Estado,leg.4330 . (رسالة مؤرخة في 7 شوال 1207 / 18 ماي 1793)

وإلى مولاي سليمان في المغرب، وهو ما خلق ردود فعل قوية من طرف القنصل سلمون أفصحت عن تخوفه من ضياع مهامه الدبلوماسية وفقدان مصالحه الذاتية التي كثر اللغط في شأنها. وأوفد العاهل الإسباني كارلوس الرابع سفيرا مفوضا عنه هو خوان منويل سلمون لإقرار الصلح الواقع بين الدولتين سابقا وإثباته وإضافة أمور أخرى اقتضتها المصلحة للرعايا من الجانبين. وأمر السلطان مولاي سليمان السفير محمد بن عثمان ليتفاوض مع السفير الإسباني المذكور لعقد اتفاق آمن من الإختلال حول المهادنة والصلح، وانتهت المفاوضات إلى إبرام معاهدة في مكناس في 22 رمضان عام 1213 موافق 20 مارس 1799 .[324] ومن المواد التي تضمنتها كالآتي:

« ذكر الأمور التي ورد بها البشطور المذكور

الأول إقرار الصلح المتقدم على ما هو عليه وإثباته واعتباره وأن يعمل به.

الثاني لا يأذن أحد الملكين لقراصين عدو للآخر في حمل القوت الكثير الزائد على ما هو معتاد للقراصين الذين يأخذونه بقصد أن يوصلهم إلى البلد التي يقصدونه... ولا تجوز محلة عدو لأحدهما في بلد الآخر ولا يعطي أحدهما بسبرط لعدو الآخر ولا العلم ليتستر به ولا يترك أحدهما عدو الآخر ينشئ قرصانا بمرسى من مراسيه ولا تعطي إحدى الدولتين آلة حرب لعدو الدولة الأخرى.

الثالث ... يقع التنبيه في المراسي بأن لايقبل من رعية الاصبنيول إلا من أتى بالبسبرط من حاكم البلد التي خرج منها مبينا فيه سبب قدومه ويتصفحه القونصوا الكبير أو نائبه بمكان آخر وكذلك يفعل بمراسي الاصبنيول مع من يأتي من المسلمين...

الرابع يكون لقونصوا الاصبنيول ونوابه النظر والتصرف في أمور جنسهم في بلاد سيدنا...

الخامس كل ما يحدث من الدعاوي.. سواء كانت الدعوى لمسلم على صبنيولي أو العكس لابد أن يحضر لفصالها القونصوا أو نائبه....

السابع كل من يأتي لدار القونصوا أو نائبه بقصد داره ..لا يلزمه عليه لازم وله أن يعلق سنجق جنسه بداره كالعادة وفي مؤخر القارب عن ركب فيه لمركب من مراكبهم فلا يمنع من ذلك وتكون دار القونصوا المذكور ملحوظة موقرة.

---

[324] - M.A.P, El texto arabe del Tratado de 1799 entre Espana y Marruecos,Tamuda, Ano Vii, Tetuan, 1959, semestre I-II, pp.9-21/ A.H.N, Estado, ley.3372, carpeta 15.

التاسع إذا اشترى أحد من جنس الاصبنيول دارا أو مخزنا أو أرضا بإلة سلطان مراكش وأذن له الولاة في ذلك يتصرف في ملكه كيف شاء... وكذلك إذا اكترى احدهم حانوتا أو دارا أو غيرهما إلى أجل فلا يخرج قبل تمام مدته ... وكذلك المسلمون من رعية سيدنا إذا اشتروا أو إكتروا في بلاد اصبانية.

العاشر لا يمنع النصراني من جنس الاصبنيول من السفر من أرض المغرب... ولا يتوقف على إذن من حاكم البلد أو غيره إلاأنه يعلم به القونصوا أو نائبه ليقع البحث هل عليه دين أو حق لأحد فيلزم الفصال مع أهل الحقوق... وكذلك المسلمون في أرض اصبانية يسافرون منها متى شاءوا ومن غير توقف على إذن حاكم ولا غيره إلا إذا كان على أحد حق حتى يؤديه.

الثاني عشر لا يمنع أحد من رعية الاصبنيول من إقامة دينه وصلاته بديارهم أو بديار الفرايلية في إيالة سيدنا أمير المؤمنين ولا يتعرض للفرايلية بسوء موقرين كما كانوا قديما... وكذلك إن صدرت حرب بين الدولتين فالفرايلية يبقون في أمان سيدنا.. وكذلك يفعل المسلمون في بلد اصبانية يقيمون امر دينهم من صلاة وغيرها لا يمنعون من ذلك.

الثالث عشر إن صدر بين الدولتين ما يوجب الحرب فالواجب أن تجعل ستة أشهر أجلا توسعة على من يكون من إحدى الدولتين في بلاد الآخر ليجمعوا متاعهم ... ولما ظهر من أحوال سيدنا أمير المؤمنين أن لا رغبة له في أسر أحد فلذلك عن حدثت جيرة بين الدولتين فينظر فيمن تحصل بيده من رعية الاصبنيول ويبقوا متقفين لا غير لا بحكم الأسر إلى أن تحصل المبادلة بمن يكون عند الاصبنيول من رعية سيدنا أمير المؤمنين ويكون ذلك رأسا برأس ... ولا يدخل في الثقاف المرأة ولا الصبي ابن إثني عشر عاما ولا المسن ابن ستين سنة... فيجب تسريحهم بالفور ...

الخامس عشر تبقى حدود سبتة وما حولها لرعي بهائمهم على ما تركهم عليه سيدنا رحمه الله وجيرانهم واقفون عند الحدود محافظون على شروط الصلح بخلاف جيران مليلية والنكور وبادس فغير محافظين على الشروط فيجب أن يلزموا الوقوف عند الحد والوفاء بالعهد ولا يتركون على الإساءة إلى أهل هذه القرى...

السادس عشر مراكب تجار الدولتين يدخلون إلى أي مرسى شاءو من الجهتين وتتوجه المراكب المذكورة بالكواغيد المعلومة وتكون بها علامة ويعرفها قراصين الدولتين... وأما مراكب الصيادين للسمك فلا يلزمون حمل هذه الكواغيد...

التاسع عشر من المحافظة على الصلح والمهادنة إذا أخذ قرصان من إحدى الجهتين بعض مراكب عدوهم ووجد به بعض الرعية من الجهة الأخرى... يسرحهم بالفور بمالهم وبضاعتهم من غير أن يأخذ لهم شيئا ولا يلحقهم بمكروه. ومن المحافظة على الصلح احترام علم الجهتين ..

الثاني والعشرون إذا حرث مركب لجنس الاصبنيول فيما وراء سوس ووادي نون فمن جهة المحبة التي لملك اصبانية في سيدنا أيده الله يبحث كل البحث ويستعمل عزمه في استنقاذ رعية المحرثين بما أمكن إلى أن يرجعهم لبلدهم.

السادس والعشرون لا تعطي رعية سيدنا نصره الله بمرسى الاصبنيول في صاكة الدخول والخروج عن سلعتهم الماذون في التجارة فيها إلا ما هو معلوم لهم من قديم إلى الآن.

السابع والعشرون إذا أتى أحد من رعية الاصبنيول بسلع تجارة الغير الممنوعة لمراسي سيدنا فلا يعطون عن صاكتها إلا عشرة في المائة سواء دفع في الواجب سلعة أو دراهم.

الحادي والثلاثون إذا أمر سيدنا نصره الله بقطع وسق الزرع أو غيره لغرض أو موجب فلا يمنع تجار الاصبنيول من وسق ما عندهم بمخازنهم أو مشترى بالبادية دفعوا ثمنه قبل ورود الأمر بقطعه ليلا يحصل لهم ضرر وكذلك يفعل الاصبنيول مع رعية سيدنا.

الخامس والثلاثون رعية الاصبنيول القاطنون بجزر كنارية وغيرها بأمر سيدنا لتلك النواحي من مرسى أكدير إلى ما وراءها من جهة النرط بأن يتركون تلك الرعية يصيدون السمك وغيره بالبحر...

السادس والثلاثون رعية الاصبنيول الذين يخرجون من مراسيهم بصدد الصيد يستظهرون لولاة سيدنا بتلك الناحية بسنسية إتيانهم ليعين لهم الحاكم المتولي هنالك الموضع الذي يتصيدون منه ولا يتعدونه.

السابع والثلاثون جميع مراكب الاصبنيول الذين ياتون لساحل سيدنا بصدد الصيد من غير السنسية المذكورة أو بسبب فعل كنطربانض أو ألجأه الريح.. ويقبض هنالك فيدفع لقونصوه أو لأحد نوابه بالقرب من الموضع الذي قبض فيه في الحين ليبحثوا في أمره...

الثامن والثلاثون تجار الدولتين الذين يتجرون بمراسي الجانبين يأخذون كاغدا من عند القونصوا أو نائبه مبينا فيه ما وسقه من إحدى الإيالتين... فإن أتى به كما ذكر فإنه يجري على عادته في اللوازم ومن لم يأت به يعمه ما يعم غيره ومن زعم أنه متوجه بالوسق لبلاد الاصبنيول وتوجه به إلى بلد

أخرى فإذا رجع يقبض منه ما يبقى عليه من الصاكة بحساب الأجناس الآخرين» .

1.2 - بعثات إفتكاك الأسرى :

أدى تزايد أعداد الأسرى النصارى في المغرب برجال الدين الإسبان بالخصوص إلى تكوين بعثات من أجل افتكاكهم. وتعود أقدم بعثة في هذا الصدد إلى عام 1539 حينما وصل إلى تطوان الراهب كنطريراس ومنها انتقل إلى فاس. وفي سنة 1641 قدمت بعثة تابعة لهيئة الثالوث المقدس حيث افتدت في تطوان 116 أسير إسباني. وتعاقبت بعدها البعثات بشكل مستمر حيث وفدت حوالي سنة 1650 بعثة دائمة من القساوسة الفرنسيسكانيين الذين انتشروا في مختلف المدن الساحلية المغربية، وكان مقرهم العام في طنجة. وفي سنة 1671 أقام كبير بعثتهم في المغرب ملجأ في تطوان بدعوى التخفيف عن معاناة الأسرى المسيحيين، بينما كان الدافع الحقيقي من وراء تشييد هذه المؤسسة هو التزايد المستمر لأعداد الأوربيين المقيمين بالمدن الشاطئية.[325] ولم يكن هذا التواجد للقساوسة الفرنسيسكان فوق التراب المغربي ليحظر بالكامل توافد بعثات موسمية أخرى لافتكاك الأسرى الناجمة عن مبادرات مماثلة للسالفة قام بها رهبان ينتمون إلى طوائف عدة مثل اليسوعيين والثالوث والرحمة وغيرها. وشكلت مدينة تطوان مرحلة أساسية في طريق افتكاك الأسارى باعتبارها مرسى متقدما يتم عبره الولوج إلى داخل البلاد أو مغادرتها بحرا، وفي نفس الوقت مثلت سوقا رائجة للرقيق الذين تم أسرهم من طرف قراصين الجزائر أو تونس أو المغرب، فاشتهرت بمطاميرها التي كانت تأوي عشرات الأسرى المسيحيين، وكما ألف أهالي تطوان مشهد نزول الأسرى وقدوم الرهبان إلى مدينتهم، فكانوا يعاملون هؤلاء جميعا بكثير من الإنسانية ووافر الإحترام لمشاعرهم.[326]

ولم يتقاعس السلاطين العلويون من جهتهم في منح حمايتهم للنصارى المقيمين بالبلاد مهما كانت وضعيتهم أحرارا أم أسارى. فضلا عن ذلك، لم يمنعوا قدوم الفرايلية الفرنسيسكانيين للإقامة بالمدن المغربية وممارسة وظيفتهم بجانب الأسرى النصارى، مشمولين بالأمن والأمان شريطة أن لايجهروا بنصرانيتهم بين المسلمين. وكما سمح لاولئك الرهبان بتشييد كنائس في بعض المدن كفاس سنة 1672 وتطوان سنة 1676 وسلا سنة 1680

---

[325] - Budget Meakin, The Moorish Empire, p.326.

[326] - R.P. Dean, Histoire de la Barbarie et ses corsaires, p.262.

ومكناس سنة 1687، وهكذا تم احترام النسق الديني للنصارى وإن كانوا يخضعون لنظام الأسر أو الإسترقاق، فإن ذلك لم يكن لصفتهم الدينية وإنما باعتبارهم فدية أو رعية دولة عدوة ظرفيا. وبالرغم من تلك الوضعية فإنهم حظوا بعناية من الناحية الروحية على الدوام من قبل أساقفة مقيمين.[327] وكما كان يتم اعفاؤهم من العمل في أعيادهم كعيد الميلاد وعيد الفصح وعيد العنصرة للقيام بشعائرهم الدينية، وكلما ألم مرض خطير بأحدهم.[328] وأبرز دليل على حماية السلاطين وتسامح الاهالي إزاء النصارى المقيمين بالمغرب في تلك العهود هو الظهائر التي كان السلاطين ينعمون بها على الرهبان الفرنسيسكان، ومنها ظهير السلطان مولاي إسماعيل للراهب الإسباني دييكو دي لوس أنخلس في يونيو 1700 :

« كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره بيد حامله الفرايلي دياكوا يتعرف منه أننا حيث رأيناه مجدا في خدمتنا وساعيا في ما ينيله القرب من أبوابنا العلية بالله أذنا له أن يوجه على يده من يختاره ويرتضيه من أصحابه الفرايلية للعودة متى شاء ومتى أراد على أي مرسى أحب من جميع مراسينا المحوطة بالله تعالى في أي وقت كان سواء مرسى سلا أو تطوان أو الريف أو غير ذلك من غير معارض له في ذالك ولا منازع من سائر قواد المراسي ومن وقف عليه يعمل له بمضمنه ولابد. وكتب أواسط صفر الخير عام إثني عشر ومائة وألف».[329]

ومنها أيضا ظهير لنفس السلطان يأذن فيه للراهب غبرييل بحرية المقام في المغرب مع مجموعة من القساوسة الإسبان بقصد علاج الأسرى النصارى بتاريخ 21 ماي 1715:

«.. يستقر هذا التجديد الكريم والأمر الحتم الصحيح المتلقي بالإجلال والتعظيم بيد حامله الفرايلي كبريل... يتعرف منه من يقف عليه أنا أعطيناه الإذن والأمان في المقام ببلادنا وهو في ستة عشر فرايلي من الأندلسية البرفنسية دي سان دياك ومعه النصراني الطبيب المسمى الويس منطير الإسبنيول وأعطيناهم جميعا الإذن في المقام بإيالتنا حرسها الله تعالى بقصد معالجة النصارى الأسارى ومداواتهم ومعاناتهم وأذنا لهم في أن يعملوا منهم

---

[327] - P.Patrocinio Garcia Barruso, La libertad juridica e historica de Cultos en Marruecos, Archivo del Instituto de Estudios Africanos, n° 66, p.45.

[328] - مويط، مصدر سابق، ص.55 .

[329] - الظهائر الشريفة المنعم بها على الرهبان الإسبان من 1637 إلى 1794، مجلة دار النيابة، السنة الأولى، العدد الثالث، 1984 ، ص.65

من أحبوا في حضرة فاس وثغر تطوان وسلا على يدهم من هذا العدد المذكور من شاءوا ومهمى أحبوا الانصراف فهم سيكوريس ومعناه بالعربية مأمونون مسرحون بحيث لا معارض ولا منازع ولا مدافع وكما عهدنا لهم أن يكونوا في الخدمة والامتثال لما أمرناهم به فالتزموا ذلك وقبلوه والواقف عليه يوفى لهم بذلك العهد ويعمل بمقتضى هذا التجديد المبارك ولا بد والسلام على من اتبع الهدى. وكتب في السادس عشر من جمادى الأولى عام سبعة وعشرين ومائة وألف».[330]

وإذا كان جل الرهبان الفادين الأوائل من الإسبان، فإن الفرنسيين قاموا من بعدهم بإرسال بعثات لافتكاك أسراهم مثل رهبان لاميرسي الذين قدموا إلى سلا سنة 1674، وكما قامت بلدان أخرى بمبادرات مماثلة. وقد هيمنت مسألة افتكاك الأسرى في النصف الأول من القرن الثامن عشر على تاريخ المفاوضات المغربية- الأوربية، وغدت المفاوضات حول الأسر بواسطة البعثات الرسمية مجالا متغيرا لنسيج العلاقات بين المغرب وأوربا، بحيث أن قضية الأسر تحولت من شأن خصوصي مرتبط بنشاط القرصنة التي يمارسها الأفراد الذين يستفيدون من ريعها إلى شأن الدولة في إطار تقنين هذا النشاط وإخضاعه لمراقبة المخزن، وإسهامه في تزويد خزينة السلطان بالعشر مما يأسره القراصنة مشكلا بذلك جباية عشور منتظم. وفضلا عن ذلك، يساهم الأسرى في تزويد السفن بالمجذفين، ويوفرون يدا عاملة مسخرة وصالحة لكل خدمة، ففيهم كتاب ومزاولون للجراحة وشغالون ومحظيات، بالإضافة إلى كونهم يعدون قيمة تجارية بالنسبة لمالكيهم وللقناصل والوسطاء واليهود والتجار الهوغنوت والبروتستانت.[331]

وحصل السلطان مولاي إسماعيل على عدة مكاسب من إرغام العواهل الأوربيين على إرسال مبعوثين، ولم يكن يسمح بافتكاك سوى الأسرى المسنين الذين أصبحوا غير قادرين على العمل. وكما جرت العادة لم يكن السلطان يوافق على تسليم الأسرى إلا بعد الفدية نقدا أو تقديم السلاح والعتاد، وكانت معظم عمليات تسليم الأسرى تتم في مدينة تطوان، ولم يكن يسمح للفادين بدخول المدينة إلا بعد إذن قائدها، وهذا يلزمهم بالمكوث إجباريا بمرسى مرتيل تحت طائلة دفع إتاوة للقائد. وكان الراهب رودريغو سان

---

[330] ـ نفس المصدر، ص.67 .

[331] - Bussif Ouasti, Tetouan devant la conscience des rédempteurs, des captifs et des voyageurs européenes en VIIIéme siécle, Colloque ; Tetouan , 1994, PP.146-160 (انظر مويط ،ص.141).

ميغيل رئيس ملجأ تطوان قد حاول عام 1728 استغلال التقارب الذي حصل بين قائد تطوان عمر لوقش وحاكم سبتة دي شارني في مسألة الاتفاق حول افتكاك الأسرى النصارى الذين يوجدون في تطوان والمملوكين لبعض الخواص من أهل المدينة، إلا أن مساعي الراهب المذكور لم تكلل بالنجاح.[332]

ولم يكن الملك البريطاني يرسل بعثات دينية لأجل افتكاك الأسرى، وإنما كان مبعوثوه في غالب الأحيان من ضباط البحرية البريطانية، ولهذا كان التفاوض معهم في شأن تسريح الأسرى يتم بمقابل تسلم كميات من البارود أو الافتداء بالمال، وكنت هذه الخطة تجري أيضا على الأسرى الهولنديين والفرنسيين سيما وأن ضبط الأحوال الداخلية بالبلاد نتيجة كثرة التمردات على السلطان من قبل جيش العبيد والصراع على الحكم كان يفرض على كل متول للعرش البحث عن مصادر العتاد الحربي لتعزيز مكانته في السلطة. وفي هذا السياق كان السلطان مولاي عبد الله قد بعث رسالة إلى عاهل فرنسا لويس الخامس عشر مؤرخة في31 أكتوبر1733: « .. إلى صاحب كلمة الفرانصيص لويز كينز السلام على من اتبع الهدى. وصلتنا براءتك مع صاحبك أندريس على شأن الفدية والصلح فإذا أحببتم الفدية فادفعوا لنا البارود ونعطوكم النصارى وإذا لم تدفعوا لنا البارود ما لنا معكم كلام ولا سلام. وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى عام ستة وأربعين ومائة وألف».[333] وتمكنت بعض القوى المسيحية وخاصة إسبانيا من أن تشترط ضمانات قانونية حصلت عليها من خلال المعاهدات الأولى التي أبرمتها مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي منح الرهبان ظهيرا يعفيهم من سائر التكاليف «... يستقر هذا الكتب والخطاب الجسيم بيد حملته الرهبان الذين بإيالتنا الملتجئين إلى حمايتنا ويتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته أنه لا يلزمهم شيء قليل ولا كثير لا في أبواب المدن ولا في لوازم الأدوية ولا في مراسينا فيما يأتيهم من بر النصرى من حوائجهم ولا تفتح صناديقهم ولا أمتعتهم فقد أسقطنا عنهم جميع هذه الوظائف وسائر التكاليف ونأمر جميع ولات أمرنا بالمراسي وبالمدن أن يعملوا بمقتضاه ولا يتركوا

---

[332] - Correa de Franca, libro quinto, cap.8°, p.280.

333 - Chantal de la Veronne, S.F.H.M, Correspondance politique, Maroc, Vol.I, fol. 153.

أحدا يتعدى ما أبرمه كتابنا هذا وأمضاه وأن يستوصوا بالرهبان المذكورين خيرا وإحسانا والسلام في أواخر ذي القعدة عام 1195 ».[334]

ولم يقع التفريط في هذا التوقير والإسعاف إزاء الرهبان إلا نادرا وفي فترة الأزمة السياسية، فمثلا أدى فشل مفاوضات افتكاك الأسرى الفرنسيين سنة 1734 إلى قيام السلطان مولاي عبد الله بحشر جميع اليسوعيين والقساوسة وإجبارهم على العمل، وكما أن السلطان مولاي اليزيد قام عند اعتلائه للعرش سنة 1790 بطرد الفرايليين من النصارى والرهبان لبلادهم بعد أن صمم على استرجاع سبتة.[335] إلا أنه في عهد السلطان مولاي سليمان ستعود العلاقات مع إسبانيا إلى ما كانت عليه في عهد والده، وسيقع تجديد الظهائر التي بحوزة قساوستهم سنة 1794: «... يعلم من هذا المسطور الكريم والخطاب العلي الجسيم أننا جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته لخدامنا الفرايلية من جنس الاصبنيول حكم ما بأيديهم من ظهائر أسلافنا الكرام قدسهم الله وظهير مولانا الوالد رحمه الله وأعاد علينا من بركة رضاه آمين المتضمنة توقيرهم وإسقاط الكلف اللازمة في مراسي إيالتنا السعيدة عنهم فيما يأتيهم من بر النصرى من مأكول ومشروب وملبوس فلا تفتش صنادقهم ولا تمتد الأيدي إليها كما لا يحال بينهم وبين ما يردون من إقامة بحمل أو الخروج عنه إلى غيره من جميع المراسي تطوان وطنجة والعرائش وسلا فلا تحجير عليهم في شئ من ذالك ويبقون على ما عهد لهم وما رسمناه في شأنهم العمل والمعمول وبتاريخ ثالث شعبان 1208 ».[336]

وقد قننت معاهدة 1799 وضعية الرهبان الإسبان في حالتي الحرب والسلم، وجعلتهم في حماية السلطان واعترفت لهم بحرية إقامة شعائرهم الدينية، والقيام بدورهم الإجتماعي والإنساني تجاه بقية الرعية من الإسبان الموجودين بالمغرب.

1.3 - السلك القنصلي الأوربي:

ساعدت عدة عوامل جغرافية وسياسية في توطيد دور تطوان ومكانتها كوسيط بين المغرب وأوربا، وما يؤكد ذلك هو وجود عدد من القناصل يمثلون أهم البلدان الأوربية آنذاك.

---

[334] - مجلة دار النيابة، السنة الثانية، العدد الخامس، 1985 ، ص.17 .

[335] - الضعيف، ص.219 .

[336] - مجلة دار النيابة، ص.18 .

فقد وجدت المهام القنصلية الفرنسية بتطوان من الناحية القانونية مبكرا، فشغل التاجر أنطوان شيان منصب نائب القنصل عام 1651 وخلفه ابنه سنة 1660 فأسلم وسمي عبد الرحمن العلج وأصبح أمينا على مرسى تطوان.[337] وقد نص الإتفاق المغربي الفرنسي المبرم بين مبعوث السلطان الحاج محمد تميم والوزيرين كولبير وسينلي في 29 يناير 1682 بوضوح في الشرط الثاني عشر على تعيين قنصل دبلوماسي:« بإمكان عاهل فرنسا المذكور جعل قنصل في كل من سلا وتطوان أو في أي مكان آخر يجده مناسبا.. وتكون للقنصل المذكور كل الصلاحية والسلطة القضائية في فض النزاعات التي يمكن أن تنشأ بين الرعايا الفرنسيين..».[338]

وكان الملك لويس الرابع عشر قد كلف مبعوثه سان- أمان بالحصول على مصادقة السلطان مولاي إسماعيل على إتفاقية 1682، فقام عند قدومه إلى تطوان بتكليف التاجر الفرنسي بواييه دو كاسيس بالمهام القنصلية بصفة مؤقتة، إلا أن هذا الأخير وقع له نزاع مع قائدي القصر وتطوان من أجل افتكاك الأسرى أدى إلى طرده من البلاد.[339] وما بين سنتي 1684 و1685 شغل التاجر إيلهو منصب نائب القنصل بتطوان، وقد كان القائد علي بن عبد الله يكلفه بتسهيل مأمورية تجاره من اليهود في مرسيليا. وفي أبريل 1685 عين بيير إسطيل قنصلا بطنجة، لكنه لما وصل إليها ونزل بمرساها أدرك ضعف المنفعة المادية به، وبأن المرسى ليس في وضع يسمح له للقيام بأي نشاط تجاري مماثل لأهمية مرسى تطوان، فأمره الوزير كولبير بالانتقال إلى تطوان ليشغل منصب القنصل بها.[340] وقصة بيير إسطيل هي حلقة من النزاعات مع السلطة المحلية التي قامت بطرده بعد اتهامه بمختلف الأعمال الشائنة سنة 1697، ومنها قيامه بالمتاجرة في المواد الممنوعة علانية. أما خلفاؤه في المنصب فقلما حظوا بالنجاح في مهامهم. وعين في سنة 1706 بالمنصب بيير دولامكدولين لكنه لم يلتحق بتطوان إلا في فبراير1708، وظل في منصبه إلى سنة 1711 حيث فر إلى قادس بسبب خلافات مع قائد تطوان. وبقي المنصب شاغرا لمدة عام حيث تم تكليف التاجر بونال بالمهام القنصلية، واستمر يزاول وظيفه إلى سنة 1722 رغم القطيعة التي حدثت بين البلدين منذ سنة 1718 وذلك لحرص غرفة التجارة لمرسيليا على الحفاظ على

---

[337] - De Castries, Dynastie Filalienne, TomeII, p.201.

[338] - Ibidem, tomeI, p.444.

[339] - مويط، ص.77 .

[340] - De Castries, Tome II, p.559.

تمثيلية فرنسية بالمدينة. وفي سنة 1723 حذفت الحكومة الفرنسية قنصليتها من تطوان.

لقد واجهت التجارة الفرنسية في المراسي المغربية بعض الصعوبات الناجمة عن بداية المنافسة بين القوى الأوربية، وعن نهج للمخزن في كيفية التعاطي معها، فقد ظهر بديل مهد له منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وكان هو إنجلترا التي احتلت جبل طارق سنة 1704. وكانت الحكومة الإنجليزية قد فكرت منذ سنة 1656 في إقامة قنصلية بمدينة تطوان، إلا أن احتلالها لطنجة كان يوفر لها مرسى ويضمن لها مراقبة المضيق، واستعادت تلك الفكرة لما استرجع المغرب مدينة طنجة سنة 1684. وهكذا قامت بريطانيا سنة 1714 بتفويض التوكيل القنصلي لتاجر يقيم في تطوان يدعى بالمر، وفي سنة 1717 عينت تاجرا آخر هو أنطوني هاتفيلد قنصلا لها بتطوان.

ويمثل التزامن التقريبي بين التخلي الفرنسي عن القنصلية في تطوان، وإقامة قنصلية إنجليزية بها أكثر من دلالة عن المعطيات الجديدة للعبة الدبلوماسية والتجارية بين القوى الأوربية في تطوان خاصة والمغرب عموما. فقد وافق العاهل البريطاني على تعيين القنصل هاتفيلد بناء على طلب باشا تطوان، وبذلك عين قنصلا على ألا يحصل على راتب وإنما يجمع رسوما قنصلية على شكل نسب مئوية ضئيلة عن السلع المستوردة على متن السفن البريطانية. إلا أن القنصل المذكور ماانفك يشتكي من أن دولته هي الوحيدة التي لا تخصص راتبا لقنصلها، إذ أن القنصل الفرنسي يتقاضى راتبا سنويا يصل إلى ألف دولار ونائب القنصل يتقاضى مائة دولار فضلا عن التعويضات، أما القنصل الهولندي الذي ليس له ربع المصاريف فإنه يتقاضى دوكة في اليوم مع تأمين الحصول على منصب أحسن عندما يكون شاغرا. وفي رسالة بعثها إلى الوزير دوق نيوكاسل مؤرخة في تطوان 13 يونيو1725، قدر هاتفيلد مصاريفه بأكثر من ألفي ليرة، وتمنى لو يتم تعويضه بقنصل يتقاضى أجرا عن عمله.[341] وقد أقيل من منصبه عام 1727، وظل مع ذلك يخبر البلاط الإنجليزي بكل ما يجري في البلاد ذلك أنه بقي مترددا بين جبل طارق وتطوان إلى سنة 1729 لما طرده الباشا الذي كان ولي نعمته في بداية الأمر. وخلفه جون راسل الذي جاء تعيينه قنصلا بعد إلحاح الباشا أحمد بن علي وتدخل من مبعوثه التاجر التطواني محمد أبغلي لدى الأميرال

---

[341] - Dominique Meunier, Op.Cit, p.276.

شارل ويجر.[342] وقد تمكن هذا القنصل من إحراز موافقة السلطان على افتكاك عدد من الأسرى الإنجليز ونقلهم إلى إنجلترا بالرغم من عدم استكمال الفدية المطلوبة، إلا أن مقامه بتطوان لم يدم كثيرا، وقد خلفه أثناء فترة غيابه كل من إدوار بليك كنائب قنصل في تطوان وجيمس أركاط كنائب قنصل بطنجة.[343] وفي ماي 1732 وصل إلى تطوان القنصل صوليكفر خلفا لراسل لأجل افتكاك أسرى سفينة إنجليزية وملاحيها، وقد تذرع بمعاهدة الصلح والتجارة. وقد تعاقب على هذه المهمة عدة أفراد كانوا في نفس الوقت سفراء بلدهم إنجلترا إلى السلطان، وكانت مهامهم تكاد تقتصر على أمرين أساسيين: افتكاك الأسرى الإنجليز الذين تزايد عددهم، وتجديد معاهدة المهادنة والتجارة.

2- الدور العسكري :

بالرغم من رغبة الصلح والمهادنة التي عبر عنها السلاطين منذ عهد مولاي إسماعيل تجاه البلدان الأوربية، فقد عرف المغرب توترا في علاقاته ببعضها، حيث هيمن على المواجهة الظرفية بعد عسكري تمثل بصفة خاصة في انصراف همة السلطان المذكور لاسترجاع الثغور المغربية التي كانت بيد الأجانب. وقد تم له استرجاع مدن كل من طنجة والعرائش وأصيلا والمهدية على الساحل الأطلنطي، وأصبح يتطلع إلى استكمال فتوحاته باسترجاع الباقين على الساحل المتوسطي وبالخصوص سبتة. وكان السلطان قد أمر جيش العبيد سنة 1673 بمهاجمة سبتة، إلا أن الجيش المذكور فشل وألحقت به خسائر كبيرة، فأمر السلطان بتبديل هذا الجيش المدرب على القتال في السهول بجيش مكون من عناصر متمرسة على القتال في المناطق الوعرة والمرتفعات، فتشكل بذلك جيش المجاهدين الريفيين الذي أسندت قيادته إلى آل الحمامي الريفي المعروفين بالمكانة في الشجاعة ومكائد الحرب، فكان عمر بن حدو أول رئيس لقواد المجاهدين، ولما توفي قام مقامه أخوه أحمد بن حدو وابن عمه علي بن عبد الله. وكان الالتحاق بهذا الجيش يتم بالطريقة المعروفة بالإدالة حيث كان المجاهد ينوب عن أسرته أو مدشره في الرباط على سبتة، ولا يترك مكانه إلا بعد أن يقدم من يخلفه في تداول الخدمة العسكرية. وكان على كل شخص أن يحمل معه سلاحه وزاده الذي يكفيه لمدة الإدالة، ومقابل ذلك فإن أسرته كانت معفية من أداء سائر أنواع

---

[342] - Ibidem, p.278.

[343] - روجرز، ص.130 .

الضرائب المفروضة على عموم الناس. ولما كانت مدينة تطوان هي أقرب مركز لفرض الحصار على سبتة وإعداده بحكم أن قائدها كان هو قائد القوات المرابطة، فإن سكانها خضعوا لتشريع إجبارية الرباط، فكان من واجب كل فرد يقيم بالمدينة إما أن يرابط بنفسه، وإما أن ينيب عنه غيره من أقاربه أو من الأشخاص الذين كانوا يتخذون من ذلك مكسبا لعيشهم، فيندبون عن غيرهم مقابل أجر معلوم.[344] وبالإضافة إلى ذلك فقد أرغم الأهالي على التكفل بنفقة ثلاثمائة أو أربعمائة من العبيد كانوا في حاشية الباشا على أهبة القتال ويضمنون بقاء المنطقة تحت سلطته.

وكان السلطان مولاي إسماعيل قد عزم على مهاجمة سبتة سنة 1692، إلا أن صراعه مع أتراك الجزائر وطمعه في الحصول على مساعدة فرنسا أخر مشروعه إلى اكتوبر 1694. وقد ذكر صاحب الدر المنتخب:« لما كان عام ستة وإحدى عشرة مائة أمر السلطان قائديه الباشا علي بن عبد الله الريفي والقائد أحمد بن حدو الريفي بالنهوض لحصار سبتة فخرجا يوم الأحد السابع والعشرين من صفر من غير تأخير ولا توان وسارا إليها بجيش سعيد ... وأمدهم السلطان بمدد وأمر الرماة من أهل فاس أن يخرجوا وأمر قبائل الجبال أن يعينوا حصة من كل قبيلة للرباط عليها. فكان عدد المرابطين خمسة وعشرين ألفا دون من أتى من المتطوعة إليها... وأنشأ المسلمون جبالا من التراب عظيمة تشرف على سبتة وما فيها وتكون رمايتها مكبة عليها وجعلوا عليها مدافع ومهاريز وجعلوا يرمون بها... ولزم النصارى داخل سبتة ولا يخرجون لقربها خوفا على أنفسهم وأصابهم غاية الذل...».[345] وهكذا لم يتوان السلطان في إرسال العبيد وفرض التجنيد الإجباري بمناطق مختلفة من البلاد، وجلب المدافع من العرائش ومكناس، وكما استفاد أيضا من الخدمات التي قدمها تقنيون أجانب من الأسرى أو الإسلاميين مثل الروسي الهارب من الجزائر والذي شيد بتطوان مصنعا لخدمة البمب والكور لفائدة الجيش المرابط، والفلاماني معلم قاذفة البنب الذي كافأه مولاي إسماعيل بوصيفة من إمائه. وكانت الحامية المحاصرة لسبتة تتألف في غالب الأحيان من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف رجل استجلبوا من المناطق المجاورة وهي أنجرة والكوف وتطوان وجبل الحبيب والأخماس وباب تازة وسوق الإثنين لسيدي اليمني وسوق ثلاثاء ريسانة وطنجة والقصر الكبير وفاس وهي أبعد نقطة. وحسب تقرير المهندس الإسباني كيوصو فإن

---

[344] ـ داود، ج.2 ، ص.30.

[345] ـ ابن الحاج، ج.6 ، ص.354 .

القوات المغربية لم تكن منظمة وغير مقسمة إلى فرق، وأن عدد المرابطين عرف تغيرا مع استمرارية فرض الحصار وتقلب أحوال المخزن، ففي عام 1720 لم يعد بالمعسكر سوى 3500 من المشاة فيهم 2500 من البيض و1000 من العبيد، بينما لم يتجاوز عدد الفرسان 300 فارس.[346] واستقر بالقرب من معسكر الحصار عدد من الأسر بإذن الباشا كان أفرادها يشتغلون في أعمال الحرث والزراعة، ويقومون بأعمال السخرة لفائدته. وكان قائد المعسكر يقيم في الطرف الأعلى بعيدا عن رمي مدفعية الإسبان حيث شيد دارا لإقامته عرفت بالدار البيضاء وسماها الإسبان ب Serrallo أي السراي. وكان باشا تطوان وهو في نفس الوقت قائد المعسكر يتكلف بتزويد جيش العبيد بالأقوات التي يجلبها من تطوان، وتنقل إما عن طريق البحر على متن مراكب صغيرة أو برا بواسطة الدواب، وكان يملك بالمعسكر مطاحن يدوية وأفران لطهي الخبز.[347]

وقد عرف الحصار حدوث عدة مناوشات ومواجهات حربية، ففي عام 1700 شرع حاكم سبتة في إتمام بناء الإستحكامات والتوسع في حفر الخندق مما أحدث قلقا في نفوس المغاربة فعزموا على هدمه. وكان الإسبان قد احترسوا لذلك بنصب لغم تم نسفه لما هاجم المغاربة الحصن، وقد ألحق دماره إصابة برجل القائد علي بن عبد الله.[348] وعاود الإسبان أعمال البناء والحفر في عام 1701 فقاومهم المغاربة.

وفي أبريل 1714 أخبر الراهب فرنسيسكو دي بورنص المقيم في تطوان بأن المغاربة زادوا في تعزيزاتهم فاستقدموا إلى الميدان معلما مشهورا في صنع الألغام وأن لهم بتطوان مصنعا لصنع البنب والكور، وكما أخبر بتزايد عدد المقاتلين في المعسكر، وبأنهم أقاموا بطارية عند مدخل خندق القنطرة، وأخرى بموضع يدعى النحام قبالة حصن سنطياغو. وأن المغاربة باستخدامهم لهذه البطاريات فإنهم لن يضايقوا من هو بساحة المعركة فحسب، وإنما المدينة والميناء أيضا. وكانت البطارية التي أحدثت أكثر فزعا في صفوف الإسبان هي التي وضعها المغاربة فوق برج منفرد في الاستحكامات

---

346 - Guillermo Gustavino Gallent, Los comienzos del sitio de Ceuta, Tamuda, Ano II, Tetuan, 1954, semestre II, p.228 .

347 - Correa de Franca, Libro Tercero, Cap3°, p.203.

348 - Joseph Gayosso, Relaciones del reyno de Maquinez respectivos a su Estado y Govierno militar... frontera de Zeuta y estado del sitio de esta plaza, mayo 1720, B.N, Ms, folio5,V.

ذات مدفع 24 و40 رطلا من الرصاص خربت الحصن وفتحت فيه فجوات وأتلفت واجهته الوسطى دون أن تستطيع مدفعية الحامية الإسبانية إسكاتها.[349]

وفي 19 ماي 1720 أقلعت مراكب حربية إسبانية من سبتة في مهمة التعرف على المراكب الراسية بنهر مرتيل،وكذلك عدد القوات الموجودة هناك. وكان المغاربة يملكون إثنتين وعشرين قطعة مدفعية في مرتيل ينتظرون نقلها على متن سفن إنجليزية إلى ناحية سبتة. وأنهم لما رأوا تردد سفن سبتة على دخول النهر قد شيدوا عند مصبه في الناحية الغربية حصنا وضعوا فيه أربعة مدافع وحامية.[350] وجاء في تاريخ تطوان نقلا عن مخطوط المفضل أفيلال« وفي عام 1132 بنى القائد أحمد بن علي الباشا برج مرتيل بإذن مولانا إسماعيل، وعين للقنطار من الشمع الذي يخرج من المرسى أوقية ولقنطار من الجلد نصف أوقية وأمر أن يصرف ذلك على من يحرس في سبيل الله بالبرج المذكور».[351] وكان يعرف ببرج حلق الوادي بالمرسى على الشاطئ الأيسر من النهر. وكان على يساره في جهة سبتة برج رأس الطرف، وعن يمينه في جهة قبيلة بني سعيد برج أمسا.

وفي 27 ماي 1720 شن الإسبان هجوما مباغتا انطلاقا من سبتة على الخنادق وعلى الفرسان من ناحية الشاطئ، وأوقعوا بالمغاربة فضربوا في محلتهم« واستولوا عليها وعلى محلة القائد علي بن عبد الله ونهبوها وقتلوا وسبوا وحازوا شبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة أفراك»،[352] وقد دامت المعركة أربع ساعات وقتل فيها ثمانية ومائة من الإسبان وجرح نحو مائتين، بينما قتل من المغاربة حوالي مائتين، وكان من بينهم محمد بن علي أخو الباشا قائد ميدان الحصار.[353]

واستمر الحصار على سبتة بدون انقطاع إلى سنة 1727، ويعتبر أطول حصار في تاريخ المدن بالمغرب إذ دام زهاء ثلاثة وثلاثين عاما حتى اتهم السلطان القواد الذين على حصارها بأنهم لم ينصحوا في فتحها لئلا يتوجهوا لحصار البريجة « ويقع لهم البعد عن أهلهم وأولادهم ولا يحصل لهم اطمئنان وقد حصلت المشقة العظيمة من لزوم ذلك المحل»،[354] إذ كان من الصعب السيطرة على هذه المدينة المنفتحة من ناحية البحر أمام النجدات

---

[349] - Correa de Franca, Libro Cuarto, Cap.6°, p.226.

[350] - Ibidem, Cap.8°, p.236.

[351] داود،ج.2 ، ص.49 .

[352] - انظر أكنسوس، ص.155 ، الضعيف، ص.97 .

[353] - Correa de Franca, Libro Cuarto, Cap2°, p.242.

[354] - الزياني، **البستان الظريف**، ص.177 وابن الحاج، ج.6 ، ص.354 .

التي تأتيها من بر الجزيرة ومن معقل جبل طارق عندما كان لا يزال في حوزة الإسبان. وقد عزا كيوصو فشل الحصار وتدهور القوات المغربية لسببين رئيسيين: الأول وهو الفوضى التي كان يعرفها المخزن نفسه، فبالرغم من توفر الإرادة والعزيمة لدى السلطان فإن أوامره لا يتم تنفيذها بحرص أبدا، فعمل القوات وتحرك الجيش يحدث في فوضى وجلبة وبدون روية ولا تخطيط. والثاني هو الجشع الذي كان يهيمن على نفوس الحكام من باشوات وقواد الذين يغشون السلطان ويختلسون السكان كلما وجدوا لذلك سبيلا.[355]

وكان لاضطراب الوضع السياسي بالبلاد بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وقيام الثورة في تطوان على الباشا أحمد بن علي وما تلاه من فتنة وقتل، أن تضعضع موقف القوات المحاصرة لسبتة، وتردد بعض أهل القبائل المجاورة في ضرورة استمرارية هذا الحصار الذي كانوا يرونه غير مفيد بالنسبة إليهم من الناحية الإقتصادية، وهكذا استغل بعضهم فرصة توقف المناوشات للتقدم نحو سبتة في 4 غشت 1727 في نحو ثلاثة وأربعين رجلا مدججين بالسلاح وطالبين الصلح والمهادنة حتى ناحية الفنيدق. وبعد بضعة أيام قدم أيضا نحو مائتي مغربي يتزعهم قائدا واد الزرجون والكوف وهو يسوقون البقر ويحملون الدجاج ومواد أخرى لبيعها للنصارى، وزعموا أنهم يرغبون في إقامة تفاهم جيد مع الإسبان، وقد طلب أحد شيوخهم ويدعى محمد أركاز من حاكم سبتة أن يعين موضعا آمنا له ولمرافقيه حتى يزودوه بالأخبار عما يجري بداخل البلاد.[356] وقد انتشر خبر هذا العميل بين السكان مما اضطره إلى اللجوء مع أسرته إلى سبتة طلبا لحماية العاهل الإسباني، وأطلعهم على المكان الذي خبأ فيه الباشا المدافع والمهارس التي استعملها وقت الحصار. وأعيد الحصار في غشت 1732 بتحريض من الهولندي دوكي دي يبيردا المقيم في تطوان، وكان قد وعد السلطان بالإستيلاء على سبتة خلال ستة أشهر، وكان ينتظر قدوم نحو من عشرين تقنيا إنجليزيا وهولنديا، وكما كان تحت إمرته هو والباشا ثلاثة وثلاثون مدفعا وعشرة ألف محارب.[357] وفي رسالة بعثها حاكم سبتة إلى حاكم قادس مؤرخة في 23 غشت أخبره بأن المغاربة لم تصلهم الإمدادات البشرية ما عدا وصول مائة رجل وأنهم لم يستقدموا المدفعية ولا المهارس. وأنه استخبر بواسطة أحد

---

[355] - Gayosso, Op.Cit, folio 12 r.

[356] - Correa de Franca, libro quinto, Cap.8°, p.273.

[357] - De la veronne, sources françaises... Arch. Nat, Guerre Al 2688, piece 146.

عملائه بأن السلطان (مولاي عبد الله) عرض على القائد علي (إسلامي أصله من إشبيلية خلف الباشا في المعسكر) أن يرسل إليه العبيد لتقوية الجيش المرابط، إلا أنهم رفضوا الذهاب إلى الميدان، وكان ذلك سبب مقتل رؤسائهم.[358]

وشرع المغاربة في بداية أكتوبر بإطلاق النار بكثافة دون أن يقدموا على مهاجمة المعقل، وبينما كان الإسبانيون يتلقون الإمدادات بواسطة السفن الفرنسية التي قامت بنقل المدفعية والعتاد نحو سبتة. وحسب بعض المعلومات فإن عدد القوات المغربية المرابطة لم يتعد ستة آلاف وقطعتين مدفعيتين، ولكنهم كانوا ينتظرون نحوا من أربعة وعشرين قطعة مدفعية اخرى فضلا عن فرق عسكرية وعتاد حربي. وقد باغتتهم القوات الاسبانية بغارة يوم 17 أكتوبر 1732، فأرغمتهم على إخلاء مواقعهم واللجوء نحو الجبل، واستولى الإسبان على أفراك وقاموا بتسوية الخنادق وهدم البناءات وإحراق الأكواخ.[359] ومما لا شك فيه أن هذا الفشل أغاظ السلطان كثيرا إلى حد أنه أرسل في نوفمبر 1732 جيشا لجباية الضرائب من السكان المجاورين لسبتة، لكنهم رفضوا أداءها ودحروا الجيش القادم من مكناس. والواقع أن معظم أفراد الجيش المرابط الذي كان يتم استبدالهم بآخرين والذين تحولت هذه السخرة لديهم إلى عبء ثقيل تتحمله كواهلهم بنفاد صبر، كانوا في حالة يأس شديد لكونهم لم تصلهم الإمدادات البشرية والحربية، ولا المؤن والأقوات التي وعدهم بها الباشا.

وعاود المغاربة حصارهم لسبتة في يناير 1734 بعد مجئ الإمدادات وضيقوا الخناق عليها، وقاموا بوضع سرية مدفعية أمامها مكونة من ستة مدافع تكلف بها مقدم المدفعية براوس ألمان رفيق دوق دي ريبيردا.[360]

وقد أصبحت مسألة حصار سبتة تتراوح بين مد وجزر، وخضعت لتأثير عوامل مختلفة تفاعلت بقوة مع طول مدد الحصار إلى حد أن أمسى المتقابلون في حالة الاستنفار أعداء، وفي حالة الهدنة أصدقاء.

وهكذا، فإن المبادلات لم تفتأ قائمة بين الإسبان الموجودين في سبتة وبين المغاربة المحاصرين لهم في ميدان المواجهة،فمنذ سنة 1742 كان الباشا أحمد بن علي قد تقدم خطوة نحو تحقيق هدنة معهم مبنية على اتفاق ضمني

---

358 - Jose Maria Marquez de Prado, Historia de la plaza de Ceuta, Madrid. 1859, p.199.

359 - Journal de Verdum ou Journal Historique sur les matieres du temps, janvier 1733, pp.30-35

360 - De la veronne, sources françaises.. Arch.Nat. affaires étrangéres, B1806 fol.191

تم من خلاله رسم المناطق التي لن يتعرض فيها سكان سبتة للمضايقة، ونفس الأمر بالنسبة لأتباعه. وهكذا شرع الإسبان يعبرون نحو الشواطئ المغربية بقوارب صيدهم ويرمون شباكهم، ويتلقون المساعدة من السكان، فكانوا يتواصلون فيما بينهم كما لو لم تكن بينهم حرب أبدا، وكما خرج الرعاة بقطعانهم إلى أن بلغوا الخنادق. ولم يتوقف هذا النشاط إلا في سنة 1743 بسبب انتشار الوباء، مما جعل السلطات المحلية في سبتة تفرض الحجر الصحي في صيف نفس العام.[361] وقد شهدت هذه السنة إنهزام الباشا أحمد بن علي الذي حارب السلطان مولاي عبد الله، وتشتت أفراد جيشه وفرار أبرز قواد عسكره نحو سبتة في غشت 1743، ومن بينهم أخوه البادسي الذي تبعه عدد من القواد الآخرين بخيولهم وأمتعتهم ومعهم النساء والأطفال والخدم، واستجاروا بالماركيز حاكم سبتة الذي منحهم حمايته، إلا أنه منعهم من ولوج المدينة خوفا من تسرب العدوى.[362] وفي سنة 1747 عزم المستضيء على محاصرة مدينة تطوان، وأرسل إلى حاكم سبتة مبعوثا عنه في طلب البنب ومهراسين لضرب المدينة، ومقابل ذلك وعد بتقديم عدة تنازلات لفائدة الإسبان.

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن قضية حصار سبتة واسترجاعها إلى حدود منتصف القرن الثامن عشر، تحكمت فيها مؤثرات ظرفية تمثلت في عوامل اقتصادية كانت قائمة منذ بداية الحصار واستفادت منها سائر الأطراف الموجودة في المنطقة، وعوامل سياسية عرف الحكام الإسبان كيف يستغلونها سواء على مستوى استقطاب عملاء لهم من بين المغاربة وإغرائهم ماديا، أو على مستوى الصراعات الداخلية كالنزاع بين أهل تطوان والباشا أحمد بن علي، وبينهم وبين المستضيء، وبين الباشا والسلطان مولاي عبد الله.

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد اقترب من حدود سبتة لما كان خليفة لوالده بمراكش، وكان غرضه من ذلك هو الوقوف على تحصيناتها الدفاعية واختبار طريقة مهاجمتها. وقد شن المغاربة يوم 23 ماي 1757 هجوما مباغتا وخاطفا على المدافعين عن المعقل تم فيه إطلاق نار من بنادق نحو من خمسمائة رجل من المشاة والفرسان، فردت عليهم مدافع الحصن بشدة.[363] وفي عام 1758 حمل حشد من المجاهدين بقوة على تحصينات المدينة مما دفع الحامية الإسبانية إلى طلب النجدات من الخزيرات، إلا أن

---

[361] - Correa de Franca, libro sexto, cap.1°, p.308.
[362] - Ibidem, cap.2°, p.311.
[363] - Marquez de Prado, Op.Cit,p.212.

المهاجمين ما لبثوا أن عادوا أدراجهم.[364] وأمام فشل هذه الهجومات فإن السلطان قرر النهوض إلى سبتة للتحقق بنفسه من منعتها وحصانتها وذلك سنة 1766 « وأمر العساكر بإخراج حضرونا من البارود فرد عليه الكفار حاضرونا بالمدافع والكور ... فتعجب السلطان من ذلك وما كان قصده بتلك الحركة إلا الوقوف على سبتة وأن يطلع على كنه أمرها فيها أو ييأس منها، فيئس منها وقطع أمله من منازلتها».[365] وكان السلطان قد صرح بيأسه من استرجاعها وصرف نظره عنها بالرغم من توفر المال وذلك لكاتبه أبي القاسم الزياني:« ... سألني (السلطان) يوما فقال لي: ما يقول الناس في هذا المال الذي وجهته للجهاد. فقلت: يقولون لو صرفته في الجهاد بالغرب كان أولى. فضحك وقال: وأي جهاد في غربنا! قلت سبتة ومليلية وبادس والنكور. قال: لا فائدة من عمارة تلك القرى الثلاثة. نعم سبتة هي واسطة أرض المغرب ولكن لا يحاربها إلا أحمق أو جاهل، لا ينفع فيها حرب ولا ينشأ عنها إلا السبة للإسلام، فالإعراض عنها أولى، وذلك المال الذي وجهنا للسلطان العثماني... أولى من صرفه بمغربنا، وبقائه عندنا عرضة للتلف، فوالله لا يصرف بعدنا إلا في المحرمات...».[366]

لقد تيقن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأن مشاريعه حول استرجاع المواقع المحتلة من طرف الإسبان والبرتغال تحتاج إلى نضج حربي كبير والتوفر على أسلحة ثقيلة، وأن يصنع ذلك في المغرب ويتعلمه أهله، فأرسل سفارة إلى السلطان العثماني عام 1766 وجه فيها الحاج عبد الكريم راغون التطواني بهدية عظيمة.وفي العام الموالي رجع السفير المذكور بهدية« هي مركب موسوق بالمدافع والمهاريز والكور والبمب.. ووجه معلمي البمب لتطوان فكانوا يفرغون فيها البمبة من قنطارين...».[367] وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد قام بترميم مصنع السلاح الثقيل المتروك في تطوان في أواخر 1767، وتعاقد من أجل ذلك مع التقنيين الأتراك الذين قاموا بصنع سلاح ثقيل من معدن البرونز بجعل قوالب للبمب وأخرى للمدافع.[368] وكان انطباع السلطان لدى مشاهدته للعينات أو النماذج الأولى من هذه الأسلحة

---

[364] - Lopez de Ayala, Historia de Gibraltar, Madrid, 1782,p.364.

[365] - أكنسوس، مصدر سابق، ص.218.

[366] الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية، 1967، ص.132 .

[367] - أكنسوس، ص.230 .

[368] - A.H.N, Estado, leg .4351. (رسالة نائب القنصل الاسباني مؤرخة بتطوان في 12 يناير 1768)

جيدا، لأنه حسب الإستخبارات الإسبانية كان ينتظر في تطوان وصول مائة من الإبل محملة بالبرونز لصنع ستين مهرازا واستكمال صنع ستمائة مدفع كان السلطان قد أمر بصنعهم من أجل تجهيز جميع القلاع والحصون بالبلاد.[369] وسعى السلطان إلى الإستفادة من الكميات الهائلة لحطام المدافع المتوفرة بالبلاد، ولهذا الغرض طلب من العاهل الإسباني أن يرسل مراكبه لنقل « فلذات المدافع » من مختلف المراسي المغربية إلى تطوان لإعادة صهرها من جديد. وقد استمرت « دار البمبة » قائمة بمدينة تطوان رغم تراجع السلطان المذكور عن مشاريعه لتشييد مصنع السلاح والترسانة البحرية بسبب كثرة المصاريف التي يتطلبها ذلك، وقد أبطل عملها السلطان عبد الرحمن بن هشام.

3 – النشاط البحري والتجاري :

أولت الإسطوغرافيا المغربية إهتماما ضئيلا بالعلاقات التجارية مع البلدان الأوربية بسبب الموقف الذي اتخذه الفقهاء والمعادي لنمو النشاط التجاري مع الكفار، وقد تعرضت كتب النوازل لحكم المسلمين الذين يترددون على الأعداء قصد المعاملة التجارية دون غيرها، ولفئة الذين ينقلون لهم أخبار المسلمين. وقد تناول الفقهاء طبيعة العلاقات التجارية بين المسلمين والحربيين، ورأى الجمهور جواز التبادل التجاري بين الطرفين بشروط وقيود على السلع التي يتم وسقها أو استيرادها. وهذه العداوة التقليدية ذات أصول تعود إلى العصر الوسيط، والتي كانت تعارض بين البلدان الإسلامية المتوسطة من جهة والدول الإيبيرية المسيحية من جهة أخرى، أدت إلى فرض سلسلة من الممنوعات والمحظورات صدرت عن عواهل الجانبين وعن البابوية، وكانت غاياتها هي إبطال التجارة مع القوى «الكافرة» حتى لا تتمكن من التزود بالمواد الستراتيجية. إلا أنه بالرغم من هذه التدابير فإن الواقع اليومي كان يقدم صورة مغايرة لما كان يسعى إليه رجال الدين، ويتمثل في تواجد النصارى من تجار وقناصل ورابنة وبحارة بالسواحل المغربية للمفاوضة بحرية تامة.

3.1 – أهمية تطوان في المبادلات البحرية المغربية :

مثلت مدينة تطوان دور وسيط تجاري بين المغرب وأوربا، وكذلك بينه وبين الشرق الأدنى، دون أن نغفل دورها أيضا لردح من الزمن في العلاقات بين إفريقيا جنوب الصحراء والعالم المتوسطي حيث أنها شكلت المنفذ الوحيد

---

[369] - A.H.N, Estado, leg.4311. (رسالة نائب القنصل بالعرائش مؤرخة في 25 نوفمبر 1768)

للمغرب الشمالي. وقيام الحركة التجارية البحرية مع العوالم المذكورة كان واقعا جليا، ولم يكن العداء بإصرار بين المسلمين والمسيحيين، ولا الممنوعات الظرفية للتبادل، أو الخوف من عدوى الوباء والطاعون أسبابا كافية لإيقاف هذا التيار التجاري أو إبطاله.

وفي أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الذي يليه لم تكن تنشط سوى أربعة مراسي وهي سلا وتطوان وأكادير وآسفي، وقد مثلت جميعها مراسي إقليمية ووطنية ودولية. وبالنسبة لمرسى تطوان فإن مجموعة من المعطيات الجيو- سياسية تفسر تقدمه في القرن السابع عشر والثلث الأول من القرن الثامن عشر، فالإحتلالات الإيبيرية والإنجليزية على طول الساحل الشمالي للمغرب إنطلاقا من مليلية حتى المهدية جعلت منه المرسى الوحيد لسائر المنطقة الشمالية إلى جانب مرسى سلا، وفي نفس الوقت مرفأ بحريا رئيسيا لعاصمتي الغرب مكناس وفاس، بالإضافة إلى تمتع المدينة بنوع من الإستقلالية عن السلطة المركزية في فترات متعاقبة، وكان من مظاهر ذلك أن أصبح مرسى تطوان شبه الوحيد المؤهل لاستقبال السفن الواردة من الخارج. وهذه الوضعية المتميزة مكنت المدينة من استقطاب نشاط بحري وتجاري رائع تحدى تواضع مرساها وضعف نهرها، ولكنه اتسم باتساع دائرة مبادلاتها وإشعاع نشاط مرفئها. وهذه الخصائص تتضح عبر الروابط الخارجية والإجتذاب نحو الداخل، فالمدارات المتعددة التي تتبعها المراكب والسلع تصل حتى أمستردام ثم الإسكندرية، ومن ليفورنة إلى قادس. وكما يتجلى إشعاعها في اتجاه الداخل بواسطة تناوب القوافل في اتجاه فاس أو في اتجاه المشرق أو إفرقيا جنوب الصحراء.

وإن النشاط البحري بين مرسى تطوان والموانئ الأوربية والشرقية كان جاريا بشكل كامل منذ العقود الأخيرة من القرن السابع عشر سواء عن طريق التجارة المباشرة أو عبر المراسي وأساطيل البلدان الأخرى. وعند حديثنا عن تطور الإقتصاد البحري لتطوان في القرن الثامن عشر نجد أمرين يجلبان إنتباهنا بشكل قوي: الأول هو الدور الرئيسي الذي لعبته تطوان في المبادلات البحرية المغربية، وخاصة في الفترة التي تزامنت مع المجهود الضخم الذي بذله السلطان مولاي إسماعيل لاسترجاع الثغور والمواقع المحتلة كالمعمورة وطنجة والعرائش، بالإضافة إلى محاصرته لمعقل سبتة لمدة تنيف عن الثلاثين سنة، وكان هذا المجهود يتطلب توفير السلاح والذخيرة والبارود، وكان على تطوان أن تسعى في طلب ذلك العتاد ثم توجيهه، وهذا تحد ثان تمكنت من مجابهته بسبب رسوخ التقاليد التجارية بها،

ولكون المراسي المسترجعة ظلت جد مخربة. والأمر الثاني هو ارتقاء تطوان على منافسيها في الساحل الأطلنطي المغربي وأخذها للمرتبة الثانية بعد سلا، بل وأحيانا المرتبة الأولى في تصنيف المراسي المغربية خلال النصف الأول من القرن المعني.

- **مرسى تطوان إقليمي وجهوي يصل جميع مناطق الريف.** مارست مدينة تطوان وظيفة عاصمة جهوية بدون منازع، ويعود الفضل في ذلك إلى غياب منافسين وأيضا إلى خصوصياتها الذاتية، فكان يصلها عدد من المراكب الصغيرة ذات حمولة تتراوح ما بين 8 إلى 10 أطنان، وتستعمل هذه المراكب بعض المرافئ الصغرى الموجودة على طول المسافة بين المدينة ومدرجات الساحل الريفي المتوسطي. والمساحلة بين المراسي المتوسطية المغربية اقتصرت في الواقع على مجموعة قليلة من المرافئ الصغرى، وهي مواقع كانت تستخدم لأجل شحن وإفراغ البضائع مثل غصاصة والجبهة وترغة، وكانت تطوان تتزود منها بالمواد الأولية وخام الحرير وقضبان الحديد والخشب وجلد الماعز، وفي نفس الوقت توسق لها مواد مصنعة كالنسيج الصوفي والقطني والبلاغي.[370]

- **مرسى تطوان مرفأ وطني.** لأنه المرسى الأساسي بالنسبة لكل من مدينتي فاس ومكناس، وشكل في غالب الأحيان منطلق طريق السفراء والبعثات الأجنبية نحو عاصمة المخزن، والمرفأ المفضل لدى الرهبان الإسبان وغيرهم الذين قدموا في عمليات افتكاك الأسارى النصارى.

- **وهو مرفأ دولي.** لأنه تنطلق منه الطرق في اتجاه الداخل عبر مراكش أو تافيلالت نحو الصحراء الكبرى وإليه تعود. وله صلة بكثير من المرافئ المتوسطية التي تقوم بدور إعادة التصدير،والتي تصلح لهذا النوع من التجارة ذات الإبدالات المألوفة. وكما كانت لتطوان روابط أكثر انتظاما مع الجزائر العثمانية ومع الشرق العربي، فمنذ أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الذي تلاه اعتبرت أهم مرسى يبحر منه الحجاج الذين يفدون من سائر أنحاء البلاد. وشكلت محطة انطلاق ما سمي إصطلاحا « قوافل المراكب » التي تنتقل بين مرفأ وآخر، وكان ذلك من اختصاص البحارة الراجوزيين الذين كان يردون على تطوان فيحملون منها البضائع نحو الجزائر، ومن ثمة إلى طرابلس فالإسكندرية إلى أن يصلوا مراسي الشام، وتستأنف هذه السفن الجوالة نشاطها عند العودة بحثا عن السلع.[371] ومعنى هذا أن معظم

---

[370] - T.R. Cuevas, Op. Cit, p.86.

[371] - J.L. Miége, Tetouan à travers les siécles, p.16.

المبادلات كانت تأتي من التجارة الدائرية والتي تنتهي في نقطة الإنطلاق، إذ كانت التجارة تتبع خطا دائريا ينطلق من تطوان نحو الجزائر، ومنها إلى ليفورنة فمرسيليا ثم قادس، وهذه مواقع الإبدال أو إعادة التوزيع.

3.1.1 - المتاجرة مع أوربا :

أ- الاتجاهات والمصادر:

شكلت التجارة المباشرة قسما من مجموع المبادلات بين المغرب وأوربا، إلا أن الموانع التي عرقلت التطور الحر للتبادل التجاري جعلت التجارة المباشرة تفسح المجال أمام المتاجرة عبر مرافئ الإبدال أو إعادة التصدير كمرسيليا وليفورنة وقادس وجبل طارق، وهذه الموانئ كانت عبارة عن أرصفة و «إسكالات» حقيقية موزعة للبضائع. وقد نما دور الوساطة الذي قامت به الموانئ المذكورة في القرن الثامن عشر بفضل التشريع الصحي بعد تفشي طاعون مرسيليا عام 1720، بحيث تم الشروع في وضع سلسلة من التدابير في الموانئ الأوربية المؤهلة للقيام بفرض الحجر الصحي على السلع القادمة من البلدان الإسلامية.

* ولعب ميناء **قادس** دورا كثير الأهمية في الملاحة العامة للمغرب، وبالخصوص ملاحة تطوان في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، فقادس مرفأ حر وموقع تجاري رئيسي لجنوب أوربا، وكل التجارة تقوم على عملة دولية ومتداولة وهي البسيطة الإسبانية. ولما كان الملوك الإسبان يحظرون المتاجرة مع المغرب باعتبار المبدأ الديني، فإنهم أفسحوا المجال أمام التجار الفرنسيين ليراقبوا هذا النشاط انطلاقا من قادس. وكانت فرنسا بدورها قد عزمت على حظر المتاجرة مع المغرب سنة 1718، فبادر قنصلها في قادس وبدعم من التجار الفرنسيين بها إلى إخطار حكومته بالأضرار الخطيرة التي ستلحق بالتجارة الفرنسية إذا ما طبق هذا الإجراء.[372] وقد نشطت في هذه الفترة تجارة التهريب نحو المراسي المغربية مما دفع السلطات الإسبانية إلى فرض ضريبة «التهريب» بقيمة 10% تؤدى على البضائع الواردة من بلاد المسلمين.[373] وأصبح هذا النشاط مشروعا من قبل نظام مرافئ الإيداع حيث كانت السلع توزع ثانية بواسطة مراكب صغيرة كالفلائك والطراطن والزوارق، وهي أكثر قدرة على اختراق

---

[372] - Jacques Caillé, Une "avanie" au Maroc en 1716, p.342.

[373] - Martin Corrales, El Comercio con "los enemigos de la fe ", p.115.

الأمواج بالمراسي المغربية النهرية كمرسى تطوان، وتكون خسارتها قليلة في حالة غرق المركب أو أسره.

* واهتمت التجارة **المرسيلية** بالمغرب مبكرا وبالخصوص ناحية تطوان، فالتردد على هذا المرسى كان يجنبها مخاطر المرور عبر مضيق جبل طارق وخاصة في فترات التوتر مع إنجلترا. وأنشئ ميناء مرسيليا في موقع إستراتيجي في طريق التجارة بين الشرق والغرب، وكما كان لموقعه بالقرب من إسبانيا وبالخصوص منطقة كاطالونيا أن أمسى مؤهلا للعب دور رئيسي في المبادلات الإسبانية- المغربية. ولأجل القيام بهذه المهمة فإن مرسيليا كانت تحتاج إلى الفضة الأمريكية المسكوكة للتمكن من الحصول على منتجات البلدان الإسلامية، وقد نافستها موانئ أخرى في عملية إعادة توزيع المنتجات الواردة من الشرق ومن شمال إفريقيا، ومن أبرزها ميناء ليفورنة الحر الذي أسس في القرن السابع عشر.[374]

* يعد ميناء **ليفورنة** القطب الثاني للتجارة غير المباشرة والممتدة للمراسي الأوربية الكبرى مع تطوان، إنه بالأساس مرفأ لإعادة توزيع السلع وأحد أكبر المستودعات بالبحر الأبيض المتوسط، ولعب نفس الدور الذي قامت به قادس بالنسبة للمحيط الأطلنطي والغرب. وقد سمحت السلطة القضائية في ليفورنة لليهود المطرودين من إسبانيا بحق الإقامة، فانتظمت بها جالية يهودية مهمة كانت لها علاقات مع باقي الجاليات اليهودية الموزعة عبر حوض البحر المتوسط بحكم روابط القرابة، فكان يهود ليفورنة يأتون إلى تطوان وخاصة في أواخر القرن السابع عشر بصفتهم أرباب سفن أو تجارا، وكانت عمليات التبادل مع أبناء جلدتهم تتم بواسطة نظام التعويض.[375]

* ويضاف إلى هذه المرافئ الثلاثة الكبرى مرفأ **راجوز**♦ باعتباره أحد المراكز البحرية الرئيسية في الأدرياتيكي، وقد تخصص البحارة الراجوزيون

---

[374] - Paul Masson, Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque, p.221.

[375] - J.L Miége, Les activités maritimes et commerciales de Tétouan (XVIIIe-XIXe siécles) conférence le 17 avril 1992.

♦ راكوزة أو دوبروفنيك مدينة قديمة محصنة تقع على ساحل البحر الأدرياتيكي جنوبي دالماسيا. وأصبحت مدينة تجارية ضخمة على ساحل البحر يؤمها التجار والسفن من مختلف بلدان المعمور. وكانت لجمهورية دوبروفنيك علاقات دبلوماسية وتجارية مع المغرب في القرن الثامن عشر وخاصة في عهد حكم السلاطين الثلاثة سيدي محمد بن عبد الله ومولاي اليزيد ومولاي سليمان.

في نوع من الملاحة سيكون له دور مهم في تطوان وهو ما عرف اصطلاحا بـــ «ملاحة القوافل» أو «ملاحة تحت الطلب» من غير أن يكون لها خط سير محدد أو معلوم، فالمراكب تنتقل بين مرسى وآخر، فتأخذ البضائع من تطوان وتحملها إلى وهران والجزائر، ومنها تقوم بجولة في البحر المتوسط، فتتبادل الحمولة من مرفأ إلى آخر، وامتد بذلك النشاط إشعاع مدينة راجوز وربط مدينة تطوان بغالبية الموانئ الكبرى بحوض المتوسط الشرقي. وقد حصل الراجوزيون بفضل نشاطهم على مكانة سامية في الملاحة المرتبطة بنقل الحجاج المغاربة على الخصوص، ووجدوا في مرسى تطوان المكان المناسب لرسو مراكبهم.

* الموانئ الإنجليزية **ماهون وجبل طارق.** تدعم الوجود البريطاني في جزيرة مينورقا وجبل طارق ابتداء من سلم «أوتريخت» وأيضا بسبب العلاقات الحسنة التي ربطتها بريطانيا مع المغرب، مما مهد لها للقيام بدور هام في التجارة خلال القرن الثامن عشر. وقد توطدت الإتصالات مع المغرب سنة 1705 حيث أصبحت تطوان ترسل الأقوات الطرية لحصن جبل طارق الذي أضحى يستخدم كموقع إبدال للمراكب الإنجليزية التي طردت من قادس بسبب حرب الوراثة. واستقر أول يهودي من تطوان بالمعقل سنة 1706 وهو ابراهام بنيدر الذي عمل لحساب الباشا علي الريفي، ثم تزايد عدد يهود تطوان وأصبحوا يملكون الدور التجارية. وتخوفت إسبانيا من تكاثر أعدادهم، فألحت على منعهم من الإقامة والسكنى في جبل طارق، وهو ما نص عليه أحد بنود إتفاق أوتريخت سنة 1713، إلا أن هذا الشرط لم ينفذ بالرغم من احتجاجات مدريد وقرارات الحكومة الإنجليزية التي ظلت شكلية فقط.[376]

ولم يتردد الإنجليز في استقطاب التجار الإسبان وجلبهم إلى جبل طارق وجزيرة ماهون، ومنحوهم حمايتهم بخصوص تعرضهم لأعمال القرصنة، وذلك بمقتضى بعض شروط معاهدة السلم والمتاجرة مع المغرب المبرمة سنة 1721، وللحاجة المتبادلة في إبقاء النشاط البحري مع جبل طارق باعتباره مخزنا للشمع والجلود، ومع ماهون كمخزن للقمح. وقد أتاح الوجود الإنجليزي بجبل طارق ليقوم هذا المعقل بصرف تجارة نشيطة تعتمد على وسق منتجات كالجلود والشمع ومواد أخرى تأتي من مرسى تطوان في اتجاه مختلف مراسي شبه جزيرة إيبريا وخاصة نحو كطالونيا. وبذلك تأتى

---

[376] Manuel Cavilla, Gibraltar, 1994, p.31.

للصخرة أن تلعب دورا بارزا في المبادلات المتوسطية وتعويض مرسيليا جزئيا في مهمة إعادة تصدير المنتجات المغربية.

وكانت قرارات الحظر الوقتية من السلطات الكاثوليكية بشأن المتاجرة مع شمال إفريقيا سنة 1720 و1721 قد استثنت مادة الشمع والنحاس المجلوب من المغرب، ولما كان الشمع يعد سلعة غالية فإن عملية وسقه كانت تتم في حصص صغيرة تنقلها مراكب مؤمنة، وتتكلف مدينة قادس بإعادة تصدير جزء من هذه البضاعة نحو الأسواق الأمريكية.[377]

ب - الصادرات والواردات :

قام الوسق على منتجات المنطقة من جلود وأصواف وخاصة مادة الشمع الذي عرفت تجارته رواجا كبيرا في قادس مثلما في مرسيليا، نظرا لكثرة الطلب عليه بسبب رخص ثمنه الأمر الذي أدى إلى قيام نشاط صناعي مهم. وكما شكلت الجلود المدبوغة وغير المدبوغة قسطا مهما في هذا النشاط التجاري، حيث أظهرت بعض التقارير أن مدينة قادس توصلت في بعض السنوات بمقدار مائة ألف قطعة من الجلد وردت مباشرة من المغرب أو عن طريق مرسيليا.[378] وتم أيضا وسق منتجات الصباغة وتثبيت الألوان اللازمة لصناعة النسيج والجلد مثل حجر الشب والنيلة والصمغ العربي، بالإضافة إلى رؤوس القطيع والشحوم والخشب وملح البارود والتنكول (أي النحاس القديم) الذي كان يشحن في الغالب من مرسى آسفي وسلا. وكما وسقت من مرسى تطوان منتجات وردت من أقصى الجنوب بشكل منتظم كالتمر وريش النعام والعاج. وإن تصدير هذه المواد يؤكد امتداد إشعاع نشاط مرسى تطوان الذي كان يعد بمثابة مرسى متقدم لكل من فاس ومكناس، وكان في نفس الوقت على صلة بشكل منتظم أيضا مع مرسى سلا سواء عن طريق البر أو البحر، إذ كانت حركة القوافل دائبة بين المدينتين، ولما يحول الموج أو يعرقل الرمل حركة السفن عند مصب نهر أبي رقراق، فإن السلع تنقل بحرا إلى مرسى تطوان ومنه تتم عملية الوسق. وكان يمنع وسق الحبوب والخيول وسائر الدواب ما عدا إن سلم في المقابل السلاح والبارود وغيره من العتاد الحربي.

وأما الواردات فتمثلت أساسا في المنتجات الصناعية الأوربية التي كانت ترد في الغالب من مرسيليا وقادس، وشملت المنسوجات والأقمشة الصوفية والرفيعة، وبهارات وعقاقير مختلفة الأنواع، والورق والحديد والرصاص،

---

377 - Martin Corrales, Op.Cit, p.289.

378 - Ibidem,p.63.

إضافة إلى الخردوات والبزازات كالسكاكين والمقصات والدبابيس والأقفال والمرايا وغيرها،[379] ومنتجات المستعمرات كالبن والسكر من البرازيل بالإضافة إلى الفضة الأمريكية التي كانت تصدرها إسبانيا، والتي كان يتم بها تسديد أثمان القمح وباقي الموسوقات، وكانت بعض المواد المصنعة تأتي إلى تطوان وتستعمل كقسط من المبلغ المؤدى عن افتكاك الأسرى.[380] وكما كان يتم إستيراد الحرير اليوناني والحرير الخام مما شهد على أهمية صناعة نسيج الحرير والطرز التي ظهرت في تطوان. وكل هذه المواد كان يؤدى عنها عشرة بالمائة كرسوم الصاكة بالإضافة إلى إثنين بالمائة يأخذها القنصل كرسوم إضافية. وكان يتم جلب الأسلحة وآلات الحرب الصالحة لتسليح القراصنة وتجهيزهم رغما عن مراقبة الكنيسة وحظر الملوك النصارى.

واتخذ التجار الأوربيون دورا تجارية لبيع سلعهم بالجملة للتجار المسلمين واليهود الذين يبعثونها بدورهم إلى شركائهم في كل من مكناس وفاس ومراكش، وينقل هؤلاء التجار قسطا مهما من السلع إلى مناطق نائية كتافيلالت ودرعة وتوات التي يجلبون منها التمر وريش النعام والنيلة والتبر المستورد من بلاد السودان.وكان العدد الأكبر من التجار المقيمين في تطوان عند مطلع القرن الثامن عشر من الفرنسيين حيث كانوا نحو العشرة، بالإضافة إلى دارين يونانيتين وإثنين من الأرمينيين المرتبطين بواسطة بالحماية الفرنسية، وقد استغني معظمهم من الغنائم التي يحصل عليها القراصنة في المراكب الأوربية، فيشترونها بأبخس الأثمان ويرسلونها إلى أوربا مرة ثانية محققين من الأرباح أربعة أضعاف، وخاصة البضائع المصدرة لأمريكا ولا رغبة للأهالي فيها. وكما استفاد هؤلاء التجار وقناصلهم أيضا من عمليات الفدية التي ترسل إليهم لافتكاك الأسرى، فاحتيالا منهم إذا سقط بعض أبناء الأعيان أو أشخاص أثرياء في حالة الأسر كتبوا إلى أهلهم ليتوصلوا بالفدية التي يطمعون فيها، ويعطوا الأوامر إلى شركائهم في عين المكان ليحولوا ذلك المال إلى بضائع يرسلونها إلى بلاد المغرب لدى وسائطهم المقيمين بسلا أو تطوان أو سائر الثغور البحرية التي يوجد فيها الأسرى، فيبيع هؤلاء الوسطاء تلك السلع ويشترون بثمنها أخرى

---

[379] ـ مويط، ص.144.

[380] - F. Braudel, Civilisation matérielle, économie et capitalisme, Paris, 1979, pp. 402-16.

يرسلونها إلى إسبانيا والبرتغال. وبينما هم يقومون بهذه التجارة المربحة يكتبون لشركائهم بفرنسا أنهم مجدون في افتكاك الأسرى.[381]

وسيعرف التواجد الفرنسي في تطوان تراجعا لأسباب متعددة منها حربهم ضد الإنجليز والهولنديين الذين أصبحوا أسياد المضيق، وأزمة تجارة قادس واستقرار الإنجليز بجبل طارق. وستشهد هذه الفترة أيضا أزمة في العلاقة بين التجار الفرنسيين والسلطة المحلية خصوصا بعد انتقال السلطة بالمدينة إلى يد الباشا أحمد بن علي الذي كان يظهر مودة كبيرة للإنجليز الذين استقر عدد من تجارهم بالمدينة وأسسوا قنصليتهم بها، وربطوا علاقات تجارية متينة مع الباشا المذكور ومع كبار التجار اليهود.

3.2 - النشاط البحري أو القرصنة:

إن ممارسة نشاط القرصنة كان أمرا مشروعا دوليا ومعترفا به في مجال المبادلات والعلاقات الدولية إلى حدود مؤتمر فيينا سنة 1815. ولم يفتأ أن صار «صناعة» بحرية في حوض البحر المتوسط.

وإذا كانت الإسطوغرافيا الإستعمارية لم توضح كما ينبغي وجود القرصنة الأوربية لاعتبارات سيكولوجية، وحاولت إلصاق القرصنة بالمسلمين عموما وبسكان شمال إفريقيا على الخصوص، فإنها ما إنفكت أن كانت واقعا مؤسفا شكل أساس المواجهة بين المسلمين والمسيحيين، فالمقت المميت نتيجة الحروب والمعارك البرية والبحرية بين الطرفين إستعمل في بداية القرن السادس عشر كحجة لدفع المتخاصمين نحو قرصنة شنيعة كانت تحركها أهداف مادية،وما لبثت أن تحولت إلى تجارة نشيطة بين ضفتي المتوسط.[382] ويمكننا أن نأخذ بعين الإعتبار أن نشأة ظاهرة القرصنة بالضفة الجنوبية لحوض المتوسط كانت نتيجة أزمة عرفتها بلدان الشمال الإفريقي من جراء المد الأوربي الذي بات يخنق إقتصادها بالتدرج.[383] وارتبط هذا النشاط البحري أو القرصنة بمبررات شتى: دينية وحربية وبأسباب تجارية، فأسر السفن يعني الإستيلاء على الثروات والمغانم وبالخصوص سبي الأسرى الذين يعتبرون الثروة الحقيقية والرهان الأساسي لهذا الصراع في البحر. والقراصنة في العرف ليسوا سوى محاربين يوجدون بشكل رسمي في إطار جيش نظامي عند معظم الأجناس، وعملهم يكون مشروعا إذا ما اقتصر

---

[381] - مويط، ص.140.

[382] - F.Braudel, La Méditerraneé et le Monde méditerranéen, p.694.

[383] - Abdllah Laroui, Histoire de Maghreb, un essai de synthése, Paris,1970, p.270, note 21.

على مهاجمة السفن الحربية أو التجارية التي تنتمي إلى أعداء بلدهم. وفضلا عن ذلك، فالقرصان أو المركب المخصص لهذا النشاط يلزمه إشهار راية البلد الذي أوكله، وكان يتم إيداع طلبات الحصول على جوازات المرور في مستودعات التجارة، وتسلم للقراصنة لكي لا يتم اعتقالهم أو مضايقتهم في البحر من قبل سفن الدولة التي منحتهم الترخيص، ويعرف اصطلاحا بـ « بسبورط »، ويسمح بتجهيز « سفينة حرب » أو القرصان، وهو بمثابة شهادة معترف بها بين الدول، وكان المعمول به أحيانا هو أن هذه الشهادة تقطع إلى نصفين، نصف يحتفظ به رايس القرصان، ويسلم النصف الآخر للقنصل.[384]

ولعبت مدينة تطوان دورا متميزا إلى جانب كل من مدينتي سلا والعرائش في مجال النشاط البحري القرصني والذي كان يمتد من الناحية الجغرافية في مراسي شمال المغرب، وكل هذه المدن الثلاث هي مرافئ مصبات الأنهار. وبالرغم من أن مرسى تطوان لم يتوفر على ترسانات كبيرة لبناء السفن أو تجهيزها بالسلاح كما كان الشأن بالنسبة لسلا، فإنه توفرت به أوراش لإصلاح السفن وصنعها أحيانا، وتزويدها بالمواد الضرورية. وكما اعتمد هذا النشاط كذلك على السفن التي يتم غنمها أو اقتناؤها من الخارج. وكانت مراكب قراصنة تطوان رغم صغر حجمها تترصد السفن الإسبانية بسبتة فتتسلل نحو المضيق لتهاجم السفن المساحلة والمراكب المبحرة في عرض سواحل الأندلس حتى وهران، بل وكانت تقوم أحيانا بغارات على القرى الإسبانية فتستولي على بعض الغنائم والأسرى. وكان أرباب هذه المراكب يخاطرون بأنفسهم أحيانا فيخترقون المضيق نحو المحيط الأطلنطي حيث كانوا غالبا ما يشتركون مع قراصنة سلا في اعتراض سبيل السفن الفرنسية الذاهبة نحو لشبونة أو جزر الآصور ومادييرة، وكما كانوا يعرقلون الملاحة في اتجاه جزر أمريكا وساحل غينيا.[385] وكان هؤلاء القراصنة يتخذون من بحيرة تهدارت ملجأ يحميهم من مطاردة السفن الأجنبية، وقد لعب هذا الموقع دور مرفأ ملحق لتطوان عندما كان الأمر يتعلق بالملاحة في اتجاه الغرب الأطلنطي، أو بقصد تموين مدينة القصر الكبير.[386]

---

[384] - J.L.Miége, Les activités maritimes et commerciales a Tetouan, p.12.

[385] - Paul Masson, Op.cit, p.206.

[386] - J.L.Miége, Consuls et négociants à Tetouan,1681-1727, Colloque : Tétouan au XVI et XVII siécles, 1996, p.111.

وشكل مرسى تطوان بدوره ملجأ للقراصنة الجزائريين والأتراك وغيرهم في الأوقات التي يكون فيها عبور المضيق غير مناسب أو عند التزود بالمؤن والأقوات، وكما كانت تجلب إليه الغنائم والأسرى التي يأتي بها قراصنة الجزائر في غالب الأحيان. وكان لأرباب هذا النشاط حراس يلازمون الأبراج القريبة من الشاطئ، فيعلمونهم كلما لاحت بعض السفن على الساحل وذلك بإيقاد نار في البروج وتسمى «الطالعات» بقصد أخذ السلاح والخروج إلى البحر.[387]

وقد استفاد من نشاط القرصنة كبار تجار المدينة من مسلمين ويهود، وكذلك الحكام عن طريق حصولهم على جزء من الغنائم التي يجلبها القراصنة، وبمشاركتهم فيه، فمثلا الباشا علي بن عبد الله الحمامي كان يملك غليونة وفر لها جوازات مرور أوربية، بينما كان هو يوزع جوازات مرور مغربية على أتباعه مقابل تمكينه من قسط هام من الأرباح. فكان بذلك لبعض الأهالي في تطوان خبرة في الميدان لا سيما وأنه في التطور العام للمغرب وحوض المتوسط نفسه، فقد سقطت سائر المراسي في يد النصارى من المعمورة إلى طنجة والعرائش وسبتة ولم يعد للمغرب من مرسى حقيقي إلا تطوان.

لقد احتد نشاط القرصنة والأسر بمضيق جبل طارق منذ سيطرة الهولنديين والإنجليز على الملاحة التجارية، واضطر الإنجليز منذ حلولهم بالصخرة إلى مهادنة المغرب وطلب وده لتأمين بقاء حاميتهم بها،فأرسلوا لهذا الغرض عدة بعثات إلى السلطان ومنها سفارة القبطان بادون الذي أبرم اتفاقية مع الباشا أحمد بن علي في تطوان عام 1714، إلا أن الإنجليز لم يوفوا بكل ما تعهدوا به، ونتيجة لذلك عاد القراصنة المغاربة إلى أسر السفن البريطانية واقتياد بحارتها، وبلغ عدد الأسرى في ماي 1716 خمسة وتسعين، وارتفع عددهم في غشت إلى مائة وخمسة وعشرين. وفي سنة 1720 أسر البحارة المغاربة عددا من السفن الإنجليزية ومن كانوا على متنها.[388] وهذا ما دفع العاهل البريطاني إلى بعث سفارة قادها شارل ستيوارت سنة 1721 وحمل معه هدية من أربعين ألف دوكة (نقد ذهبي بندقي). وكان القنصل هاتفيلد الذي فشل في حل شكل الأسرى الإنجليز قد بعث رسالة مؤرخة بتطوان في أول يوليو 1720 يقول فيها إن المغاربة حشدوا جميع

---

[387] - مويط، ص.77.

[388] - Dominique Meunier, p.258.

قواتهم بالعرائش، وبإمكانهم تجميع أربعين سفينة تشكل تهديدا خطيرا للسفن التجارية الأوربية.[389]

وبالرغم من إبرام معاهدات الصلح والمهادنة بين المغرب وبريطانيا أو تجديدها في سنوات 1721 و1728 و1729، فإن قراصنة سلا وتطوان استمروا في ملاحقة السفن الإنجليزية وتفتيشها، مما دفع السلطات البريطانية إلى تجهيز عمارة كانت ترسو دائما في جبل طارق لأجل التصدي للقراصين ومهاجمتها عند المراسي المغربية. وكانت هذه الوضعية تربك كثيرا العلاقات السياسية والتجارية مع القوى الأوربية.

وبالرغم من أن الإضطرابات والصراعات الداخلية في الفترة التي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل قد قلصت من حجم وقوة نشاط القراصنة، وأثرت بشكل واضح على الصيت الحربي والبحري للمدينة، فإن القراصنة المغاربة ظلوا يضايقون السفن البزركانية الأوربية، بل نجد أن بعض السلاطين كانوا يلحون على استمرار هذا النشاط وبقائه لما قد يجنون منه من مداخيل ومغانم، وهكذا أمر السلطان عبد المالك بن إسماعيل في غشت 1728 القراصنة بجلب جميع المراكب التي يستولون عليها.[390] وفي سنة 1733 استاء السلطان مولاي عبد الله من عامل سلا الذي لم يعمل على خروج القراصنة، فأمر بجرجرته ورميه في السجن وتكبيل رياس القراصنة بالأغلال، وأرسل عاملا آخر لأخذ كل التدابير اللازمة لإبحار القراصين.[391] واغتاظ نفس السلطان من إحراق الإنجليز لقرصانين التابعين للرايس عواد والرايس ابن عائشة، فأعطى في يوليو 1734 المال للرايس النجار لأجل تسليح مركبه وكذلك للرايس أحمد وإثنين آخرين، وأعطى ألف دوكة للرايس قنديل لكي يصنع مركبا جديدا. وقد هدد السلطان جميع أولئك الرياس بالقتل إذا ما تأخروا عن الإبحار.[392] ولأجل تجاوز التوتر في العلاقة بين البلدين، فإنه تم إبرام إتفاق جديد في 15 دجنبر 1734 (19 رجب 1147) شجع أهالي سلا وتطوان على تسليح عدة مراكب للقيام بنشاط القرصنة في المضيق إذ لم يعودوا مهددين من طرف الأسطول الإنجليزي.

وسيعرف هذا النشاط تحولا جذريا عند تولية عرش المغرب السلطان سيدي محمد بن عبد الله. فلما كان سيدي محمد خليفة لأبيه بمراكش فإنه أبرم

---

[389] - Ibidem, p.260.
[390] - Ibidem, p.299.
[391] - De la veronne, Sources françaises... Document n° 53, Cadiz 15/9/1733.
[392] - Ibidem, Arch.Nat- Affaires étrangéres, B1830, folio 232.

في 16 شعبان 18/1166 يونيو 1753 معاهدة صلح ومتاجرة مع الدانمارك، ونص بندها الثامن على الاحترام المتبادل لسفن البلدين، والتزام الجانبين بتزويد مراكبهم بالجوازات التي تثبت هويتهم. ولم تكن هذه الترتيبات في بداية الأمر تعني سوى المراكب التابعة لمرسى آسفي وأكادير اللذين كانا تحت السيطرة المباشرة للخليفة، ثم ما لبثت أن شملت في معاهدات لاحقة مراسي الرباط- سلا في 27 ربيع الأول 1167/ 21 فبراير 1754، وتطوان والعرائش ثم المعمورة في 24 شعبان 1169 / 24 مارس 1756 .[393] وإن الإتفاق المذكور كان يحمل في طياته مؤشرات الإمتداد إلى باقي البلدان الأوربية، وهذا الإجراء كان يعني تفكيك الأنشطة القرصانية بمراكز مصبات الأنهار. إلا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لم يكن يرغب في وضع حد لميوله الملاحية، فمثل هذا المشروع كان بعيد جدا عن تفكيره، وإنما كان يرغب في تنظيم بحرية جديدة تكون تحت مراقبته المطلقة لأنها كانت توفر للمخزن موردا أساسيا وتمنحه قوة تفاوضية مع الأجناس، لذلك حولت القرصنة إلى مؤسسة رسمية، وصار القراصنة على عهده مجرد خدام للسلطان، وكان المخزن هو الذي يسهر على تجهيز السفن، وكما لم يعد البحارة أحرارا في تحركاتهم وإنما أصبحوا خاضعين لأوامر السلطان وتخطيطاته.[394]

إن بعض المؤلفين الفرنسيين ممن درسوا القرصنة المغربية مثل كيي ودومرفيل ودوسنيفال يتفقون في العموم في التأكيد على أن سيدي محمد بن عبد الله جدد البحرية السلاوية المتدهورة لأجل أهداف محددة تتلخص في تدعيم الجهاد البحري ضد المسيحيين. لكن الأكيد هو أن السلطان المذكور كان يرغب في الحصول على الوسائل الكفيلة لبناء إقتصاد قوي، فالفوضى والبؤس اللذان خضع لهما المغرب بسبب حروب وراثة العرش بعد موت السلطان مولاي إسماعيل كانت تقتضي ذلك. فإذن، الوسيلة العملية لإصلاح تلك الوضعية هي القرصنة. لكنه يجب الأخذ بعين الإعتبار بأن السلطان ربما لم يتمكن حينذاك من وسائل أخرى، فإذا لم يكن قد أرغم الأوربيين على

---

[393] - J.Caillé, Les accords internationaux du sultan Sidi Mohammad ben Abdellah (1757-1790), Tanger, 1960, p.150-157.

[394]- عبد المجيد قدوري، **سفراء في أوربا** (1610-1922) ، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995 ، ص.52.

التهيب من قراصنته، فإن الأوربيين بلا ريب سوف لن يعيروا الإهتمام المطلوب إزاءه. [395]

وكانت القوى الأوربية المذعورة من الأضرار التي ألحقتها القرصنة المغربية بالملاحة قد خططت لإرسال حملات شتى، ففي سنة 1748 تم اقتراح بخلق مملكة مسيحية بالمغرب تكون تحت حكم أحد أفراد أسرة ستيوارت، ووقع التخلي عن هذه الفكرة سنة 1750 لإفساح المجال أمام مخطط يقضي بالإستيلاء على طنجة وجعلها قاعدة للإنطلاق نحو السيطرة على المغرب بأسره. وهو مشروع روج له اليهودي المغربي الأصل يوسف بوزغلو الذي شارك في المفاوضات التي جرت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وسفير الدانمارك سنة 1753، وقد قدم هذا المشروع الإستعماري للسفير الفرنسي بالدانمارك سنة 1759. [396]

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله غداة توليه العرش عام 1757 قد نهض من مراكش، ولما وصل الرباط وجد رياس سلا قد غنموا سفينة من السويد فأعطى لكل منهم كسوة وسيفا محلى بالذهب وخنجرا ومكحلة، ووصل من عداهم من البحرية.[397] ثم انتقل إلى تطوان وتوجه منها نحو طنجة وأمر قائدها عبد الصادق بن أحمد بأن يوجه أخاه عبد الهادي ليقف على إنشاء الغلائط بتطوان.[398] وفي سنة 1760 أمر بإنشاء السفينة الكبيرة (فرطاكة) من طبقتين، وكانت في الأصل لأهل العدوتين فأخذها منهم السلطان ووجهها لجبل طارق لإصلاحها، وقد أنفق عليها نحو الأربعين قنطارا، وكانت تسمى المعونة ورايسها سلام الطرابلسي، وكان عدد بحريتها 330 ومدافعها النحاسية 54 .[399] وتزايد منذ ذلك نشاط القرصنة حيث تم أسر عدد من المراكب الأوربية ومن على متنها وغنم غنائم كثيرة، ومع حلول سنة 1763 تزايد عدد السفن الفرنسية التي غنمها القراصين المغاربة مما أقلق بشدة البلاط الفرنسي. وظهر في هذا الظرف اليهودي بوزغلو ليقدم خطته الجديدة لفرنسا بواسطة سفيرها بإنجلترا، وتقتضي الهجوم على مرسى أكادير الذي سيسمح احتلاله بالوثوب على مراكش والإستيلاء عليها، ومن ثمة إثارة

---

[395] - R.L.D, Transformacion de la pirateria marroqui en guerra del corso por el sultàn sidi Mohammed Ben Abdallah, Hespéris- Tamuda, X, 1969, p.50.

[396] - F.Charles- Roux, France et Afrique du Nord avant 1830, Paris , 1932, p.281.

[397] - ابن زيدان، ج.3، ص.159.

[398] - الزياني، **البستان الظريف**، ص.387.

[399] - الضعيف، ص.170 وابن زيدان، ج.3 ، ص.259.

ثورة داخلية تعم جميع البلاد.[400] وكان ظهور الأسطول الحربي الفرنسي على العدوتين في 11 ذي الحجة 1178 (1764) ولم يحصلوا على طائل، فقلعوا وانصرفوا لأخذ العرائش، وفي محرم عام 1179 (يونيو 1765) رموها بالكور والبومب إلى أن هدموها، ونزلوا في الفلك والقوارب ودخلوا المرسى فأحرقوا مراكب السلطان، فأطبق عليهم أهل الغرب « فإذا توسطوا للخروج في وسط الوادي ردهم الريح وإذا انحازوا للشطين رماهم المسلمون بالرصاص إلى أن استأصلوهم... وخالطوهم في الفلائك عوما وكانوا خمسة عشر فلوكة فيها ألف من العسكر أخذوا بين قتيل وجريح و أسير... وكل من أخذ أسيرا توجه به للسلطان فأعطاهم وكساهم..».[401] وشكل فشل هذه الحملة العسكرية هزيمة كبيرة ألحقها المغاربة بالفرنسيين، مما اضطر فرنسا إلى إبرام هدنة تم خلالها الإستعداد للوصول إلى صلح نهائي.[402]

وبعد وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله واعتلاء ولده اليزيد عرش البلاد فكرت إسبانيا في توجيه ضربة قوية للقرصنة المغربية في مضيق جبل طارق، ولم يكن ذلك بهدف تقليص نشاطها فحسب، وإنما للجم الإندفاعات الحربية للسلطان الجديد والتي ظهرت بالأساس في عزمه على محاصرة مدينة سبتة. وقد تم الشروع في الإعداد للعمل الحربي الذي كانت إسبانيا تنوي القيام به في أواسط سنة 1790، وكان القنصل العام لإسبانيا بالمغرب خوان منويل كنثالث سلمون قد وصل إلى طنجة في غشت من نفس العام وقد رافقه مهندس جاء لوضع الترتيبات الممهدة للمشروع والذي كان يقتضي: تعطيل نشاط القرصنة بناحية طنجة، ومحاولة سد مصب نهري مرتيل ولوكوس باعتبارهما قاعدتين للقرصنة المغربية.[403] إلا أن هذا المخطط لم يتم تنفيذه بالرغم من أن ملك إسبانيا أعلن الحرب على سلطان المغرب.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر لم يعد نشاط القرصنة بالنسبة لتطوان يحتل سوى مكانة ثانوية، فأسطوله تضاءل ولم يتجاوز ست غليونات، وهي مراكب صغيرة وغير مجهزة بشكل جيد بالسلاح، وكانت تنشط عادة بمضيق جبل طارق.[404] وما لبث رياس البحرية في تطوان أن توقفوا عن ممارسة نشاطهم بسبب مستجدات الظروف ومنها إبرام معاهدة 1799 بين المغرب

---

[400] - Charles- Roux, Op.Cit, p.287.

[401] - الزياني، **البستان الظريف**، ص.398 والضعيف ، ص.173.

[402] - J.Caillé, La treve franco-marocaine du 10 octobre 1765, Paris, 1959, p.378.

[403] - T.G.F, El Corso de Marruecos y el intento de su inutilizacion por Espana e fincs del siglo XVIII, Tamuda, ano IV, semestre I, Tetuan, 1956, p.199

[404] - Elie de Primaudic, Op.Cit, p.237.

وإسبانيا والتي تم بموجبها الشروع في القيام ببعض التدابير لأجل تسوية مشكل مصير الأسرى في حالة الحرب مع إسبانيا بطريقة مماثلة للتسوية التي تمت في أوربا. وقد عجل هذا الإجراء الرسمي بوضع حد لأعمال القرصنة، إضافة إلى أن تطور الأسلحة لدى الأمم الأوربية عرقل هذا النشاط تدريجيا إلى أن تلاشى.

3.3 - المظاهر العامة للنشاط البحري والتجاري :

إن الوصف السالف لمختلف الأنشطة البحرية والتجارية لمدينة تطوان يدل بما فيه الكفاية على أهميتها ومدى اتساع رقعة إشعاعها. إن مجال نفوذها كان يمتد إلى إفريقيا جنوب الصحراء عبر محطة ترحيل فاس ويغطي كل شمال البلاد. وأما في البحر فهو متوسطي يمتد من قادس إلى مرسيليا، ومن ليفورنة إلى الإسكندرية، ويصل بدرجة أقل إلى لشبونة ولندن وأمستردام. وإن تحليل عناصر النشاط التجاري والبحري يتيح وصف بنية المبادلات التطوانية خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر، وهذه البنية مع أقطابها المحركة موانئ الإيداع كقادس ومرسيليا وليفورنة وجبل طارق، ووكلائها الأوربيين والمغاربة تبدو كأنها قارة نسبيا ومؤثرة خلال عدة عقود. بيد أن هذا النشاط الذي عرفته تطوان سيطاله تحول بحسب تطور الظروف وتغيرها في إطار حركية عامة مطبوعة بعدة مراحل مرت من الإزدهار إلى التراجع الذي مهد لإنحطاط شبه كامل للنشاط البحري والتجاري. ومقاربة مختلف العوامل المساهمة في هذا التحول المعكوس تؤدي بنا إلى ملاحظة ثلاث مراحل متلاحقة زمنيا بحسب الفترة التاريخية التي تعنينا، وهي كالتالي:

- **مرحلة ازدهار النشاط**.كان مرسى تطوان في أواخر القرن السابع عشر المرسى الثاني في البلاد والمنافس لسلا، وقد مكث لمدة طويلة يتحكم في تجارة الغرب، وكان يؤمه سنويا نحو الخمسين سفينة في المتوسط، بل فاق العدد ستين أحيانا. وأصبحت تجارة المدينة مزدهرة أكثر من أي وقت مضى، وبلغت أوجها، بحيث قدرت تجارة الدور الفرنسية بأربعمائة ألف ليرة والدور الإنجليزية بمائة ألف ليرة سنة 1697، بالإضافة إلى الدور التجارية الهولندية واليونانية والأرمينية ويهود ليفورنة، وبذلك يفترض أن يكون مجموع هذه التجارة قد بلغ ما يناهز المليون ليرة وهو ما يمثل ربع المبادلات الخارجية للمغرب.[405] ولقد دامت فترة هذا النشاط المزدهر إلى غاية سنة

[405] - J.L.Miége, Consuls et négociants…Op.Cit, p.124.

1721، ولم يتورع باشا تطوان نفسه عن الإتجار بواسطة وكلائه من يهود تطوان والقيام بتجهيز السفن الفرنسية والإيطالية. وبينما نشط الإنجليز في المتاجرة في السلع الحربية التي كانت القوى الكاثوليكية تحظر بيعها للمسلمين. ولا يعكس إرتفاع عدد السفن الأجنبية التي دخلت إلى مرسى تطوان حقيقة نمو النشاط البحري للمدينة على أكمل وجه، إذ لا تشمل الإحصائيات أعداد المراكب الصغرى التي مارست تجارة المساحلة، وهي غالبا تجارة غير مشروعة مع الشواطئ الإسبانية.[406]

إن العنصر الأساسي في هذا التوسع التجاري والبحري لمدينة تطوان هو الدور الذي لعبه جبل طارق بصفته مستودعا وموقعا للمبادلات الأوربية مع المغرب وذلك ابتداء من سنة 1714 وهي تاريخ الإعتراف الرسمي بالسيطرة البريطانية على الصخرة. وقد ترسخت مكانته منذ إبرام المعاهدتين مع المغرب سنتي 1721 و1728، وكما ساعده التشريع الذي جعل منه ميناء حرا، فكانت تطوان أول مستفيد من هذا الموقع، وأصبح يربطها به فلك رقاص كل أسبوع، وبذلك غدت أول مرسى مغربي متصل بانتظام بأوربا منذ سنة 1740.[407]

ولقد تخللت هذه الفترة من الإزدهار حوادث وحالات تدهور مفاجئة وظرفية تم تخطيها بسبب رسوخ البنية التجارية بالمدينة، الأمر الذي منع توقف النشاط المتزايد بوتيرة تبدو متوازنة. ومن الحوادث التي أحدثت تذبذبا أو تضعضعا في وتيرة النشاط قطع العلاقات التجارية مع فرنسا بعد إهانة سلا وإلغاء قنصليتها بتطوان عام 1722، وكذلك تجميد العلاقة مع جبل طارق الذي احتمى من الوباء المهدد لتطوان. إلا أن الحادث الذي أثر بشكل كبير في الحركة التجارية بالمدينة تمثل في العواقب الناجمة عن الصراع الدموي الذي حدث بين أهل تطوان والباشا أحمد بن علي، وبقيت مخلفاته واضحة فيما بين 1728 و1729.

وسيعود البريق للنشاط التجاري البحري لتطوان خلال سنوات 1750-1765، وذلك نتيجة لاستيراد البضائع الأوربية أو بضائع المستعمرات، وأصبح مرسى تطوان أول مستورد لمادة الشاي الذي بدأ استهلاكه يتعمم بالبلاد.[408]

---

406 - Miége, les activités maritimes.. Op.Cit, p.15.
407 - Ibidem.
408 - Ibidem, p.16.

- **مرحلة بداية تراجعه.** عرف مرسى تطوان انعطافا نحو التقهقر منذ سنة 1770، ويعود تراجعه لعومل متعددة: أولها منافسة المراسي الجديدة المسترجعة في الشمال الغربي للبلاد كطنجة والعرائش. وكان نمو العرائش أسرع بفضل صادراتها من المواد الزراعية التي تنتجها مناطق الغرب. إلا أن مرسى كل من طنجة والعرائش كانا يفتقران إلى التجهيزات الأساسية، وإلى وجود فئة تجارية نشيطة من المسلمين واليهود. والثاني، يعود إلى ضعف نشاط القرصنة وتقلصه وتراجع الأنشطة المرتبطة به، ويعود تقهقر القرصنة إلى ما تعرضت له العمارة البحرية في مصب مرتيل من تخريب على يد الأسطول الإسباني سنة 1752، وغرق بعض الغليوطات وأسر أخرى سنة 1755، إضافة إلى إنعكاسات إحتواء السلطان سيدي محمد بن عبد الله للنشاط القرصني وتمركزه بسلا. والعامل الثالث، الصعوبات المتزايدة فيما يخص ولوج السفن إلى نهر مرتيل وقابليته للملاحة، وذلك بسبب إرتفاع مستوى المصاب. والرابع، ويتمثل في الإنكماش المزدوج لمجال المدينة التجاري برا وبحرا، ويفسره تحول الطرق الرئيسية للتجارة المغربية العابرة للصحراء نحو المحيط الأطلنطي، مما سيؤدي إلى ازدهار موانئ أخرى منافسة كآسفي والجديدة والدار البيضاء، وعلى المستوى البحري الذي نشطت فيه الملاحة التطوانية لم يعد للبحر المتوسط الأهمية التي اكتساها من قبل. وخامسا، يعتبر القرار الذي اتخذه السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1772 والقاضي بإجلاء القناصل من المدينة كمؤثر على هذا التراجع، وفي نفس الوقت عامل مساهم في تقهقر النشاط التجاري والبحري والذي كان في صالح طنجة.[409]

ورغم هذا التقهقر فإن ظرفية محدودة ستسمح بعودة النشاط، وكانت مرتبطة بالحصار القاري الذي فرضه نابليون على إنجلترا والحصار المضاد منذ سنة 1794، بحيث أصبحت الملاحة التجارية تنشط عن طريق ميناء برشلونة، فكانت تطوان في وضع يسمح لها باستقطابه إذ كانت تؤمن قسطا مهما منه مراكب تحمل راية المغرب المحايد في هذا الصراع القاري.[410]

- **مرحلة انحطاطه.** لقد وجدت تطوان نفسها في الأخير في مواجهة منافسة طنجة خاصة بعد أن أصبحت هذه الأخيرة مقر إقامة القناصل العامين الأوربيين، واسترجع موقعها كل أهميته بعد فض كل النزاعات البحرية

---

[409] - Ibidem, p.18.

[410] - Martin Corrales, La flotte marocaine et le commerce de cabotage espagnol (1797-1908), in le Maroc et le mer, Maroc- Europe, 2, 1992, p.76.

وتمت حرية مرور السفن بالمضيق، فأسس بها خط بحري ربط بينها وبين جبل طارق.[411] ولأسباب صحية شرعت عمليات نقل الحجاج وإبحارهم تنطلق من طنجة. وكما كان مرسى تطوان ضحية للتحول الذي عرفته ظروف الملاحة الدولية، فالسفن التي كانت تمخر مياه البحر المتوسط والملائمة لسواحله عوضت بسفن ذات حمولة كبيرة بصاريين وقلوع عديدة وتدعى «البريكانطان»، وغدت المراسي الجوفية أفضل من مراسي المصاب. ولقد مهد هذا التحول لظهور مرتبة جديدة من المراسي، وأمسى الشمال الغربي منطقة خلفية للعرائش وطنجة بينما اضطرت تطوان إلى التكيف مع الواقع الجديد- المفروض، وانتقل العديد من تجارها وخاصة اليهود إلى جبل طارق وطنجة، وكما سيهاجر بعضهم مع مطلع القرن التاسع عشر نحو أمريكا اللاتينية.

411 - J.L.Miége, L'activité maritime a Tanger, premiére moitié du XIX siécle. actes du colloque : Tanger 1800-1956, Rabat, 1991, p.73.

الفصل السادس

علاقات المدينة ببادیتها وبالداخل

1- علاقتها بالبادية المجاورة:

إرتبط ازدهار مدينة تطوان ونموها إلى حد ما بإقليمها لما يوفره لها من شروط الحياة القائمة على الفلاحة والتجارة والصناعة الحرفية. وبنمو عدد سكانها ازدادت الحاجة إلى البادية التي ترتبط بالمدينة إقتصاديا بواسطة الأراضي الزراعية القريبة منها. وتمثل المدينة المركز التحويلي والإستهلاكي لمنتجات البادية، وإن أي ضغط تتعرض له الفلاحة في البادية المجاورة يكون بالتالي هو نفس الضغط الذي يوجه نحو المدينة. إلا أن تأثير المدينة على البادية لم يكن تأثيرا إقتصاديا كبيرا من شأنه أن يؤدي إلى إحداث تغييرات جذرية في تنظيماتها الإجتماعية، ذلك أن الفلاح الجبلي لم يكن يقدر على الإدخار، فأدنى ظرف يجعله في محنة شديدة، وهذا يعني أنه لم يكن هناك سوى حد أدنى من المبادلات، وكما لم تستطع البادية تقديم سوى عون متواضع بينما كانت المدينة مركزا للتجارة والإنتاج الحرفي. وهذا التوزيع في العمل والأرض نتجت عنه علاقات تكافل وتكامل وفي نفس الوقت علاقات تصارع وتنازع بين المجالين.

1.1- علاقات تصارع وتنازع :

إن إعادة بناء مدينة تطاون على يد المهاجرين الأندلسيين عند سفح جبل درسة، والذي كانت تعتبره القبائل المجاورة مجالا حيويا بالنسبة لنشاطها، سيخلق منذ الوهلة الأولى نوعا من التنافر والتطاحن بين الفريقين. فهذه المدينة كانت مستندة إلى جبل يشكل في الواقع امتدادا لسلسلة الحوز التي هي جزء من جبال الريف، وتنتمي إلى بني سالم، وتجاورها قبيلة أنجرة التي تحد بالبحر الأبيض المتوسط وببوغاز جبل طارق. وبالإضافة إلى ذلك، تجاور المدينة عدة قبائل أخرى منها بني حزمر وبني صالح وبني حسان ووادراس وبني يدر وبني مصور وغيرها. وكانت بعضها قد استاءت من هذا البناء بدعوى أن أرض المدينة تقع في بلادهم وأن مرافقها هي مراعي لماشيتهم، وأن عمارتها يضيق عليهم ويضر بمصالحهم. ودفع الأمر ببني حزمر وبني سالم وبني صالح إلى حد مناوشة الأندلسيين الوافدين وهدم ما كانوا يبنونه

من دور.[412] إلا أن مقاومة هؤلاء وتصلب موقفهم إزاء الجبليين من جهة، وإمتلاكهم لوسائل إنتاج أكثر تطورا وقيامهم بأنشطة إقتصادية متنوعة من جهة أخرى، دفع الاخيرين إلى نبذ الخلاف - ولو مؤقتا-، وصار الجبليون يستفيدون من معارف وصنائع أهل المدينة، ومن تبادل التجارة معهم في محاصيلهم وموادهم القروية. ومما لا شك فيه أن هذه الروابط المصلحية المتبادلة بين المجالين المتباينين - حضاريا - لم تكن دائما تكتسي نفس الإنسجام، فالصراع «البدائي» لم يحسم فيه بصورة قطعية، فتداخل المجال الفلاحي الذي تستغله المدينة مع جيرانها من المداشر أفرز نزاعا طال مئات السنين، فقد وقع نزاع على الأرض بين أهل تطوان ومدشر بني سالم من قبيلة الحوز في أواسط القرن الحادي عشر الهجري، ذلك أن الأرض المتنازع عليها تمتد من شاطئ البحر إلى الطريق الذاهب من تطوان إلى سبتة، وكان أهل بني سالم يعمدون إلى بعض القطع فيحرثونها ويزرعونها، فنشأ النزاع بين المزارعين وأرباب الماشية زيادة على النزاع في أصل الأرض، وقد حررت شهادة عدلية عام 1044هـ /1634م بأن تلك الأرض هي مرعى لأهل تطوان.[413] وتجدد الصراع على تلك الأرض بعد مرور ثمانين عاما، فأقيمت بينة قريبة من التي قبلها وضعها قاضي تطوان ونواحيها عبد الرحمن الزلال، ونصها: « الحمد لله شهوده الموضوعة أسماؤهم إثر تاريخه يعرفون غامر رأس الطرف بساحل البحر من تطاوين معرفة صحيحة تامة وبمثل المعرفة المذكورة يعرفون كل من هو فلاح بتطوان إذا كثرت الأمطار وثمرت الشتاء يرسلون ثيرانهم للموضع المذكور إلى أن يصحو الجو ويأتون بهم للحرث... ولا كان أحد يتصرف في الغامر المذكور إلا بالمواسم فقط. بهذه الحالة عرفوه وعليها خبروه واختبروه... وقيدوا بذلك شهادتهم مسئولة منهم في منتصف المحرم الحرام عام أربعة وعشرين ومائة وألف. المسن السيد قاسم الصبان والمسن المرابط محمد الحيزول والمسن أحمد الرزيني والمسن قاسم بن أحمد العصافري والمسن المكرم علي الركينة والمسن علي الرضندو والمكرم أحمد الطالب والمكرم أحمد بن حسين شويقر والمكرم عبد القادر الكراصي والمكرم عبد السلام صمعان والمكرم الحاج محمد بن قل والمكرم الحاج يوسف علوش والمكرم

---

412 - داود، **مختصر تاريخ تطوان**، ج.1 ، ص.25.

413 - داود، **تاريخ تطوان**، ج.2 ، ص.360 .

الحاج علي المشاقري والمكرم المرابط محمد عزيمان والمسن قاسم النجار والمكرم علي العناية والمكرم محمد أمطماط...».[414]

وبناء على الشهادتين فإن قاضي تطوان ونواحيها عبد الرحمن الزلال أصدر حكمه في تلك النازلة في 17 صفر عام 1125 /1713 على جماعة بني سالم وأهل تقلالين أن يتربصوا فلاحي تطوان فيما زرعوه في رأس الطرف وفي تدرارت حتى لوقت المصيف ويرفعون زرعهم، وبعد هذه السنة تبقى مرفقا لماشية أهل تطوان وغيرهم، وكذلك إن سقطت ماشية في الزرع الذي برأس الطرف يتم دفعها عنه ولا يتم ربطها ولا سوقها للمدينة.[415]

وتجدد النزاع بين الفريقين عام 1198 /1784، ورفعت القضية لقاضي محروسة تطوان عبد السلام بن محمد بن قريش، فأمر بأن يجتمع أرباب النظر وأهل المعرفة مع من ينوب عن المتخاصمين ويقفوا على عين الأماكن المتنازع عليها. وقد استظهر ناظر حبس المساكين والمجاهدين بثغر تطوان أحمد بوردان برسوم تضمنت أن المرفق المذكور لكافة أهل الثغر، وتصفح أهل العلم ذلك كما يجب، وثبتت الأرض المتنازع في شأنها لأهل تطاون، فحكم القاضي المذكور بحيازة ما اشتملت عليه الحدود، فبين حدودها كل من محمد السقا والحاج الحسن حلحول وهما من أهل المعرفة وأرباب النظر وإليهما المرجع في ذلك، وتم الإشهاد على الحكم بذلك في منـــتصف رجب عام 1199 /1785 .[416]

ويبدو أن الخلاف استمر قائما رغم حكم القاضي، مما أدى إلى رفع القضية إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله باعتباره الملاذ الأخير لحسم مادة الخلاف وذلك سنة 1786/1200، فأرسل خديميه القائد أحمد بن سلمون والقائد محمد بن حنفرة بأن ما كان من تلك الأرض معمورا ينتفع به أهل بني سالم، وما هو غامر يبقى مرعى لمواشي أهل تطوان وأهل بني سالم. بيد أن مادة النزاع بين المدينة وجوارها لم تحسم نهائيا بسبب تداخل مجالهما الفلاحي، ومثال على ذلك، أن العدوة الموالية لقنطرة بوصفيحة تحت مدشر بوسملال كانت مزارعا لوادراس وبني حزمر وبني يدر، وكما كانت توجد بها أملاك كثيرة لأهل تطوان، فكان قطيع المداشر يتسرب لبعض الفدادين الأمر الذي كان يخل بالضوابط التي تنظم الجوار، فتقام شهادة معاينة لضبط التلبس تستغل كحجة عند الإقتضاء.

---

414 ـ نفس المصدر، ص.361.

415 ـ نفس المصدر، ص.362 .

416 ـ نفس المصدر، ص.368.

وكان التوتر في العلاقات بين المجالين يظهر كلما تقوى التفاوت بينهما لاسيما وأن سكان المدينة كانوا معفين من الوظائف والخدمات والكلف الإضافية، وكانوا في وضعية متميزة تجعل تروائهم في تنامي، ولا تفرض عليهم سوى الزكوات والأعشار وبعض الأمكاس. زيادة على ذلك، فالمدينة بالنسبة للبادية هي مقر القائد المخزني الذي تعزز سلطته قوات من العسكر الذين يتدخلون كلما اقتضت الضرورة للحفاظ على الطاعة واستخلاص الوجيبات من القبائل. وعندما كان القائد أو الباشا يمارس العنف الجبائي على سكان الجبال فإنهم يعترضون على سلطته، وهكذا ثار الجبليون بزعامة محمد بو الليف على الباشا أحمد بن علي بسبب الضرائب القاسية والتكاليف التعسفية التي كان يجبيها منهم بصرامة شديدة، بل إن الباشا المذكور كانت عنده قبيلتان من أهل الجبل محررتان لأجل السلاق للصيد.[417] وتبعهم في الثورة أهل تطوان، وقد مهدت هذه الإنتفاضة لإبرام تحالف ضمني فرضه شعور الطرفين بالخطر المحدق بهما والمتمثل في جيش الباشا المذكور. ولكن يظهر أن هذا التحالف كان هشا وظرفيا، وأن الجبليين قد أخلوا به ربما بعد غياب شخصية زعيمهم أبي الليف الذي كانت له علاقات وطيدة ومصلحية مع بعض أعيان تطوان. فقد ورد في مخطوط عند المؤرخ داود أن الفقيه عمر لوقش الذي انتدبه أهل تطوان قائدا عليهم، كتب إلى جيرانهم من القبائل الجبلية عدة مرات يحرضهم على قتال قوات الباشا ويحثهم على الوقوف بجانب أهل تطوان:«... وها نحن بعثنا إليكم ما يزيد عن نصف قنطار من البارود وقفة من الرصاص لتستعينوا بذلك على قتال عدوكم... ولا نظن أحدا من القبائل يعينه علينا لأننا ما أعناه على أحد منهم بل أعناهم عليه في حضرة السلطان... وقلنا لا نتركه لهذه القبائل يهلكها فقاتلناه، لكن تخاذلوا في ساعة لا ينفعهم فيها التخاذل... وقد كنا إنتقدنا عليكم إعراضكم عنا وعن نصرتنا لما حل بديارنا وأنتم جيراننا وإخواننا والآن فأصدقوا القتال وقفوا موقف الرجال...».[418] إلا أن الجبليين كانوا قد سئموا القتال بسبب إنقطاع مواردهم وضعف أحوالهم وتزايد الخسائر في صفوفهم، فاستكانوا إلى المهادنة والصلح مع الباشا، بل إنهم قبضوا على أحد أعيان تطوان وسلموه للباشا كما سبق لنا، فتحولت العلاقة بينهم وبين الأهالي إلى المواجهة، فقد وجه عمر لوقاش سرية إلى واد الزرجون بناحية الحوز فتلقاهم أهل القبيلة بالمقارع « فهزموهم حتى أن الواحد من أهل وادي الزرجون يقبض عشرة

---

417 - الضعيف، ص.144 .

418 - داود، ج.2 ، ص.146.

من أصحاب عمر... فأخذوهم أسارى.. وربطوا أعناقهم بالحبال والخيطان..».[419] وصادف القائد محمد بن عمر لوقش عند توليته عام 1751 القبائل قد ألفت الثورة وعدم الإنقياد للطاعة، فكان يخرج لمن عصاه من أهل الجبال بنفسه فيقابلهم ويقهرهم، وكان يخير رؤساءهم بين أن يرتحلوا لسكنى تطوان فيتكفل بمؤونتهم أو يلزموا حدهم في دورهم، فعليهم منه الأمان التام، ومن أبى إلا العصيان خرج عليه بنفسه.[420]

ولقد إقتضى أمر النظام وإستمراريته تواجد السلطة المخزنية التي تتدخل لأغراض المحافظة على الأمن وضمان الإنصياع لحكم السلطان ومقتضيات أوامره. وإذا كان الوجود المخزني يتمثل في شخص قائد تطوان الذي كان يعين في غالب الأحيان على رأس قبائل المنطقة، فإن أمر هذه الولاية كان يخضع في الغالب أيضا لما تقتضيه ظروف المنطقة أو ما يرتبط بشخصية القائد نفسه، ولنا في شخصية الباشا أحمد بن علي والقائد عمر لوقاش مثال بارز، بينما نجد في فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله والتي أعقبته أن شأن الولاية غدا يخضع لموجب مصلحة السلطان، وهكذا، وبعد موت هذا الأخير، فإن القبائل الجبلية اتجهت لمبايعة من تصاهر معها من أبنائه، فبعد اختفاء مولاي اليزيد فإنها تعصبت لأخيه مولاي سلامة، وبذلك دخلت في الصراع مع تطوان التي رضخت لطاعة مولاي سليمان الذي بايعته فاس، وانحاشت قبائل بني حرشان وبني مصور وجبل حبيب وبني يدر لجانب سلامة، فأتى بها واقتلع أشجار تطوان وحاصرها لمدة ثلاثة أشهر ونصف، وفيها أخوه مولاي الطيب الذي ولاه السلطان سليمان سنة 1208 /1793 على قبائل الجبل وفوض له أمر الثغور.[421] وفي منتصف فبراير 1794 وقعت أحداث في مرتيل إذ تعرض الحصن الواقع عند مدخل النهر للمحاصرة من قبل أعداد من الجبليين الذين هاجموا العسة واستولوا على الحصن، وكان غرضهم هو نهب مخازن المؤن وسلب المراكب الراسية بالنهر، فاستولوا على بعض المراكب الإسبانية التي دخلت إلى النهر وأضرموا فيها النيران، وقد أخبر أحد العملاء ويدعى الطيب امقشد نائب القنصل الإسباني أنطونيو سلمون بأن تصرف هؤلاء الجبليين تم باتفاق مع بعض أهل تطوان الذين كانوا يعارضون حكم العامل محمد بن عثمان، والذين حرضوا الناس على نهب دار السكة والقيام بأعمال الشغب، إلا أنه تم القبض على متزعمي هذه

---

[419] ـ الموفق الثعالبي، مصدر سابق، ص.44.

[420] ـ السكيرج، ص.61.

[421] ـ أكنسوس، ص.275.

الفتنة.[422] وكان السلطان مولاي سليمان قد أرسل أخاه مولاي الطيب إلى تطوان ومعه قائد العرائش عبد الله القطراني في ستمائة فارس لمعاقبة الجبليين، ووقع القتال بين محلة السلطان وبين جبالة أهل حوز تطوان في موضع النخلة بدار بن قريش، مع بني حسان وبني حزمر وبني سعيد وبني يدر. وخرج قائد تطوان حمان الصريدي في ألفين من الرماة من أهل تطوان، ودارت المعركة في يوم 21 ربيع الأول عام 1795/1210 «فانكسرت جبالة ورجعت أهل تطوان على تلك الدشور وحرقوها ونهبوها وقتلوا منهم ما لايحصى، وفحشوا في نسائهم وزنوا بصبيانهم، ووقع بهم حدث كبير حتى كان كان الجبلي إذا دخل تطاون يقولون له شمل».[423]

1.2 - علاقات تكامل وتكافل (أو أخذ وعطاء) :

لم يكن الصراع المرتبط بتقلبات الظروف السياسية والإقتصادية ليثير الشحناء بين أهل المدينة وجوارها، فقد ظلت تطوان تمثل بالنسبة لقبائل الجوار سوقا ضرورية لا غنى عنها، كما أن المدينة لم تستغن بدورها عن المواد الفلاحية التي تزودها بها البادية المجاورة، وفي ذلك ما يقوي حركية الروابط البشرية بين المجالين وما يزكي طبيعة الإرتباط القائم على الأخذ والعطاء.

وبالرغم من أن القبائل الجبلية في معظمها كانت تخضع لسلطة المخزن، فإنها كانت تتمتع بنوع من الإستقلال الذاتي في تسيير شؤونها المحلية عن طريق مجلس الجماعة، ويمثل المقدم المدشر لدى السلطة المحلية ويباشر عدة مهام. ولكن القبائل رغم قيامها بممارسات وحفاظها على مؤسسات محلية، كانت إلى جانب ذلك مدمجة في سياق علاقات مخزنية عمودية تخترق حدودها، فتعزز تراتباتها وتزكي التمايز في نطاقها بتعيين القواد والشيوخ، أو بالإعفاء من الجباية أو غير ذلك.[424] والمدينة بالنسبة للبادية المجاورة هي مقر القائد المخزني كما أسلفنا، وفي نفس الوقت مقر القاضي والعدول الذين يبرمون أحكام الشريعة، وفيها يوجد كذلك السجن (أو الحبس) الذي يزج فيه كل من ارتكب جناية أو جرما.

---

[422] - A.H.N, Estado, leg.4331, caj2. (رسالة أنطونيو سلمون إلى أخيه القنصل العام خوان منويل. ورسالة الطيب امقشد إلى أنطونيو سلمون)

[423] - الضعيف، ص.263.

[424] - المختار الهراس، **ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في المغرب**، مجلة المشروع، عدد6 ، 1980 .

ومن المؤكد أن أهالي تطوان كانوا منفتحين على باديتهم، وأن هجرة الجبليين بفعل الضائقة الإقتصادية أو الإضطرابات السياسية أثرت بشكل أو بآخر على بنية المدينة إجتماعيا وفكريا وديمغرافيا وعمرانيا، وقد ظهر أثر ذلك على مستويين: مستوى أول، وكان انعكاسا لحالات الجفاف وانحباس المطر مما كان يهدد بالمجاعة، حيث وفدت جموع من أهل البادية على المدينة فتم استخدامهم في أشغال البناء وحفر الآبار والغرس وفي الأعمال الحقيرة، وشكل هؤلاء يدا عاملة رخيصة ومسخرة وتعاطت لأنشطة حرفية تسعى لتأمين المأكل والملبس والمسكن، ووجدت صعوبة في الإنصهار داخل مجتمع المدينة، وكونت حزاما سكنيا لحومة البلد من الناحية الغربية امتد من حومة العيون إلى باب النوادر. وفي المستوى الثاني، ثم الإختلاط باستقطاب الفئات المتفقهة من أصول بدوية والتي أكسبها جاهها المعرفي صيتا ومكانة بين أوساط الأهالي، وشكلت طبقة نبيهة زودت المدينة بأطر التدريس في الكتاتيب والمساجد والجوامع، وأطرت حرفة العدالة والإفتاء، فكان معظم فقهاء تطوان وعلمائها في القرن الثامن عشر ينتسبون إلى قبائل الجوار، وهم الذين مارسوا القضاء والتدريس، وكان منهم المفتون والعدول وأئمة الجوامع وخطباؤها. وتذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أفراد عائلة ابن قريش اليجمية (الحزمرية) الذين احتكروا مناصب القضاء والإفتاء والخطبة والإمامة طيلة عدة عقود من القرن المذكور، وكذلك أسرة ابن طريقة التي تناوب أفرادها على العدلية والقضاء، وقاضي الجماعة الفقيه عبد الرحمن الزلال من بني مصور، والفقيه علي شطير السماتي، والفقيه العلامة محمد بن الحسن الجنوي وينتمي إلى مدشر أزجن من قبيلة سماتة وغيرهم. وكما استقر بالمدينة عدد من الصلحاء الذين أتوا من الجبل وأسسوا زوايا لهم وجمعوا حولهم عددا من المريدين والأتباع من أهل المدينة الذين كانوا يتبركون بصلاحهم، وينسبون لهم الكرمات، وتذكر منهم الشيخ الولي الصالح سيدي عبد الله الحاج البقال الذي ولد بمدشر ترانكات من قبيلة بني حزمر، ومقر أسلافه بالحرايق، وانتقل إلى تطوان في عهد القائد محمد عاشر الذي وهب له أرضا ودارا، وتوفي عام 1792/1207. ويحكى أنه طلب من الولي الصالح سيدي علي بن ريسون الذي كان مقيما بتازروت من جبل العلم أن يقدم على تطوان ويقيم بها، فلبى طلبه.[425] وكذلك الورع الصوفي مولاي عبد الله الوزاني الذي انتقل إلى تطوان وبها توفي عام 1785/1199، والشيخ العالم والصوفي سيدي أحمد ابن عجيبة من مدشر الزميج بقبيلة أنجرة. ويمكننا أن نعتبر أن أهم عامل ساهم في الترابط المتين الذي جمع مدينة تطوان بمحيطها الجبلي، هو وجود الشرفاء العلميين داخلها وفي المناطق الجبلية

---

[425] ـ داود، ج.6، ص.185.

المجاورة، ويكفي أن نذكر هنا الدور الذي قام به الشرفاء الريسونيون وأبناء عمومتهم الوزانيون في هذا الربط، بحيث كانوا يشكلون قوة دينية وإجتماعية حاضرة في البادية والمدينة على حد السواء، وهذا ما ساعد على وجود تجاوب بين الطرفين ربما كان أهم بكثير من التنافر الذي كان يحصل بينهما من حين لآخر.

وهناك جوانب أخرى كان يتم خلالها تعزيز العلاقة بين المدينة وباديتها، ومنها أن بعض أهالي تطوان ممن كانوا يمتلكون عقارات يستغلونها كأغراس وحقول في بعض المداشر المجاورة أو بالقرب منها، كانوا يتصاهرون مع سكانها، وفي ذلك حفاظ لأملاكهم من التعرض للسلب أو الإتلاف، وضمان بقائها لخلفهم. ومنها كذلك الأسواق الأسبوعية خارج المدينة التي كانت تتم فيها عمليات التبادل التجاري، فإنها كانت تلعب دورا كبيرا في توثيق الصلة بين المدينة وباديتها.

2- علاقتهـــا مع الداخـــل :

كانت لمدينة تطوان علاقات خارج محيطها المجاور تصل إلى سواحل ومدن داخلية عبر طرق تجارية معلومة، فتطوان بمرساها عند مصب نهر مرتيل كانت تمثل بوابة المغرب على التجارة المتوسطية، فكانت تتم تجارة نشيطة عبر المرسى في إتجاه قبائل غمارة والريف المجاورة للساحل المتوسطي مثل متيوة ومسطاسة وبني بوفراح وبني يطفت وبقيوة، ومع قبائل بني ورياغل وتمسمان وبني سعيد. وكانت المبادلات تتم عن طريق المساحلة وتستعمل فيها قوارب تدعى «غرابو» وفلوكات، وهي مراكب صغيرة تتميز بسهولة رسوها عند الخلجان والمرافئ الطبيعية، وكانت تقوم بنقل الأشخاص إلى جانب البضائع. وبذلك ساهمت في حركية التواصل البشري بين منطقة غمارة والريف من جهة وبين عمقها الحضري الذي مثلته تطاوين من جهة أخرى.

وسارت في نفس الإتجاه حركة المبادلات مع مدينة شفشاون التي جمعتها بتطوان جذور تاريخية وبشرية مشتركة تعود لفترات التأسيس. وكانت البضائع تنقل بواسطة الدواب، وتمر عبر واد المحجر وواد النخلة، ثم إلى قبيلة بني حسان فقبيلة الأخماس، وكان الحمارة الذين يتكلفون بنقل السلع بين المدينتين يقسمون المسافة إلى مرحلتين.

ولم تكن علاقة تطوان تقتصر على النواحي المذكورة فحسب، بل كانت تتعداها إلى المدن الأخرى، وتأتي مدينة فاس في طليعة المدن الداخلية التي استفادت من مرسى تطوان، فعبره كان يمر قسط هام من المبادلات التجارية التي تربط تجار فاس بجبل طارق أو مرسيليا أو الشرق، وقد دفعت ظروف الوباء أو الإقتراب من مناطق الوسق والورد إلى استقرار بعضهم في تطوان،

وهذا الوضع أدى إلى نمو مصالح مشتركة بين المدينتين إلى درجة أن بعض الكتاب الأوربيين كانوا يشيرون إلى تطوان بـــ «الأخت الصغرى» لفاس، ويؤكدون على روابط التآزر بين الحاضرتين في العديد من المناسبات.

القسم الثالث

البنـــى المجتمعيـة

الفصل السابع :
التشكيلة الإجتماعية وتراتبيتها

ليس من اليسير القيام بدراسة مدققة للتشكيل الإجتماعي نظرا لغياب معطيات شاملة تهم الفترة التاريخية التي تعنينا. ولقد ركزت مختلف الاتجاهات النظرية على البعد الإجتماعي، بينما أهملت البعد المجالي في تحليلاتها. وإن مجرد التفكير في تأثير المجال على التشكيل بالمدينة يمكننا من إستخلاص المحددات الإجرائية لفهم وإدراك تطور المجتمع في إطاره المجالي.[1]

وإن دراسة التشكيلة الإجتماعية لمدينة تطوان والتي تدخل في إطار دراسة مونوغرافية لابد وأن تدخل في الحسبان خصوصيات المجال جغرافيا وتاريخيا، فالتأثيرات البيئية من جهة، والخصوصيات الثقافية من جهة أخرى من شأنها أن تخلق نوعا من التفرد والخصوصية في التشكيلة الإجتماعية للمدينة.

1- ديناميةالمجال وديناميةالمجتمع :

ينقسم المجال الداخلي للمدينة إلى عدة أحياء كل منها يسمى حومة، وتمثل هذه الأحياء أو الحومات في الواقع الشوارع الرئيسية للمدينة، ففيها بدأت نموها العمراني والديمغرافي، وليست الدروب والزنقات إلا شوارع ثانوية بالحومات، ويكون لها في الغالب منفذ وحيد على الحومة، وهذا ما يجعل هذه الأخيرة وحدة مغلقة تترابط فيما بينها عن طريق زنقات تنتهي في شارع رئيسي للمدينة، وتبتدئ بباب رئيسي قد يغلق عند كل ليلة، أو عندما تفرض الضرورة الأمنية ذلك. وتستمد جل الدروب والزنقات أسماءها من العناصر التي شيدت بها أول دار أو امتلكت عقارها فنجد مثلا درب أراغون ودرب اللبادي أو زنقة المقدم، أو من الظاهرة الطبوغرافية مثل المطمار والطالعة وقاع الحافة والزنقة الضويقة، أو من أنواع الحرف المختلفة والمنتشرة بالبلد كالخرازين والحدادين والنيارين والدباغين ونحو ذلك.

وتقسيم العمل بعدد شوارع تطوان قد ينتج عنه أن هذه المدينة في معظمها تتكون من أحياء متخصصة إما للسكن وإما للنشاط الحرفي أو

---

[1] - محمد الأسعد، **النسق الثقافي ومسألة التكوين المكاني- الاجتماعي للمغرب**، مجلة أمل، عدد 18 ، السنة 6 ، الدار البيضاء،1999 ، ص.37.

التجاري. وإن امتداد البناء إلى خارج الأسوار الأصلية، جعل مجال المدينة غير منحصر بل متسع كانت فيه للمكونات الجغرافية أثر على تاريخها.

ويخضع التوزيع الجغرافي لحومات المدينة إلى المستويات الطبوغرافية للموضع، فنجد في الأماكن العالية سكنا ملاصقا لسور البلد ومستندا إليه، بينما نجد في المناطق الواطئة مساحات فارغة من السكن كانت في الأصل بساتين وأغراس للأهالي داخل السور مثل أرض أغطاس والغرسة الكبيرة والفدان، ولعل ذلك يعود لأسباب عسكرية ودفاعية عندهم، وفي هذا الصدد يجب أن ندخل في حسابنا تأثير حوادث العنف التي شهدتها المدينة منذ الثلث الأول من القرن الثامن عشر، فقد كانت ذات أثر كبير على مورفلوجية المدينة وعلى سكانها. وكما لا يغيب عن بالنا أن التشكيلة المجزأة بناء على طبوغرافية المدينة كانت تنم عن تقسيم سلالي موروث، فكل حومة قادرة على أن تعيش حياتها الخاصة، بل وأن تقوم بشؤونها الذاتية في غنى تام عن جاراتها من الحومات الأخرى.[2] فكانت كل حومة من الحومات الكبرى كالبلد والعيون والربض السفلي مكتفية بنفسها، لها مبانيها العامة والخاصة بها كالمسجد والجامع والحمام والسوق والفران وغير ذلك، وكما لها حدودها المتفق عليها وهيئة الدفاع عنها، مما جعل كل واحدة منها تشكل وحدة إدارية مستقلة يسيرها مقدم الحومة، وهو شخصية منتخبة تتمتع بسلطة عرفية، ويتكلف بتدبير شؤون سكان حومته الذين قد تجمعهم روابط إثنية كانتسابهم لأصل مشترك أو مهنية تتجلى في سيادة نمط إنتاج حرفي معين، ثم ثقافية بانتمائهم إلى طريقة دينية وصوفية معلومة.[3] وهذه الإنتماءات تعد من بين عناصر التجانس الأساسية التي كونت الوحدة الطبيعية لهذه الحومات.

وقد تبدو هذه المعاشرة «الإنفصالية» أشد بروزا حينما تغدو المدينة في حالة ضعف السلطة وفتورها، فينعدم بذلك وجود الحكم القادر على الفصل في النزاعات، وهذا ما حدث عندما قتل أهل حومة العيون قائد المدينة محمد تميم تعصبا لشخصين ينتميان إلى تلك الحومة وهما عبد السلام بن قريش وعبد الفضيل الصردو، وكان القائد تميم قد سجن كل واحد منهما لأسباب مختلفة. وكان أهل حومة العيون قد عمدوا إلى باب السجن فكسروه وأخرجوا ابن قريش لأنه كان يمثل بالنسبة لهم صمام أمان لعصبيتهم سيما وأنه يعد فقيها ابن فقيه وقاض، وكذلك الشأن بالنسبة للصردو الذي هو من أعيان

---

[2] - ابراهيم أبو طالب، **مفهوم البرجوازية في تاريخ المغرب**، مجلة أمل، عدد 18 ، السنة 6، الدار البيضاء، 1999 ، ص.48.

[3] - انظر الفصل الأول من هذه الدراسة.

الحومة، فتآمر مع جماعة من أصحابه على قتل القائد المذكور إنتقاما منه، ولكونه في نفس الوقت يمثل الطرف المقابل في المعادلة الإنتمائية، فضربه بسكين وهو ساجد في الركعة الأولى من صلاة الجمعة فقتله في 7 ذي القعدة عام 1750/1163 .[4] وتدل هذه الواقعة كذلك على الصراع الخفي الذي كان يتأجج بين الحومتين الرئيسيتين بتطوان آنذاك وهما: حومة البلد وحومة العيون كلما أذكت الظروف فتيله، فقد مر بنا كيف أن القاضي محمد بن قريش كان يبلغ الباشا أحمد بن علي بكل شاذة وفاذة، وأنه أشار عليه بقتل المهدي بايص الذي كان من أبرز أعضاء الديوان. وهذا من شأنه أن يثير عليه حفيظة الأهالي من حومة البلد ممن كانوا يبغضون الباشا المذكور، ولهذا أتيحت أمامهم الفرصة للتخلص من القاضي ابن قريش بعد مقتل الباشا أحمد على يد السلطان مولاي عبد الله، فتم عزله عن القضاء، وذلك يعني أن التوازن القائم من الناحية السياسية بين العصبيتين أي الحومتين والذي يمثله كل من القائد بالنسبة للبلد والقاضي بالنسبة للعيون قد اختل. وهذا ما سيدفع عبد السلام ابن القاضي المذكور إلى امتطاء صهوة فرسه وقطع الطريق على الناس في محاولة لإظهار القوة والعصبية التي يستند عليها.

ونستخلص من ذلك أن المجال لا يكتسب حيويته من ذاته وإنما من المجتمع الذي يشكل المجال أحد هياكله. ومن هنا فإن للبنية المجالية دورا جليا في صيرورة المجتمع على عدة مستويات.

2- أثر المجال في التشكيل الإجتماعي :

شيدت مدينة تطوان عند منحدر جبل درسة، والصخور التي شيدت عليها أسوارها جعلتها مدينة منيعة في بعض الأحيان. وفي أسفل المدينة وجد سهل فسيح وخصب يخترقه نهر تطوان الذي يوجد المرسى بمصبه في مرتيل. وموقع المدينة كمرسى نهري يلتقي مباشرة بالبحر المتوسط ومنفتح عليه جعلها تتلقى تأثيرات مختلفة خلقت مظاهر معينة من حركة دائمة للعبور من النهر وإليه، ومن رسو للسفن وشحنها وإقلاعها، ووجود الديوانة والأمناء والكتاب والعدول، وتوفر المخازن لإيداع السلع فضلا عن نشاط البحارة والحمالين والحمارين وما إليهم، مما أفرز تقاليد معينة جديرة بمدينة يتجه نشاطها نحو البحر بالأساس. وقد نجم عن هذا النشاط البحري ظهور فئتين إجتماعيتين متلازمتين وهما:

---

[4] - السكيرج، ص.28.

- **رؤساء البحر أو الرياس.** وقد تقلص عددهم في القرن الثامن عشر نتيجة تراجع نشاط القرصنة البحرية وتضاؤل عدد السفن القرصانية. وقد كان هذا النشاط قد اصطبغ بصبغة جهادية منذ الثلث الأخير من القرن الخامس عشر،فكانت هيئة رياس البحر تحوز تقدير الأهالي والمخزن معا لأن أفرادها يعدون مجاهدين، وكانوا في غالبيتهم من أصول علجية أو تركية أو جزائرية ولهم خبرة ودراية بشؤون البحر، ونذكر من بينهم الرايس محمد التاج.

- **البحرية.** (البحارة) ويكونون فئة عريضة وملازمة للأولى ولها طقوسها وعاداتها كباقي الفئات الحرفية بالمدينة. ونميز فيها بين بحرية السفن القرصانية الذين يتصفون بالقوة العضلية وبروح المغامرة، وبحرية السفن البرزكانية الذين يقتصر نشاطهم على نقل السلع من ظهر المراكب والسفن وإنزالها بالمرسى أو العكس لأن السفن لا تقدر على اختراق مصب نهر مرتيل فترسو في الجون.

وقد ارتبط بالنشاط البحري المذكور أيضا إقامة أوراش بناء السفن وتجهيزها بالمعدات، ونشأت بها فرق من الرماة مكلفين بإطلاق البارود من المكاحل المصنعة محليا ورمي الكور والبونب من المهارس والمدافع، فظهرت فئة من الحرفيين ارتبطت بالصناعة الحربية كالزنايدية الذين يذيبون الرصاص ويصنعون صفائح آليات القذف، والسرايرية ويصنعون القناة الخشبية التي تركب فيها الجعبة، وثم الجعابيبة وهم يركبون السلاح فيصنعون الأنبوب الحديدي الذي يملأ بالبارود. وقد ارتبطت بهذه الصنائع حرفه صنع البنب والكور، وكان أصحابها يعرفون بالبونبجية، وكذلك الرمي بالمدافع والمهارس ودعي أربابها بالطبجية.[5] وكانت معظم المواد والأدوات المستعملة في الملاحة وفي الصناعة الحربية أو الألقاب التي حملها المتعاطون لذلك تركية الأصل، مما يفسر امتداد التأثير العثماني إلى أقصى الغرب الإسلامي.

3- التشكيلة الحضرية :

يبدأ البناء الإجتماعي على مستوى المدينة مع الأسرة، ثم تأتي بعدها جميع التنظيمات الإجتماعية الأخرى المبنية على الروابط الروحية أو الدموية أو الإقتصادية. ودراسة هذه الجوانب لهذه الحقبة التاريخية يقوم على رصد التطور الديمغرافي الذي عرفته مدينة تطوان إلى غاية القرن الثامن عشر

---

[5] - عبد العزيز السعود، **تطوان خلال القرن التاسع عشر**، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1996 ، ص.32.

نتيجة لتعاقب موجات الهجرات الوافدة إليها، الأمر الذي لم يحل دون تمكن اندماج الشرائح الإجتماعية التي اتجهت إلى إستغلال الثروات المتأتية عن النشاطين البحري والتجاري، وعن استغلال ما توفره الأرض من خيرات والمؤهلات الحرفية المتنوعة. وبذلك أصبح مجتمع المدينة مجتمعا انصهرت فيه مختلف العناصر البشرية، ونظمت حياتها على أساس يأخذ بعين الاعتبار المصالح المشتركة لهذه العناصر. وظاهرة المجتمع التطواني ارتبطت أكثر بالحركية التي نجمت عن النشاط البحري إلى ذلك العهد وعلى نوع من الخصوصية في العلاقة السياسية مع الحاكمين.وبالرغم من كل ذلك، فمجتمع تطوان لم يكن يتميز كثيرا عن مجتمع مدن أخرى وخاصة فاس، وبإمكاننا أن نحدد العناصر الأساسية التي تكون منها مجتمع تطوان خلال القرن الثامن عشر كالتالي:

- **العنصر الأندلسي**. وكانت روافده بالأساس هي الهجرات المتتالية على امتداد نحو قرن ونصف، وقد ألف هذا العنصر مجموعة بشرية حافظت على مكانتها وعلاقاتها وظلت مزهوة بنسبها، وتعاطى أفرادها لأنشطة إقتصادية متنوعة فزاولوا العمل في الفلاحة واستقدموا تقنيات وأساليب راقية من الأندلس، واهتموا بالإنتاج الحرفي، وكما مارس بعضهم النشاط البحري والتجاري، فراكموا منه ثروة وجاها كبيرين. وإلى جانب هؤلاء وجدت فئة هامة من المورسكيين ضمن العامة.

- **العنصر الحوزي**. ونقصد به العنصر البشري الذي شيدت المدينة في مجاله الجغرافي والقبلي، وقد اتخذ هذا العنصر في بداية الأمر موقفا مناوئا للوافدين الجدد في إطار الصراع على الحيازة والإستحواذ على العقار من أجل توسع المدينة. وقد ساهم التطور العمراني والإقتصادي للمدينة في استقطاب كثير من العناصر الجبلية المنتمية لقبائل حوز تطوان، والتي ساهمت بدورها في تزويد المدينة بشكل خاص بأطر ذات دراية بعلوم الشريعة تعاطت لمهنة العدالة والإفتاء وقامت بالتدريس في المساجد والجوامع وتولت منصب القضاء.

- **العنصر الريفي**.شكلت مدينة تطوان أو بالأحرى تطاوين عمقا حضريا وحضاريا بعيدا وجذابا في نفس الوقت بالنسبة للعناصر الريفية على مر العقود،إذ كانت تصلها زرافات بشرية متقطعة منذ إعادة تأسيسها في العهد الوطاسي. إلا أن أهم كتلة بشرية استقدمت كانت بالأساس في عهد السلطان مولاي إسماعيل، وكانت تتألف في بداية الأمر من جيش المجاهدين الذي أوكل غليه أمر محاصرة سبتة واسترجاع الثغور من يد الإنجليز والإسبان،

وتحول فيما بعد إلى عنصر تهديد خارجي بالتضييق على العناصر الحضرية. وقد شكل الريفيون يدا عاملة قادرة على تحمل مشاق العمل، وكما تشكل من بينهم البحارة وأطقم الغليونات القرصانية.

- **العنصر اليهودي**. إرتبط استقرار الجماعة اليهودية بمدينة تطوان ببواعث سياسية وإقتصادية ودينية تولدت عن التفتيش الذي لاحق اليهود بطرد المسلمين من شبه جزيرة إيبريا، وقد دعي هؤلاء الوافدون «ميغوراشيم» (أي المطروردون)، وتسموا أيضا «سفرديم» وتعني اليهود من أصل إسباني، ولهذا كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة تاريخ سند عن أخبار سيفاراد (إسبانيا). وقد بنوا لهم علاقات متينة مع بيع الشرق وأوربا. وكما وفدت أعداد من يهود مكناس وفاس في فترة الصراعات حول السلطة والفتن التي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وبما أن يهود تطوان لم يكونوا أقل تشبعا أو تأثرا بالثقافة الإسبانية من المورسكيين، فإنهم تمكنوا من الإندماج في البنية الإقتصادية بسبب تعاطيهم للأغراض التجارية وعنايتهم بأصناف الحرف. وقد أفادتهم كثيرا الشبكة السفردية المنتشرة في الموانئ المتوسطية في ملاحة الإبدال، مما فتح أمامهم آفاقا واسعة لتنشيط التبادل التجاري، فكانوا على صلة بأبناء جلدتهم اللاجئين بأمستردام وليفورنة. وقد طرحت مسألة العلاقة بينهم وبين المسلمين عدة قضايا مردها إلى نظرة كل منهم للشكل الأمثل في المعاملات.

- **عناصر أخرى متنوعة وبالخصوص العنصرين الفاسي والجزائري.** فبحكم الصلات التي كانت تربط تطوان بمدينتي فاس والجزائر فيما يتعلق بالنشاطين التجاري والحرفي فإن عددا من الأسر والأفراد كانوا ينتقلون للإستقرار بتطوان بصفة مؤقتة أو نهائية، وهذا ما سيؤدي إلى حدوث عدة مصاهرات بين عناصر تطوانية وأخرى من الجزائر أو فاس. ومما لا شك فيه أن الصلة مع فاس كانت جد مبكرة، فالزاوية الفاسية بحومة العيون التي تنسب إلى سيدي يوسف الفاسي أنشأها الصالح سيدي محمد أنوار الأندلسي عام 1003 /1595. وفي القرن الثامن عشر إستقبلت تطوان عدة أسر فاسية وفدت إليها بسبب الوباء الذي حل بالبلاد عام 1735/1150 وعرف بعام الجوع، ثم حدثت هجرة مماثلة على إثر إنتشار الطاعون بفاس سنة 1742/1155. وكانت العلاقة مع الجزائر موصولة أيضا ومن أسبابها وجود مرسى تطوان الذي كانت ترسو فيه سفن قراصنة الجزائر التي تصل إلى المضيق، وكما كانت تبحر منه سفن الحجاج المغاربة فتعرج على مرسى

الجزائر، ووجود هذه الحركة الدائبة سيؤدي إلى إستقرار عدد من الجزائريين في تطوان فرارا من تعسفات الأتراك.

- **فئات العبيد والغرباء والأجانب.** مثّل العبيد يدا عاملة مسخرة لفائدة مالكيهم، ونميز فيهم بين الرقيق الأبيض وهم الأفراد الذين تم أسرهم من طرف القرصانين واشتراهم بعض تجار الرقيق وكانوا من أجناس مختلفة، ثم الزنوج الأفارقة الذين استجلبوا في إطار تجارة النخاسة وأصبحوا مملوكين، وهم عبيد إذا كانوا ذكورا وإماء إذا كن إناثا، والإماء نوعين: نوع رفيع وهو الذي يصلح للتسري، وآخر وخش ويصلح العادي منه للطبخ والخدمة العادية، والوضيع ويستخدم في الأشغال الوضيعة. وأما الغرباء فهم عابرو السبيل الذين طوحت بهم الأقدار فنزلوا بالمدينة وجلهم من المجاذيب بعضهم ظل يعيش مهمشا، والبعض الآخر كسب إعتقاد الناس فيه، وكذلك الأشخاص الذين فروا من معتقل سبتة واضطر جلهم إلى إعتناق الإسلام حتى لا يردون إلى العقاب. وأما الأجانب ونعني بهم التجار الأوربيين والقناصل ووكلائهم فكان عددهم قليلا في هذا القرن.

4 - التراتبية الإجتماعية:

بالرغم من وجود نوع من الترابط بين السكان المسلمين أساسه وحدة الدين والعقيدة، فإن المجتمع الحضري في المغرب عموما كان يخضع لتراتبية تذكرنا بتقسيمات المجتمع القديم. ولكن ما هي المجالات المفتوحة أمام الكل؟ إنها تتمثل في الأنشطة الإقتصادية التي تدور عليها الحياة بالمدينة. وبالنظر إلى نوعية الوظائف التي كانت تزاولها المدينة والمتمثلة بالأساس في الحركة التجارية والصناعة الحرفية، فإن ذلك يدلنا على تصنيف أساسه التفاوت الإجتماعي القائم على الثروة أو الدخل.

4.1 - التصنيف الإجتماعي على أساس الدخل:

يعد من العوامل الرئيسية التي حددت العلاقات الإجتماعية وتحكمت في التراتبية. وبالرغم مما يمكن أن تلعبه الثروة داخل المجتمع من دور هام في تشكيل التصنيف الإجتماعي، فإن ذلك يعسر تمييزه على أساس الثروة فحسب، ذلك أن العلم والشرف والمنصب يشكلون وسائل للترقية الإجتماعية، وهو ما عرفه ابن خلدون بالجاه، فالجاه يحتل مكانة بارزة في حياة المجتمع ويساهم في تشكيل النخبة، وهو متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة.[6] والظاهر أن التمايز في الثروة يشمل جميع فئات المجتمع وبدون

---

[6] - عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، 1967 ، ص.694.

استثناء، إلا أن التفاوت لم يكن حادا فيما بينها. ومع ذلك وجدت أسباب أذكت هذا التمايز وأدت في بعض الأحيان إلى حدوث مواجهات عنيفة. ومن شأن معيار الدخل أن يميز بين مختلف فئات المجتمع كالتالي:

- **فئة الأغنياء:** يمكن أن يعد ثريا كل من كان له فائض عن ضروريات أسرته سنويا. وبغض النظر عن الظروف الطبيعية والتقنية التي لم تكن مساعدة في الغالب لتوفير فائض إنتاج، فإن وضعية الغنى كانت غير قارة داخل السلم الإجتماعي، وهكذا فإن عددا من الأثرياء في تطوان فقدوا ثرواتهم أو قسما منها بعد معركة «عيطة السبت» سنة 1727 التي دارت بين الأهالي وقوات الباشا أحمد بن علي الريفي.

وإن الأمثلة عن ثروات الأغنياء نادرة إذا ما استثنينا ما ذكره الإنجليزي بريث ويت عن عبد السلام لوقش، ولكن ما راكمه بعض التجار وبعض رجال السلطة من منقولات وعقار وغيره وما تركوه تبين أن أصحاب الثروة في تطوان هم زيادة على الأعيان كل من توفرت لديه الإمكانات المادية مثل كبار التجار ورجال السلطة.

وساهم تطور المعاملات التجارية والنشاط الحرفي في تنمية دور التاجر، واختص نشاط كبار التجار في تجارة الجملة في الفنادق ودور السلع،ويمكن تقديم أمثلة عن الغنى المحقق بالتجارة الكبرى لدى بعض الأفراد والأسر من المسلمين خلال القرن الثامن عشر مثل أسرة الحمامي وأسرة لوقش ومحمد أبغلي وعبد الكريم أراغون ومحمد البروبي وأحمد بجة، وكل هؤلاء مارسوا تجارة امتدت شبكتها إلى جبل طارق وقادس ولشبونة ومرسيليا وليفورنة والجزائر ومصر، وجمعوا ثروات مهمة، فقد كان التاجر بجة قد شغل منصب قنصل السلطان ووكيله بجبل طارق إلى أن توفي هناك ولم يترك وصية ولا خلف وريثا، وترك خلفه ممتلكات بلغت قيمتها أربعين ألفا من الجنيهات.[7]

إن النفوذ المادي لهذه الفئة أتى من تحكمها في جزء هام من الثروة العامة بسبب إحتكارها لجزء مهم من التجارة مع الأجانب. وكان بديهيا أن يمنحهم ذلك حظوة وتأثيرا لدى المخزن، حيث كان من بين هؤلاء التجار من حمل لقب « تاجر السلطان». وكانت علاقة المخزن مع هذه الفئة من التجار تتميز أيضا بالمساعدة لما في ذلك من مصالح عامة، فمثلا طلب السلطان بواسطة ترجمانه اليهودي سنبل من القنصل الفرنسي شيني (سنة 1769) أن يبعث بتوصية إلى غرفة التجارة بمرسيليا في حق التجار التطوانيين الحاج

---

[7] - روجرز، **تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900** ، ص.180 .

محمد الرزيني والحاج عبد السلام الرافعي والحاج علي مدينة، وذلك بإعانتهم على بيع سلعهم وجلب الأغراض التي كلفهم السلطان باقتنائها.[8] وكان بعض التجار يستفيد كذلك من بعض الإمتيازات كالتخفيض الجزئي للحقوق الجمركية أو تأجيل تسديدها. ويتدخل السلطان أيضا لأجل إعانة بعض التجار على تكوين شركة تجارية، فقد كتب السلطان مولاي سليمان إلى قنصل المغرب بجبل طارق يهودا بن عليل يوصيه في شأن بعض أفراد عائلة أشعاش « أما بعد فيصلك صاحبنا عشعاش ولابد قف معه واختر له أصحابا وتجارا من أهل الأمانة والصدق يتاجرهم ويكاتبهم في جبل طارق وكذلك بأجبوكة يكونون كبانية له فقد أردنا بحول الله وقوته أن تعمر به مرسى تيطوان..».[9]

وإذا كان الثراء يجعل صاحبه يتبوأ مكانة إجتماعية مرموقة، فإنه أيضا يجعل المخزن يختار من بين الأغنياء أمناءه بالمراسي والديوانات، وينتقي من بينهم سفراء له ومبعوثين إلى ملوك أوربا والسلاطين العثمانيين، ومن أمثلة التجار التطوانيين الذين حظوا بذلك نذكر محمد تميم ومحمد قردناش ومحمد أبغلي وعبد الكريم راغون وغيرهم.

وهكذا إذا كانت التراتبية الإجتماعية تقوم على العنصرين الهامين: الثروة والجاه، فإن ذلك يعني السلطة التي تمسك بجهازها الخاصة. والمصادر المغربية غالبا ما تستعمل هذا المصطلح كرديف للأغنياء، إلا أن منصب السلطة ليس كافيا لتحقيق الغنى ما لم يقم صاحبه باستغلال النفوذ للتمكن من الإغتناء، فالقائد أو الباشا بإمكانه أن يقتطع ما شاء من المداخيل والهدايا التي تمر بين يديه، وأن يفرض غرامات إضافية وإيتاوات على السكان. وتدلنا بعض المعلومات التي وصلتنا من مصادر تاريخية أجنبية وكذلك من المصادر المغربية التي روت الأحداث السياسية للبلاد وخاصة منذ الثلث الأول من القرن الثامن عشر عن مبلغ الثروة التي راكمها بعض الباشوات وخاصة من آل الحمامي الريفي عن طريق الجمع بين السلطة السياسية وممارسة التجارة، وكذلك الإستفادة من موارد القرصنة البحرية.

وإذا كان عنصر السلطة والمتاجرة من عوامل الثراء، فإن المصاهرة مع المخزن من عوامل تعزيزه، فقد كانت للقائد علي بن عبد الله الحمامي مصاهرة مع السلطان مولاي إسماعيل، ونفس الشيء بين ابنه الباشا أحمد بن

---

8 - Pierre Grillon, La Chambre de Commerce de Marseille et le Consulat de France au Maroc pendant la mission de Louis Chenier (1767 - 1782) , Hespéris- Tamuda, n° 4 , 1963, p.91.

9 - داود، ج.8 ، ص.60.

علي والسلطان المستضيء بن إسماعيل. وكما يكون الإرث من الآباء إما أصلا للثراء وإما فرعا معززا له ونأتي في ذلك بأمثلة عن محمد بن عمر بن عبد السلام لوقش ومحمد بن محمد تميم وعبد الرحمن بن أحمد قردناش ومحمد البروبي.

وهكذا فالفئة الغنية بتطوان في القرن الثامن عشر تكونت من العائلات التي تراكمت لديها الثروة إما عن طريق الإستفادة من نشاط القرصنة وما يتفرع عنه من موارد شتى، وخاصة لدى الأسر التي من أصل أندلسي مسلمين ويهودا، وأحيانا بعض العلوج، وإما بواسطة السلطة بحيث تستثمر الأموال في المتاجرة وفي امتلاك الرباع والعقار.

وكانت الثروة داخل الملاح من المنقولات على الخصوص، وتشكلت من النقود والمصوغات والبضائع وهي أشياء يسهل نقلها أو إخفاؤها عند وقوع فتن أو أحداث خطيرة تعرض الملاح لأعمال النهب والسرقة. وقد اتسمت التراتبية الإجتماعية بأقل ما يمكن من التفرقة بالرغم من التفاوت الهائل في الثروة بين التجار والوسطاء من جانب وباقي عامة اليهود من جانب آخر. فخلال القرن المذكور كان عدد من التجار الأثرياء من يهود تطوان يقومون بدور الوسيط في المبادلات مع أوربا، وقد نسج بعضهم علاقات متينة مع كبار رجال المخزن وبالخصوص القائد علي بن عبد الله الحمامي الذي كان له وكيل يدعى يوسف العازر يقوم بالمتاجرة بين تطوان ومرسيليا.[10] وكما اشتهر أبراهام بنيدر كوكيل للباشا أحمد بن علي مقيم بجبل طارق، واستخدم كترجمان في سفارة التاجر محمد أبغلي التطواني إلى إنجلترا. وذكر بريث ويت أنهم في تطوان أكثر ثراء من أي مكان آخر بالبلاد إذ أن جميع التجارة تمر من أيديهم، وأنهم لا يتجافون النصب والإحتيال على المسلمين والنصارى.[11] وبالرغم من ذلك فإنهم استفادوا من تسهيلات وامتيازات جبائية وجمركية مثل نظرائهم التجار المسلمين، وتولوا أحيانا تسويق مواد خاضعة للإحتكار، ففي مطلع عام 1762/1176 أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأن لا يبيع أحد القشينية إلا يهودي بثمانين أوقية ويشتريها من أصحابها بأربعين أوقية.[12] وكان بذمة يهود تطوان على وجه السلف والتوسعة من السلطان خمسون ألف ريال يؤدونها على يد بن عمران سنة 1769/1184. وكما كان بعضهم يملك دور ضرب السكة في كل من مراسي تطوان وطنجة

---

[10] - De Castries, S.I.H.M, France, Tome III, p.559 , note 2.

[11] - بريث ويت، ص.82.

[12] - الضعيف، ص.171 .

والعرائش، ويؤدون عن ذلك واجبا سنويا، فمثلا كان بذمة التاجر بن وليد وماييز بن به مبلغ عن عام 1771/1185 بلغ أربعة آلاف ريال إنصافا بينهما.[13]

- **الفئة الوسطى.** ويمكن القول إنها الشريحة الإجتماعية الأكثر عددا في المدينة، وهي تتشكل من عامة التجار وخصوصا تجار التقسيط وأعوان السلطة وأصحاب الحرف والصنائع التي يتعدى رواجها المدينة نحو الخارج، إذا كانت حالة بعض الحرفيين أحسن من حالة غيرهم. وقد تحدث بعض الزوار الأوربيين عن يسر حال أهالي مدينة تطوان بصفة عامة، وبأنهم متحضرون وأكثر رخاء من نظرائهم من سكان المراسي الأخرى وأبعد ما يكونون عن الغوغاء.[14] وهذا يدل على قلة المعوزين والمحتاجين ولم تظهر الشدة والفاقة إلا مع كثرة الجبايات والمغارم.

- **الفئات الفقيرة.** ويحشر فيها الأجراء ممن يشتغلون عند أصحاب الحرف والصنائع أو المستخدمون من ذوي الدخل الضئيل من الحمالين والحمارين الذين يقومون بحمل البضائع أو نقلها أو إفراغها وغيرهم، وأغلبهم من المهاجرين الباحثين عن العمل الذين يؤلفون عناصر من أصول قروية في الغالب لم يستقروا بعد كما ينبغي، ويعيشون على هامش السكان الحضريين محتفظين في غالب الأحيان بطابعهم القروي وبعيدين عن كل العادات والتقاليد المدينية. ولم يكن التضامن بين أفراد هذه الفئات تمليه شروط العمل وظروفه فحسب، ولا إنتماؤهم لطريقة معينة كالعيساوية بالنسبة لمعظمهم، ولكن أيضا يمليه إنتسابهم الجغرافي لجبال الريف المجاورة.

ولا يعني هذا التصنيف المذكور وضع الحدود بين فئات المجتمع، أي أنه ليس قطعيا، إذ لم تكن هناك في الواقع حدود فاصلة بين عناصر السكان تحول دون تسلق البعض منهم في السلم الإجتماعي. إلا أن هناك عناصرا كان وضعها الإقتصادي غير واضح مثل الطلبة ومعظم الشرفاء.

ومن الملاحظ أن التصنيف الإجتماعي لم يكن يخضع دائما لمعايير إقتصادية، بل كان يمتد إلى معايير أخرى لها علاقة بمجال التعايش الإجتماعي المبني على خصائص إثنية أو أسس ثقافية- دينية وغيرها.

---

[13] - ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج.3 ط.2 ، ص.253 .

[14] - J.Potocki, p.283, Braithwaite, p.91.

4.2 – التصنيف على الأساس العرقي :

لم تكن نظرة الناس لبعضهم البعض ولا العلاقات فيما بينهم تنبني على الفروق بين الغني والفقير فقط، بل على عناصر أخرى مثل الأصل أو المحتد.[15] وانطلاقا من ذلك يمكننا تصنيف المجتمع إلى الفئات التالية:

- **أهل البلد**. ويعتبرون هم السكان الأصلاء الذين عمروا المدينة بعد إعادة تأسيسها، ولا يتعلق الأمر في هذا الصدد باللقب العائلي بقدر ما يتعلق بقدم إستقرار العائلة بالبلدة. وهؤلاء الأصلاء من الأندلسيين ومن لف لفهم، وقد تحدث عنهم كثير من الزوار الأوروبيين وسموهم «المورو» ونعتوهم بأوصاف تدل على تحضرهم، ولاحظوا التناسق الدقيق الذي يربط بين الدور والبساتين وأزياء الأهالي،[16] وميزوهم بذلك عن باقي السكان من المسلمين واليهود.

- **الأصيليون** . ونقصد بهم العناصر من سكان القبائل المجاورة وخاصة حوز تطوان حيث شيدت المدينة على أراضيهم، ولما أعيد تجديد بنائها على يد الأندلسيين المهاجرين عارضوه لفترة قبل أن تستقطبهم مدنيتها، وقد نعتهم الزوار الأوروبيون باسم «العرب» تمييزا لهم عن «المور» أو الأندلسيين، ولما كان البلد يحتاج إلى هذه العناصر في مجالات شتى، فإنهم ما لبثوا أن انصهروا في المجتمع الجديد. وكما لا يغيب عن بالنا الروابط الإثنية التي جمعت بين هؤلاء وأولئك باعتبار الهجرات المتعددة من الأندلس التي استهدفت شمال المغرب جباله وقراه في مراحل متقدمة قبل سقوط غرناطة بكثير.

- **الغرباء**. وشكلوا شريحة إجتماعية هامة وفدت على المدينة إما بسبب ظروف إرتبطت بتطور نشاط القرصنة البحرية حيث إستقر بتطوان عدد من الجزائريين والعلوج، وإما لظروف عسكرية نجم عنها مجيء جيش المجاهدين الريفيين الذي ضرب الحصار على سبتة، وأصبحت تطوان قاعدة للقائد علي بن عبد الله الحمامي، واستقرت بها أسر من أصل ريفي. وثم لظروف إجتماعية وإقتصادية تمثلت في احتداد تأثير الوباء داخل البلاد،[17] أو نتجت عن نقل النشاط التجاري من فاس نحو تطوان نظرا لوجود المرسى وإمكانات الإتصال بأوربا والشرق مما جلب عددا من التجار الفاسيين الذين

---

[15] - عبد الإله الفاسي، **التشكيلة الاجتماعية لمدينة الرباط خلال القرن التاسع عشر**، مجلة أمل، عدد 18 ، السنة 6 ، الدار البيضاء1999 ، ص.82 .

[16] - Braithwaite, p.156.

[17] - الضعيف، ص.141.

استقروا بتطوان ومن بينهم التاودي بوهلال الذي كان والده أحد أهم التجار بفاس، وقد رافق البولوني بوطوكي في سفره من جبل طارق إلى تطوان، وتصاهر مع السلطان مولاي اليزيد فأصبح من كبار أعيان المدينة.[18]

- **اليهود**. شكلت الجماعة اليهودية بتطوان مجتمعا متميزا عرقيا ودينيا. فالحياة الإجتماعية لهذه الأقلية كانت خاضعة لطقوس العقيدة الدينية أكثر مما كان عليه الأمر عند الأغلبية المسلمة في المدينة. وهذا لا يعني أن الملاح كان مجالا منفصلا كليا عن البلد، وإنما متصلا به إتصالا إنسانيا وإقتصاديا. وكانت هذه الجماعة المنحدرة من أصل «ميغوراشيم» وهم المهجرون من الأندلس والبرتغال قد انتشروا بصفة عامة في شمال المغرب، واحتفظوا باللغة القشتالية القديمة (لادينو)، وجعلوها أداة للتخاطب فيما بينهم ووسيلة للمعرفة والتعليم التقليدي.[19] وقد قدر الإنجليزي بريت ويت عدد اليهود القاطنين بتطوان عام 1727 بنحو خمسة آلاف نسمة يتوزعون على سبعمائة دار، مما يعني أن معدل الأفراد في كل بيت كان يصل إلى سبعة.

- **الأوربيون**. وكان عددهم قليلا بالمقارنة مع عدد السكان، وغالبيتهم كانوا من الأسرى الذين تم أسرهم في البحر على متن المراكب والسفن الأوربية، واقتيدوا إلى تطوان ليباعوا في سوق الرقيق الأبيض أو ليودعوا في السجن في إنتظار إفتكاكهم. وقد نجم عن ذلك أن بدأت تفد على مرسى تطوان منذ القرن السابع عشر بعثات مؤلفة من الرهبان والقساوسة تنتسب لطوائف مسيحية إختصت في إفتكاك الأسرى النصارى، وكما أقام بتطوان كذلك عدد من التجار الأوربيين مارسوا إلى جانب نشاطهم التجاري دور الوساطة في عمليات افتداء الأسرى المسيحيين. وستدفع هذه العلاقات المتشابكة بعدد من البلدان الأوربية إلى مطالبة المخزن بالسماح بإقامة قناصل لها أو وكلاء قناصل بتطوان. ولما كانت تطوان قد أمست خلال القرن الثامن عشر عاصمة دبلوماسية للمغرب بحكم إستقرار عدد من القناصل والتجار الأجانب بها وقدوم مبعوثي الأجناس إليها، فإن منظر الأوربي النصراني الذي يختلط بالمسلمين أصبح مألوفا لدى الأهالي ولا يثير أي رد فعل لديهم، وبالمقابل فإن عددا من الزوار الأوربيين الذين كونوا صورة سيئة عن أهالي تطوان لم يتراجعوا عن أحكامهم المسبقة إلا بعد

---

[18] - Potocki, p.36.

[19] ـ حاييم الزعفراني، **يهود المغرب والأندلس**، ج.2 ، ترجمة أحمد شحلان، الرباط، 2000، ص.313.

معاينتهم للسكان، فقد ذكر الرحالة بوطوكي الذي زار المدينة في أواخر القرن أن الأجنبي يحس بالراحة بين الأهالي ولا يتعرض لأية مضايقات.[20]

- **العبيد**. وهم غير الرقيق الأبيض، وأصلهم من الزنوج الأفارقة الذين مثلوا جزءا مهما من تجارة النخاسة في المغرب منذ العهد السعدي. وكان السلطان أحمد المنصور الذهبي لما أغار على قبائل السودان قد قام بسبي رجالهم ونسائهم، واستخدم أعدادا منهم في جيشه، فلما مات تفرقوا في أقطار المغرب وأصبح كثير منهم في حكم الأحرار وأجدادهم مسلمون. وفي عهد السلطان مولاي إسماعيل أفتى له بعض الفقهاء بصحة تملكهم، وقام اعليلش بالسعي في هذا الأمر وإجبار العلماء على الفتوى بذلك، وكان حظ مدينة تطوان من ذلك الشأن ليس أكثر مما وقع في مدن أخرى كفاس، فالسلطان مولاي إسماعيل بعث محمد اعليلش إلى تطوان وأمره بجمع الحراطين بها رغم قلتهم، فلما وصل إليها أظهر الشدة وفتن الناس فتنة، ففر العبيد وصاروا إلى قمم الجبال. قال الضعيف: « وفي سنة إحدى وعشرين ومائة وألف (1709) نزل بتطاون حرسها الله عدو الله تعلى محمد بن قاسم اعليلش المراكشي.. وقد كان فتنهم فتنة يشيب فيها الوليد ويذوب لها الحديد». وكان من علمائها من طلب من الله الموت قبل الوصول إليه كالفقيه العالم سيدي علي بركة لما سمع به أنه قادم عليه لأجل الفتوى، فمات قبل وصوله ببضعة أيام.[21] فكان اعليلش يقول لهم « من تكلم بكلمة من العلماء أو غيرهم أفعل به كما فعلت بجسوس ويصيبه العذاب والنكال وهم يظنون أن السلطان أمره أن يفعل ما فعل بهم».[22] وكان عدد من العبيد الفارين بجلدتهم قد لجأوا إلى ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم، فقصدهم جيش السلطان وطلب من الشرفاء أن يسلموا العبيد المحتمين بالضريح المشيشي. وكان القائد سعيد الزيراري قد نزل على عزائب الشرفاء ونهبها ليرغمهم على تسليم الحراطين، فلما رأى الشرفاء ذلك وفدوا على السلطان مولاي إسماعيل فقابلهم بالتعظيم والإحترام وكتب لهم ظهير التوقير والإحترام بتاريخ 26 جمادى الثانية عام 1709/1121. وكان السلطان قد كتب إلى القائد علي بن عبد الله الحمامي أن يشتري للأعزب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم إلى المحلة.[23]

---

[20] - Potocki,Op.Cit, p.154.

[21] - داود، ج.2 ، ص.41.

[22] - ابن الحاج، ج.7 ، ص.238.

[23] - داود، المصدر السابق، ص.38.

4.3 - التصنيف على أساس المعيار الثقافي- الديني :

يعتمد هذا التصنيف على الرابطة الروحية التي يلتئم داخلها جل العناصر، ويتعين على الباحث تصور نوع التفاوت الذي يمثله مقياس العلم والصلاح، فالمجتمع ينظر في المكانة الأسمى من تتبلور فيه أرقى درجات المعرفة والتقوى. وكما يتمثل دور الطبقة المثقفة في مدى تأثيرها داخل المجتمع سواء في مجال المشاركة والتدريس والإفتاء، أو في ميدان شغل المناصب الشرعية من قضاء وعدلية، وكذلك الإضطلاع بالمهام الإقتصادية والإجتماعية كالحسبة. وقد يحيلنا هذا المعيار إلى تقسيم لا يخلو من شائبة كالتالي:

- **أهل الصلاح والولاية** : قد يكونون متفقهين أو أميين، ولكن صلاحهم واعتقاد الناس فيهم يجعلهم أصحاب مكانة مرموقة، فيقصدهم الزوار ويتقرب إليهم.ونأتي بمثالين متقابلين ممن عاشوا في القرن الثامن عشر أولهما الشيخ الصالح الناسك العلامة أبو الحسن سيدي الحاج علي بركة، وقد ذكر في عمدة الراوين أن له كرامات وخوارق تؤثر عنه وأنه كان صاحب أحوال ربما يتطور على غير صورته، فيتطور على صورة السبع.[24]ووصفه صاحب نشر المثاني بأنه من العلماء العاملين ومن الصلحاء الكاملين توفي في 29 شوال عام 1120 (1706)، وبني عليه مشهد من المشاهد الكبيرة.[25] وثانيهما رجل من أولاد الحاج البقال كان يقطن بحومة العيون وبها ضريحه قيل إنه كان يطوف بأزقة البلدة وله حصير يضعه على كتف صاحب له وزق من الخمر وطبل يضرب عليه. وإنه لما بلغ خبره للقائد علي بن عبد الله خرج إليه لينهاه عن فعله فوجده بزنقة المقدم، فناوله البقالي المذكور من شرابه، فلما شربه صاح وذهب على وجهه وخرق ثيابه.[26] وذكر في العمدة أن إسم هذا الرجل هو عيسى بن علي الحاج البقال، وكان مجذوبا تعتريه أحوال ويتظاهر بشرب الخمر وليست خمرا.[27]

- **العلمـاء**: لم يشكل العلماء هيئة متميزة داخل المجتمع على غرار ما كان عند أهل الحنطة إذ لم تكن لهم مؤسسة تنظيمية، فطبقة العلماء جمعت كل الملمين بالثقافة الدينية والعلوم الوقتية، ومنهم المدرسون والقضاة والمفتون وشيوخ الزوايا. وأهمية هذه الشريحة لم تكن تنحصر في تلقين

---

[24] - الرهوني، ج.4 ، ص.110 .
[25] - القادري، ج.3 ، ص.195 .
[26] - السكيرج، ص.14 .
[27] - الرهوني، ج.4 ، ص.105 .

العلوم وتقويم سلوك الناس أو في ممارسة بعض الوظائف الشرعية والإدارية، وإنما كانت تتجاوزها إلى لعب أدوار جد هامة على المستوى السياسي بالنظر للمكانة التي كانت تحظى بها في المحيط الإجتماعي. ولم يكن عملها يجعلها تظهر كهيئة إلا في وقت تقديم البيعة للسلطان والتي تقع على عاتق العلماء مسؤولية صياغة نصها. وكان هؤلاء يحظون باحترام الجميع وباحترام السلطان نفسه الذي تستمد سلطته مشروعيتها من نص البيعة، وكما كانوا يحتكرون وظائف القضاء والإفتاء والتدريس، وكان بعضهم لا يخشى في الله لومة لائم كمثل الفقيه العلامة المشارك أحمد بن محمد الورزيزي الذي قدم سنة 1176/ 1762 على السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمراكش فوجده بالمسجد مع بعض العلماء وكان لا يعرفه، فلما عرفه وصافحه قال له « لا يحل لك وأنت أمير المؤمنين أن تسكن النصارى في مدائن المسلمين، ويرفعون أعلامهم فوق ديارهم، ولا يحل لك أن تعطي من بيت مال المسلمين من لا يستحقه فأنت المسؤول عليه بين يدي الله، ويجب عليك أن تكف ولاتك عن المظالم، وأن تتحرى في ولاية المستحقين»،[28] ومثل هذا العالم يقرن بين عمله وسلوكه. وقد لعب الفقهاء دورا حاسما في توثيق الصلات بين السكان، وإن أثرهم المعنوي كان فوق مستوى الحصر، فعلى هذه الفئة بالإضافة إلى الشرفاء ومقدمي الحومات كان يدور جانب الإتزان داخل البلد، ونادرا ما كان يصدر أمر دون استشارتهم، وكان من أشهرهم وجاهة وعلما الفقيه الدراكة عمر لوقش والفقيه الورزيزي المذكور آنفا والفقيه المدرس القاضي عبد الكريم ابن قريش والعلامة محمد بن الحسن الجنوي والعلم الصوفي أحمد بن عجيبة. وإن جل هؤلاء العلماء كان لهم إنتماء إجتماعي مثل باقي العلماء في حواضر المغرب، فأقليتهم ينتسبون إلى فئة الشرفاء شيوخ الزوايا المتصدين لتلقين التربية الصوفية والأوراد مثل الشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة.

- **الشرفاء** : حظيت الأسر الشريفة في تطوان بتقدير كبير من لدن الأهالي الذين كانوا يتقربون منها وخصوصا أثناء الأزمات، وذلك ما أكسب الشرفاء موقعا متميزا في التراتب الإجتماعي للمدينة. وقد كانت للشرفاء حظوة لدى السلاطين العلويين الذين أعفوهم من الكلف والجبايات وأغدقوا عليهم المنح والعطايا حتى ظهر عدد من المنتحلين للنسب، مما دفع بعض السلاطين إلى التشديد في التمييز بين الصرحاء والمنتحلين. وقد كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد كلف الشريف الفقيه سيدي محمد بن الصادق ابن

---

[28] - الضعيف، ص.172.

ريسون بوضع ديوان يجمع فيه النسب العلمي، فألف لذلك الغرض « فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير»، وقد اشتهر منهم في تطوان بيت الريسونيين وبيت الوزانيين وهم أبناء عمومة إضافة إلى البقاليين. وقد استرعت الأسرة الريسونية كثيرا من الإنتباه لما كان لأفرادها من صبغة دينية صوفية نجمت بالأساس عن إشعاع شيوخها، وتمتعت بنوع خاص من التأثير اصطلح عليه منذ القديم بالبركة يورث أبا عن جد، وكما كانت لها صبغة سياسية برزت بشكل تدريجي منذ حلول مؤسس الزاوية بتطوان الشيخ سيدي علي، حيث كانت له مراسلات مع السلطان مولاي سليمان الذي كان يعقد آمالا على الشيخ المذكور في استتباب الأمن بمنطقة جبالة، بعد أن كان أخوه مسلمة قد إستقل ببلاد الهبط وجبالة وبايعته مدن كتطوان وطنجة والعرائش، وكلف الشريف محمد بن الصادق بن ريسون بالتوجه لحاضرتي فاس ومكناس ليدعو الناس لمبايعته وسلمه تفويضا في ذلك في رجب عام 1206 (مارس 1792).[29] إلا أن مولاي مسلمة فشل واستسلم لأخيه مولاي سليمان الذي وقع عليه الإجماع من أهل المغرب. ويظهر أن الزاوية الريسونية انضمت إلى هذا الإجماع وسعت بما لديها من تأثير روحي ومعنوي في تهدئة الأحوال بناحية جبالة والخضوع للسلطان مولاي سليمان، وأظهر شيخها الرغبة في الإنتقال من تزروت إلى تطوان، وهذا ما نستنتجه من رسالة السلطان إلى الشيخ سيدي علي بن ريسون مؤرخة في شعبان عام 1207: « ولد عمنا الأرضى الأعز المرتضى سيدي علي بن ريسون أعانك الله وأصلحك. سلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه وما ذكرته على شأن الفندق الذي كنا أنعمنا به على ولد عمنا سيدي محمد الصادق من أنك وجدته مشغولا بمسائلنا فتأخرت عنه حتى يفرغ منها.. فاعلم أننا وجهنا أخانا الأعز مولاي عبد المالك بن إدريس في محلة عظيمة من وصفاننا وخدامنا وأنت نأمرك بالوقوف التام معه حتى تصلحوا قبائل جبالة كلهم وتجعلوهم على أحسن وجوه الإستقامة بحيث إذا قدمت لزيارة الثغور السعيدة نجدكم قد فرغتم من جميع عملكم .. والمؤمل منكم الدعاء الصالح في كل وقت من الأوقات والسلام».[30] وكانت للشريف سيدي محمد بن الصادق بن ريسون إبن عم سيدي علي حظوة ونفوذ كبيران عند السلاطين، وقد روى السكيرج أنه تسبب في عزل القائد عبد الرحمن أشعاش عن حكم تطوان، وسببه أن نحوا من عشرين رجلا من بني

---

[29] ـ داود، ج.3، ص.194.

[30] ـ نفس المصدر، ص.198.

معدان دخلوا على الشيخ سيدي علي مشتكين بأشعاش، فقال الشريف لولده أحمد اذهب بهؤلاء الناس إلى القائد أشعاش وقل له إنهم أصحابي فلا يتعرض لهم بسوء، فلما وصل بهم إلى القائد المذكور نهره وشتمه وسجن من معه. فلما سمع محمد بن الصادق بذلك قال: علي ببغلتي وأقسم أن لايدخل البلدة ما دام أشعاش حاكما فيها.[31] وحسبما ذكره أيضا فإن الشريف المذكور جاء عند السلطان مولاي سليمان وكان قد عزل أشعاش عن ولاية تطوان وأغرمه عشرة آلاف مثقال، فقال له: كيف يعطيك أشعاش عشرة قناطير وهو عنده أكثر من خزنة الجزائر! ترى محمد السلوي يعطيك فيه مائة قنطار، فباعه له بالمائة قنطار وجاء به مسجونا.[32] وهذه الحادثة تظهر ما كان لهذه الأسرة من صيت وتأثير لدى المخزن، وذلك نابع - دون شك - من قيام شيوخها بأمور لصالح الحكم المركزي ومنهم القطب الصوفي سيدي علي وابن عمه الفقيه الكاتب محمد بن الصادق، فقد صارا من بطانة السلطان الخاصة وعمدته في كل شدة، وذلك بسعيهما في الوساطة بين أفراد العائلة العلوية الحاكمة من إصلاح ذات البين بين السلطان مولاي سليمان وأخويه مسلمة وهشام، وتهدئة القبائل الجبلية المتمردة وإصلاحها بفض النزاعات بينها وبين المخزن، أو بين القبائل نفسها. ومقابل هذا الدور التحكيمي ذي البعد الديني فإن السلطان نفذ ما وعد به الشريف سيدي علي فأصدر أمره لقائد تطوان حمان الصريدي في 13 يونيو 1794 بإضافة الفندق المعروف بفندق لوقش بحومة الصياغين بالبلد ثم أطلق عليه فندق سيدي فريج للزاوية الريسونية. «وصيفنا القائد حمان الصريدي أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد فنأمرك أن تفرغ الفندق المعروف بفندق الوقاش بالصياغين من تطوان الخالص لبيت مال المسلمين عمره الله من جميع الشواغل التي به وتمكنه من محبنا الأجل الصالح البركة سيدي علي بن الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن ريسون الحسني العلمي لأننا جعلناه زاوية لوالده المذكور يجتمع فيها الفقراء لذكر الله والصلاة على مولانا رسول الله واعزم بذالك والله يعينك والسلام وفي الرابع عشر من ذي القعدة الحرام عام ثمانية ومائتين وألف».[33]

وكانت للشرفاء الوزانيين بدورهم مكانة وصيت عند حكام تطوان من آل الحمامي الريفي، فقد روي أن الشيخ التهامي قدم على القائد علي بن عبد الله

---

[31] ـ السكيرج، ص.39.
[32] ـ نفس المصدر، ص.40 .
[33] ـ داود، ج.3 ، ص.203.

ليرغب في بعض المساجين، وكان ولده الباشا أحمد صغيرا، فأمرته أمه أن يخرج لمولاي التهامي ويرحب به وأعطته ما يهدي له، ففرح به ومسح على رأسه ودعا له.[34] ولم يقع الجفاء بينهم إلا حينما بعث الباشا أحمد لمولاي الطيب بوزان على أن يشهد له بالشرف فامتنع. وكانت عادة شرفاء وزان أن يخرجوا إلى تطوان مرات عدة في السنة لتمتين الصلات مع أهلها وإحياء الرحم مع ذويهم القاطنين بها وبناحيتها. وجد جل الشرفاء الوزانيين بتطوان هو سيدي عبد الله بن العربي بن التهامي بن محمد، الذي توفي بها عام 1785/1199 ودفن بالزاوية التي تنسب إلى جده مولاي محمد قرب باب التوت من تطوان.[35]

ويعود جزء مهم من الصيت الذي اكتسبه الشرفاء أولاد البقال إلى بعض شيوخ هذه الأسرة، ومنهم الشيخ سيدي عبد الله البقال الذي كان الأهالي يقصدونه للتبرك به، وقد حكى السكيرج أن مولاي اليزيد لما قدم إلى تطوان وأطلق السبيل في الملاح خاف عدد من المسلمين من أن تمتد يد النهب إلى دورهم، فهرعوا إلى دار الشيخ المذكور طالبين نجدته، ثم إن بركة هذا الشريف أخرجت اليزيد من البلد.[36] وكما كان الشريف الطيب بن عبد السلام البقال على اتصال كبير بالقائد عبد الرحمن أشعاش.

ولم يكن الشرفاء يشكلون فئة إجتماعية متماثلة وكثيرة العدد، وإنما كانوا فئة مركبة ومختلفة من حيث مستواها الإقتصادي، بحيث كان التمييز داخلها في درجة الغنى والفقر، وكذلك في إنتماء بعضها إلى عائلة أكثر شهرة من غيرها. وقد كانت تقطن بتطوان كثير من الأسر الشريفة النسب وقد عددها الشريف محمد بن الصادق بن ريسون في مؤلفه «فتح العليم الخبير» المشار إليه آنفا.وكان حرص هذه الأسر على شجرتها النسبية بهدف تبرير تميزها عن باقي السكان وفي نفس الوقت إضفاء الشرعية على مكانتها الإجتماعية. وكما يمكن أن نقرر أن الهالة التي أحيط بها ذوو النسب الشريف في البلاد مردها في غالب الأمر إلى العاطفة الشعبية واعتقاد العامة فيهم.

- **الطلبة** : وهم طلبة العلوم الشرعية واللغوية وغيرها الذين يدرسون على علماء الوقت ببعض مساجد المدينة وجوامعها كمسجد العيون والجامع الأعظم وجامع لوقش وتوجد به غرف لإيواء الطلبة الوافدين على المدينة، ومنهم أيضا المدرسون الذين يقومون بتعليم الصبيان الكتابة والقراءة ثم

---

[34] ـ الضعيف، ص.142.
[35] ـ داود، ج.3 ، ص.98.
[36] ـ السكيرج، ص.15 .

تحفيظهم القرآن الكريم إلى جانب ما يحفظونه من متون في العقيدة والعبادات وقواعد اللغة بالكتاتيب (المسايد)، ومنهم كذلك الحزابون الذين يقرأون الحزب القرآني بالمساجد. وقد حبس الأهالي على كل هؤلاء أوقافا متنوعة في وصاياهم.

4.4- التصنيف على أساس المعيار "المخزني":

يعكس مجتمع مدينة تطوان حسب كل التصنيفات السابقة إلى حد ما تشكيلة البنية الإجتماعية التقليدية في الحواضر المغربية. وداخل هذه التشكيلة الاجتماعية الحضرية نجد حدين يتقاطعان فيما بينهما: أحدهما ترسمه العناصر المستحوذة على المقاليد من جهة وهي الخاصة، والآخر تمثله العناصر المستفيدة من الإمتيازات من جهة أخرى وهم الأعيان. ويمكن التفوق المادي والمعنوي للفئتين من قيامهما بدور سياسي وإجتماعي مهم يتمثل في توجيههما لشؤون العامة حسب مصالحهما، وهذا الواقع يبين ما لهذا التصنيف من عواقب إجتماعية.

- **الخاصة:** ويقع على عاتقها مسؤولية تدبير الشأن السياسي والإداري للمدينة، وكما يقوم على كاهلها ضمان الأمن وحفظ النظام بها، وحمايتها من التهديدات الخارجية. وهذه الفئة تستمد نفوذها من السلطان مباشرة وتخضع لأوامره، إلا أن سلطتها كانت زمنية محض، ولذلك لم يكن جميع عناصرها يتمتعون بنفس التأثير الذي يمارسه البعض على العامة بحكم انتسابه في السابق إلى فئة الأعيان. ونجد في تطوان صنفين من الموظفين المخزنيين: صنف أخذ من بين أكثر الأسر ثراء وشهرة مثل لوقش وتميم وقردناش والبروبي، وكان السلطان يحتاج كثيرا إلى تجربتهم وخصوصا في علاقاته مع أوربا، وقد خول لهم الجاه المخزني إمكانات الزيادة في ثرواتهم. وصنف آخر كونه خدام المخزن ووصفانه مثل الحمامي وعاشر وأشعاش والصريدي، وهؤلاء لم يحرزوا على مكانة داخل المجتمع إلا بفضل ممارستهم للسلطة، وقد أتاح لهم منصبهم مراكمة ثروات طائلة.

- **الأعيان:** وهم أصحاب الوزن والتأثير داخل المدينة، وقد اصطلح على نعتهم في الوثائق المخزنية والمصادر التاريخية المغربية بأهل تطوان أو أهل البلد. واستعمال هذا المصطلح يدل على وجود فئة إجتماعية مركبة جمعتها المصلحة المشتركة، وتبادر إلى اتخاذ القرار وتوجيه الأحداث داخل المدينة. وقد شكل الأعيان القوة الثانية إلى جانب السلطة التي تمثلها الخاصة،وفي فترات انعدام السلطة وحصول الفتنة أو الثورة فإن الأعيان يملأون الفراغ السياسي،وقد حدث ذلك لما أعلن أهل تطوان ثورتهم على الباشا أحمد بن

علي وأبعد عن حكم المدينة، فشكل الأعيان مجلسا لتسيير شؤونها وتدبير أمورها دعوه مجلس الديوان.

وضمت فئة الأعيان ثلاث شرائح إجتماعية تمثلت في الشرفاء والعلماء وكبار التجار، وقد يتشابك دور كل من الشرفاء والعلماء من حيث خلق الإئتلاف، ومن حيث التوفيق بين الواجبات الشرعية وما يتطلبه جهاز المخزن من تعديل أو إصلاح. وتتجلى أهمية شريحة الشرفاء في الصلاحية التي كانت مخولة لهم للمساهمة في التوسط لإصلاح ذات البين بين الرعية والسلطان كلما اقتضى الأمر ذلك، ومن ثمة نجد اسمها مقترنا دوما بالعلماء والأعيان بالخصوص. وكما أن بعض العلماء كانوا من الشرفاء شيوخ الزوايا المتصدين لتلقين التربية الصوفية والأوراد، وقد اختلفت مواقفهم تجاه بعض الإجراءات التي قام بها المخزن والتي استهدفت مصالح الأعيان، ومن ذلك الموقف من مسألة جمع العبيد.[37] وكما كانت لبعضهم مصالح تجارية باعتبار أن بعض العلماء تعاطى للمتاجرة، وفرض ضريبة أو غرامة غير شرعية قد يؤدي إلى قيام نوع من التحالف بينهم وبين التجار.ثم إن السلطان كان يوافق على اختيار موظفيه كالأمناء والمحتسبين والنظار من بين الأعيان.

- **العامة**: يختزن لفظ العامة مفهوما واسعا ومضادا لكل عوامل البروز أو التفوق الإجتماعي، ويعني عكس الأعيان. وتتشكل العامة من شريحتين من السكان وضعية إحداهما أقل حظوظا من الأخر ى، ونميز فيهما بين:

* صغار التجار من أرباب الدكاكين والصناع الحرفيين وغيرهم، وهم يشكلون قسما مهما من السكان، وتقع على عاتقهم كل التكاليف والوظائف المخزنية، بيد أنهم لم يكونوا يتمتعون بأية إعفاءات جبائية أو جمركية أو امتيازات. وجل هذه العناصر تنتمي إلى المدينة منشأ وموطنا ومتشبعة بعاداتها وتقاليدها، وكما كانت تشكل الإحتياطي الذي يزود فئة الأعيان كلما سنحت الظروف لبعض عناصرها من الإرتقاء في السلم الإجتماعي.

* الأجراء ممن يشتغلون كمتعلمين عند أرباب الحرف والصنائع، والحمالين الذين يقومون بنقل البضائع وإفراغها ومن لف لفهم، ويؤلفون عامة من عناصر قروية في غالبيتها لم ينصهروا بعد كما ينبغي في بوتقة المدينة، ويعيشون على هامش الحضريين محتفظين في معظم الأحيان بطابعهم الأصلي ومفتقرين لكثير من العادات والتقاليد المدينية، وغالبا ما نعتهم الإخباريون بأوصاف مذمومة كالرعاع والغوغاء ونحو ذلك. ورغم

---

[37] - أنظر كلام سيدي أحمد ابن عجيبة في شأن عبيد البخاري. **تاريخ تطوان**، ج.2 ، ص.41 .

وضعية الإستغلال والفقر شبه التام الذي كانوا عليه فإن دورهم السياسي كان يتميز بالإمحاء الكامل حين تمسك السلطة بزمام الأمور.

وبصفة عامة فرغم كونها الفئة الأقل حظوظا في المجتمع، فإنها شكلت قاعدة الأساس الإقتصادي للمدينة، فتطوان كمدينة نشطت بها الحركة التجارية والحرفية كانت سوقا نافقة لليد العاملة، وكما لم تنعدم بها مساهمة العامة في النشاط الإقتصادي ولو على أقل مستوى. وفضلا عن ذلك، فهذه الفئة هي التي تحملت عبء الخدمات لفائدة الفئات المحظوظة داخل المجتمع، ومن ثمة فإذا كان من تناقض أساسه علاقات الإنتاج في المجتمع الحضري، فهو بين فئتي الخاصة والأعيان من ناحية، وفئة العامة من ناحية أخرى.

الفصل الثامن

العلاقات بين الفئات الإجتماعية

إن العلاقات داخل مدينة تطوان شأنها شأن سائر المدن الحضرية بالمغرب تتبني على أشكال التفاوت الإجتماعي، إذ وجدت مظاهر تميز كل فئة من الفئات على حدة. وكانت أشكال هذا التمايز أحيانا تنهار أو تنمحي في فترات الأزمة والتسيب، إلا أنها سرعان ما كانت تعود إلى سابق الأعراف بمجرد العودة إلى السلم والسكينة.[38] وبالرجوع إلى فئتي الخاصة والأعيان فإن السمة العامة التي تميز العلاقات بينهما تكمن في عنصر التكامل الذي يجمعهما، ويتضح هذا العنصر في المصلحة المشتركة. فالفئتان معا تحصلان على قسط من الموارد عن طريق إستغلال العامة واستخدامها، ولأجل ضمان ذلك ودوامه فإنه يتم بينهما نوع من توزيع المهام، فالخاصة غالبا ما يحتكرون السلطة المخزنية ويحمون النظام بالمدينة، وأما الأعيان فيجمعون أحيانا بين التسيير الإداري والتدبير الإقتصادي، ويمارسون مهام التأطير الفكري والعلمي للمجتمع، ويشكلون في الوقت نفسه سندا للخاصة ودعما لها. ولم يكن المخزن يستغني عن تأييد الأعيان ومساندتهم وخاصة عندما يتمتع أحدهم بنفوذ إجتماعي وعلمي فضلا عن الثروة، وقد كان أعيان تطوان يختارون من بينهم من يحكم المدينة بعد موافقة السلطان ففي سنة 1727 اجتمعوا على الفقيه عمر لوقش لأصالته وثروته ببلده وهم لكلام من كان كذلك أسمع، فولوه أمرهم ووافقهم عليه السلطان.[39] وفي منتصف القرن الثامن عشر اختاروا لتولي السلطة بمدينتهم أحد رجالهم وهو محمد تميم فأقرهم السلطان على ذلك، وقد يقومون برفضه أو بالسعي لعزله بل وحتى قتله كما حدث للقائد تميم المذكور. وهذا الواقع يجعلنا نقتنع بأن مصادرة الرأي السياسي من طرف الأعيان ترجع إلى امتلاكهم لأدوات الفعل والتفعيل.

وما نستنتجه من كل ذلك هو أن إقتصار التصنيف الإجتماعي وفق المقاربة المخزنية على خاصة وأعيان وعامة حري بأن ينطبق على مجتمع

---

[38] - ابراهيم أبو طالب، **مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب**، مجلة أمل، عدد 6 ،سنة 1999 ، ص.49 .

[39] - داود، **مختصر تاريخ تطوان**، ج.1 ، ص.84 .

حضري مثل مجتمع مدينة تطوان حيث يتجلى التفاوت الإجتماعي بين الفئتين اللتين في أعلى سلم الثروة من خاصة وأعيان وبين الغالبية الساحقة من العامة. وهذا ما يبين أن التقسيمات لم تكن عمودية على أساس طائفي وشبه عصبي، وإنما كانت أفقية على أساس الدخل أو المستوى المعيشي، فالتفوق الإقتصادي وكذلك « الإيديولوجي» للفئتين الأولتين كان يجعل من الفئة الأخيرة مسخرة لهما ومنقادة لمشاريعهما. فإذا كانت هذه المظاهر تميز هذه الفئات كلا على حدة، فإن ذلك يدفعنا إلى التساؤل: هل أدى تعارض المصالح بين هذه الفئات إلى حدوث تنافر وتصادم بين مكونات المجتمع التطواني؟ فهذا ما سنحاول الإجابة عنه عند الحديث عن بعض مظاهر الصراع الإجتماعي. وبالرغم من ذلك، فإن تماسك فئة الأعيان لم يكن يبعد الحواجز العازلة،ذلك أن ألفة العلاقات بين الأعيان والعامة، أي بين التاجر الثري والحرفي والمتعلم مثلا كانت قائمة في مبدئها على المساواة التي تقرها تعاليم الدين الحنيف.

1- علاقات التكافل الإجتماعي:

إذا كانت السمة العامة التي طبعت المجتمع الحضري تتمثل في التفاوت الإجتماعي فيما يخص الجاه والثروة، فإن العلاقات الإجتماعية لم تشبها تناقضات صريحة بين الفئات المتفاوتة لأن تصرفات هذه الفئات لم تصدر دائما عن مركزها في السلم الإجتماعي، وحتى التناقضات المترتبة عن التفاوت كان يقلل من حدتها التوجه التكافلي للمجتمع، فالتكافل والتراحم كان يسود المجتمع المغربي عموما نظرا لسيادة القيم الإسلامية المعروفة والتي تدعو المسلمين للتعاضد، ويقر بأن للفقراء والمساكين نصيبا من أموال الأغنياء. ولقد تعددت صور التكافل الإجتماعي بتعدد الوصايا التي تكتب أحيانا في زمن الوباء أو الضائقة بالناس، وأيضا حتى في وقت الرخاء، وتشتمل جلها على ما يعود بالبر والمنفعة على الضعفاء والمساكين وغيرهم.

ولما كانت العلاقات بين المسلمين مبنية على الهبات والصدقات ونحوها من صور التكافل بفعل الوقف الذي كانت تحفل به الوصايا، ذلك أن عمل الوقف أو الحبس يقوم بالأساس على إعطاء منفعة شيء لشخص أو لخدمة مصلحة إنسانية وإجتماعية. وقد وجدت مؤسسة تكافلية لخدمة الأغراض الإجتماعية المختلفة عرفت عند الأهالي بإسم «الحبوس الصغير»، وهي أملاك خالصة أو ثلثها أوصى بها المحبسون لأضرحة أو زوايا، أو لأشخاص ذاتيين ويعبر عنه بالأحباس المعقبة، وكما حبست أملاك لمزاولة نشاط حرفي معين. وكانت أحباس كل مؤسسة يشرف عليها ناظر يكون من

سلالة المحبس أو يعين من طرف قاضي البلدة إلى أن استقر رأي السلطان سيدي محمد بن عبد الله على جعل مهمة الوقف بيد ناظر واحد للمدينة أو الناحية.

وقد لعبت الأحباس الخاصة دورا هاما في التوازن الإجتماعي والوظيفي لمدينة تطوان، فمن الناس من كان يجعل حبسا يشترى بخراجه الخبز وتفرق على الفقراء والمعدمين كل يوم خميس جريا على العادة في تطوان، أو من يوزع خراجه على الصبيان الذين يتم ختانهم، وهناك تحبيس من أجل اقتناء أرض لدفن موتى المسلمين، وآخر على الحزابين وطلبة العلم وغير ذلك. وسنثبت فيما يلي نماذج من رسوم بعض الوصايا:

- تحبيس الكرنة التي بالصفاح عام 1104 / 1692 :

« الحمد لله أشهد على نفسه شهيديه الفاضل الوجيه الزكي النزيه أبو عبد الله السيد الحاج محمد بن المرحوم ...السيد علي لوكس به دعي الأندلسي التطاوني وأنه قد حبس الكرنة التي أحدث بناءها بالموضع المسمى بالصفاح خارج الثغر التطواني حفظه الله وهي المجزرة... حبسها على الفقراء والمساكين بحيث أن يشترى بخراجها خبز وتفرق عليهم بحسب الإجتهاد وإن احتاج أحد أقاربه وذوي رحمه إلى الصدقة فهو أولى بها دون البعيد قصد بذلك وجه الله العظيم... وجعل النظر في ذلك وصرفه على من يستحقه لشقيقيه الخيرين...».[40]

- وصية للمعقبين وأثلاث لبرج حلق الوادي بالمرسى وشراء أرض لدفن الموتى والقسمة على الحزابين (1728/1149) : « الحمد لله عهد وأوصى الأرضى المرتضى السيد الحاج عبد الرحمن بن السيد الحاج أحمد الرشاي به عرف التطاوني الأندلسي نسبا عدة للقاء الله تعلى ورجاء مغفرته واستعدادا للموت.. أنه إن قدر الله تعلى الذي لا بد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فإنه يخرج بعد وفاته ثلث جميع متخلفه من قليل الأشياء وكثيرها، جليلها وصغيرها، العقار وغيره، ويوقف في داره التي بسماط الخرازين من تطاوين.. وتكون ملكا تاما لمن سيوجد من أولاد أولاده إن قدر الله بوجودهم للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، وإن لم يعقب أولاده أحد يكون الثلث المذكور حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا، ثلث الثلث لجانب برج حلق الوادي بمرسى تطاوين وثلثه الثاني تشترى به أرض وتكون حبسا على دفن موتى المسلمين وثلثه

---

[40] - داود، ج.2 ، ص.303.

الثالث يقسم خراجه على الخزابين الذين يقرأون بجامع القصبة من تطاوين على المعهود في ذلك بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب...».[41]

- وصية للمعقب فإن انقطع وقف على المؤذن عام 1184 / 1770 :

«.. الحمد لله عهدت المصونة طاهرة بنت محمد المروش التطاوني عهدة للقاء الله تعلى ورجاء مغفرته وأوصت أنها متى حدث بها الموت الذي لا بد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فيخرج عنها بعد وفاتها ثلث جميع متخلفها من قليل الأشياء وكثيرها، جليلها وحقيرها، العقار وغيره ويعطى بأجمعه لما يتزايد عند حفيدتها فطومة إبنت ابنها عبد الرحمان صالش ولأولاد أولادهم من بعدهم ثم كذلك ما تعاقبوا وتناسلوا وامتدت فروعهم، فإن انقطعوا رجع ذلك الثلث وقفا مخلدا وحبسا مؤبدا على الموذن الذي يهلل وقت الصبح بصومعة الولي الصالح سيدي الصعيدي نفعنا الله به من محروسة تطوان قصدت لذلك وجه الله والدار الآخرة... إيصاء صحيحا عرفت قدره وشهد به عليها بأكمله وبحال الطوع والجواز .. وثق به بعشرين شوال عام أربعة وثمانين ومائة وألف محمد البناي وفقه الله...».[42]

- وصية بعتق مملوكين وتحبيس على برج وحزبين وصدقات عام 1215 / 1800.

« الحمد لله عهد التاجر الأرضى المرتضى السيد الحاج محمد بن الحاج عبد الكريم راغون الأندلسي التطاوني... أنه إن قضى الله بموته الذي لابد منه فيخرج عنه جميع ثلث متخلفه من قليل الأشياء وكثيرها عقارا وغيره فيبدأ فيه بعتق رقيقين مومنين في سبيل الله تعلى يصيران بذلك من أحرار المسلمين فيما لهم وعليهم لا يبقى لأحد عليهم سبيل إلا الولاء على ما أحكمته السنة البيضاء ويعطى لكل واحد منهما عشرة مثاقيل ثم يشترى منه أصل داخل بلد تطوان بمائتي مثقال ثنيتين يكون خراجه لجميع المعتقين له... يكون ذلك لهم في حياتهم ثم لأولادهم من بعدهم ما تناسلوا فإن انقرضوا جميعا رجع نصيبهم حبسا لبرج مرتيل بتطوان... ثم يوقف ما بقي من الثلث المذكور في نصيبه من دار سكناه الكبرى الكائنة بالصياغين... ويكون من خراج ذلك حزبان أحدهما بجامع الرابطة والآخر بجامع ابن صالح... وما بقي من الخراج المذكور بعدما يشترى به خبز يفرق على المقعدين والعميان من الضعفاء والمساكين الذين لا يستطيعون قوة السعي لأنفسهم نصفه يوم

---

[41] - نفس المصدر، ص.333.

[42] - حوالة سيدي السعيدي.

الخميس ونصفه يوم الإثنين يكون جميع ما ذكر لمن ذكر على ما وصف حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا...».[43]

وإلى جانب هذه الأنواع من التكافل والتعاضد الإجتماعي كانت هناك أملاك خالصة للأوقاف حبست لدعم نشاط حرفي معين كحبس الخرازين والحدادين والقشاشين وهم صناع الفخار، وهذا ما يعكس الأهمية السوسيو-إقتصادية للحبس.[44] وبالإضافة إلى ذلك، كل ما يتعلق بالأعباء العامة كمد سواقي الماء الجاري وصيانة المساجد والإنارة بواسطة الفنارات والحمامات وأجرة المدررين، وكل ما يدخل فيما يسمى بالأحباس الكبرى، وكانت خاضعة لتصرف ناظر الأحباس تحت مراقبة القائد والقاضي. ومن بين الحبوسات التي كانت قائمة بتطوان نذكر:

* حبس المقاظعين أو المنقطعين، ويوجه خراجه لإغاثة المعوزين والمعدمين، وكان تحت نظر القاضي ووكيل الغياب.

* حبس الخوابي (سبيلا) ويكون لإصلاح قناوات الماء المحبسة على عابري السبيل.

* حبس الطبيرة، ويخصص ريعه لشراء أواني الماء لأجل إرواء ظمأ المارين.

* حبس الأبراج، وينفق في إصلاح وترميم التحصينات وتزويدها بالمدافع التي تستخدم عند الدفاع عن المدينة ويتصرف فيها القائد.

* حبس «الكسوة» لأجل صيانة المساجد والزوايا وإصلاح إنارتها، ويتصرف في ذلك إمام المسجد ومقدم الزاوية.

* حبس المحاريب ويخصص ريعه للعبادات.

* حبس القناطر.

* الأحباس العائلية الموقوفة على الأعمال الخيرية والإجتماعية، ويتولى أمرها في الغالب الرجل الأكبر سنا في العائلة.

* حبس الحزابة والختمة، ويوجه خراجه لتلاوة القرآن وتحفيظه للصبيان.

* حبس تزيين العروسة، وهو مجموعة من الحلي موقوفة للإعارة للعروس الفقيرة ليلة زفافها.

* حبس ليلة القدر.

---

[43] - داود، ج.7 ، ص.270.

[44] - محمد العبدلاوي، **الدور السوسيو- اقتصادي للأحباس بالمدن المغربية. مثال مدينة تطوان العتيقة**، مجلة كلية الآداب، تطوان، عدد 4 ، 1411 – 1990 ، ص.172.

* حبس عاشوراء.
* حبس المولد النبوي.
* حبس ختان الصبيان.
* حبس سيدي فريج (المارستان) ويتكلف به ناظر الأحباس.
* حسن الشطابة بقصد تنظيف الشوارع.
* حبس ابن آرج والطيور، وهو من باب إعتناء السكان بالرفق بالحيوان.

وكان إجزاء حبس ما أي اكتراء الإنتفاع به يؤدى في مقابله مبلغ مالي كل سنة. ولم يكن القاضي يسمح بالتصرف فيما يملكه الحبس إلا بعد وقوف أرباب البصر من العارفين على عين المكان، وشهادتهم بأن فيما حدد لذلك الشيء من القيمة أو المال مصلحة لجانب الحبس ولا غبن ولا بخس في الصفقة، وكانت عادة تبعد الشبهة وتحمي أملاك الأحباس من التلاعبات. ونورد في ذلك وثيقة تعود إلى عام 1729:

«الحمد لله وحده بموافقة الفقيه الأجل العالم العلامة المدرس.. قاضي مدينة تطاوين وعمالتها وهو محمد بن محمد بن قريش وفقه الله بمنه... تعاوض السيد العربي بن السيد محمد هلال الأندلسي نائبا عن نفسه، والسيد قاسم الحمار النسب نائبا عن حبس مسجد الساقية الفوقية من تطاوين حرسها الله إذ هو الناظر عليها... على أن دفع الحمار المذكور للسيد العربي هلال المذكور جميع الغريسة الكائنة بكيتان المحبسة على المسجد المذكور... المحتوية على مرجع واحد ونصف المرجع ونصف الخروبة، مقومة أرضها بخمسة عشر مثقالا وزينتها بخمسين أوقية.. ودفع هلال المذكور للناظر المذكور جميع الربع من الدار الكائنة بملاح أهل الذمة في الشياع مع الخطيب بربعها وبحبس منضوصة بنصفها... مقوما الربع المذكور بثلاثين مثقالا بجميع ما لكل من المنافع والمرافق وكافة الحرم... معاوضة صحيحة من غير شرط ولا ثنيا ولا خيار بعد وقوف من له معرفة بقيم الأملاك ومقادير أثمانها على عين الدار المذكورة وهما السيد الحاج علي مدينة والسيد عبد الرحمن البرميجو فقوما الربع من الدار المذكورة بما ذكر. ووقوف السيد الحاج عبد الرحمن المذكور والسيد محمد شالص على عين الغريسة المذكور فاختبراها وقوماها بما ذكر. وأدى الجميع بذلك لدى من ذكر أسماه الله ولدى شهيديه وأن ربع الدار المذكورة أنفع وأغبط للحبس من الغرسة المذكورة.. معاوضة تامة تملك بها هلال المذكور جميع الغريسة المذكورة تملكا تاما وارتفع عنها رسم الحبس ووسمه وخلصت له بسبب ذلك، وتملك الناظر

المذكور لجانب الحبس المذكور جميع ربع الدار وصار بذلك حبسا على المسجد المذكور... على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى كما يجب، عرفا قدره شهد على إشهاد من ذكر دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله تعلى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر من أشهده من عداه بما فيه عنهم وهم بحال كماله وعرفهم في منتصف ذي الحجة الحرام متم إثنين وأربعين ومائة وألف. محمد بن عبد الله بن طريقة وفقه الله ومحمد بن محمد الطاهر بن طريقة وفقه الله بمنه.

الحمد لله أعلم بثبوته وأداء شهيديه عبد الله تعالى محمد بن محمد بن قريش وفقه الله بمنه».[45]

وهكذا يتبين من خلال الوصايا المذكورة أن المجتمع التطواني كانت تسوده أشكال مختلفة من التكافل والتعاضد بين فئاته، فأعمال البر والإحسان في شكلها الوقفي كانت تعود بالخير والمنفعة على الضعيف والمسكين ويستفيد منها كذلك السائل والمحروم. ولم يكن التكافل يتم في إطار عمودي يبرز حدود الفوارق فحسب، وإنما كان يتم أيضا في شكل أفقي داخل فئة إجتماعية معينة ومنسجمة كفئة التجار.

فالعلاقات داخل الفئة التجارية كانت قائمة بدورها على أساس تكافلي، ومن أبرز مظاهره عملية القراض بين التجار المسلمين بقصد التوسعة والمتاجرة والكسب، فكان الربح يقتسم ثلثه للتاجر العامل وثلثاه لرب المال بعد نضوض رأس المال ورجوعه ليد صاحبه. وكان التجار يرجعون في معاملاتهم تلك إلى العدول ليوثقوا لديهم المعاملات في الرسوم، وأيضا لاعتراف أو تبرئة ما في ذمة المقترض لرب المال. ونقدم كمثال في ذلك رسمين فيهما قراض وتبرئة يعود الأول إلى عام 1806/1221، والثاني إلى عام 1809/1224.

- « الحمد لله أشهد على نفسه التاجر الأرضى السيد الحاج أحمد بن المرحوم السيد الحسن الرزيني التطاوني أن تحت يده وفي حوزه للسيد الحاج عبد الله بن محمد أمجو ألف ريال من الريال الدورو. قبض جميع العدد المذكور ممن ذكر اعترافا ليديره بين يديه ويتجر به في أنواع المتاجر وضروب المكاسب على وجه القراض الجاري بين المسلمين ويسافر به برا وبحرا ويذهب به حيث يشاء وما يفيئه الله تعلى ربحا عن ذلك ثلثه للعامل وثلثاه لرب المال بعد نضوض رأسمال المال ورجوعه ليد ربه كاملا. وعلى العامل بتقوى الله العظيم ومراقبته في سره وجهره إشهادا تاما عرف قدره

---

[45] - داود، ج.2 ، ص.321 .

شهد به عليه بأكمله وعرفه. وفي تاسع رمضان المعظم عام واحد وعشرين ومائتين وألف» (العدلان).

– « الحمد لله حسبما بغيره بشهادة شهيديه اعترف رب المال المذكور بمحوله أنه قبض من العامل بمحوله جميع رأس ماله بمحوله وأبرأ منه من تجب براءته براءة عامة. حضر العامل المذكور وذكر أن الربح الواجب لرب المال المذكور في رأس المال المذكور بمحوله بعد العمل فيه جميع سبعمائة مثقال وخمس عشرة أوقية سكة تاريخه. أحضر جميعه العامل المذكور ودفعه لرب المال المذكور. قبضه منه معاينة في ضبالين ذهب وبندقي ذهب وريال دورو وبسيطات وأبرأه من جميعه كما يجب بعد أن صدقه في ذلك التصديق التام. عرفا قدره شهد به عليهما بأكمله وعرفهما في السابع والعشرين من رمضان المعظم عام أربعة وعشرين ومائتين وألف...» (العدلان).[46]

2- مظاهر الصراع الإجتماعي:

سيعرف الإنسجام بين العناصر المكونة لمجتمع تطوان تحولا بفعل إنعكاس فترات الأزمة والتسيب في المدينة التي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل، مما سيؤدي إلى بروز بوادر توتر إجتماعي كانت تظهر بين السكان مما قد يوحي بقيام صراع طبقي بينهم، ومن ذلك الخصام الذي وقع بين رجلين بحمام السوق الفوقي أحدهما من أهل تطوان والآخر من أهل الريف وتطور إلى معركة قاتلة بين الطرفين، وكذلك قضية النزاع بين أهل حومتي العيون والطرنكات من جهة والقائد محمد تميم من جهة أخرى، وانتهى إلى قتل القائد على يد الصوردو وجماعته. فما هو إذن تأويل هذا النوع من الصراع الذي حدث في لحظة الفتنة وضعف السلطان؟ هل نعده صراعا طبقيا أم نعتبره صراع العصبيات التقليدية؟.

إن قصة هذا الصراع المذكور تكاد لا تخرج عن حيز الصراع العصبي داخل أسوار المدينة، فهذه الأخيرة خضعت لعدة مؤثرات ارتبطت بصيرورة الحكم المخزني محليا ومركزيا، وبالدور الذي لعبه الأعيان في سياق السلطة.وكما أن العلاقات بين السكان كانت أحيانا معقدة حتى داخل الفئة الاجتماعية الواحدة، ويتجلى ذلك في قضية قتل القائد تميم وفي رفض تولية عبد الكريم لوقش وعبد الرحمن أشعاش، وهذا ما دفعنا إلى طرح بعض التساؤلات الخاصة بمظاهر الصراعات وأسبابها.

---

[46] - داود، ج.7 ، ص.274 .

ففي إطار مجتمع تقليدي كهذا الذي نحن بصدده لا يتأتى لنا الحديث عن علاقات صراع طبقي، لأن ذلك يفترض توفر عدة شروط لا يمكننا الإستدلال على وجودها. ولذا فإن النزاع الذي حدث في حمام السوق الفوقي بين تطواني وريفي وتطور إلى عراك عنيف في الواقعة التي ذكرها السكيرج لعله كان بمثابة الفتيل الذي أذكى التعارض والتنافر المستحكم بين عصبيتين: إحداهما ذات تقاليد حضرية راسخة وإرث ثقافي متميز مثل أمام الأخرى عقدة الإحساس بالتخلف، وهذا الشعور بالقصور بالنسبة للريفيين نابع من وضعيتهم كقرويين إنتقلوا إلى مركز الهيمنة والقرار في المدينة والناحية عن طريق السيف وبصورة سريعة. وقد شكل إحتواء العنصر الريفي من قبل السلطان مولاي إسماعيل بداية مسلسل جديد دشنه المخزن أثناء فرض سيطرته على تطوان، ويتمثل هذا المسلسل في رغبة السلطان تغيير نظام الحكم القديم الذي كان قائما بالمدينة بما يتلائم والتوجه الجديد للمخزن في شخص ممثله، بإحتكار السلطة والإنفراد بالنفوذ داخل البلد مع ما تفرضه طبيعة العلاقة بين القائد أو الباشا وبين المجتمع الحضري في تطوان. ولهذا فإن المعركة التي دارت بين أهالي المدينة والباشا أحمد بن علي الريفي بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل لم تكن في حينها سوى استيقاظة متأخرة لتلك العصبية المكبوتة والتي أذكتها حينذاك التعسفات الجبائية للباشا المذكور. إلا أنه بالرغم من هذا الصراع الذي أزهقت فيه كثير من الأرواح من كلا الجانبين، وتضرر منه إقتصاد المدينة بشكل كبير، فإن ذلك لم يمنع من استقرار أسر ريفية بالمدينة واندماجها كليا في المجتمع الحضري.

وتبين لنا حادثة مقتل القائد محمد تميم شكلا متميزا من صراع العصبيات يتداخل فيه العامل الإثني بالمجال الذي أضحى عنصرا أساسيا في الصراع. فالمدينة كانت تتألف من حومات رئيسية من أبرزها حومة البلد، وهي النواة الأولية للمدينة والتي شيدها المستقرون الأول بعد إعادة البناء، إلا أن تزايد أعداد الوافدين مع تطور حركة الهجرة نحو تطوان بآخر المورسكيين وكذلك من مناطق الجوار، نتج عنه إحداث حومتين كبيرتين هما العيون والطرنكات إستقرت فيهما فئات إجتماعية أقل ثراء تشكلت في غالبيتهما العظمى من الحرفيين والفلاحين وذوي المهن الحقيرة، وهو ما سيخلق نوعا من التنافر والتعارض على مستوى تدبير الشأن المحلي، فبينما كانت حومة البلد تضم العناصر صاحبة الثروة والجاه والتي قادت التمرد على السلطة المخزنية وفي مقدمتها أسرة لوقش، فإنه بالمقابل نجد أن الحومتين المذكورتين استوعبتا العناصر التي انحازت إلى الباشا أحمد بن

علي والتي مثلتها أسرة ابن قريش التي توارث أفرادها منصب القضاء بالمدينة. وسيكون موت الباشا أحمد مناسبة أدت إلى بروز هذا التعارض، ذلك أن أعيان البلد بادروا إلى إعفاء القاضي محمد بن قريش من مهامه لأنه كان عنيا عليهم للباشا المذكور، فقام ابنه عبد السلام في شرذمة من أتباعه بقطع الطريق على الناس، فقبضه القائد تميم وسجنه، لكن أهل حومة العيون تعصبوا له وكسروا باب السجن وأخرجوه، ونفس الأمر فعله أهل حومة الطرنكات لما سجن القائد أحدهم ويدعى عبد الفضيل الصردو. وقد دفع احتداد هذه النعرات بالقائد محمد تميم إلى طلب إعفائه من الحكم، إلا أن الفقيه الحاج محمد اللبادي وكان من أعيان حومة البلد أثناه عن ذلك، وقال له «نحن ولينا ك ولا تخشى من أحد واحكم بما يظهر لك وإن تعرض لك أحد نحن له إن شاء الله».[47] وتبين هذه الأحداث إلى أي مدى كان الصراع مؤججا بين المجالين في التأثير على مجرى الأمور بالمدينة، وخاصة في الفترة التي تضعف فيها السلطة المركزية وتنفلت مقاليد الأمور من يد ممثلها في المدينة، وقد تنتهي إلى ما لاتحمد عقباه كما وقع للقائد تميم المذكور.

3- مظاهر الحياة المجتمعية:

ينبني نمط عيش السكان على مجموعة من نظم إجتماعية وعائلية مضبوطة ومعقدة في نفس الوقت. ولعل هذه النظم هي التي تسمح لنا بالحديث عن الخصوصية المحلية والمتميزة والتي أشار إليها عدد من الكتاب الأوربيين الذين زاروا المدينة خلال القرن الثامن عشر، فقد ذكر الإنجليزي بريث ويت أن أهالي تطوان هم بدرجة كبيرة الأكثر حذاقة وحضارة، وأنهم مثل الإسبان يحافظون على عوائدهم القديمة فليس هناك اختلاف بين واحد وآخر، لذا تتميز منازلهم وبساتينهم وملابسهم بالتشابه لحد كبير.[48] وذكر البولوني بوطوكي في رحلته أن أهل تطوان ذوو سمات جميلة، وبيوتهم مواتية لأسلوب قصر الحمراء بغرناطة، وأما نمط عيشهم فيمكن أن نملأ كتابا بأكمله حول العادات والتقاليد المشتركة بينهم وبين الإسبان، وكما وصفهم بأنهم متحضرون ومتأدبون يحس بينهم الأجنبي بالراحة ولا يتعرض لأية مضايقات.[49] وقد أتاح لهم إنفتاحهم على الخارج بواسطة التجارة والنشاط البحري، والإحتكاك بالأوربيين التعرف على أحوال بلدانهم وتعلم بعض لغاتهم، فقد ذكر بريث ويت عند زيارته لتطوان عام 1727 أن عددا

---

[47] - السكيرج، ص.28 .

[48] - Braithwaite, p.156.

[49] - Potocki, p.23-24.

من المغاربة كانوا يتكلمون اللغة الإنجليزية بطريقة لابأس بها، وهم الذين رافقوا السفير التطواني محمد أبغلي إلى إنجلترا.[50] وعندما زار بوطوكي بيت السفير عبد الكريم راغون عام 1791 لاحظ بأن أصدقاءه كانوا يتحدثون بالإسبانية أو التركية، ويتناقشون حول الحرب الروسية- العثمانية، وفي التلقيح والسياسة الداخلية لبلدهم، وفي مواضيع ترفيهية كالصيد وركوب الخيل، وحول النساء.[51] وذكر أيضا أن التلقيح كان معروفا في تطوان منذ مدة طويلة، ولكن كثيرا من الأمهات لم تكن لهن الجرأة الكافية لأخذ القرار، إذ لا يوجد أطباء، بيد أن عائلات كثيرة كانت تملك نسخا من كتاب الشفا لابن سينا يرجعون إليه كلما دعت الضرورة ذلك. وبخصوص ذهنية الأهالي، فبالرغم من حب الإستطلاع لديهم، فإنهم يشاركون في الحديث بإصغاء، ولا يأنفون من الدخول في نقاش حول مواضيع علمية محض، لكنهم عندما يصغون لتفسير نظرية الجاذبية أو تكون النجوم، فإن ذلك لا يمنعهم من طرح بعض السؤال عن أشياء مرتبطة بالخرافة والأساطير كالقتل بالعين مثلا.[52]

إلا أنه يجب أن نميز بين الفئة المحظوظة التي كانت تعيش حياة مترفة وعددها قليل أو بالأحرى غير قار، والفئة المتوسطة، ثم الفئة الغالبة التي تطبعها حالة الفقر. فقد تساءل بريث ويت مع نفسه كيف يستطيع أن يعيش عدد كبير من العاطلين الجالسين في الأزقة طيلة النهار إذا لم يكونوا يحصلون على شيء لمعيشتهم.[53] وكان إنجليزي آخر وهو وندوس قد لاحظ قبله ببضع سنين حالة فقر السكان وربط ذلك بالإستبداد المطلق للباشا أحمد بن علي حتى أن أي شخص اغتنى يبذل كل جهده لإخفاء غناه وإظهار الفقر.[54] وبالرغم من التفاوت في مظاهر نمط العيش بين السكان فإن علاقاتهم الإجتماعية خضعت لعدة ضوابط تحكمت في تمتينها وفي تفسخها على السواء.

أ- العادات : إن ما يجدر التأكيد عليه هو وجود عادات راسخة تنظم تقريبا العلاقات بين الناس داخل المدينة،وتتحكم بشكل دقيق في سيرورة حياتهم الإجتماعية، وتعرف بـــ «القاعدة» والتي أصبحت في معظم الأحيان

---

[50] - Braithwaite, p.94.
[51] - Potocki, p.36.
[52] - Ibidem, p.38.
[53] - Braithwaite, p.158.
[54] - وندوس، ص.42 .

من الأصول التي يجب الحفاظ عليها والعمل على ترسيخها بين الأهالي، وقد أمست القاعدة تنتقل من أوساط الأعيان لتنفذ داخل أوساط العامة من أسر متواضعة أو طارئة على المدينة والتي باتت أكثر تمسكا بالقاعدة لأن في ذلك ما يكسبها شرعية إنتمائها للمدينة. وكانت الإماء أكثر حرصا على إستمرار القاعدة وبقائها بين الأهالي، ومن يخرق تلك القاعدة فإنه يكون قد إنسلخ عن بعض الضوابط التي تنظم حياة المجتمع في المدينة. وهكذا فعندما خرق الصوفي الشيخ أحمد ابن عجيبة القاعدة المتمثلة في العادة بتطوان بلبسه المرقعة وسؤاله الناس الصدقة بأبواب المساجد وكنس الأرض، وغير ذلك مما يمج منه طباع أي عالم وفقيه وخروجه عن المألوف رمي بالمروق وأدخل السجن.

ولئن كانت كثير من العوائد فيما يخص المعمار ونمط العيش، وخاصة الإستجمام في الحقول والبساتين، وأساليب الغرس وكيفية معالجة بعض الحرف ترجع إلى أصول أندلسية، فإنه يجب أن لا يغيب عن بالنا العادات من أصل تركي عثماني همت بالخصوص مجال اللباس والطعام، وكان رافدها هو الجزائر بحكم العلاقات التجارية والأسروية التي ربطتها بتطوان. وسنعمد إلى إبراز بعض العادات التي طبعت بعض المجالات التي إتضحت فيها سمات الخصوصية المحلية، وخاصة بعض العادات الإستهلاكية كاللباس والتغذية والسكن، وأخرى تتعلق بالسلوك الإجتماعي كالزواج والختان.

- **اللباس** :كان من عادة الرجال لبس قمصان قصيرة موالية للبدن وذات أكمام واسعة تدعى المنصورية، ويرتدون فوقها صدرية لصوقة بأجسامهم، وقد يلبسون فوق القميص نوعا يسمى البدعية وتكون مفتوحة للصدر مع كثرة العقد والأزرار. وتوجد إختلافات أساسية بين لباس الأغنياء وبين لباس الفئات الوسطى والفقيرة، فالفئات الفقيرة وخصوصا الوافدين من البادية يلبسون قميصا من الكتان أو القطن ويدعى التشامير، وإن كان من الصوف فيسمى القشابة، ويكون مفتوحا للكتف.

وأما الأغنياء وبعض عناصر الفئات الوسطى فيلبسون فوق القميص والبدعية ما يعرف بالجابدور، ويضعون حول خصورهم أحزمة من الحرير أو القماش تدعى الكرزية وقل من يلبس المضمة، ويغرزون فيها سكينا عريضا يعملون على أن يكون مقبضه مرصعا ببعض المعدن الثمين أو العاج وغمده من الفضة.

وأما طبقة العلماء والشرفاء والطلبة، فيلبسون فوق الصدرية أو البدعية قميصا من الصوف يسمى الملف، وإن كان رقيقا دعي التوبيت، فإن كان

مفتوحا كله دعي قفطانا مع تطريزه بالعقد والأزرار، وإن كان مفتوحا من أعلاه إلى محل الحزام سمي الفرجية مع تطريزها بالعقد والأزرار الحريرية.

وأما لبس السراويل فكان في جميع الفئات، وتكون من الكتان أو القطن أو الملف وتصل إلى ركبهم.ويضعون فوق رؤوسهم شاشية حمراء فوقها عمامة قطن بيضاء. وينتعل الجميع البلغة، وهي المشربلة بالنسبة للفئة الراقية، والطالبية لسائر الفئات الأخرى.

ويتمثل اللباس الخارجي في البرنس الذي يصنع من نسيج الكتان أو الصوف. ويتجلى الفرق بين لباس الأغنياء والفقراء في غنى الصدريات ودقة البرنس لدى الفئة الأولى. ويتوفر الفقراء على لباس يدعى الجلابة مصنوعة من نسيج صوفي كثيف.[55]

وأما النساء فيلبسن فوق القميص الصدرية أو البدعية، وفوق ذلك القفطان ثم الدفين. وأما الحزام فهو ثوب مصنوع من حرير، في طرفه أهداب يسمينها بالغراصين. ويغطين رؤوسهن عند البلوغ بقطعة ثوب كتان مربعة تعرف بالسبينة، وبقرب الزواج يبدلنها بقطعة ثوب حريري رومي مربعة تسمى «سبنية د البحر». وبعد الزواج كن غالبا ما يلبسن « الحنطوز» وشكله ربما مأخوذ عن النساء اليهوديات اللواتي كن يلبسنه أيضا. واللائي ينتمين للأسر الثرية كن يتزين بعدد من الأدوات من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين، فيضعن على رؤوسهن العصابة وهي إكليل من الذهب أو الفضة، والسفيفة وهي مجدل من القياطين مطروز بالجوهر، والدلادل وهي سلاسل متدلية من الرأس من الذهب ومزخرفة بقطع من الزمرد، ويضعن في آذانهن أقراطا عريضة تسمى الخراص، وعلى أذرعهن أسورة تدعى البزايم وهي سلسلة من ذهب مزخرفة يسمينها « مصو د الجوهر» وأصلها من الأندلس تعود ربما للعصر الوسيط، ثم الطير وهو مصنوع من الذهب الخالص ومزين بأحجار صغيرة من الياقوت والزمرد، وكان المورسكيون قد حملوه معهم إلى تطوان في مطلع القرن الثامن عشر، واللبة وهي قلادة من فضة، والخيط وهو طوق من الجوهر به حبات مكورة من الذهب وهو أيضا من أصل أندلسي، ثم خيط الشعير وهو طوق من الذهب ويظهر أنه من التأثير العثماني نقلته بعض الأسر الجزائرية التي إستقرت في تطوان منذ القرن الثامن عشر.

---

[55] - الرهوني، ج.2 ، ص.182 –184 . وندوس، ص.43 –44 .

وأما في الرجل فيلبسن من الخفاف النوع المسمى بالشربيل يتم طرز وجهه بالحرير أو الذهب. وإن خرجن لبسن فوق الجميع ثوب قطن غليظ يسمى الحائك.[56]

- **التغذيـة:** إذا كان اللباس في تطوان تميز بمواصفات لها أصول حضارية عريقة مغربية – أندلسية وعثمانية، فكذلك الطعام الذي ارتبطت به عادات متميزة خاصة في المناسبات التي تتعلق بإستقبال بعثات وسفارات أجنبية كانت تحل بتطوان بين الفينة والأخرى، وباحتفالات في مواسم الأعياد الدينية وحفلات خاصة بمراسيم الزواج والعقيقة والختان والختمة ونحو ذلك، وهي عادات كانت تعكس مستوى الحس الحضاري لدى الأسر التطوانية.

وكانت معيشة معظم السكان مبنية على البساطة والإقتصاد يمكن الاسترسال عليها في فترات الرخاء والشدة، ذلك أن توالي سنوات الجفاف وما كان يعقبه من مسغبة في سائر البلاد، وقيام ثورات وفتن بعد موت السلطان أو خلعه، كان له تأثير كبير في حياة عامة الناس وفي معيشتهم، وبينما عاشت فئة الأثرياء من رجال المخزن ومن كبار التجار في ظروف مواتية بالرغم من الفعفعة الظرفية أتاحت لها التمتع بالعيش الرغيد، وهكذا فطعام العامة كان يقتصر على شرب الحريرة مع شيء من التين في الصباح، وأثناء الغذاء قلما يأكلون اللحم بحيث لا يتناولونه إلا من جمعة لأخرى أو في يوم السوق، وفي العشاء فإنهم يجتمعون على طعام الكسكس.[57] وأما الأعيان فغذاؤهم أكثر تنوعا وأوفر كمية، ويتكون عادة من لحم ودجاج وسمك وكسكس، وقد أدخلت فئة الخاصة شرب الشاي إلى البلاد، فكانت أول مستهلك له وللسكر بحيث كانت ترد كميات مهمة من الشاي إلى مرسى تطوان خلال القرن الثامن عشر ومنه توسق نحو الداخل. وكانت الأطعمة عند الخاصة والأعيان تقدم في صحون من النحاس الأصفر بدل أواني القش والخزف كما عند العامة. وقد لاحظ بريث ويت أن الناس في هذا البلد يتداولون المعادن بينهم في حين أنها مدفونة في الكنائس والأديرة بالبلدان الكاثوليكية.[58]

ويبين لنا الرسم التالي بيان ما فرضه القاضي في مال أحد الأزواج لمعيشة زوجته وابنته منها:

---

[56] - نفس المصدر، ص.186.

[57] - نفس المصدر، ص.180.

[58] - Braithwaite, p.70.

« الحمد لله فرض الفقيه الأجل العالم المدرس الخير البركة الأمثل قاضي مدينة تطاوين وعمالتها وهو عبد السلام بن محمد بن قريش كان الله له ووفقه بمنه أعزه الله بمنه وحرسها في مال الحاج الحسن بن الطالب الحسن حلحول التطاوني لنفقة زوجه نونة بنت السيد محمد أشعاش وابنتها منه فاطمة خمسة عشر مدا نصفها من القمح ونصفها الباقي أنصافا بين شعير وذرة ورطلين بل وثلاثة أرطال من السمن وأربعة أرطال من الخليع ورطلين من الزيت ورطلا ونصفه من الصابون وأجرة الطحين وحملا من الحطب وربعا من الفحم وأوقيتين دراهم للضروريات وذلك في كل شهر واللحم مرتين في الجمعة وكسوة أمثالهما في الشتاء وفي الصيف والسكنى بين قوم صالحين فرضا توخى فيه الصلاح والسداد في حق من فرض له أو عليه شهد على إشهاده دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر في التاسع والعشرين من رجب عام خمسة وثمانين ومائة وألف (1761) (العدلان)».[59]

- **السكن**: يعد تصميم المدينة إحدى المعالم الأصيلة، فدورها كسائر دور حواضر المغرب مبنية على شكل مربع إلا أنها تتميز بكونها مفتوحة في الأعلى، أي لها فناءات غير مغطاة. وبالرغم من الإختلافات التي تميز الدور تبعا لتفاوت درجة الثراء بين الأهالي، فإنه تكاد لا توجد دار بدون صحن أو فناء غير مغطى. وإن تركبت الدور من طابقين كانت لها أروقة قائمة على ركائز من رخام أو آجر مع دار بزين من الخشب المصبوغ. وإذا كان المنزل في ملك أحد الخاصة او الأعيان فإنه يوجد في وسط الفناء نافورة ماء أو «خصة» كما يسميها الأهالي، ويبين هذا التصميم مدى التأثير الأندلسي في المعمار التطواني. وقد وصف الإنجليزي وندوس الدور بأنها جميلة جدا بالرغم من ندرة النوافذ وضيق الشوارع إلى حد كبير.[60] وذكر بريث ويت لما زار دار الباشا أنه لا يتوقع المرء أن تكون في البلاد مبان تتوفر على غاية الجمال والتناسق وفق النمط الإيطالي كهاته.[61] وكما وصف بوطوكي دار السفير عبد الكريم راغون بأنها أروع ما شاهدته عينه حتى آنذاك.[62] ولكن السمة الغالبة على الدور أن سطوحها مستوية يمكن السير في عدة أماكن منها مسافة طويلة، وأنه بإمكان الإنسان أن ينتقل من دار إلى أخرى

---

[59] - داود، ج.2 ، ص.353 .

[60] - وندوس، ص.41 .

[61] - Braithwaite, p.87.

[62] - Potocki, p.36.

عبر سطوح المدينة، والنساء غالبا ما يستعملن السطوح للمرور أثناء تبادل الزيارات، بل إنهن- مسلمات ويهوديات- يقضين كامل وقتهن فوق سطوح بيوتهن. ولهذا من الممكن أن يقضي رجل سنة كاملة بتطوان دون أن يلمح وجه امرأة في الشارع.[63]

إلا أنه، إذا كان الأهالي يهتمون بكل ما تتطلبه النظافة داخل مساكنهم ودورهم، فإن الشوارع والأزقة تبقى مقززة من كثرة الوسخ وانتشار الأزبال، وقد عزا بريث ويت ذلك إلى فقر السكان وقسوة السلطة مما جعل كل واحد لا يبالي بالمصالح العمومية باستثناء المساجد.[64]

- **الزواج** : كانت العادة أن الرجل لا يتزوج حتى يكون قادرا على القيام بمستلزمات الزوجة من مهر ونفقة، وكان ينشأ عن المغالاة في المهر تعذر الزوج غالبا. وكانت العادة أيضا أنه كلما طالت مدة عزوبة البنت إلا وكانت أشد حبا للزوج وتمسكا بحسن معاشرته.[65] وقد يختلف المهر باختلاف الأوساط الإجتماعية بالمدينة، فأهل الطبقة الموسرة يشترطون في الغالب الثياب والحلي ولا يشترطون النقود، وكذلك أمة الخدمة مع أشياء أخرى، وجعل الأمة من جملة المهر كان من عوائد الأثرياء، فإذا ما ماتت يلزم الزوج بتعويضها بغيرها. ومما كان يتضمنه مهر الأعيان نجده في الرسم التالي الذي يعود لعام 1129/ 1717 :

« ... وبعد فلما كان النكاح غرة جبين الدين ودرة عقد سنن سيد المرسلين فكم ورد فيه من ءاي قرآنية وءاثار نبوية قال تعالى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء وقال من شرفه الله بالسبع المثاني من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني.. فامتثل هذه الخصلة السنية من سننه سبيل الرشاد وامتطى سنام هذه الطريقة السنية من فاق وساد خلقا كريما ونهجا قويما وهو الشاب الأنجب السعيد الرشيد الموفق الأيمن الأحظى أبو عبد الله السيد محمد العربي ابن التاجر الأبر السيد الحاج محمد الطرابلسي به عرف التطاوني فتزوج معتمدا مولاه التوفيق والتسديد والتأييد على بركة الله وحسن عونه الدرة المكنونة المباركة الميمونة علوة بنت التاجر الأوجه الحسيب الأصيل الخير الفاضل السيد الحاج العربي بن السيد محمدة جنينو به عرف التطاوني بكرا حلا للنكاح على صداق مبارك جملته عمارة بجوهرها ومسمم وقطيفة وثمانية فضالي وستون ذراعا من الروان وثلاثة قفاطن من

---

[63] - وندوس، ص.44.

[64] -Braithwaite, p.157.

[65] - الرهوني، ج.2 ، ص.189.

الحرير وبزيمي ذهب وزنهما خمسة عشر مثقالا كبيرة بالميزان الكبير وخمية من الشرب بمائة أوقية واحدة وأمة من وسط وخش الرقيق. تحمل بجميع المهر المذكور والد الزوج المذكور عن ولده المذكور تحملا تاما حملا لا حمالة...».[66]

وأما صداق الفئة العامة من الأهالي فيكون نقدا كله أو بعضه، وكمثال على ذلك رسم صداق ثيب يعود لسنة 1156 / 1743 :

« الحمد لله وحده تزوج على بركة الله عبد القادر بن الحاج علي الرينة التطاوني الأندلسي زوجه طامة بنت عبد الرحمن العصفري ثيبا منقضية العدة من وفاة حلا للنكاح عارية عن موانعه على صداق مبارك جملته بين نقد وكالئ ستة عشر مثقالا فالنقد من ذلك شطر العدد المذكور دفعه لها على الكمال منه أربعون أوقية دراهم عينا وأربعون أخرى في عبروق وفضلة كاملة معاينة وأبرأته من درك القبض فبرئ وكالئه الثمانون الباقية يؤديها لها تقاضيا على أعقاب ثمان سنين من تاريخه بحساب عشر أواقي في السنة يؤديها آخر كل عام حتى يأتي على آخرها لا يبريه إلا الواجب..».[67]

وبرجوعنا إلى الرسمين السالفين نتبين ماذا كان ينشأ عن العادة عند عقود الزواج من مغالاة في المهر أحيانا إلى درجة أن كثيرا من الناس كانوا يؤخرون قسطا منه ويدفعونه أقساطا مسانهة لزوجاتهم. وكان ولي الزوجة يقابل ذلك المهر أضعافا، وقد يقع التباري في ذلك فوق المستطاع. ولعل في ذلك السر الحقيقي في التفكير في الزواج.[68] فإذا ما زفت العروس إلى بيت زوجها يلجأ أبوها إلى تحرير رسم عدلي بإسقاط النفقة والكسوة عن بنته.

وإن تميز مجتمع تطوان بمثل العادات المذكورة وغيرها يبين إلى أي حد كانت «الخصوصية المحلية» تتحكم في العلاقات بين الفئات الإجتماعية، فالسكان الطارئون أو الوافدون الجدد من الجبال والريف لا يتأتى لهم الإنصهار داخل مجتمع المدينة إلا حينما يستوعبون «القاعدة» ويعملون على ترسيخها.

. المعاملات : شكل الإهتمام من لدن أهل تطوان بالنشاط التجاري أحد الخصائص المميزة لهم في القرن الثامن عشر، وعموما كان ثراء المدينة يتأتى من مبادلاتها التجارية مع الخارج بالخصوص. ولما كانت الحركة التجارية مهمة والأرباح مشجعة والثروة تتطور تدريجيا فإنه كان على التاجر

---

[66] ـ داود، ج.2 ، ص.317 .

[67] ـ نفس المصدر، ص.317.

[68] ـ الرهوني، ج.2 ، ص.193.

أن يضبط عمله بشكل جيد ليتفادى حصول أي نزاع مع زبنائه والتغلب على مصاعب الحرفة، وذلك بضبط حساباته بشكل دقيق بواسطة إستعمال كنانيش يسجل فيها الداخل والخارج أي المداخيل والمصاريف.

وكان التعامل بين الناس قائما على أساس الثقة، وعلى وسيلة الإعتماد بحيث أن التاجر الذي يبيع سلعته في مكان بعيد يسلم قيمة ما باعه بالمال لتاجر آخر معروف لديه، مقابل بطاقة يتسلمها من هذا الأخير تأمر وكيله بذلك البلد بتقديم المبلغ من المال للشخص المعني. وهذا النوع من التعامل كان معروفا في المشرق باسم «السفتجة»، وكانت الدوافع على ذلك أمنية بالدرجة الأولى، ذلك أن التجار كانوا يخشون المغامرة بحمل أموال كثيرة أثناء تنقلهم عبر طرق ومسالك تنشط فيها أعمال النهب واللصوصية. وكما وجدت معاملات قائمة على الشراكة بين الأفراد، وعلى القراض بين المسلمين بقصد المتاجرة والكسب، لكنها لم تكن في درجة من الأهمية والحيوية مثلما كان الأمر بالنسبة للأروبيين، إذ من الطبيعي أن يتأثر نظام المعاملات في المجتمع المغربي عموما بقوانين الشريعة الإسلامية التي تقر الأرباح العادلة وتحرم الربا. وكان الناس يرجعون في تعاملهم إلى العدول ليوثقوا لديهم المعاملات بالرسوم، وقد أثبتنا بعضا منها فيما سبق•. وأدى تطور النشاط الإقتصادي إلى التشجيع على الإكثار من القراض، وإنتشار المعاملات الربوية في أوساط التجار وكذلك من قبل رجال المخزن، إلا أن اليهود كانوا أكثر عناصر المجتمع تعاملا بالقروض المجحفة على أساس ربوي مما كان يجلب سخط العامة عليهم في غالب الأحيان.

. **العملة**: بقي استعمال كلمة المثقال للقطع الذهبية سائدا في المغرب حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر حيث أمسى هذا المصطلح يطلق على عشرة دراهم أو أوراق فضية، وذلك بعد الإصلاح النقدي الذي قام به السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1766، فأصبح وحدة أساسية فضية بدل الدرهم الذي تقلص استعماله. وقد ضرب المثقال الفضي في مدينة تطوان عام 1779/1193 على عهد سيدي محمد بن عبد الله، ويعتبر أكبر قطعة فضية صدرت في ذلك العهد.[69] وقد انصرف منذئذ إستعمال المثقال إلى القطع الفضية والدينار إلى القطع الذهبية. وكانت النقود الذهبية تسك بتطوان وفاس والرباط إلى جانب الفضية. وتم سك الدينار في عهد السلطان مولاي

• انظر صفحة 255.

[69] - عمر أفا، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر**، الدار البيضاء، 1988، ص.60.

عبد الله بن إسماعيل، وفي عهد خلفه ضرب الدينار المحمدي الذي دعي أيضا البندقي، وكان وزنه مبنيا على وزن الدرهم الإسماعيلي.

إن مسألة العملة كانت معقدة نسبيا، ومصدر هذا التعقيد هو التحول والتقلب الذي شهدته على مر العقود بسبب إنعكاسات الظروف الإقتصادية والسياسية التي مرت منها البلاد. ولهذا فصرف العملة كان يختلف من جهة لأخرى، وقد نتج هذا التفاوت الجهوي عن غياب مؤسسات مالية ومصرفية، وعن ضعف المواصلات بين أطراف البلاد، وبطء وصول المعلومات حول أسعار الصرف، مما أفسح المجال لظهور خصوصيات محلية.[70]

وقد راجت في تطوان عملات ذهبية وهي الدينار (ودعي البندقي أو دوكة) وهو قطعة ذهبية خفيفة ومستديرة ضرب عليها اسم السلطان وكانت تساوي أربعة عشر أوقية وبلغت خمسة وعشرين في أواخر القرن 18. وفضية كالمثقال والأوقية والموزونة، ويساوي المثقال عشر أواق، وبينما تساوي الأوقية (أو الدرهم) أربع موزونات. وأما النحاسية فهي الفلوس، ويساوي أربعة وعشرون فلسا موزونة واحدة.[71] وكانت العلاقة بين هذه العملات تشوبها تغييرات، فقد أوضح دي همسو أن المثقال ليس سوى عملة وهمية، ووحدة حسابية لعشر أواق، بينما كان البندقي يساوي 13.5 أوقية. وذكر أن العملة الذهبية كانت غير موجودة، بينما كانت الفضية تستعمل فقط في صفقات البضائع الموسوقة، وأما العملة المتداولة بين الناس فهي النحاسية.[72] وبما أن سائر النقود كانت مبنية على الوزن الشرعي، فإن المغاربة المسلمين كانوا يحملون معهم ميزانا صغيرا ويرفضون القطع غير الموزونة، وكان اليهود ينفردون وحدهم بسك النقود وسبكها ويحصلون من ذلك على فوائد مالية مهمة.[73]

وبدأ منذ نهاية القرن الثامن عشر تحول في آلية التبادل النقدي بالمغرب، إذ أصبح الريال الإسباني يزاحم المثقال المغربي وخاصة بعد توقيع المعاهدة المغربية- الإسبانية سنة 1799، حيث إختفى المثقال كقاعدة للنظام النقدي المغربي رغم وجوده كعملة إسمية، وتحول الريال إلى وحدة أساسية لصرف

---

[70] -71 - عمر أفا، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر، أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس**، الدار البيضاء، 1993 ، ص.31.

[71] - وندوس، ص.60.

[72] - Graberg di Hemso, Specchio gegrafico e statistico del Imperio di Marocco, Genova, 1834, p.161 .

[73] - Braithwaite, p.462.

العملة المغربية.[74] وهكذا أصبح الريال الإسباني العملة الأكثر توفرا بالبلاد، لكن قيمته كانت متغيرة، وعادة ما كان يساوي إثنتي عشرة أوقية والبسيطة ثلاث أواق، إلا أنه كان يصرف بأربع بسيطات ونصف مما كان يؤدي إلى تخفيض الربح، ويفسح المجال أمام تهريب كبير للعملة إذ أن أغلبية السفن والزوارق التي تأتي من أوربا تحتال باستمرار في جلب البسيطة الإسبانية لأجل صرفها بالريال، وكما قام الأوربيون بتسريب عملات مزورة داخل البلاد.[75]

- **المقاييس والأوزان والمكاييل** : اتسمت مقاييس الأوزان والمكاييل في المغرب بشيء من التعقيد تجلى بالخصوص في التغيرات التي تطرأ على أدوات القياس حسب أنواع الحرف، وكذلك بمجرد مغادرة المدينة الأمر الذي كان يسبب عدة مشاكل للتجار وأرباب الحرف، وكما كان هذا التعقيد يساعد على قيام المضاربة. وبالنسبة لقياس الطول لم يكن يعرف بالبلاد أي قياس له ما عدا الذراع الذي كان يقسم إلى ثمانية أجزاء تدعى أثمان ومفردها الثمن. وكانت وحدة القياس هذه تستعمل عند البنائين والنجارين وبائعي الأقمشة والدرازين على السواء، إلا أنه لم يكن هناك مقياس أو معيار أصلي للمقاس المضبوط للذراع، فبالنسبة للبنائين يمثل الذراع ثلث الباع (أو القامة)، ويمثل الشبر نصف الذراع تقريبا. وكان ذراع الدرازين أطول نسبيا من ذراع بائعي الأثواب، ولهذا كان يصعب الحصول على ذراعين متساويين تماما، وكان الذراع التطواني يساوي خمسة وخمسين سنتيمترا. وشملت المكاييل الحبوب والزيت، وكان الكيل يتم بوحدتين أساسيتين وهما المد والقلة، وكلاهما ينقسمان إلى النصف والربع والثمن، وكما يتغيران حسب الزمان والمكان. وتأثرت الأوزان بنفس الإختلافات والتذبذبات التي عرفها المكيال، وكانت وحدة قياسه تتمثل في الرطل الذي يتكون من ستة عشر أوقية، والقنطار ويتكون من مائة رطل. وقارن دي همسو بين الأوزان في المغرب وبعض بلدان أوربا فاستنتج أن القنطار الذي يساوي مئة رطل يساوي 112 ليبرة إنجليزية و125 ليبرة فرنسية، وأن الرطل المغربي يحتوي على 347 حبة أو 40 % من حبة باريس.[76]

---

[74] - أفا ، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر**، ص.7.

[75] - Di Hemso, Op.Cit, p.161.

[76] - Di Hemso, p.164.

4- العلاقة بين المسلمين والذميين:

إن الوضع الشرعي للطائفة اليهودية كان هو ذلك الذي خولته الشريعة الإسلامية لأهل الكتاب الذين صاروا جزءا من الجماعة الإسلامية فضمنت لهم به الحماية، وهو وضع الذمي الذي فصلته كتب الفقه. وبذلك فإن العلاقة بين المسلمين واليهود كانت معهودة على شروط أهل الذمة التي أقرها الشرع الإسلامي الذي يكفل لليهود الحماية في أرواحهم وأمتعتهم ويفرض إحترام شعائرهم، ويلزمهم مقابل ذلك أداء ضريبة الجزية للحاكمين المسلمين والإقرار ببعض القيود، وكما كان عليهم بمناسبة كل عيد أن يرسلوا إلى السلطان أو قائده وفدا ينوب عن الجماعة يقوم بتقديم التهاني ويسلم الهدايا المعتادة. ولما كان وجود الذميين تحت حماية المسلمين معهودا على عمل الملة الإسلامية ويستوجب تسديد ضريبة الجزية، فإن يهود تطوان كانوا يؤدون ألفي مثقال عن كل سنة.

وعرفت الجماعة اليهودية بتطوان إزدهارا إقتصاديا منذ القرن السابع عشر بسبب العلاقات التي أبرمتها مع بني جلدتها من يهود ليفورنة ولندن وأمستردام والقسطنطينية، إذ كانت معظم تجارة المدينة تمر على أيديهم، فكانوا يقومون بدور السماسرة بين المسلمين والنصارى. وقد تعاظم دور التجار اليهود في تطوان وتزايد تأثيرهم منذ القرن الثامن عشر حتى أن مجلس الوصاية بالمدينة كان يبني معظم معاملاته مع حامية جبل طارق وفق نصائح اليهودي مردخاي الذي كان بمثابة السمسار بين الإنجليز وأهل تطوان فيما يخص وسق الحطب.[77] وقد أشارنا سابقا إلى دور كل من بنيدر والعازر الوكيلين لدى الباشا أحمد بن علي، والصفة التي اكتسبها عدد منهم وهي «تاجر السلطان». ونتيجة لذلك فإن تجارة المسلمين أضحت باهتة بالمقارنة مع تجارة جيرانهم اليهود، فعندما تولى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام عرش البلاد عام 1822 خلفا لعمه مولاي سليمان اكتشف في كنانيش مستفاد مرسى تطوان أن نسبة تسعة أعشار المداخيل كانت متأتية من التجارة التي يمارسها اليهود، ولكي يظهر السلطان إمتنانه للتجار اليهود التطوانيين فإنه أنعم عليهم بظهير.[78]

وقد تحددت علاقاتهم بالأهالي المسلمين في تطوان منذ أن نزلوا بها مطرودين من إسبانيا في أعقاب المسلمين، ومن ثمة فإنهم كانوا يشتركون

---

[77] - Braithwaite, p.206.

[78] - داود، ج.8 ، ص.81 . (رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى القائد محمد أشعاش مؤرخة في 10 ربيع الثاني 1241/ 22 نوفمبر 1825).

معهم في خاصيتين: كونهم من أصول أندلسية- إسبانية، وأنهم جميعا اكتووا بنار الطرد والتهجير من إسبانيا. ولهذا حدثت عملية التساكن والتعايش بين الملتين بشكل سريع وودي، فالمسلمون مكنوهم من الحصول على العقار فجاوروهم في سكنى البلد، وكانت لهم اليد في صيرورة تطوان من أهم حواضر البلاد. وقد نمت الجماعة اليهويدة في تطوان وأسست لها عدة بيع ويسغات وتعدد أحبارها، وصارت توسم لديهم باسم «أورشليم الصغيرة».[79]

5- التنظيم الاجتماعي داخل الملاح:

لقد تمتعت الجماعة اليهودية داخل حومتها المعروفة بالملاح بإستقلال ذاتي إداري وثقافي وفقا لما تسمح به الشريعة الإسلامية، ووضعت لها بمقتضاه نظامها ومحاكمها وماليتها الخاصة بها، وفي إطاره كذلك ضمنت لتابعيها حقهم في التدين والرعاية والتعليم وتطبيق قانون الأحوال الشخصية، بل حقوقهم المشروعة فيما بينهم. وكانت للجماعة سلطة تنظيمية تلزم أفرادها بكل ما يتعلق بالجوانب الجبائية والمصالح العامة.[80] فالسلطة العليا في يد رئيس الجماعة ويدعى «بارناس» وهو يدير شؤون مجلسها الذي سمي «خونته» أو «معمد» ويتمتع بسلطة مطلقة، ويتألف المجلس من سبعة أعضاء يسمون «برناسيم» وهم ينتخبون - نظريا- تحت إشراف الحبر الأعظم، وينتمي أربعة منهم إلى أعيان الملاح، والثلاثة الباقون يكونون من بين الأحبار. ويدير المجلس المذكور شؤون الجماعة من أشغال عمومية ونظافة، ويقوم بتصريف الموارد المالية المتأتية من التبرعات والأوقاف (اليهودية)، ومن مداخيل الضريبة على اللحم (كاشير)، وكما يضبط المجلس الوجيبة الدينية ويهتم بتدبير أمور الدين كالكنيس أو البيعة والأعمال الخيرية وشؤون التعليم، ويتكلف رئيسه (البرناس) بحمل الجزية إلى قائد المدينة كل سنة.

وتمثل البيعة المكان الطبيعي لتجمع أفراد الجماعة، وهي فضلا عن كونها محل إقامة الصلوات، فإنها تؤدي أيضا دور مدرسة كما هو حال الكتاب عند المسلمين، ويتكلف بتسييرها ثلاثة أشخاص وهم «شلياح» و«شماس» ثم صاحب «الحزاكة».

---

[79] - عبد العزيز شهبر، **دراسات حول يهود تطاوين**، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 200 ، ص.22 .

[80] - حاييم الزعفراني، مصدر سابق، ج.2 ، ص.349.

وتمثلت الهيئة القضائية الدينية العليا في مؤسسة «بيت دين» أو (المحكمة الحبرية العليا)، وهي تتألف من ثلاثة قضاة أحبار «ديانيم» يرجع إليهم الفضل في الخصومات والنزاعات التي تحدث بين سكان الملاح فيما يتعلق بالقضايا المدنية والعقارية. وأما القضايا الجنائية فيؤول النظر فيها إلى القاضي الشرعي، وكذلك الشأن بالنسبة للقضايا والخلافات التي تنشأ بين اليهود وبين من ليسوا من ملتهم «الكوييم».[81] وكان بإمكان المتقاضين اليهود إستئناف الأحكام الصادرة عن المحكمة الحبرية أمام عامل المدينة، ولم يكن هذا الأخير يتدخل في القضايا إلا عند عدم حصول الأحبار على اتفاق بين المتخاصمين الأمر الذي يندر حدوثه في ملاح تطوان. وكان قضاء المحكمة الحبرية العليا في تطوان يشمل مدنا أخرى كطنجة و سبتة وجبل طارق، مما يبرز المكانة الدينية والعلمية لأحبار تطوان بين أقرانهم في المدن الأخرى. وكانت هناك هيئة من كتاب عموميين يسمون «صفريم» يقومون بدور العدول داخل الملاح. وأما بخصوص التجارة والحرف فإن اليهود كانوا يخضعون في ذلك لسلطة محتسب المدينة.

وتميزت العلاقات الإجتماعية داخل النسق الإجتماعي بالملاح بعدم الإستقرار، فقد كانت ظاهرة الطلاق منتشرة بين الأسر اليهودية، وبمقابل ذلك، وجدت لديهم بعض العادات التي كانت ترسخ الحفاظ على الذات، وتتمثل في عادة الزواج المبكر أو الزواج عند سن البلوغ، على غير عادة المسلمين كما أشارنا سابقا، وهي ظاهرة كانت توحي بإحساس هذه الأقلية بضرورة الحفاظ على النوع من الإنقراض، وكذلك تعكس تمتين وشائج القربى بين الأسر التي تنتمي إلى نفس الشريحة الإجتماعية بهدف الحفاظ على الجاه والثروة.

وفي مثل هذا الوسط المتدين تحتل الأخلاق ونقاوة الحياة العائلية مكانة سامية، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الأفراد من اليهود من الخروج عن القاعدة فيحيدوا عن طريق الأخلاق والشرع، وهكذا تخبر بعض الفتاوي بحالات من الفجور والخيانة الزوجية والزنى كما تدل على ذلك الشهادة التالية التي حررت سنة 1750 « زنت إمرأة خلال فترة المجاعة بتطوان مع أحد الأغيار، فولدت بنتا ادعتها عائلة هذا الأخير لتقوم بتربيتها على سنة الإسلام».[82] ومما كان يسهل الفسق وجود الخمارات داخل الملاح التي يجتمع

---

[81] - Paul Marty, Les institutions israélite au Maroc, R.E.I, Paris, 1930, p.299.

[82] - حاييم الزعفراني، مصدر سابق، ج.2 ، ص.369.

فيها اليهود وغيرهم، الأمر الذي جعل الحبرانية بالإتفاق مع السلطات المحلية تمنع اليهود من بيع الخمر وماحيا لجيرانهم المسلمين.

وكان يتكلف بالسهر على الأمن والحفاظ على النظام العام بداخل الملاح موظف يدعى «شيخ اليهود» أو «نكيد»، وهو بمثابة ممثل السلطة المخزنية، ويكون تعيينه من طرف «المعمد» بعد مصادقة المخزن، ودوره يشبه إلى حد كبير دور «المقدم» في حومة المسلمين، أي انه يمارس مهمة الشرطة تحت سلطة القائد.

وبرز العمل التكافلي والخيري بداخل الملاح لما كان يفرضه الإيمان العميق بالدين لدى الجماعة اليهودية، فالأحبار كانوا يستغلون عوامل الاستعطاف والتكافل الديني للتأثير على أغنيائهم بفرض إيتاوات نقدية أو عينية لأجل صرفها في مساعدة ضعفائهم وفقرائهم، ولهذا الغرض أنشئت مؤسسة خيرية داخل الملاح كانت مواردها تأتي من ضريبة اللحم «كاشير»، ومن الصدقات والتبرعات «ندابوت» التي تسددها الأسر الثرية، وكذلك من مداخيل الأكرية التي تنازل عن ريعها بعض الموسرين لفائدة الجماعة.

ولم يقتصر العمل الخيري على الجانب الإجتماعي المحض داخل الملاح، بل شمل أيضا الميدان التعليمي الذي كان له ارتباط وثيق بالدين، فكان ينفق على التعليم الأولي والديني من الصندوق الخيري إذ كان أغلب تلامذة المدار س التقليدية «تلمود ثورة» من الفقراء واليتامى،وكانت المؤسسة التعليمية داخل الملاح صنفين: «الحدر» ويتعلم فيه الأطفال مبادئ القراءة والكتابة بالعبرية، وهو يشبه في أسلوبه «المسيد» عند جيرانهم المسلمين، حيث تهيمن المبالغة في الإعتماد على الذاكرة والحفظ، وقد عهد به إلى الأحبار، وجعل بداخل فناءات البيع. و «اليشفه» وهو مؤسسة للتعليم الديني العالي. ولم يكن التعليم اليهودي يسمح بتلقين اللغة العربية للأطفال. وكان الحد الأدنى للتلقين يكتمل بسرد وحفظ أجزاء من التوراة.

6 - التماثلات بين الملتيـــن:

إستند الأحبار المغاربة في كتاباتهم الشرعية الخاصة بالعادة على الأقوال القديمة الواردة في التلمود، فيقولون مثلا « يجب أن يكون الكل وفق عرف البلد. والعادة فوق الشرع وتلغيه» ومن هنا جاءت أهمية العادة في بنية التشريع الربي المحلي والأعراف العائلية.[83] وقد سلك اليهود السفرديون في موضوع الحلال والحرام منهجا أكثر تسامحا وليونة في فهم التشريع الخاص

---

[83] - نفس المصدر، ص.514.

بهذه الأمور، ولكنهم سلكوا عكس ذلك في الأمور التي تخص علاقات اليهود مع غيرهم من الأغيار. ويعود هذا التصرف المتغير إلى علاقات الجوار التي كانت بينهم وبين المسلمين التي كانت تفتح المجال للخوف من التمثل والتمازج. ومع ذلك، لم يكن نمط عيشهم يتميز عن نمط عيش جيرانهم المسلمين إلا قليلا، إذ كانت بعض عادات المسلمين وأعرافهم قد دخلت الملاح واندمجت في الحياة الإجتماعية لليهود، وبرز ذلك على عدة مستويات تتجلى فيها مظاهر ثقافتهم المشتركة، ومنها إتفاقهم في إجلال الأولياء والصلحاء والتقرب إليهم وتقديم الصدقات. وكذلك، فمثلما وجدت عند المسلمين أوقاف على المنقطعين وصدقات مجعولة للفقراء ومنها خبز الخميس، وجدت كذلك عند اليهود أوقاف وتسمى «هقديس» أي حبوس، وصدقات جعلت للضعفاء منهم ومنها خبز الجمعة. وعلاوة على ذلك كانت المؤسسات التعليمية لديهم تشبه إلى حد كبير مثيلاتها عند المسلمين. وإلى جانب التماثلات الدينية والثقافية فإن التساكن بين الملتين كان كذلك يقوم على ضرورة إقتصادية.

القسم الرابع

الحياة الدينية

الفصل التاسع
البيئة الثقافية والتعليمية

1- تفشي العقلية الخرافية:

كان جل إهتمام الأهالي ينحصر في القيام بالواجبات الدينية، ولم يكن العامة يكتفون من العلم إلا بمبادئه الإعتقادية والفقهية، وكما لم تستثن الأوساط المتنورة من تفشي العقلية الخرافية بينها. ولذلك فالممارسة الدينية داخل المجتمع لم تكن تخلو من كثير مما يشوب المعتقدات من مظاهر التقديس إزاء الظواهر الطبيعية، أو اتجاه أرواح غير مرئية أو أشخاص تاريخيين أو وهميين مما كان يعبر عن الذهنية السائدة في ذلك العصر. وهذه المظاهر التبجيلية والإحترازية كانت نابعة عن فهم الإسلام نفسه الذي يوفر فرصة تلك الممارسات بالنسبة لعامة الناس، لأنه يقر بوجود مخلوقات غير مرئية تؤثر على سلوك الناس أو ينفعلون لها. ولا يختلف تجاه هذا الإقرار موقف رجل محيط بعلوم الشريعة مع موقف رجل من عوام الناس، ويخضع سلوك العوام للإعتقاد في وجود كائنات غير بشرية تؤثر في حياتهم كالجن والعفاريت التي تطرق أماكن معينة بالذات كعيون المياه والمغارات والأرحاء والحمامات وغيرها، وفي نفس الوقت، الإعتقاد في أن هناك بشرا يملكون قدرة خفية تمكنهم من التحكم في هذه الأرواح الشريرة بل وتسخرها.[1] حكى السكيرج أن الجامع الذي بناه الشيخ سيدي علي بن مسعود الجعيدي عام 1602 وأكمله عام 1621 كان موضعه مجزرة وكانت كثيرة العشب، فأوقد به النار، فسمع الناس صوتا يقول أحرقت ياجعيدي أولادي، قيل إن غولة من الجن كانت ساكنة بأولادها في تلك المجزرة.[2]

2 ـ الإعتقاد في الصلحاء والمجاذيب:

إن الإعتقاد بقدرة بعض الأشخاص على قهر الأرواح الشريرة، والإيمان بأن هؤلاء الصلحاء يجلبون الخير بما لديهم من بركة قد جعل كثيرا من فئات المجتمع تتعلق بمن اشتهر من هؤلاء الصلحاء. وقد يصير الصالح أو الولي في اعتقاد بعضهم مقصودا في ذاته يرجو الناس بركاته ويحتاجون إلى

---

[1] ـ أحمد التوفيق، **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان)**، ج.2 ، دار النشر المغربية، البيضاء، 1400 – 1980 ، ص.77 .

[2] ـ السكيرج، ص.5 .

كراماته، وقد مر بنا كلام الفقيه السكيرج أنه لما قدم مولاي اليزيد لتطوان وأطلق السبيل في الذميين خاف كثير من المسلمين من أن تتعدى يد النهب إلى مساكنهم، فهرعوا إلى الشيخ صاحب الكرامات سيدي عبد الله الحاج البقال يطلبون حرمته، فكان يقول لهم: لابأس عليكم ويضرب دفة الغرفة للحائط ويقول: أخرج يا هذا الخراي أما علمت حتى أنا سلطان، وذلك يوم الخميس ويوم السبت خرج مولاي اليزيد من البلد.[3] وتبين هذه الحادثة كيف كانت الظروف الموضوعية تجعل جانب الصلاح والبركة يغلب على جانب المعرفة عند معظم الصلحاء. وتتمثل علاقة الأهالي بهؤلاء الصلحاء في الإحترام والتبجيل وفي طلب بركاتهم، ويشخص هؤلاء بدورهم صفات التقوى التي لا تتوفر في مطلق العوام.[4] ويحكى أن سيدي عبد الله الحاج البقال لما كبر سنه وأحس بدنو أجله طلب من صالح آخر يقيم بتازروت وهو الولي سيدي علي بن محمد بن ريسون أن يقدم على تطوان ويقيم بها، فلبى طلبه ووفد عليها واجتمع معه فيها وذلك في العقد الأخير من القرن الثامن عشر.

وإلى جانب الصلحاء الأحياء، كان للأهالي تعلق بأضرحة العلماء الأموات، وهو تعلق موروث عن أسلافهم، ومن بين هؤلاء الأموات أشخاص حقيقيون معروفون تاريخيا وأشهرهم الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المدعو التبين وقد رويت عنه عدة كرامات، والشيخ سيدي محمد الدريج المدعو سيدي طلحة وسيدي مصباح وسيدي سعود وسيدي عبيس وغيرهم، وقبورهم كانت مزارات تقضى عند قصدها الأوطار.[5] وآخرون مجهولون أو وهميون وأبرزهم سيدي السعيدي المشهور بضامن البلد، إلا أن تاريخه الحقيقي مجهول، وهناك إختلاف في نسبه وأصله، والزاوية التي بنيت على ضريحه فقد بناهما الشيخ قاسم الحاج، وذكر السكيرج أنه وجد بخط الشيخ سيدي علي بركة أنه رجل من الصعيد، وقد نسبت له كثير من الكرامات.

ووجد عدد من الأشخاص الأحياء كان الناس يبجلونهم ويعتقدون أن لديهم قدرات ولهم تصرفات خارقة للعادة، وهم المجاذيب الذين كان الناس يتقونهم ويلبون مطالبهم، ولا يتورع المجذوب في طلب ما يريد وفي إصدار أحكامه على الناس صراحة أو بالتلميح، وغالبا ما يأتي المجاذيب بأعمال وأفعال تتناقض في الظاهر مع الخلق الديني تمام التناقض، لكنهم بالرغم من

---

[3] - السكيرج، ص.15 .

[4] - التوفيق، مصدر سابق، ص.78.

[5] - الرهوني، ج.4 ، ص.39-70 .

ذلك، تجدهم قد إشتهروا عند الناس بالدعوة المستجابة رغم تميز معظمهم بمظهر بعيد عن أناقة الصالح، وقيامهم بتصرفات وأقوال لا تنسب للعقلاء.[6] وكان أهل العصر يعتبرون أنهم ساقطو التكليف ويعتقدون فيهم ويتمسحون بهم للأخذ عنهم لأنهم مخصوصون بالبركة،فقد ذكر السكيرج رجلا من أولاد البقال كان مجذوبا تعتريه أحوال، يطوف بأزقة البلدة ويحمل صاحب له حصيرا على كتفه وزلافة وزق من الخمر، ويسير وهو يضرب الطبل، وكلما طاب له الشرب يفرش الحصير ويجلس يشرب في تلك الزلافة دون أن ينال ذلك من اعتباره شيئا. وهذه الحكاية لا تقبل البحث حسب الرهوني إذ أن حال أهل الجذب يسلم لهم ولا يقتدى بهم فيه، فما يتظاهر به المجاذيب مما يخالف الشريعة حسبهم فيه ما يراه الناس.[7] وكان من جملة المجاذيب في هذا القرن أحمد أبو سلهام وأصله من قبيلة بني توزين الريفية، وكان الباشا أحمد بن علي قد أدخله في خدمة داره، فصار ينطق بكلام لا يليق بملوك الدنيا فسجنه بطنجة. وثم سيدي أبو جيدة أمحلي المشهور في كل بلدة، وكان صاحب أسفار وتجري على لسانه حكم وتظهر عليه كرامات وخوارق عادات، وقد توفي بتطوان ودفن بها عام 1725/1138 .[8] والمجذوب السائح سيدي ابن كيران وكان يسكن بأعلى المقابر في جبل درسة حيث يزوره الناس، وكانت معه حية ملازمة تمشي في بدنه، وحكى السكيرج أن الفقيه الطيب بن رحمون كان قد ولاه السلطان مولاي سليمان قضاء تطوان، فأراد الإستعفاء منه، فذهب في صحبة السكيرج لزيارة المجذوب المذكور وحمل معه خبزتين فيهما خليع، فلما وصلا قال المجذوب: « مرحبا بالشريف قاضي تطوان اجلس يا سيدي ترتاح را البرنوسي قادم من رؤوس الجبال را العبد السلوي يتبعه. السلوي يقتل عشعاش وأشعاش يقتل السلوي... فما لبثنا حتى جاء البرنوسي قاضيا والسلوي حاكما كما حدثنا به الشيخ نفع الله به».[9]

3- إعتقادات موروثة عن القديم:

وكانت للعوام إعتقادات أخرى لا تتصل بالأشخاص ولكنها تتصل بالطبيعة أو ببعض الرموز، ومن أشهرها في تطوان عين الماء المعروفة بالعوينة التي تقصدها النساء العواقر طلبا للإنجاب، والعين التي حفرها الشيخ

---

[6] - التوفيق، ص.79.
[7] - الرهوني، ج.4 ، ص.105 .
[8] - المصدر السابق، ص.126.
[9] - السكيرج، ص.43.

التبين وكان يتوضأ منها وقت الصلاة، فكل من أخذ من مائها وكان به ضرب من الجن برئ ولا يعود إليه ذلك.[10] وكما كان للناس إعتقاد كبير في الحروز التي يكتبها المدررون وفي التمائم والرقي، وإعتقادهم أيضا في العين الشريرة، وكل ذلك من المعتقدات الموروثة عن الشعوب القديمة، وكما لم تخل إعتقادات العوام من ممارسات ذات أصول مجوسية كإيقاد الشموع عند مدخل الأضرحة وفي عيون الماء وغيرها. وكانت الأشياء الطبيعية المعتقد فيها أيضا إما أحجارا متراكمة أو أشجارا كما كان الأمر في موضع كثيف الأشجار كان يدعى جامع تاسياست على بعد بضعة أميال من تطوان.

وكان الأهالي يقيمون عادات ومراسيم إحتفالا بأيام أومناسبات دينية أو لا علاقة لها بالدين الإسلامي، وقد دخلت في المناسبات الإسلامية تظاهرات كانت تعبر عن اعتقادات وثنية قديمة نذكر منها:

- «**حكوزة**». وتكون في الليلة الفاصلة بين السنة الشمسية والسنة المبتدئة، وكان احتفال الناس بها لمصلحة فلاحية، فيلتزمون في ليلة قبلها وليلة بعدها ترك التقفيل أي تبخير الكسكوس مخافة أن يقفل عليهم الرزق في العام كله، ويجعلون العشاء مخلوطا بالحليب تفاؤلا، وكما يصنعون الثريد، ويشمخون الفول ويطبخونه، ويسمون ذلك « شيوخة ». وتبذل الأمهات ما في وسعهن لإقناع أطفالهن بأن «حكوزة » المرأة الرمز تكون في صورة عجوز مشوهة تأتيهم بعد النوم.[11]

- **العنصرة**. وتمثل مهرجان الخصوبة عند سكان حوض البحر المتوسط، وكان الإحتفال بها يتم يوم 24 يناير من كل عام، وقد ظلت الرغبة لدى الفلاحين للإحتفال به ولم يمنعه الإسلام. وكان الجبليون ينزلون للبحر بطبولهم وسلاحهم، فيلعبون البارود ويسبحون في البحر، وكان أصحاب الأشجار المثمرة يعتقدون أن تبخيرها بدخان العنصرة يذكر ثمارها، فكانوا يجمعون «الهشير» وهو بقايا الحصيد الملقى على الأرض ثم يوقدون فيه النار عندما يحل ظلام الليل.[12]

وبالرغم من أن مدينة تطوان عرفت تقاليد علمية وفقهية متينة، فإن ذلك لم يمنع من بقاء بعض الممارسات التي تعود إلى عهود ما قبل الإسلام والناجمة عن تأويل الناس لبعض الظواهر المحيطة بهم أو التي كانت تحدث

---

[10] - الرهوني، المصدر السابق، ص.55 .
[11] - نفس المصدر، ج.2 ، ص.239.
[12] - نفس المصدر، ص.241.

لهم تأويلا خرافيا إلى حد أنها تلتبس مع الشأن الديني في المظهر الغيبي، وهذه الذهنية كان يشترك فيها كل من الفقيه والشخص العامي.[13]

4- البيئة الثقافية:

بإمكاننا أن نتصور البيئة الثقافية كإستمرار لما كانت فيه في القرن السالف ولما ستكون عليه في القرن اللاحق، إذ الصورة المستخلصة عن بيئة هذا العصر هي أن الثقافة كانت تتمحور حول الدين الإسلامي، وبالتالي هيمنة الروح الفقهية ثم الصوفية. ويظهر جليا أن الفقهاء وشيوخ التصوف كانوا يعدون العناصر البارزة في الوسط الإجتماعي، ولهم صيت وجاه بين الناس بحكم أدوارهم المتعددة إذ هم الساهرون على تفسير أحكام الشريعة وتطبيق أوامر الدين التي تنظم الحياة الإجتماعية برمتها، وهم كذلك مصدر كل بركة يلتمسها الناس ويطلبها أرباب السلطة، وكما تنسب لهم كثير من الكرامات. وهذا ما يبين أن السلطة الروحية التي يمثلها الفقهاء والشيوخ غير محدودة ما دامت الشريعة مرجعا للتفسير القانوني في المجتمع بأسره. وبذلك لعب العلماء دورا هاما له جوانبه الروحية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية باعتبارهم النخبة المثقفة والمؤطرة التي تملك مقاليد القيادة في البناء المجتمعي.[14] وبالرغم من أن دور العلماء في تاريخ المغرب كان مكملا لعمل السلطة الزمنية وأنه كثيرا ما كان ينقذها من الإنهيار لما في ذلك من تبادل للمصالح في غالب الأحيان، فإن ذلك لم يمنع في أن تكون لبعض الفقهاء حساسية شديدة إزاء أرباب السلطة، بحيث ترسب في نفوس بعضهم أن جانب السلطة أو المخزن محفوف بالخطر والشر لما عهد عن أصحابه من دأبهم في إخماد صوت الفقيه وسلبه حقه في إنكار ما يراه منافيا للشرع في المجال السياسي. فقد روي أن الفقيه العلامة الشيخ أحمد الورزازي الدرعي التطواني (أو الورزيزي) قدم من تطوان على السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمراكش سنة 1762، وكان الفقيه المذكور من القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت مواقفه تعكس شجاعته وجرأته في الجهر بالحق حتى أنه أنكر على السلطان سيدي محمد بن عبد الله سماحه في إسكان النصارى بين المسلمين وإعطاءه من بيت المال من لا يستحق. وأنه لما أراد الإنصراف والعودة إلى بلده أعطاه السلطان خمسمائة دينار فردها عليه، فقال له هي حلال من إرث، فأجابه إن كان ولا بد فافد بها بعض

---

[13] - التوفيق، مصدر سابق، ص.88 .

[14] - هاشم العلوي القاسمي، **مقدمة كتاب التقاط الدرر**، ص.95.

أسارى المسلمين. وكان الفقيه الورزيزي ممن يرون أن أموال الحكام حرام لذلك لم يقبل عطاء السلطان ولم يأكل طعامه.[15] وذكر السكيرج أن الفقيه العلامة محمد بن الحسن الجنوي طلب منه السلطان الموافقة على فتوى في جواز إستخلاص بعض الأموال من الرعية، فقال له إن أموال الناس حرام كعرضهم وأنفسهم، فعنفه السلطان بسبب موقفه تعنيفا شديدا انفجع له الفقيه.[16]

وتعكس العناصر المتقفة صورة واحدة لنموذج ذهني واحد وثابت يتخذ سلوكا إتباعيا في تفكيره يطغى عليه طابع التقليد، وليس إبداعيا. فعندما نأخذ المؤلفات القليلة لفقهاء العصر في تطوان نجد أنها تمثل قسطا من الحصيلة الإنتاجية للفكر الديني الذي طبع المغرب عموما من الناحيتين العقلية والروحية،ورسم بالتالي الذهنية السائدة التي ساهم العلماء بقسط وافر في توجيهها خلال المرحلة التي نؤرخ لها. فإذا قمنا بمحاولة جرد للإنتاج الفكري والثقافي لفقهاء المدينة وعلمائها في القرن الثامن عشر حسبما وصلنا، نجده من الناحية الوصفية ينيف عن المائة تأليف ومنظومة لا تعدو مواضيعها أن تكون في غالبها إما شروحا أو تعليقات في العلوم الدينية. وسنذكر في هذا الفصل إسهامات هؤلاء العلماء حسب تسلسلهم الزمني:

- **الفقيه المفتي محمد بن قاسم بن سعيد ابن قريش** المتوفي عام 1691/1103، له أجوبة وفتاوي.

- **الفقيه العالم سيدي الحاج علي بركة** المتوفي عام 1708/1120، وله حاشية على المكودي،بل مجموعة طرر وحواشي كتبها على مواضع متفرقة من شرح المكودي لألفية ابن مالك، وأخرى على شرح أبي الحسن الصغير على الرسالة، وحاشية على ألفية ابن مالك وشرح مطول على الأجرومية، ومنظومة وكتاب في الفقه،وتأليف في مناسك الحج، وكتاب سماه «الدرر الخطب فيما يخاطب به الإنسان من الإسلام والإيمان والإحسان».[17]

- **الفقيه عمر بن عبد السلام لوقش** وتوفي في أواخر 1736/1149، درس الفقه والحديث والتفسير بمكناس وتارودانت.

- **الفقيه الأديب محمد مفضل الأندلسي** وتوفي حوالي 1751/1164. له شرح لمقصورة المكودي في مدح الرسول (ص).

---

[15] - الضعيف، ص.172.
[16] - السكيرج، ص.56.
[17] - داود، ج.1، ص.111.

- **الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن محمد الورزازي** المتوفي عام 1765/1179، وقد تتلمذ عليه عدد من العلماء ومنهم بناني محشي الزرقاني ومحمد بن الحسن الجنوي ومحمد بن الصادق بن ريسون، وله فهرسة.

- **الفقيه النحوي المحدث أبو الحسن علي شطير السماتي** المتوفي في ذي الحجة عام 1777/1191، ألف كتابا سماه «الحديقة الحسنة في خطب الشهور والسنة».[18] وله حواش على شرح المكودي لألفية ابن مالك وأبي الحسن على الرسالة والإكتفاء للكلاعي.

- **الفقيه المدرس القاضي عبد الكريم ابن قريش** المتوفي عام 1197/ 1783، وكان مشاركا في كثير من الفنون عالما بمسائل التوثيق، ابتدأ حاشية على المواق ولم يكملها.

- **الفقيه العلامة محمد بن الحسن الجنوي السماتي** توفي في رمضان عام 1786/1200، وهو من أشياخ كبار الشيوخ مثل الشيخ الرهوني محشي الزرقاني الذي ترجم له في حاشيته وذكر بأنه في تدريسه لا يقتصر على شرح معين، وأنه يعارض بين النقول، وذلك كان دأبه في التفسير والحديث والكلام والفقه والأصول والنحو والبيان والمنطق والتصوف.

- **الفقيه محمد بن علي الورزازي** وتوفي في زمن الوباء عام 1214 / 1799. وله فهرسة، وشرح لمنظومة الشيخ محمد ابن ناصر الدرعي في الفقه.

- **الفقيه الأديب عبد الله بن علي شطير** توفي عام 1799/1214. ألف كتاب «نضار الأصيل على بساط الخليل» جمع فيه فوائد علمية وتاريخية وأشعار وأدبيات وحكم ومواعظ، وكما له مجموع يحتوي على طبقات شيخه ابن عجيبة.[19]

- **الفقيه العلامة الصوفي الشيخ أحمد ابن عجيبة** 1809/1224. أنتج تآليف عديدة نذكر منها: اللوائح القدسية في شرح الوظيفة الزروقية، شرح تائية الشيخ علي بن مسعود الجعيدي، شرح الهمزية والبردة للبوصيري، شرح الحزب الكبير للشاذلي، شرح المنفرجة لابن النحوي، شرح نونية الششتري وشرح منظومته، شرح الصلاة المشيشية، شرح الحكم العطائية، شرح المباحث الأصلية، شرح خمرية ابن الفارض، الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الجرومية، شرح أسماء الله الحسنى، شرح تائية البوزيدي.

---

[18] - داود، ج.3 ، ص.95.

[19] - داود، ج.7 ، ص.378.

وكما له تأليف في التوحيد والصلاة، وتأليف في الغيبة ومدح العزلة والصمت، وتأليف في الأذكار النبوية، تأليف في القضاء والقدر، وتأليف في الخمرة الأزلية، وتأليف في القراءات العشر. وله أيضا تفسير مختصر للفاتحة وآخر متوسط ثم مطول، وتفسيره الشهير المسمى «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد».

ومن تآليفه كذلك أربعون حديثا في الأصول والفروع والتصوف، وأزهار البستان في طبقات العلماء والصلحاء والأعيان، ومعراج التشوف إلى حقائق التصوف، والفهرسة. وبالإضافة إلى ذلك له منظومات في الخمرة الأزلية وفي الحضرة النبوية وفي تفسير الملك والملكوت والجبروت والرحموت والناسوت واللاهوت، وغير ذلك.[20]

- **الفقيه القاضي عبد الرحمن بن سعيد بن طريقة** 1812/1227 وله شرح على ألفية ابن مالك وشرح شواهده، شرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي، شرح البوردة للبوصيري.[21]

- **العلامة الشريف محمد بن الصادق بن ريسون** 1818/1234 ومن أشهر تآليفه كتاب «فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي باسم الأمير».

- **الفقيه القاضي عبد الرحمن الحائك** 1821/1237 وله تآليف عديدة: حاشية على تفسير الجلالين، حاشية على شرح المواق لمختصر خليل، حاشيتان على المكودي شارح ألفية ابن مالك، حاشية على الشيخ ابن سلمون، وشرح فرائض مختصر خليل، شرح أرجوزة ابن عاشر، ومعرب لمختصر خليل، معرب على لامية الزقاق، والنوازل الفقهية، وطرر على ابن غازي والمواق وخليل.[22]

- **الفقيه المؤرخ عبد السلام السكيرج** 1834/1250 ألف تاريخه المشهور في تطوان وسماه « نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان». ويعد تأليفه المرجع في معرفة الشيوخ والفقهاء والمدرسين ومقروءاتهم وإنتاجهم في القرن الثامن عشر.

وإذا أحصينا مجموع هذا الإنتاج نجده موزعا بين موضوعات تخص العلوم الدينية والنقلية من تفسير وحديث وفقه وأصول التشريع وعقائد وقراءات إلى جانب التصوف والتاريخ والفهارس.

---

[20] - نفس المصدر، ص.381 .

[21] - السكيرج، ص.60 .

[22] - الرهوني، ج.4 ، ص.48 ، داود، ج.7 ، ص.387 .

وكما نستطيع أن نلتمس من خلال المادة التي جمعناها الملامح البارزة للمستوى العلمي للطبقة المثقفة بتطوان. ثم إن هذا التراث العلمي الذي خلفته لنا في هذا العصر يصور بوضوح المناخ الفكري السائد ليس في مدينة تطوان فحسب، بل وفي جميع بلاد المغرب حيث كانت السمة الواضحة هي هيمنة التفكير الفقهي والصوفي المعتمد في منهجه على اجترار ما أتى به الأولون، مما جعله يقتصر على الشروحات والطرر[23]. وهكذا يتبين من خلال الإنتاج الموصوف للفقهاء والعلماء المذكورين أن مفهوم العلم كما يعبر عنه آنذاك يرتبط ارتباطا عضويا بالدين، بمعنى أنه يخدم الشريعة، ومن ثمة فإن العلم والثقافة هما الفكر الذي ينبثق من المعرفة الدينية.

5- الحركة العلمية والتعليمية:

كانت عملية نشر الثقافة وتنشيط الحركة العلمية في هذا العهد بتطوان من مهام العلماء الذين ذكرناهم آنفا، ممن كانوا يعدون من أعمدة الثقافة بها آنذاك. وكانت مجالسهم العلمية يؤمها كثير من طلبة العلم وحتى بعض العوام، ومن بين هذه المجالس:

- **مجلس الشيخ القدوة العلم العلامة سيدي علي بركة.** وصفه ابن الحاج في «الدر المنتخب» العالم العلامة ذو التحقيقات الباهرة والمآثر العديدة الشهيرة الولي الصالح المشارك البركة. كان له مسجد جامع يؤم فيه بالناس ويخطب ويعظ بأخلاقه وأعماله وتواضعه، ويدرس العلم، وهو المسجد المعروف بجامع السوق الفوقي، وكان في القديم يعرف بمسجد سيدي بركة. وكان يدرس الفقه والحديث وألفية ابن مالك وألفية الإمام العراقي والرسالة والأجرومية، وإلى جانب العلوم الشرعية كان له اشتغال بالأدب والشعر، وكان ينظم لطلبته المسائل العلمية في أراجيز يسهل حفظها[24]. ومن تلامذته الفقيه الأديب محمد بن علي الرافعي، والأديب علي مندوصة، والأديب محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي.

- **مجلس الفقيه أحمد السرايري.** ذكره صاحب نشر المثاني بالفقيه الخير، وكان خطيبا ومدرسا بجامع العيون، درس عليه الشيخ عبد الرازق بن حمادوش الجزائري ألفية العراقي، ودرس عليه الفقيه محمد بن العباس التطواني ألفية ابن مالك ومجالس من الرسالة وصحيح البخاري توفي عام 1156/ 1743.

---

[23] - العلوي القاسمي، مصدر سابق، ص.112 .

[24] - داود، ج.1 ، ص.370 .

- **مجلس العلامة محمد بن عبد السلام بناني**. وكان يدرس بالزاوية الناصرية تفسير القرآن العظيم والموطأ وصحيح البخاري ومختصر خليل وتلخيص المفتاح والسلم المنطقي، والرسالة الوضعية للعضد وسيرة الكلاعي، وكما كان له مجلس بالزاوية الحنصالية. ومن تلامذته ابن حمادوش الجزائري ومحمد بن الحسن بناني محشي الزرقاني. وكان وفاته عام 1163/ 1750.

- **مجلس الفقيه العلامة المدرس أحمد بن محمد الورزازي**. وصفه الشيخ أبو الإسعاد الكتاني في فهرس الفهارس بأنه حبر تطوان وفخرها، ووصفه الشيخ الرهوني محشي الزرقاني بالعلامة المشارك المحقق الورع، وحلاه العالم أحمد بن عمار مفتي المالكية بالجزائر في عصره بأنه « عالم قطر المغرب قاطبة ومدرسه وباني ركن العلم ومؤسسه». وعده الشيخ أحمد بن عجيبة بشيخ مشايخه، وبأنه كان عالما كبيرا يميل إلى تحكيم العقل في الأمور النقلية والعقلية، وكان الشيخ الورزازي إماما راتبا في جامع لوقش، وبه كان يلقي دروسه في غالب الأحيان. ومن العلوم والتآليف التي كان يلقنها: التفسير والحديث، والشمائل المحمدية للترمذي، ومختصر خليل، وأصول السبكي، ومختصر السنوسي في المنطق، وتلخيص المفتاح في البلاغة، والشفا للقاضي عياض، وألفية العراقي، وتحفة ابن عاصم. ومن تلامذته بتطوان الشيخ محمد بن الحسن بناني محشي الزرقاني، والشيخ محمد بن الحسن الجنوي، والشيخ سيدي محمد بن الصادق بن ريسون، والفقيه محمد بن عبد السلام الناصري صاحب كتاب « المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا».[25]

- **مجلس الفقيه المحدث النحوي علي بن الطاهر شطير**. وصفه ابن عجيبة في «أزهار البستان» بالمحدث العالم النحرير، وذكره محمد بن الصادق بن ريسون في فهرسته من جملة أشياخه، أخذ عن جماعة من أكابر شيوخ وقته وأخذ عنه جماعة من نجباء عصره. وكان إماما مدرسا بجامع الرابطة، درس البخاري ومختصر خليل وألفية ابن مالك وشمائل الترميذي. ترك عدة شروح ونسخة من خطه من الإكتفاء للكلاعي.[26]

- **مجلس الفقيه القاضي عبد الكريم بن قريش**. وصفه ابن عجيبة بالإمام العالم الفقيه المدرس الخطيب، وبأنه دارت عليه الفتوى في زمانه بمدينة تطوان. وكان يقوم بشؤون جامع العيون من إمامة وخطبة وتدريس،وكان مجلسه من بين أهم المجالس التي يقصدها الطلبة وغيرهم حيث كان يلقن

---

[25] - داود، ج.3 ، ص.86 .

[26] - نفس المصدر، ص.96.

تفسير الجلالين والصحيحين، ومختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد، وألفية ابن مالك ولاميته، وتوضيح ابن هشام، ومختصر السنوسي في المنطق وعقيدته الصغرى والكبرى، وتلخيص المفتاح في البيان، والشفا.[27] ومن تلامذته الفقيه عبد السلام السكيرج والشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة.

- **مجلس الفقيه العلامة الشيخ محمد بن الحسن الجنوي.** وصفه الشيخ الرهوني بالعلامة المتفنن الورع العارف بالله، وبأنه كان عظيم الإعتناء بطلب العلم حفظا وفهما ومطالعة وتقييدا، موصوفا بالتدقيق والإتقان لا يكاد يخالف فتواه أحد من الفقهاء والحكام. كان يقوم بشؤون جامع سيدي علي بن مسعود الجعيدي المعروف بجامع العيون من إمامة وخطبة وتدريس. درس التفسير والفقه بمختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد، والنحو بألفية ابن مالك، والبلاغة بتلخيص المفتاح، والمنطق، والتصوف.[28] ومن تلامذته العلامة سيدي محمد بن الصادق بن ريسون، والفقيه أبو محمد السكيرج، والشيخ سيدي أحمد ابن عجيبة.

- **مجالس العلامة والشيخ الصوفي سيدي أحمد ابن عجيبة.** وصفه السكيرج بوحيد زمانه في العلم والسلوك، وقد جلس للتدريس في عدة مواضع قبل ملاقاة الشيخ وبعده، ومنها جامع القصبة وجامع الجعيدي، وفي مسجد الساقية الفوقية، وزاوية ابن ناصر، وزاوية أحنصال، وزاوية ابن مرزوق، وفي زاوية سيدي السعيدي.[29] وكان العالم المذكور بحرا في مختلف العلوم الدينية أخذ عنه كثير من الخلق.

ولم تكن مجالس العلم في تطوان منذ الثلث الأخير من القرن الثامن عشر مقصورة على ما ذكرناه فحسب، وإنما كانت هناك حلقات الدروس بمساجد تطوان وزواياها تصدى لها فقهاء آخرون أمثال الفقيه **محمد غيلان**، وكان إماما ومدرسا بمسجده بالمطمار، وتوفي عام 1774/1188، والفقيه **محمد التلمساني** وكان إماما ومدرسا بالزاوية الوزانية، وتوفي عام 1192/ 1778، والفقيه المقرئ **طاهر الطنجي** المتوفي سنة 1781/1195، والفقيه **محمد العباس**، وكان متمهرا في النحو وقد وصفه الورزازي بسيبويه هذه البلدة، وكانت وفاته في حدود المائتين بعد الألف.[30] والفقيه **أحمد الرشي** وكان معروفا بالعلم والتحقيق والتحصيل، وكان يعرف اللغة التركية، وتوفي سنة

---

[27] - السكيرج، ص.6 ، ابن عجيبة في **أزهار البستان**، ص.204 .
[28] - نفس المصدر، ص.65، **وأزهار البستان**، ص.205 .
[29] - ابن عجيبة، **الفهرسة**، ص.44 .
[30] - داود، ج.3 ، ص.102 .

1795/1210. وقد ذكر السكيرج في تاريخه عددا من الفقهاء الآخرين الذين أخذ عنهم العلم في هذا العصر لم نأت على ذكرهم.

ولم يكن بتطوان علماء كبار لهم اعتناء بالأدب وبعلم الرواية والإسناد قبل عودة الشيخ سيدي علي بركة إليها قادما من فاس في حدود أواخر المائة بعد الألف هجرية، وانكبابه على التعليم والإرشاد والكتابة. وكل ما كان فيها من فقهاء لم يتعد اهتمامهم علوم اللغة والفقه والنوازل والتفسير والحديث عن طريق الدراية لا عن سبيل الرواية، والدليل على ذلك حسب المؤرخ داود أن شيخ تطوان وعالمها وأديبها علي بركة لم يذكر من بين أشياخه الذين أجازوه في العلوم أي واحد من علماء تطوان، وإنما اقتصر على علماء فاس.[31] وهكذا حل القرن الثامن عشر وعالم تطوان في ذلك العهد هو سيدي علي بركة الذي انقطع لتدريس العلم ووعظ الناس، وقد اختلف إلى مجلسه الطلبة ممن كان يدرس معهم العلوم العالية، والعوام الذين كان يرشدهم ويفتي لهم في مسائل دينهم ومعاملاتهم، فكان هو الوحيد الذي يملأ العين من العلماء العاملين بتطوان.

وقد مر على تطوان من بعده حين من الدهر لم يكن فيها سوق العلم نافقا إلا قليلا، ولعل ذلك راجع لتقلبات الأحوال السياسية وكثرة الأحداث التي مرت منها المدينة بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل، بل وكانت مسرحا لها إلى درجة أن بعض علمائها ممن كان يعقد العزم عليه في تنشيط الحركة العلمية بها وهو الفقيه عمر لوقش إشتغل بالحرب والسياسة، وقد طغى هذا الجانب على دوره كفقيه وعالم. ولم تنتعش تلك الحركة من جديد إلا بعد استقرار الأحوال بالبلاد عند تولية العرش السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي أولى إهتماما بالغا بشؤون العلم ومدارس التعليم. فبرزت مجموعة من العلماء الذين قاموا بنشر العلم في حلقات الدرس ومجالس التعليم، ووجود عدد مهم من العلماء الذين تعاطوا للتدريس في بيئة واحدة وفي ظرف زمني معين يتمثل بالخصوص في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، وانتماء جلهم إلى جيل واحد هو أمر يدعو إلى الإنتباه والإهتمام وخاصة عندما يتعلق الأمر بحاضرة كتطوان، فهي عرفت يومئذ حركة واسعة في العلم والتعليم وما يتبعها من تقييد وتأليف، وإن كانت هذه الحركة لا يكتفي المتخرج من مجالسها بما حصله من شيوخها، بل كان ولا بد أن يغنيه ويوسع مداركه بالنهوض إلى فاس لحضور مجالس شيوخها بجامع القرويين. ولعل ذلك هو أحد أسباب هذه «اليقظة» الثقافية، وتجسده الصلة التي كانت بين الحاضرتين،

---

[31] - نفس المصدر، ج.1 ، ص.426 .

فقد كانت تطوان من الناحية الإقتصادية تشكل سوقا متقدما بالنسبة لفاس للوسق نحو أوربا والشرق، ومرفأ لسفر الحجاج، وملجأ عند كل جائحة أو قاصمة تحل بالبلد، فكم من شيخ وعالم وتاجر جعلها مستقره الدائم أو إلى حين، فكان لابد أن تتأثر بالنسق الفكري والثقافي الذي عرفته تلك الحاضرة.

- مضمون التعليم وطرقه :

ظل العلم محصورا عند قضايا الدين إذ لم يوجد علم بالمعنى الموضوعي، فقد سأل أحد طلابه ممن زار مدينة تطوان وتتلمذ للمدرسين بها عن علم الفلك وعلوم الحساب والطب والهندسة فلم يجد من يبحث عنها.[32] ووصف زائر أوربي الأقلية المتنورة بالمدينة بأنها تجهل تماما أن المعرفة البشرية انتقلت من مستوى النقول والجدال إلى مستوى العلوم التجريبية والتطبيقية، ولكنه تحدث عن تلقين مبادئ أوقليدس في الرياضيات والجبر ومبادئ بطليموس في علم الفلك.[33] إلا أن مادة التدريس التي شغلت عقل جل المدرسين قامت على مجموعة من العلوم كان الأخذ بها والإعتماد عليها أساسيا بالنسبة للفرد المسلم في التربية والتكوين، وكان يعتمد في تدريسها على مجموعة من المؤلفات. وهذه العلوم هي كالتالي:

❖ **علم التفسير**. ويجري في الغالب على تفاسير ذي الجلالين والبيضاوي والتسهيل لابن جزي. وكان لايقرأه إلا من كان محصلا لكثير من العلوم من كبار العلماء.

❖ **علم القراءات**. ويتعلق بقراءة القرآن ورواياته وقواعدها واصطلاحاتها.

❖ **علم الحديث والسيرة**. وكان له حضور بارز في مجالس التعليم، وكان صحيح البخاري من أكثر كتب الحديث إنتشارا إلى جانب صحيح مسلم، وكانت تقرأ سردا للتبرك ودراية للفهم وخاصة في أشهر رجب وشعبان ورمضان. وبجانبها كان يدرس الموطأ للإمام مالك، وكتاب الشمائل المحمدية للترمذي، وكتاب الشفا للقاضي عياض، والأربعين النووية، وبعض كتب السيرة كسيرة الكلاعي وتدرس في شهر ربيع الأول من كل عام.

❖ **علم التوحيد**. وكان يعتمد في تدريسه على الكبرى والوسطى والصغرى للسنوسي.

❖ **علم الفقه**. كان كتاب مختصر الشيخ خليل أشهر الكتب الفقهية التي يتنافس الفقهاء والطلبة في حفظها ودراستها، وهو مادة مختصرة لفروع الفقه

---

[32] - عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، خ.ع. ك 463 ، الرباط، ص.9 .

[33] - Potocki, Op.Cit, p.37.

المالكي، ومادة لا تفصح عن ذاتها إلا بمختلف الشروح والحواشي. وقد اعتمد في الدرس الفقهي بمختصر خليل بالدرجة الأولى على شرحي الشيخين الخرشي والزرقاني، وكانت الإستعانة تتم في كثير من الأحيان بحاشية بناني التي وضعها على شرح الزرقاني المذكور.[34] وكانت على رأس كتب الفقه المالكي أيضا منظومة التحفة لابن عاصم، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والمرشد المعين لابن عاشر، ولامية الزقاق.

❖ **علم الأصول.** ويعتمد في تدريسه على كتاب جمع الجوامع لابن السبكي.

❖ **علم النحو والصرف.** وهو أول ما يقرأه التلاميذ فيبدأون بكتاب الأجرومية، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودي وتوضيح ابن هشام، ولامية الأفعال والمغني وكتاب التسهيل.

❖ **علوم البلاغة.** وتدرس بالإعتماد على كتاب تلخيص المفتاح ومنظومة الخزرجية.

❖ **علم المنطق.** ويدرس كتاب السلم للأخضري، ويقرأونه بشرح ابن الحسن بناني، وكذلك مختصر السنوسي.

❖ **علم التصوف والأخلاق.** وكان يؤخذ فيه بمصنفات زروق كالنصيحة والوظيفة، والحكم العطائية.

❖ **علوم أخرى كالحساب والتوقيت والهيئة.** ويؤخذ فيها بكتاب المقنع وكتاب القلصادي في الحساب.

وكان الفقهاء يقومون بتلقين هذه العلوم وتدريس الكتب في حدود الشريعة الإسلامية والمذهب المالكي، ولهذا اعتبر التعليم ضمن الحرف الدينية الموجودة بالمدينة، وكان يشمل: التدرير أي تعليم الدراري القرآن وحروف الهجاء وكيفية الرسم والضبط والتجويد، وكان يسمى بالتأديب، وهذا النوع من التعليم الأولي كان يتم داخل الكتاب (المسيد) الملحق في الغالب بالمسجد. وكان التلميذ يبدأ فيه بحفظ القرآن، وإذا حصل في ذلك شرع في تحصيل الروايات، فإذا تاق بعد ذلك للعلم قصد أحد الجوامع أوالمساجد أوالزوايا التي تلقن بها العلوم اللغوية والفقهية، وفي الغالب كان الطلبة في مرحلة تحصيل الروايات يحفظون بعض النصوص الأساسية في مختلف تلك العلوم وهي التي تعرف بالأمهات.

---

[34] - عبد الله المرابط الترغي، **النشاط الثقافي في تطوان في أواخر القرن الثاني عشر.. كما يصوره الشيخ السكيرج في تاريخه**، ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1994 ، ص.148.

ولم يختلف مضمون البرامج في الجوامع والمساجد والزوايا، وكما لم يختلف المدرسون إلا في الشروح التي كانوا يختارون تدريسها على المتون الموجودة. وكانت طريقة تدريس العلوم والكتب تختلف باختلاف طبقات المدرسين والطلبة، وتعتمد في الغالب أسلوبين وهما:

– طريقة شرح المتون شرحا مختصرا مع الإكثار من المقروء، وتسمح بقراءة كثير من الكتب الكبيرة مرارا عديدة، وقد اعتمدها كثير من الفقهاء.

– طريقة التحقيق والتدقيق والإكثار من النقول، وهي لا تسمح بختم الكتب الكبيرة في مدة قصيرة، وهي التي سلكها العلامة محمد بن الحسن الجنوي حسبما ذكره عنه تلميذه الرهوني في حاشيته.

والأسلوبان كلاهما كانا يعتمدان على الحفظ دون الفهم في الغالب، فقد كان الطالب يقضي حياته الدراسية داخل حلقة مفرغة في حفظ المتون وشرحها، وذلك لم يكن يساهم إلا قليلا في تحسين المعارف المادية للطلبة ويحد من نشاطهم الفكري. وأما الكتب المتداولة بين أيديهم فلم تتجاوز بعض كتب الفروع المتأخرة وهي مختصرات لا تخلو من غموض وتعقيد، وكما أن بعضها كان يمزج الواقع بالخرافة، وكان حملة هذه الثقافة هم الموجهين لذهنية الناس. وقد أدرك السلطان سيدي محمد بن عبد الله ما نال أساليب التعليم من الجمود، فحاول أن يكسره ويقوم بخطوة إصلاحية شاملة في المجال التعليمي، فحدد المناهج والمقررات والمحاذير في منشوره إلى المدرسين في مساجد فاس ومن خلالهم إلى باقي ربوع البلاد، يقنن ما يكون من أمور النصوص الواجب تدارسها والمتون اللازم تجاوزها وعدم قراءتها، وكما يقنن العلوم التي ترى ضرورة الحض على تلقينها وتشجيع المشتغلين بها، والعلوم الأخرى التي ينبغي التقيد الشديد في الأخذ بها. وقد ألف السلطان بمساعدة بعض علماء مجالسه كتاب «مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان» ليكون نبراسا في مجال إصلاح التعليم وتقويم مناهجه، لأن الحفظ وحده لا يجدى نفعا في العملية التعليمية لإعتماده على شحن الأذهان بالمعلومات الكثيرة دونما فهم، فالعلم المفهوم هو الذي ينتفع به في أمور الدين والدنيا.

وإذا كان من المنتظر أن تجد آراء السلطان صدى لدى الأوساط العلمية والثقافية المغربية بحيث تنعكس على آراء العلماء على الأقل، فإنه من المؤكد أن التأثير كان ضعيفا لم يتجاوز حدود ترك بعض الكتب والمختصرات الفقهية كمختصر خليل. إلا أن فقهاء العصر لم يكونوا على موقف موحد إزاء إتجاه السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بحيث ظل كثير منهم وخاصة

في مدن كتطوان بمنأى عن مسايرة أفكاره، وبقي وفيا للكتب والمختصرات المعتمدة من لدن سلفهم، وكما أن مشروع السلطان تعرض للإجهاض على يد خلفه السلطان مولاي سليمان الذي أعاد الأمور إلى ما كانت عليه، حتى أنه كان يحض الناس على التمسك بمختصر خليل ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة.[35]

- رعاية مدارس العلم والتعليم:

كانت مجالس العلم توجد إما بالجوامع والمساجد وإما بالزوايا، وكان أقدمها بالجامع الأعظم وجامع السوق الفوقي ومسجد العيون ومسجد الرابطة والزاوية الناصرية وزاوية أحنصال وغيرهم. وأحدثت مدرستان حملتا إسم عائلتين إكتسبتا جاها كبيرا خلال القرن الثامن عشر وهما: لوقش وابن قريش.

ومن أشهر مدارس العلم في تطوان:

- **مدرسة الجامع الكبير**: وهي أقدم مدرسة عرفتها مدينة تطوان، وكانت جزءا من المسجد الأعظم الذي وسعه السلطان مولاي سليمان، وكانت عبارة عن بيوت معدودة ملحقة بالمسجد، وكان الطلبة موزعين بعضهم يسكن المدرسة والبعض الآخر يقطن في الكتاتيب الملحقة بالمساجد. وكان من العلماء المدرسين بها الفقيه القاضي عبد الكريم بن أحمد بن قريش وابن عمه الفقيه القاضي عبد السلام بن قريش. ولما تم تجديد بناء الجامع المذكور سنة 1807 عين السلطان إماما به ومدرسا العالم الشيخ محمد الحراق الذي كان لتوليته أثر فعال في تقديم العلوم الدينية بتطوان، وقد نال الجامع بوجوده شهرة كبيرة.

- **مدرسة لوقش**: وتعد المدرسة الكبرى بالمدينة، وهي ملحقة بالمسجد الذي يحمل نفس الإسم، وقد بناهما قائد تطوان محمد بن عمر لوقش فيما بين سنتي 1753 و 1756، وتقع بين ساحة الغرسة الكبيرة وزنقة المقدم المجاورة لها، وتتكون من طابقين يضمان أكثر من خمسين غرفة مخصصة لإيواء الطلبة، وكذلك العلماء الوافدين عليها، حيث كانت بعض الغرف منسوبة لعلماء أقاموا بها مدة ليست بيسيرة. وكان الطلبة قبل تأسيسها يقطنون في مساكن متفرقة، ويدرسون في مساجد متعددة، فأدى تشييدها إلى تجميعهم. وقد قضت هذه المدرسة فترة من الزمان كانت فيها مقصد الطلبة من مختلف أنحاء البلاد، ومحط علماء أماثل وفدوا إليها مثل محمد بن الحسن بناني

---

[35] - الناصري، **الاستقصا**، ج.8 ، ص.67 .

محشي الزرقاني ومحمد الرهوني تبعا لشيخه الفقيه الجنوي. وكان من العلماء المدرسين بمسجد لوقش الفقيه العلامة أحمد بن محمد الورزازي.

- **مدرسة ابن قريش:** وتحمل إسم عائلة ابن قريش الشهيرة طيلة القرن الثامن عشر، والتي نبغ منها علماء تولوا خطة القضاء، ومن أبرزهم الفقيه عبد الكريم بن قريش الذي شغل منصب كاتب السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وابن عمه الفقيه القاضي عبد السلام بن قريش، ومن المحتمل أن يكون هذا الأخير هو مؤسس المدرسة التي تحمل إسم عائلته بحومة العيون، وأحدث إلى جانبها مسجدها الصغير. وبعد تأسيسها عمرها بنو قريش بعلمائهم المدرسين، وأنفقوا عليها من أموالهم، وقاموا برعاية طلبة العلم الذين هرعوا إليها من داخل المدينة ومن المناطق المجاورة.

وكانت رعاية مدارس العلم والتعليم تعتمد على ما كان ينفقه عليها الأهالي من أموال، أو ما يحبسون عليها من أملاك وما يهبون لها من كتب دينية، مما جعلها لا تخلو في أي وقت من الطلبة. وقد كانت لمدرسة الجامع الكبير ومدرسة لوقش حبوسات كثيرة ضاعت بسبب التلف الذي تعرضت له بعض حوالات المساجد عقب حرب تطوان سنة 1860، ومن بينها حوالة الجامع الكبير وحوالة مسجد لوقش ومدرسته. وقد مر بنا أن بني قريش بدورهم قاموا بتحبيس مداخيل الرباع والعقار على القراءة في مدرستهم بالعيون.

ونورد في هذا الصدد وصية تحبيس على طلبة العلم بتطوان الساكنين بالمدرسة المجاورة للمسجد الأعظم ومدرسة لوقش عام 1773/1187، وهي للفقيه أحمد الرشي وهو أحد مشاهير علماء المدينة ومدرسيها وأغنيائها، ونصها:« الحمد لله أوصى الفقيه الأجل العالم المدرس الأمثل السيد الحاج أحمد بن المرحوم برحمة الله تعلى سبحانه السيد الحاج عبد الرحمن الرشاي التطاوني أنه متى حدث به حادث الموت فيخرج عنه بعد وفاته ثلث جميع متخلفه... ويعطي لأولاد أولاده... ومن مات من الموصى لهم من غير عقب يرجع لمن بقي وهكذا إلى انقطاع الجميع من الفرع والأصل فيرجع الثلث المذكور الموقوف فيما ذكر حبسا مؤبدا على طلبة المدرستين مدرسة الجامع الكبير من تطوان ومدرسة لوكس بالغرسة الكبيرة بتطوان أيضا... عرف قدر ذلك وشهد به عليه بأكمله وعرفه وفي أواخر شهر رمضان عام سبعة بموحدة وثمانين ومائة وألف. عبد القادر بن عيسى وفقه الله ومحمد السخيري وفقه الله».[36]

---

[36] - داود، ج.2 ، ص.353 .

وهذه وصية أخرى حررت عام 1776/1190 لفقيهة هي أخت القاضي عبد السلام بن محمد بن قريش على الطلبة الملازمين لزاوية والدها، ونصها:« الحمد لله عهدت وأوصت الفقيهة المصونة (فاطمة)... أنها إن قدر الله موتها الذي لا بد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فإنه يخرج نصف واجبها من كراء الحمام الذي لها في شركة غيرها ويعطى منه عشر موزونات لمن يلازم قراءة حزب القرآن العظيم صباحا ومساء بالزاوية التي بها ضريح والدها الفقيه الشهير العلامة القاضي النحرير وضريح ابن أخيها المحدث العلامة البركة سيدي محمد بن عبد السلام رحمهما الله... ويخرج منه أوقيتان إثنتان لتصرف في مصالح الزاوية المذكورة... وما بقي من النصف المذكور يصرف منه خمس عشرة موزونة في شراء خبز كل شهر وتفرق على الطلبة الملازمين للزاوية المذكورة... وإن وقع بالكراء نقص لا يسع لجميع ما ذكر فلا ينقص مما هو بجانب الخبز عما ذكر قصدت بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الآخرة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا. عرفت قدره شهد به عليها بأكمله في الرابع والعشرين من صفر الخير عام تسعين ومائة وألف. عبد الكريم بن أحمد بن قريش وعبد السلام بن محمد بن قريش».[37]

وهذا وقف للفقيه القاضي عبد السلام بن قريش بتاريخ 1785/1199 على زاوية والده بالعيون، والتي حول جزء منها في عهده إلى مدرسة ينتفع منها عدد من الطلبة، ونصه: « الحمد لله أشهد على نفسه الفقيه الأجل العالم العلامة القاضي سيدي عبد السلام بن الفقيه المرحوم القاضي الدراكة سيدي محمد بن المنعم الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد بن سعيد بن قريش التطاوني أنه حبس النصف الواحد من الطرازين الإثنين، الواحد منهما أمام داره الكبرى من تطوان المجاورة لفدان أغطاس من خلفه والمحجة أمامه ودار بورازين ما عدا هوايبه فإنه لم يتناوله الحبس. والآخر بطرف المدرسة المتصلة بروضة والده المذكور في جوار السعود والآن في شركة الحبس للروضة المذكورة بالنصف الباقي في الطرازين المذكورين بمنافع ذلك ومرافقه وحرمه كافة حبسا صحيحا تاما لا يبدل ولا يغير عن حاله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والمحبس المذكور يوقف كما ذكر ويدفع خراجه من مصالح روضة والده المذكور ... لسابع عشر المحرم

---

[37] ـ نسخة من الوثيقة في حوزتنا.

الحرام فاتح عام تسعة وتسعين ومائة وألف.. عبد الجليل الحاج البقال والتهامي البناي».[38]

وهذه وصية أخرى للفقيه عبد الغفور بن قريش وهو ابن القاضي المذكور أعلاه، وهي على طلبة العلم المستقرين بمدرسة زاويتهم، وفيها:« الحمد لله عهد وأوصى الفقيه الأبر العالم العلامة الأغر سيدي عبد الغفور بن الفقيه الأوفى الخير العلامة المحقق القاضي الأجل المرحوم المبجل سيدي عبد السلام.. أنه إن قضى الله سبحانه بموته الذي لا بد منه ولا محيد لمخلوق حي عنه فيخرج عنه بعد وفاته الثلث الواحد من قليل الأشياء وكثيرها وجليلها وحقيرها العقار وغيره ويوقف منه واجبه في الحمام المعروف لهم قرب زاويتهم وواجبه أيضا في الفرن القريب من مسجد الجعيدي شهرته كافية وفيما عدا ما ذكر من أنفاس أصوله الكاينة داخل البلد المذكور ويصرف مستفاد خبز الفرن المذكور كل يوم بعد وفاته على من يتعاطى القراءة وطلب العلم ممن هو مستقر بمدرسة زاويتهم لمن احتاج منهم... عام أربعة عشر ومائتين وألف... (1799)».[39]

وأوصى الفقيه المذكور بتحبيس جميع كتبه على من يقرأ العلم من أولاده وأولادهم ذكورا وإناثا، فإن انقرضوا رجعت الكتب حبسا على الزاوية المعروفة لهم ينتفع بها الثقة من طلبة الزاوية أو غيرهم من أهل البلد، وجعل عليها مكلفا يرجع إليه النظر عند إعارتها بالرهن إذا لم يكن الشخص معروفا لديه بشرط أن لايمكث الكتاب عند من استعاره أكثر من ستة أشهر.

وكما حبست عدة كتب مخطوطة على مدرسة لوقش والجامع الكبير منها:

* تحبيس الفقيه الحاج عبد الكريم بن الحاج عبد الله السفاج التطواني كتاب صحيح البخاري نسخة كاملة على مدرسة لوقش بتاريخ 1215/ 1800 و1801/1216.

* تحبيس السلطان مولاي رشيد كتاب فتح الباري، الجزء 14، على الجامع الكبير.

* وحبس السلطان سيدي محمد بن عبد الله خزانة جده السلطان مولاي إسماعيل على مكتبات ومساجد المملكة، ومن جملة الكتب التي حبسها على الجامع الكبير بتطوان نذكر نسخة من صحيح البخاري، الأجزاء 1 و2 و3 سنة 1770/1184، وشرح الخرشي على مختصر خليل، الجزء 5، وشرح المواق على مختصر خليل، جزآن، سنة 1198/ 1784 .

---

[38] ـ نسخة من الوثيقة في حوزتنا.

[39] ـ نسخة من الوثيقة في حوزتنا.

* وحبس خليفة السلطان مولاي علي على الجامع الكبير نسخة منه أيضا، الجزء 2، عام 1791/1206.

وهكذا كان للوقف دور أساسي في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية بالمدينة كما في المدن الأخرى، إذ كانت مجالس العلم والتعليم تتزود بواسطة قنواته كتنافيذ مختلفة بسبب الوظائف الدينية التي كان يقوم بها العلماء في مساجد المدينة وزواياها. فكان بذلك أداة فعالة في شحذ همم الطلبة والمتعلمين، وتفتيق قرائح الفقهاء والمدرسين.

الفصل العاشر
البيئـة الطرقيـة

شكلت مصطلحات الشيخ والزاوية والطريقة مظاهر جديدة بالنسبة لتطوان إلى حدود أواخر القرن السابع عشر، فالسكان الأندلسيون المهاجرون الذين عمروا هذه البلدة ومن انحاش إليهم من أهل الجوار وغيرهم لم يصحبوا معهم إليها حسبما نعلم شيئا من حياة الطرق الصوفية وعوائدها، وكل ما كانوا يحرصون عليه هو القيام بواجب الجهاد والرباط لحماية البلاد من الإحتلال الإيبيري، وأنهم أنشأوا لهم أسطولا صغيرا كانوا يغيرون به على شواطئ جنوب إسبانيا إنتقاما من هؤلاء الذين طردوهم من الأندلس وأجلوهم عن أراضيهم وممتلكاتهم، وفي نفس الوقت كان إشتغالهم بما يضمن عيشهم في البلاد المستقبلة من فلاحة وغرس وصنائع. ففي ظل هذه البيئة المنقادة للترصد والإغارة، والمنشغلة بالإتيان بالغنائم وإحداث العمران، لم توجد الأسباب والمسببات للإنكباب على الطرق، والإنخراط في سلكها بالنسبة لأغلبية الأهالي، وهذا في إعتقادنا يعود لأمرين: الأول، إن سلوك الطريق ربما كان يعني عندهم ترك وسائل العمل التي تحتمها الظروف القائمة أو على الأقل تأخيرها، وهذا من شأنه أن يسهل العمل على الأعداء المتربصين، والأمر الآخر يعود إلى عدم وجود شيخ التربية إلى ذلك العهد من أمثال صلحائها الأول كالشيخ عبد القادر التبين والشيخ أبي عبد الله الفخار والشيخ أبي يعلى طلحة الدريج. ولهذا لا يمكن أن نتحدث عن قيام زاوية واستمرارها بالرغم مما نسب للأشياخ المذكورين من انتسابهم للتصوف وتأسيسهم للطرق، ولعل أول زاوية صوفية أسست بتطوان حسب المؤرخ داود هي زاوية الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي بحومة العيون عام 1594/1003 « أمر الشيخ أصحابه الذين بتطاون ببناء رابطة هنالك لأورادهم وأحزابهم وإجتماعهم للذكر والتذكير فبنوها في العيون منها وقام الرسم بها أحسن قيام ولم تزل الصلوات راتبة بها ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرهما ثابتة فيها واسم الزاوية جاريا عليها ووقف الناس عليها أوقافا».[40] وأصحاب الشيخ المذكور هم الأول الذين ظهروا بمظهر الطريقة

---

[40] ـ محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن في الشيخ أبي المحاسن**، طبعة حجرية، فاس، 1324 / 1905 ، ص.43 .

في تطوان، وكان مقدمهم هو الشيخ محمد نوار الأندلسي التطاوني، وقد ترجم له أبو زيد عبد الرحمن الفاسي في «ابتهاج القلوب» ووصفه بأنه:« أحد العارفين بالله الغائب عن قلوبهم كل ما سوى الله، لا يرى في الوجود إلا الله ... وكان الشيخ يقول فيه هو نور أو قال أنوار على الحقيقة ... رآه أخو شيخنا جالسا بحانوت يتجر فقال له: كيف التجارة مع حالك، فقال له: الجسم في الحانوت والقلب في الملكوت».وترجم له أيضا المهدي الفاسي في كتاب « ممتع الأسماع »، فقال:« إنه كان عارفا بالله ربانيا وكان اتخذ زاوية بتطوان بإذن شيخه للذكر والذكرى فانتفع به أناس كثيرون». إلا أن الذي يظهر هو أن عدد أتباعها كان قليلا، لذلك لم تبرز هذه الطريقة أو لم تكتمل وظلت محدودة، بيد أن الجماعة التطاونية من أصحاب الشيخ أبي المحاسن كانت من أهل العلم والصلاح لم تخلفهم جماعة أخرى من أمثالهم، فلم تجد الزاوية من بعدهم من يقوم مقامهم فلم تعمر.[41]

وفي هذا العهد وفد على تطوان الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدي، وكان من أصحاب الشيخ سيدي يوسف التليدي، فاشترى مساحة كبيرة في حومة العيون وشيد جامعه وزاويته عام 1621/1030، وأصبح له أصحاب ومريدون. وقد وصفه أحمد ابن عجيبة بـــ « الشيخ الصالح الكامل الورع الزاهد القطب الرباني مربي السالكين وقدوة المحققين سيدي علي بن مسعود الجعيدي»، وذكر أن طريقته كانت شاذلية. وللشيخ المذكور منظومة تائية على وتيرة تائية الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبي العباس أحمد زروق وأمثالهما، وقد شرحها الشيخ العارف ابن عجيبة المذكور، وأشار إلى أنه قد تعاطاها الجهال فصحفوا فيها كثيرا من الأبيات.[42] والظاهر أن هذا الشيخ على علو مقامه وتحليه بالصلاح وجمعه بين الشريعة والحقيقة لم يجد مناخا مواتيا لاستقطاب مريدين كثر لطريقته التي لم تكن مجددة، وكما كان له خصوم سياسيون سعوا إلى النيل من سمعته وصيته، وبذلك ظلت زاويته مكانا للصلاة وقراءة حزب القرآن، وبقي بمسجده مجلس لتدريس العلوم.

ودخلت في نفس العصر أيضا الطريقة الناصرية إلى تطوان، والتي تنتسب إلى مؤسسها الشيخ أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي المتوفى عام 1664/1058، فأسست زاوية كانت هي الثالثة التي شيدت بهذه المدينة بعد الزاويتين الفاسية والجعيدية. وكان من أشهر مريدي هذه الطريقة في تطوان

---

[41] ـ داود، ج.1 ، ص.308.

[42] ـ نفس المصدر، ص.331 .

الشيخ العالم سيدي علي بن محمد بركة، وقد ذكر القادري أنه أخذها عن مؤسسها المذكور، وبأنه كانت له مواصلة مع سيدي أحمد بن عبد الله معن بفاس.[43] وكان من أشهر المنتسبين إلى الطريقة الناصرية الشيخ العلامة أبو الحسن علي اليوسي الذي أخذ الورد عن سيدي محمد بن ناصر، فكان يزور مدينة تطوان بين الفينة والأخرى ويقوم بتلقين الورد الناصري، وكان من بين المتلقين له في تطوان الفقيه الأديب محمد بن علي الرافعي الذي ذكر في رحلته المشرقية الحجازية أنه التقى في مصر بالشيخ أحمد بن محمد بن ناصر، ونظم قصيدة في أوصافه وشمائله.[44]

1- خمول الحركة الطرقية في تطوان:

والواقع أن بضاعة هذه الزوايا لم تكن في ذلك الوقت رائجة بين أوساط أهالي المدينة، ولا طرقها سالكة لديهم، بسبب ضعف حماسهم وعدم توفر أسباب إستقطاب جمهورهم، فالزوايا الثلاث كانت خالية من الشيوخ المربين وحالتها كحال بقية المساجد، ولعل مظاهر الصوفية نفسها لم تكن واضحة في تطوان في ذلك العهد أو معروفة إلا في أوساط قليلة ومحدودة، فلا نكاد نجد بين رجال تطوان في القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر من كان معروفا بالتصوف أو موصوفا بأحوال الصوفية ما عدا الشيخ العامل سيدي علي بركة. وهذه الملاحظة تزكي ما ذهب إليه البعض من أن الطرقية وردت من فاس التي كانت تطوان تقلدها في كثير من المظاهر الإجتماعية.[45] وإن العلماء الذين ولجوا ميدان التصوف وانساقوا في تيار الطرقية كانوا على صلة وثيقة بأقرانهم وشيوخهم من علماء فاس الذين درسوا عليهم أو أخذوا عنهم الأوراد، وكون أن كبار علماء تطوان سلكوا هذا الطريق، فهذا ما سيجعل هذه البضاعة تحظى بقبول الأهالي وفيهم العوام الذين بالغوا في نسب الكرامات لكل من توسموا فيه الخير والصلاح.

وستعرف الطرقية في تطوان خمولا وإهمالا بسبب نضوب موردها بعد وفاة العالم المدرس الشيخ علي بركة، وسيدوم ذلك بضعة عقود حتى أن قيض الله قدوم عالم مشارك مدرس كبير هو أبي العباس أحمد بن محمد الورزازي الذي كان من تلامذة الشيخ علي الجمل، فلما أخذ عنه قال له: ياسيدي أمحني وصلصلني ولا تترك في إلا الفاتحة ثم اكتبني بما شئت.

---

[43] - القادري، **نشر المثاني**،ج.3 ، ص.197 .

[44] - الرافعي، **المعارج المرقية في الرحلة المشرقية**، مخطوط بالخزانة الداودية، رقم 134، ص.108 .

[45] - داود، ج.1 ، ص.431 .

وكلام الشيخ الورزازي كناية عن اعتقاده الخير والصلاح في الشيخ الجمل وانقياده له.[46] وذكر العالم المختار السوسي أن بدايته كانت بزاوية الشيخ الصوابي بماسة وهو من أصحاب الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر، وأنه أخذ أيضا عن تمكروت، وذلك يعني أنه تلقى الورد الناصري من نبعه الأصلي. إلا أن الفقيه الورزازي لم يكن من الشيوخ الذين غرضهم تأسيس زاوية وجمع المريدين، لأنه كان مولعا بالرحلة وأنه كان صعب المراس.

وقبل ذلك العهد كانت قد أسست بتطوان الزاوية الوزانية بالقرب من باب التوت، وتعرف بزاوية مولاي محمد (وهو إبن مولاي عبد الله الشريف)، وقد نسبت إليه لكونها أنشئت قيد حياته. وقد دفن فيها حفيده سيدي عبد الله بن مولاي العربي الوزاني الذي استوطن تطوان وتوفي بها عام 1785/1199، وقد وصفه الزبادي الفاسي في مؤلفه « سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية» بأنه « كان رحمه الله عالما عاملا خاملا صوفيا من أهل الخير والصلاح... حافظا للسنة جامعا بين الشريعة والحقيقة»، ونعته الفقيه محمد غيلان (ت 1774/1188) بالولي الصالح العالم العامل.[47] وكان شرفاء وزان يفدون إلى تطوان بين الحين والآخر لصلة الرحم والوقوف على شأن زاويتهم، وفي نفس الوقت، قضاء بعض الأغراض لدى رجال المخزن كالشفاعة والمصالحة.[48] وكان نشاط هذه الزاوية في تطوان محصورا في إجتماع فقرائها لقراءة الأوراد والأذكار في حدود الكتاب والسنة، ولهذا بقي تأثيرها محدودا بين الأهالي، سيما وأن إشعاعها كان مصدره مركزها بوزان حيث شيوخ الطريقة وزعماؤها،فكانت تابعة له.

2- إنتعاش البيئة الطرقية:

حل بتطوان في بداية العقد الأخير من القرن الثامن عشر شيخ طريق ومربي صوفي كبير هو الشريف سيدي علي بن محمد بن ريسون قادما من زاوية تازروت في العلم من قبيلة بني عروس. ويحكى أنه وفد إلى هذه المدينة تلبية لطلب أحد صلحائها وهو الشيخ المجذوب سيدي عبد الله الحاج البقال المتوفى سنة 1792/1207. وكان الأشراف الريسونيون قد نجحوا في تكوين طريقة صوفية تنسب إليهم، وتمكنت من نشر نفوذها المعنوي والروحي بين أوساط أهل الجبل، ولم يتأت لها ذلك إلا بقيامها بالذود عن

---

[46] - داود، ج.3 ، ص.90 .
[47] - الرهوني، ج.4 ، ص.157 .
[48] - الضعيف، ص.142 .

الدين والحفاظ على الشريعة، وكانت صوفيتها نابعة من العلم المشيشي تخاطب العقل قبل الوجدان، وطريقها يرنو إلى تحقيق التوازن الإجتماعي والسياسي للبلاد مخافة السقوط، لا سيما وأن المغرب عانى في فترات قريبة من صراعات إجتماعية دموية حول السلطة أثرت كثيرا على كيانه. وقد نسجت هذه الزاوية علاقات تصاهر وتحالف مع أفراد الأسرة العلوية الحاكمة، فكان لمولاي مسلمة تعلق بالشريفين سيدي علي بن ريسون وابن عمه محمد بن الصادق اللذين أتاحت لهما مكانتهما الروحية والإجتماعية القيام بدور تحكيمي وتصالحي بين مسلمة المذكور وأخيه السلطان مولاي سليمان، وكما أن تقرب هذا الأخير من الريسونيين يمكن تفسيره ببحثه عن وسيلة لتوطيد شرعيته في تطوان التي انخرطت في حزب أخويه اليزيد ثم مسلمة. وفي نفس الوقت إستغلال نفوذهم في البادية لإخماد الثورات، فقد كتب السلطان مولاي سليمان رسالة إلى الشيخ سيدي علي بن ريسون بعد استقراره في تطوان يذكره بـــ « ولد عمنا الأرضى الأعز المرتضى سيدي علي بن ريسون أعانك الله وأصلحك وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه وما ذكرته على شأن الفندق الذي كنا أنعمنا به على ولد عمنا سيدي محمد الصادق من أنك وجدته مشغولا بمسائلنا... فاعلم أننا قادمون إن شاء الله قدوم يمن وبركة لتطوان ونمكنك منه بحول الله. وأما ما ذكرته على اجبالة... فاعلم أننا وجهنا أخانا الأعز مولاي عبد المالك بن ادريس في محلة عظيمة من وصفاننا ومن خدامنا وأنت نامرك بالوقوف التام معه حتى تصلحوا قبائل جبالة كلهم وتجعلوهم على أحسن وجوه الاستقامة... وفي مهل شعبان المبارك عام 1207».[49] (1792). وكان السلطان قد أنعم على الشريف المذكور بدار المخزن المجاورة لسيدي السعيدي وملكه إياها برياضها وجميع منافعها، وأصدر أمره الشريف في ذلك في 26 ذي الحجة عام 1206. ثم نفذ له الفندق وهو فندق لوقش بالصياغين الذي صار زاوية له، وكتب في ذلك لقائد تطوان:« وصيفنا القائد حمان الصريدي أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد فنامرك أن تفرغ الفندق المعروف بفندق الوقاش بالصياغين من تطوان الخالص لبيت مال المسلمين عمره الله من جميع الشواغل التي به وتمكنه من محبنا الأجل الصالح البركة سيدي علي ابن الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن ريسون الحسني العلمي لأننا جعلناه زاوية لوالده المذكور يجتمع فيها الفقراء لذكر الله والصلاة على مولانا رسول الله واعزم بذلك والله يعينك والسلام وفي الرابع عشر من ذي القعدة

---

[49] ـ داود، ج.3، ص.198 .

الحرام عام ثمانية ومائتين وألف».[50] (1793). ولم تكن الزاوية الريسونية التي اعتبرت زاوية لفئة الشرفاء والأعيان قبل أن تكون طريقة صوفية خالصة تختلف عن بقية المساجد التي يؤمها المسلمون من كل الفئات في تطوان إلا بشؤون يسيرة كقراءة دلائل الخيرات، وهي ليست طريقة كبقية الطرق التي لها وظائف منظمة، فلا حاجة ملحة إلى تلقين الأوراد، إلى أن جاءت الطريقة الدرقاوية قوية بنظامها وفقرائها، فكان ذلك مدعاة للإلتفات إلى الوضعية التي اختارتها لنفسها.

3- ظهور الدرقاوية في تطوان ومحنتها:

لم يكن يسمع قبل عام 1793/1208 وهي السنة التي أصبح فيها العالم المشارك أحمد ابن عجيبة درقاويا، أي ذكر للطريقة الدرقاوية بتطوان، رغم أن مؤسسها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي زار هذه المدينة مرارا قبل ذلك التاريخ، إلا أنه لم يجرؤ على الدعاية لطريقته بها، ولعله كان في ذلك يختبر بيئتها التي كانت حتى ذلك الحين غير مواتية لبث دعوته. ثم إن الزاوية الريسونية كانت في تلك الأثناء قد نزلت بكل ثقلها من مقرها بتازروت لتنغرس في صلب البلدة التطوانية مدعمة من طرف السلطان.

وتمكنت الدرقاوية التي سلكت طريق الزهد والتقشف من نسج خيوط المريدية في تطوان، فأصبح لها بعض الأتباع من الفقراء الدرقاويين الذين كانوا على صلة بالشيخ محمد البوزيدي الغماري، فكان يحضهم على التجرد من الدنيا والتخلق بالأوصاف الروحانية. وفي تلك الأثناء كان أحد علماء الظاهر من المشاركين والمدرسين وهو سيدي أحمد ابن عجيبة يمر من مرحلة تحول حاسم في حياته، وهي الإنتقال للتهيؤ للعلم الباطن، وهي مرحلة تحدث عنها في فهرسته إلى أن اتصل بشيخه البوزيدي المذكور تلميذ الشيخ الكبير مولاي العربي الدرقاوي، فنقله من حدود القوة إلى مجال الفعل في باب التصوف.[51] وقد كان ابن عجيبة قبل الدخول في طريق القوم متلبسا بشؤون الدنيا، وحائزا لرئاسة العلم ومعظما عند الخاص والعام، يتردد على الحكام في الشفاعة كثيرا حتى قال شيخه الفقيه الورزازي لما دخل الطريق وترك كل ذلك كنا نستعين به في هذه الوجهة، وكان سيدي أحمد ملحوظا عند الأهالي بالصلاح التام وموصوفا بالولاية حتى أنه كان إذا خرج إلى السوق

---

[50] - نفس المصدر، ص.203 .

[51] - عبد السلام شقور، **مع الشيخ ابن عجيبة التطواني في سيرته الذاتية**، أعمال ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر، تطوان، 1994 ، ص.108 .

يتسارع الناس لزيارته.[52] وكان اتصاله بشيخه عام 1793/1208 وأخذ عنه علم الباطن وفوض أمره إليه، فأمره شيخه بالتجرد عن أحواله وخرق عاداته، فكان أول خرق رأته نفسه هو لبسة جلابة غليظة وتعليق سبحة غليظة في عنقه،ولما رأى الناس لا يفارقونه لبس المرقعة ففروا من حوله، وتفرغ لسلوك الطريق. ثم أمره الشيخ بإخراج ما يفضل عليه من الرزق ويتصدق به، وأمره بخدمة الفقراء وغسل ثيابهم بنفسه وإطعامهم، ثم بالسؤال في الحوانيت وأبواب المساجد والأسواق، فبقي كذلك ما دام في تطوان.[53]

وهكذا إنتهى الأمر بالتصوف في شمال المغرب على الخصوص في أواخر القرن الثامن عشر إلى أن صار ترويضا قاسيا للنفس وإماتة لها، لابالتأمل الباطني وإنما بإذلالها بخرق جميع العادات والأعراف الإجتماعية. والأمر الغريب فيما ذكر ابن عجيبة عن نفسه أنه أخضعها لكل أصناف الإهانات، وقد يستغرب المرء لهذا السلوك الذي يجد فيه سلوكا متعسفا إزاء النفس الإنسانية التي كرمها الله تعالى، وهذه طريق تليق بجاهل يريد الوصول فلا يجد علما يعينه على ذلك، وأما العالم الشيخ ابن عجيبة فالمؤمل أن يسلك طريقا أليق به وبعلمه، طريقا يقوم على الغوص في حقيقة الأشياء، ولكن الرجل أسير عصره، والذهنية السائدة في ذلك العصر كانت مهيأة لقبول ما قام به.[54] ولكثرة ما كان سائدا في عصر ابن عجيبة من أمور الكرامات الحسية، فقد كانت الطائفة الدرقاوية تبدو لعامة الناس طريقة جديدة، لكنها بسيطة وعادية ما دامت لا توظف الكرامات الحسية في إقناع الخصوم.

وإن من خصائص الطريقة الدرقاوية أنها قامت على السلوك أكثر من قيامها على الفكر، ولعلها بذلك أقرب ما تكون إلى منطق العوام، وهي إلى ذلك طريقة نشأت في البادية وترعرعت فيها، في كل من بني زروال وغمارة وبني سعيد وأنجرا، ولهذا فخروج فقراء الطريقة يتقدمهم الشيخ ابن عجيبة لبثها كان بقصد بادية تطوان. يقول الشيخ: « فخرجت في جماعة من الفقراء.. نذكر الناس ونلقن الأوراد مدشرا مدشرا والناس يدخلون في دين الله أفواجا»[55]. ولا شك أن خروج ابن عجيبة على أهل تطوان وباديتها بسلوكه الجديد القائم على خرق العوائد وقد تبعه في ذلك عدد غير قليل من

---

[52] ـ ابن عجيبة، **الفهرسة**، ص.53 .

[53] ـ نفس المصدر،ص.54.

[54] ـ شقور، مع الشيخ ابن عجيبة...، مصدر سابق، ص.109 .

[55] ـ **الفهرسة**، ص.49.

العامة وبعض أعيان المدينة، هو الذي كان وراء محنته والاضطهاد المرير الذي عانى منه هو وأتباعه، والمحنة بالنسبة له هي اختبار للنفس لتحمل الأذى والصبر على المكروه. فما هو الباعث له على ما فعل أو على ما جدد من المظاهر التي لم يتظاهر بها أشياخه؟، ألا يكون الشيخ مولاي العربي الدرقاوي أقر أتباعه على تلك المظاهر تلبية لرغبة أقوام يلذ لهم الشذوذ فلا يقنعون بمظاهر الحياة العادية، وقد يكون سيدي أحمد ابن عجيبة أحد هؤلاء. ويحاول داود تبرير هذا السلوك الغريب على المجتمع التطواني آنذاك في حاجة الناس لما يهز شعورهم هزا.[56] ولعل هؤلاء يجدون في مظاهر الجذب والشطح نوعا من التطهير عن الكبت النفسي على ما قد يتحمله العوام من مشاق الحياة اليومية، مما يجعلهم يشعرون بالإرتياح والخروج من سجن البؤس والفاقة.

ورأى علماء تطوان والصلحاء منها والأعيان أن يقفوا في وجه ذلك التيار حتى لا يجرف غير الفقيه ابن عجيبة من حملة الشريعة والقائمين بشؤونها، فاتفقوا وعملوا على الإنكار على الفقراء وتصدوا للشيخ وصاروا ينتظرون المناسبة لإرجاعه عن حالته الجديدة، فكان أن وقع حادث سجن فيه أخو الشيخ فألحق بأخيه، ثم ألقي القبض على أصحابه من الفقراء الدرقاويين، وأغلقت زاويتهم وزج بالجميع في السجن بتطوان. وإن موقف علماء تطوان والقائد حمان الصريدي تجاه هذه الطريقة يفسره عاملان: الأول أن العلماء المحافظين رأوا الشيخ جادا فيما أقبل عليه وأن عدد أتباعه صار يتكاثر وأنه يمكن أن يحتذي به علماء آخرون. والثاني، هو أن السلطة عندما لجأت إلى سجنه لم يكن يهمها أمر إنتقاله من حالة إلى أخرى، فبقدر ما كان لمكانته العلمية والإجتماعية كانت تخشى إستفحال أمر الطريقة بعد انخراطه فيها، وهنا يلتقي الموقفان، والدليل على ذلك هو أن السلطة لم تتعامل بنفس الأسلوب مع فقراء الطرق والزوايا الأخرى التي كانت قائمة في تطوان وخاصة أتباع الطرق «الشعبية» كالعيساوية والحمدوشية من الذين لا يفهمون للتصوف الحقيقي معنى، فلا يتكلمون في العلم والطريقة، وأنهم كانوا يأتون بأعمال شاذة وغريبة أمام أعين الفقهاء والعلماء، فيقرونهم على أعمالهم بسكوتهم. وكان من بين الفقراء المسجونين الفقيه محمد بن التازي المكودي الذي روى في مؤلفه ما وقع لهم من الإذاية في السجن، وذكر أسماء العلماء

---

[56] - داود، ج.7، ص.337 .

الذين وقفوا في وجه الدرقاوية وتصدوا لأتباعها،[57] وفيهم الفقيه محمد بن علي الورزيزي وهو من أشياخ ابن عجيبة، والفقيه محمد بن محمد الجنوي، والفقيه محمد بن الصادق بن ريسون، والفقيه عبد الجليل البقال، والفقيه أحمد الرشاي وهو من أشياخ ابن عجيبة أيضا، وثم الشيخ سيدي علي بن ريسون مؤسس الزاوية الريسونية بتطوان والذي كان يرى أنه من الأليق بالشيخ ابن عجيبة أن يبقى سالكا متمسكا بالأسباب، ومتصدرا للعلم والتعليم، وأنه كان يرى أيضا في تجرده وإعراضه عن العلم الظاهر خسارة للأمة حتى قال له عند جمع العلماء وأعيان المدينة ترجع إلى مسجدك وتدريسك.[58] ولم تكن المناظرة التي عقدت في السجن بين علماء تطوان والطائفة الدرقاوية تعكس في الحقيقة صراعا فكريا بين الجانبين، وإنما وقع الإنكار منهم على بعض الممارسات الإجتماعية من سبيل خرق العوائد كاجتماع النساء والرجال ونهب أموال الناس وكثرة الإلحاح في السؤال والجهر بالذكر في الأسواق.[59]

وهكذا لقيت الدرقاوية في بداية أمرها إضطهادا في تطوان من قبل علمائها الذين ما فتئوا يناوئونها، ويفرضون عليها حصارا محكما حتـــى لا تنتشر في بلدهم. ولم يكن اضطهاد الدرقاوية ينبثق من الغيرة الدينية لدى هؤلاء فحسب، وإنما كان إضطهادا إجتماعيا وسياسيا في نفس الوقت، فالمحاكمة التي عقدت للشيخين سيدي أحمد وأخيه الهاشمي طبعت بالهاجس الأمني لدى السلطة المحلية مخافة أن ينجرف الناس جميعا وراء الشيخ ابن عجيبة، فتنفلت الأمور من أيدي الحكام وتتحول الطريقة إلى حركة ثورية، فقد اعتبر الفقيه محمد بن محمد الجنوي الدرقاوية من الحركات التي قد ينشأ عنها تغيير كبير في الحياة الإجتماعية للبلاد، وحكى تلميذه أبو محمد عبد السلام السكيرج في تاريخه أنه قال: « إن درقاوة قاموا في هذا القطر والنصارى الفرنصيص قاموا في قطرهم وكلهم ينشأ منهم فساد هذا العالم».[60]

وكما أن وقوف قائد تطوان حمان الصريدي على محاكمة الدرقاويين، وإن كان بإيعاز من الفقهاء ودفعهم، لا يزكي الرأي بأن السبب الوحيد في قيام علماء تطوان وأعيانها على الشيخ ابن عجيبة هو انسلاخه من زمرة

---

[57] ـ محمد بن التازي المكودي، **الإرشاد والتبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان**، خ.خ.ع. رقم 1856 د ، ص.208.

[58] ـ المرير، **فهرسة بالنعيم المقيم**، ج.1 ، ص.84 .

[59] ـ المكودي، مصدر سابق، ص.260 .

[60] ـ السكيرج، ص.57 .

العلماء وخشيتهم أن يتسرب مظهره إلى غيره، فيضيع علم الظاهر، وإنما هناك الرأي الذي يذهب إلى أن التصوف خرج بالحركة الدرقاوية من موقف السكوت إلى موقف الكلام في الحقائق مما يشوش على عقول عامة الناس.[61] ومن ثمة يمكن اعتبار الدرقاوية حركة «ثورية» بالنسبة لزمانها وللمكان الذي قامت فيه. وأما بالنسبة لتطوان فاضطرار الشيخ أحمد ابن عجيبة للخروج منها إلى الجوار كان بمثابة إعلان عن فشل هذه الحركة فيها حيث لم تجد بها البيئة المواتية لزرع بذرتها إلى حين. وسوف لن يستقيم أمر الدرقاوية في تطوان إلا بعد أن دخل الفقيه العالم سيدي محمد الحراق في طريق القوم، فأدرك أن الوقت حان لإعادة النظر في موافقة أسلوب التقشف والزهد في متع الحياة وخرق العوائد، فعدل كثيرا مما كان يثير النقد حول الطريقة.

---

[61] - داود، ج.3 ، ص.211 .

خـاتــمـة

نعتقد أن اختيار موضوع محدد في الزمان والمكان لدراسة جوانب أساسية من تاريخ حاضرة كانت من بين أهم حواضر البلاد،يمكننا من الكشف عن معلومات تاريخية يمكن إستثمارها في دراسات أكثر شمولية تتناول تاريخ البلاد كلها. وكما أن الإمكانات التي توفرها الوثائق المحلية من شأنها أن تمد الدارسين بعناصر لا توجد في كتب الحوليات التقليدية.

لقد تتبعنا بإيجاز أخبار مدينة تطوان وتطورها من الناحيتين العمرانية والديمغرافية منذ القديم إلى غاية القرن الثامن عشر، حيث برزت كمركز تجاري ضروري بالنسبة للمغرب أسهمت في توطيده عناصر جيو- سياسية، وأصبحت مقر كبار القواد والباشوات الذين فوض لهم السلطان مباشرة الكلام مع الأوربيين وإبرام المعاهدات. وكان لتطور النشاطين البحري والتجاري أثر في تقوية مركز بعض الأعيان الذين كلفوا من قبل المخزن بسفارات إلى الخارج.

وقد جعلت الظرفية الجديدة المخزن المركزي الإسماعيلي يسعى إلى تكثيف حضوره في هذه المدينة التي ترجى الإستفادة من رواجها التجاري بعد أن عاشت ردحا من الزمان في إستقلالية شبه كاملة عن السلطة المركزية. وفي هذا السياق عين السلطان مولاي إسماعيل قائدا من عسكره أهل الريف حاكما على تطوان بعد أن قضى على حكامها النقسيسيين، فبدأ بذلك التعيين عهد جديد بالنسبة للمدينة التي أصبحت قاعدة للحكم الإسماعيلي بشمال المغرب وغربه، وأضحت الواجهة الخلفية لميدان حصار سبتة. وقد أشرنا إلى ما انتهى إليه هذا الوجود المخزني من إستبداد فاحش للباشا أحمد بن علي الحمامي، وكيف تحولت أسرة الحمامي الريفي إلى أكبر الأسر المالكة للثروة والجاه في المنطقة، وتحدثنا عن ما إنتهى إليه أمر الإستبداد والعسف الجبائي من المواجهة والإقتتال بين أهل تطوان والباشا المذكور بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وكيف أدت أطماع السلطة بالباشا إلى محاربة السلطان مولاي عبد الله.

ولم تكن الحياة الإجتماعية في تطوان سوى إنعكاس لحياة السكان الإقتصادية، أي أنها تعكس إقتصادا كان قائما على نوع من توازن الرواج التجاري من حيث تصريف المنتجات إلى الخارج وجلب بضائع أوربية وشرقية، ومن حيث الوسائل النقدية المتوفرة والمعتمدة، وقد خضع هذا

التوازن في غالب الأحيان لتأثير العلاقة بين السلطة وبين الأهالي، والتي من سماتها البارزة العلاقة الجبائية والتسخيرية، وكما كان يتأثر بالمتغيرات الديمغرافية.

ونعتقد أن التقدم التجاري من ناحية والتطور الديمغرافي بسبب حركة الهجرة الدائمة من جهة أخرى، أثر بشكل أو بآخر على بنية المدينة إجتماعيا وفكريا وعمرانيا. ومن جانب آخر فالتأثيرات البيئية والخصوصيات الثقافية للسكان خلقت لديهم نوعا من التفرد.

ولم تكن التناقضات المترتبة عن التفاوت الإجتماعي فيما يخص الجاه والثروة صريحة بين فئات المجتمع، وذلك بسبب سيادة القيم الإسلامية التي تقر بأن للفقراء والمساكين نصيبا من أموال الأغنياء، فقد وجدت مؤسسة تكافلية وهي الأحباس التي لعبت دورا رئيسيا في التوازن الإجتماعي والوظيفي للمدينة.

وشكل الدين الإسلامي محور ثقافة ذلك العصر، فكان الفقهاء وشيوخ الزوايا يشكلون العناصر البارزة في الوسط الإجتماعي بحكم قيامهم بدور هام له جوانبه الروحية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية، بحيث مثلوا النخبة المؤطرة للمجتمع. وتحليلنا لطبيعة الذهنية السائدة في هذا القرن خاصة لدى هذه الفئة المثقفة جعلنا نتلمس عن قرب طبيعة المناخ الفكري الذي كان يراد له التغيير أو الإصلاح، وجعلنا بالتالي نرصد جانبا من العلاقة المعقدة التي ربطت السلطة السياسية بحملة العلم والقلم. وجاءت مقاربتنا لمسألة الطرقية في تطوان لتحيلنا في نهاية المطاف عند الدرقاوية التي حاولت فعفعة حالة الجمود الذي كرسته الطرق الصوفية الأخرى المتواجدة بالمدينة، وسعت إلى تغيير كل شيء في بيئة محافظة إلا أنها اصطدمت برفض الإختراق.

ثبت الألفاظ المحلية والإدارية الواردة في وثائق البحث

أبو المواريث: موظف مكلف باستيفاء إرث من لا وارث له وضمه لبيت المال.
أجبوكه : مدينة لشبونة البرتغالية.
الأجناس: الدول الأوربية التي لها ممثلون يقيمون بالمراسي المغربية.
أرودان : لفظ ريفي، لعله يعني المكان العالي المشرف الذي يمكن الضرب منه بالكور والمدفع.
أفراك : بناء أحدثه جيش المجاهدين لاتخاذه معسكرا لمحاصرة مدينة سبتة.
إقامة : تطلق على مواد أو نحوها تستخدم في تهييء شيء أو وصفه أو تجهيزه.
أنبشدور: السفير، واللفظ أجنبي.
أوقية : وحدة نقدية تساوي درهما واحدا أو عشر المثقال، وتقسم إلى أربع موزونات وجزء من ستة عشر جزءا من الرطل.
إيالة : منطقة ذات حدود إدارية يشملها نفوذ القائد أو الباشا.

البارزكان: سفينة شراعية تجارية.
البرفنسية: كلمة إسبانية وهي المقاطعة أو الإقليم.
بزيمي، بزايم : سلسلة من ذهب مزخرفة بالياقوت والزمرد.
باشدور : أنظر أنبشدور.
الباصبورط: كلمة أجنبية وتعني الجواز.
البلندرة : كلمة إسبانية وتعني زورقا صغيرا.
البنب : لفظ أجنبي وتعني القنابل.

التسبب : المتاجرة.
التقاضي: التفصيل، وكذلك إرجاع الدين مقسطا.

الثقاف: الحجز، يقال متاع مثقف أي محجوز.

الجبوة: مدينة جنوة الإيطالية.

الجزاء: مبلغ مالي سنوي أو شهري يؤدى في مقابل الانتفاع بأرض أو ماء.
جلسة: أصل العقار الذي يملكه المخزن أو شبهه.
الجوف: جهة الشمال.
الجيرة: كلمة إسبانية وهي الحرب.

حرثت سفينة: جنحت للشاطئ وارتطمت به.
حضرونا: طلقات نارية من المكاحل الكثيرة على هيئة الرعد يقصد منها الترهيب.

الخطار: بضم الخاء، زوار البلد بغير الإقامة به.
خمية من الشرب: جمعها خوامي، وهي قطعة من الثوب الحريري الرفيع.

دورو: الريال الإسباني.
دوكة: عملة ذهبية من البندقية، دعيت في المغرب بالبندقي أيضا.
الدوكي: لفظ إسباني وهو من ألقاب النبلاء، واشتهر به في تطوان الهولندي ريبيردا.
الدينار: قطعة ذهبية خفيفة مستديرة كانت تساوي 14 أوقية وبلغت 24 أوقية في أواخر القرن 18 .
الديوان: لفظ أطلق على مجلس الأعيان الذي كان يدير شؤون المدينة بعد شغور منصب القائد.

ذراع: وحدة قياسية للطول، ويساوي الذراع التطواني 55 سنتيمترا.

الراي: كلمة إسبانية وتعني الملك.
روان: ثوب أبيض عادي تجعل منه القمصان والأزر وكان يستورد من مدينة روان الفرنسية.

الزربزان: نوع من المكاحل قصير واسع الجعبة كان يعمر بالبارود وتقاصيص الرصاص فتكون عمارته قريبة من المدفع في الصوت وفي شدة الإصابة.

السماط : دكاكين متلاصقة تقع عادة بالقرب من الجامع.

سنجاق : كلمة تركية تعني العلم والراية.
السنسية : لفظ إسباني ومعناه الإذن أو الرخصة.
سيفطناه: أرسلناه وبعثناه.
سيكوريس : لفظ إسباني ومعناه مأمونون.

الشبارات : ج الشبار تحصين من التراب والحجارة يستقر وراءه المحارب مقابلا لخصمه.
الشرب: الحرير.

صاكة: أصلها إسباني وتعني رسوم التصدير المستخلصة من الثغور، وأيضا امتياز تصدير أو توريد.

ضبالين: ج ضبلون وهو عملة ذهبية إسبانية كانت تساوي ستة عشر ريالا.
الضبطة: عندما لا يسمح القاضي الشرعي بأية معاملة مع جانب الحبس إلا إذا كانت فيها مصلحة ظاهرة له.

الطالب: لفظ ينعت به الموظفون المخزنيون الذين يحسنون القراءة والكتابة.
طاغية: نعت كان يطلقه المغاربة على الملوك المسيحيين.
الطبجية: جنود المدفعية.
طرطن: لفظ أجنبي ويعني المركب الوحيد الصاري.

عبروق: أو عبروقان، وهو خمار أو ثوب كان النساء يزين به رؤوسهن.
العدة : ما يعده الإنسان للحرب من سلاح وذخيرة.
عمارة: مجموعة جواهر وحلي تقدم للعروس مع المهر، ويقصد بها أيضا ملء المكحلة بالبارود.
عيطة السبت: تطلق على الوقعة الكبيرة والقتال العنيف الذي وقع بين أهل تطوان وقوات الباشا أحمد بن علي في يوم السبت 24 صفر 1140 / 11 أكتوبر 1727.

الغامر : من الأرض ما هو مهمل لا يصلح إلا للرعي.
الغراب: وغرابو، وهو مركب شراعي خفيف.
غليوطة: لفظ أجنبي، ويعني سفينة شراعية صغيرة قديمة.
غليونة : سفينة شراعية استعملت قديما لنقل الذهب إلى اسبانيا من مستعمراتها

فالصوا: كلمة إسبانية وتعني الزائف أو المغشوش.
فرايلية: ج فرايلي، لفظ إسباني وهو الراهب أو القس.
فرتونة: كلمة إسبانية ويقصد بها عادية الدهر.
فركاطة: كلمة إسبانية وتعني السفينة الحربية.
الفريشك: المواد الغذائية الطرية كالخضر واللحوم التي يتزود بها البحارة في المراسي، والكلمة إسبانية.
الفرينسية: لفظ أجنبي، ويعني الإعفاء من الرسوم الجمركية.
فضالي: ج.فضلة، وهي القطعة الكاملة من الثوب.
فلا منك: جنس الهولنديين.
فلوس: ج.فلس وهي عملة نحاسية، تساوي 24 منها موزونة واحدة.

قائمقام: كلمة تركية وتعني رتبة عسكرية.
قطارمة: كلمة تركية لعلها تعني مركبا شراعيا.
قواد روسهم: كانوا رهن إشارة السلطان مولاي اسماعيل بمكناس ينقلون أوامره إلى الجيش ويتجسسون على هذا الأخير.
قونصو : القنصل.
قراصين: ج.قرصان، سفينة شراعية مجهزة بالسلاح.

كأس عدل: دخول الماء للمحل أو نزوله بمعدة على هيئة كأس إذا اعتدل الماء واستوى مع أعلاها رجع لمجراه الأصلي حيث يخرج منه إلى غيره.
كالئ الصداق : قدر منه يبقى بذمة الزوج يدفعه تقاضيا في الغالب.
كبانية: شركة والكلمة إسبانية.
الكدش: عربة نقل والكلمة اسبانية.
الكراريط: سرر خشبية تنصب عليها المدافع، وأصلها اسباني.
الكرنطنية: الحجر الصحي، واللفظ أجنبي.
الكرنة: المجزرة.
الكلف: والتكاليف، الإيتاوات والضرائب الإضافية التي يفرضها المخزن.
كمانية: لفظ تركي يعني ما يدخر من المأكولات، وفي الاصطلاح المغربي يخصص للمؤن والأقوات التي يصحبها معه السلطان والجيش في الأسفار.
الكنطربنضو: التهريب، والكلمة إسبانية.
كوشطة : الشاطئ والكلمة إسبانية.

المثقال: وحدة نقدية فضية كانت تساوي عشر أواق.

المرجع: بفتح الميم والجيم، مساحة خاصة تمسح بها الأراضي في تطوان. وكانت ساحته في عرف البلد تحتوي على سبعمائة متر مربع، وكان المرجع ينقسم إلى أربع وستين قصبة وكل قصبة بها ستة أذرع.
المركيس: لفظ أجنبي، وهو رتبة سامية في سلم النبلاء.
مسطارس: لفظ إسباني لعله يعني المشتغلين في ورثة السفينة.
مسمسم: قطعة كبيرة من ثوب حريري خالص رفيع ومخطط بألوان من صنف الزردخان اندثرت صناعته.
معدة القسمة: المجرى الأصلي للماء.
المطفية: خزان ماء المطر يتخذه أغلب الناس لأمرين: استعذاب الماء للشرب، وكون ماء المدينة لا يثير رغوة الصابون لما فيه التقطيع بخلاف ماء المطر.
الملف: نوع من الثوب مصنوع من الصوف كان أساس لباس المغاربة تصنع منه القفاطين والجلاليب والبرانس وغيرها.
مكدول: موكادور أي الصويرة.
المكوس: ج مكس، وهي الضريبة التي تؤدى من البضائع.
المهاريز: ج مهراز، مدفع الهاون.
الموات: أراضي غير صالحة للزراعة.
الموزونة: وحدة قياسية للدرهم تساوي ربع أوقية وربع عشر المثقال أي 1/40 منه.

لنكلاطرة: إنجلترا.
النرط : كلمة اسبانية معناها الشمال.

وخش الرقيق: الذي يصلح للطبخ وللخدمة العادية.
الوظيف : ما يوظف على الرعية من جبايات وغرامات.

مكتبة البحث

أولا: المؤلفات بالعربية

1 - الوثائق والمخطوطات والمطبوعات الحجرية:

- ابن الحاج السلمي، أحمد بن حمدون
* الدر المنتخب في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن، م.خ.ع، الرباط، رقم 1920.
- ابن ريسون، محمد الصادق
* فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير، م.خ.ع، الرباط، رقم 112.
- ابن المجذوب الفاسي، أبو الفضل عبد الكبير
* تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، م.خ.م، الرباط، رقم 2808 .
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد
* أزهار البستان في طبقات الأعيان، م.خ.ح، الرباط، رقم 3347 ز.
* سلك الدور في ذكر القضاء والقدر، م.خ.ع.م، تطوان 6 / 456.
- ابن سودة، محمد التاودي
* أجوبة التاودي بن سودة، م.خ.ح، الرباط، رقم 5590.
- الإفراني، محمد الصغير
* صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر والثاني عشر، م.خ.ح، الرباط، د 671.
- حوالة سيدي السعيدي، مخطوط خاص.
- الرافعي، محمد بن علي
* المعارج المرقية في الرحلة المشرقية، م.خ.د.، تطوان، رقم 134.
- الرماحي ، محمد مصطفى
* أجوبة عن أسئلة الشيخ علي بركة، م.خ.ع.م، تطوان، رب 913.
- الرهوني، أبو العباس أحمد بن محمد
* عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، م.خ.ع.م.، تطوان، رقم 318.
حقق منه جعفر ابن الحاج السلمي أربعة أجزاء صدرت ضمن منشورات تطاون أسمير، تطوان 1998- 2004 .

- الزياني، أبو القاسم
* الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، م.خ.ع، الرباط، د658.
* تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء، م.خ.م.، الرباط، أرقام 2752 و6180 و7521 .
* التاج والإكليل في مآثر السلطان الجليل، خ.ع. الرباط، 241، خ.م. 616.
* الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدولة الإسلامية، خ.ع. الرباط، 1275 د.
- السكيرج، أبو محمد عبد السلام
* نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان، م.خ.د، تطوان، الرمز 5 س.ك.ن.
- شطير الحساني، عبد الله بن علي
* نضار الأصيل في بساط الخليل، م.خ.د، تطوان، الرمز 5 - ش.ط.ن.
- العلمي، محمد بن الطيب
* الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب، طبعة حجرية، فاس، 1305 هـ.
- العلوي، (السلطان) مولاي سليمان بن محمد
* رسالة حول مواسم الأضرحة، ضمن مجموع، خ.ع.م، تطوان، رقم 102.
- العلوي، (الأمير) عبد السلام بن سيدي محمد بن عبد الله
* درة السلوك وريحانة العلماء والملوك، م.خ.ح، الرباط، رقم 237.
- الفاسي، محمد العربي
* مرآة المحاسن في الشيخ أبي المحاسن، طبعة حجرية، فاس، 1324/ 1905 .
- الفيلالي، العربي بن عبد السلام
* الدرر المكنونة في تاريخ الدولة الميمونة، م.خ.ع، الرباط، رقم 1439.
- الكتاني، محمد بن جعفر
* سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، 3 أجزاء، طبعة حجرية، فاس، 1316 هـ.

- الكردودي، أحمد بن محمد
* الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر، م. خ. ع، الرباط، رد 1854.
- لوقاش، عمر
* قصيدة لعمر لوقاش وأخرى في هجائه ضمن مجموع، خ.ع.م، تطوان، رقم 659.
- المشرفي، محمد الغريسي
* الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية، م.خ.ع، الرباط، د 1463.
- المكودي بن التازي، محمد
* الإرشاد والتبيان في رد ما أنكره الرؤساء من أهل تطوان، م.خ.ع، الرباط، رقم 1856د.
- الموفق الثعالبي، محمد بن عبد العزيز
* تنبيه ذوي الألباب ليحذروا من تدليس لوكس الكذاب، م.خ.م، الرباط، رقم 5348، خ. ع. م، تطوان، رب 1077 .
- وثائق تطوان،170 محفظة، خ.ع. م ، تطوان.
- الورزازي، محمد بن محمد
*أجوبة الورزازي، م.خ.ح، الرباط، رقم 6515.
- الوزاني، أبو عيسى المهدي
* المعيار الجديد الجامع المعرب من فتاوي المتأخرين من علماء المغرب، طبعة حجرية، فاس، ب.ت.
- اليوسي، أبو علي الحسن
* أجوبة اليوسي، م.ح.ع، الرباط، رقم ج 612.
* فهرست اليوسي، م.خ.ع، الرباط، رقم 51234.

2 - المطبوعات الحديثة و الدوريات والأبحاث:

- ابن أبي زرع، علي بن عبد الله
* الأنيس المطرب بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973.

- ابن الحاج السلمي، جعفر
* أسطورة تطوان أو تطوان الأسطورة، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16و17، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1996.
* الأسطورة المغربية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، 1423 هـ ـ 2003م.
- ابن الحاج السلمي، محمد الطالب حمدون
* رياض الورد فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد، تقديم وتحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، الجزء الأول، دمشق، 1993، الجزء الثاني، تطوان، 1999.
- ابن حمادوش الجزائري، عبد الرزاق
* رحلة ابن حمادوش: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- ابن حيان، أبو مروان حيان
* المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، ج.5 ، نشره شالميتا، مدريد، 1979.
- ابن خلدون، عبد الرحمن
* كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر من تاريخ العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1992.
- ابن زاكور، محمد
* نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، المطبعة الملكية، الرباط، 1387 - 1967.
- ابن زيدان، عبد الرحمن
* العز والصولة في معالم نظم الدولة، جزءان، المطبعة الملكية،الرباط، 1961.
* إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، خمسة أجزاء، مطابع إديال، الدار البيضاء، ط.2 ، 1990.
* المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديـــال، الدار البيضاء، ط.1، 1413 - 1993 .
* العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1420- 1999.

- ابن سودة، عبد السلام.
* دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1960 - 1965 .
* إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- ابن عبود، محَمد
* القرصنة من خلال وثائق القنصلية الإنجليزية بتطوان والمفوضية الأمريكية بطنجة، أعمال ندوة تطـــوان خلال القرن الثامن عشر (1727 - 1822) مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1994، ص.30 - 40.
- ابن عبود وميج والرزيني
* تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية ترجمة مصطفى غطيس، منشورات جمعية تطاون أسمير، ألطوبريس، طنجة، 2002 .
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد
* الفهرسة، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط.1، دار الغد العربي القاهرة، 1990 .
* معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ط.1، مطبعة المريني، تطوان، 1402 - 1982 .
- ابن عذاري المراكشي
* البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.1، تحقيق ومراجعة كولان و بروفنسال، بيروت، 1980 .
- ابن عزوز حكيم، محمد
* الجديد في تاريخ تطاون، ج.1 ، تطاون، 2000 .
* معلمة تطاون، مطبعة الخليج العربي، تطاون، 2001.
* لماذا نطالب باسترجاع مدينتي سبتة ومليلية، الجزء الأول، تطوان، 1979.
- ابن منصور، عبد الوهاب
* قبائل المغرب، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط، 1388 - 1968.
* الوثائق، تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية، الرباط، 1396-1976.
- ابن موسى الريفي، عبد الكريم
* زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 .

- الأخضر، محمد
* الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد،الدار البيضاء، 1977 .
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد الشريف
* كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت.
- أريباس بالاو، مريانو
* رسائل عربية حول المغرب في عهد مولاي اليزيد، فصلة من مجلة «تطوان» 1958 -59 ، العددان 3 و4 .
- أفا، عمر
* النقود المغربية في القرن الثامن عشر، أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس،منشورات كلية الآداب، بالرباط، رقم 6 ، الدار البيضاء، 1993 .
- الإفراني، محمد الصغير
* روضة التعريف بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، المطبعة الملكية، الرباط، 1982.
- أكنسوس، أبو عبد الله محمد
* الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السلجماسي، ط.1، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، مراكش، ب.ت.
- البزاز، محمد الأمين
* تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.
- البكري، أبو عبيد الله
* المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوتن و أندري فيري، جزءان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ب.ت .
- بنعبد الله، عبد العزيز
* الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبوعات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، 1401 هـ.
* معلمة الفقه المالكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1403هـ / 1983 م.

- بنيس، عبد الحي.
* تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس في بداية القرن 18، أعمال ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر (1727-1822)، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1994، ص. 59 - 72.
- بوركبة، السعيد
* دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية، جزءان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1417 هـ / 1996 م.
- بوكبوط، محمد.
* أوضاع تطوان خلال القرن الثامن عشر من خلال مصادر أجنبية معاصرة، أعمال ندوة: تطـــوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطـــوان،1994 ، ص.50 - 58.
- التازي، عبد الهادي.
* التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، 1989.
* محمد بن علي أبغلي سفير السلطان مولاي إسماعيل لدى الملك جورج الأول ملك بريطانيا، الأكاديمية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، العدد 2، 1985 .
* محمد بن حدو سفير السلطان مولاي إسماعيل لدى الملك شارل الثاني (1682)، الأكاديمية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، العدد 12، 1995
- الجزنائي، علي.
* جني زهرة الآس، المطبعة الملكية، الرباط، 1972 .
- حباني، محمد
* الأسباب والأساطير المرتبطة بتأسيس المدن الإسلامية بالمغرب، المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، 1990.
- الحراق، فاطمة.
* تطوان في نهاية القرن الثامن عشر. قراءة في رحلة بوتوكي،أعمال ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان،1994 ، ص. 18 - 29.

- حركات، إبراهيم.
* المغرب عبر التاريخ، ثلاثة أجزاء، مطبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1985.
- الحوات الشفشاوني، أبو الربيع سليمان
* ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، تحقيق عبد الحق الحيمر،مركز الدراسات و البحوث الأندلسية، مطبعة الهداية، تطوان، 1996.
- داود، محمد
* تاريخ تطوان، المجلدات 1و2و3، المطبعة المهدية، تطوان، 1959 – 1965، المجلدان 8 و 7، المطبعة الملكية، الرباط، 1978 – 1990.
- الرامي، خالد.
* تطوان خلال القرن الثامن عشر، دراسة تاريخية عمرانية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، 2000 ــ 2001.
- الرباطي، العربي.
* التطور العمراني لمدينة تطوان خلال القرنين16و17 الميلاديين، أعمال ندوة: تطوان خلال القرنين 16و17، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان،1996.
- روجرز، ب. ج .
* تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة ودراسة يونان لبيب رزق، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 – 1981.
- الزعفراني، حاييم.
* يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان، جزءان، مطبعة النجاح الجديدة، الدرا البيضاء، 2000.
- الزياني، أبو القاسم.
* الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي مطبعة فضالة، المحمدية، 1387 هـ.
* البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق، رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 .
- السعود، عبد العزيز.
* دور تطوان في المبادلات الخارجية (1721– 1767)، أعمال ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، تطوان، 1994، ص. 43 -49 .

* تطوان خلال القرن التاسع عشر. مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، منشورات تطاون أسمير، مطبعة الهداية، تطوان، 1996.
- شهبر، عبد العزيز.
* فتنة يهود تطوان على عهد السلطان المولى يزيد من خلال المصادر العبرانية، أعمال ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغرب والأندلسي، تطوان،1994 ص. 73 - 80.
* دراسات حول يهود تطاوين، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الشويخ، تطوان، 2002 .
- الصغير، عبد المجيد.
* إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و19. أحمد ابن عجيبة ومحمد الحراق، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، 1994.
- الضعيف الرباطي، محمد.
* تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات،الرباط، 1406 / 1986 .
- العبدلاوي، محمد.
* الدور السوسيو- اقتصادي للأجانب بالمدن المغربية، مثال مدينة تطوان العتيقة، مجلة كلية الآداب بتطوان، السنة الرابعة، العدد 4، 1411 - 1990، ص. 159 - 178.
- عزيمان، محمد
* النص العربي الأصلي لمعاهدة الصلح والتجارة بين المغرب و اسبانيا المعروفة بمعاهدة سنة 1767، مجلة « تمودة» السنة 4، تطوان، 1956 ، ص. 86 - 92.
- العلوي (السلطان)، سيدي محمد بن عبد الله
* مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، مطبعة فضالة، المحمدية، 1417 هـ - 1996 م.
- العلوي القاسمي، هاشم.
* مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، جزءان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1415 هـ- 1995 م.
- الغزال الأندلسي، المهدي بن محمد
* نتائج الإحسان ومناهج الصلات الحسان، تقديم وتحقيق أحمد العراقي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 2003.

- الفاسي، محمد.
* الكاتب الوزير محمد بن عثمان المكناسي، فصلة من « تطوان» عدد 5 تطوان، 1960 ، ص.7 – 31.
- القادري، محمد بن الطيب
* التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية عشر والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،1403 هـ / 1983 م.
* نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، أربعة أجزاء، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط، 1407 / 1986 .
- القدوري، عبد المجيد.
* سفراء مغاربة في أوربا (1610-1922) منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1416 ــ 1995.
- كربخال، مارمول
* إفريقيا، ترجمة حجي وآخرين، ج.2، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1989.
- كيبي، جاك.
* السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا، فصلة من مجلة« تطوان»، عدد 6 ، تطوان،1961، ص.155 – 194.
- لوطورنو، روجر.
* فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- مادني، مينة.
* تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل لمؤلفه جون ربريثويت، ترجمة ودراسة، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999، 2000.
- مؤلف مجهول.
* كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق زغلول عبد المجيد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 .
* مختصر نزهة الأفكار وحلة الأبرار في مناقب سيدي عبد القادر وشيخه الفخار، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1996.

- المدني بن الحسيني.
* مقدمة الفتوحات الإلهية للسلطان محمد بن عبد الله،المطبعة الملكية، الرباط، 1400 / 1980.
- المرير، محمد بن محمد.
* النعيم المقيم في ذكر مدارس العلم ومجالس التعليم، مخطوط خاص صدر منه ضمن منشورات جمعية تطاون أسمير، الجزء الأول، طنجة، 2000، والجزء الثاني، تطوان، 2003 .
- المريني، العياشي.
* صور من التاريخ البطولي لمنطقة جبالة، جزءان، طنجة، ب.ت.
- المقري، أحمد بن محمد
* نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، بيروت، 1988.
- المنصور، محمد.
* تطوان والمخزن في عهد المولى سليمان (1822- 1792)، أعمال ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي تطوان 1994، ص. 7 - 17.
- المنوني، محمد.
* المصادر العربية لتاريخ المغرب، طبعة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط، 1983 - 1989 .
* مظاهر يقظة المغرب الحديث، جزءان، دار الغرب الإسلامي وشركة النشر والتوزيع المدارس، ط.2، 1985.
- مويط، جرمان.
* رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990 .
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد
* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط.2 ، 1956.
- الوزان، الحسن بن محمد.
* وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 .
- الوزاني، محمد المهدي.
* النوازل الصغرى، مطبعة فضالة، المحمدية، 1412 هـ/ 1992 م.

- وندوس، جون.
* رحلة إلى مكناس، ترجمة زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، ب.ت .
- اليوبي، لحسن.
* الفتاوي الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1419 هـ / 1998 م.
- اليوسي، أبو علي الحسن.
* المحاضرات، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1393 هـ / 1976 م.
* رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، دراسة وتحقيق فاطمة خليل، ط.1، 1401 هـ / 1981م.

ثانيا - المؤلفات باللغات الأجنبية

Abbou, I.D.,

Musulmans andalous et judéo-espagnols.Casablanca, 1953.

Adam, André,

La societé Rurale et la Societé Urbaine au Maroc, Rabat, 1954.

Afkir, Houssaine et El Abdellaoui Med,

Le Reseau Skundu: ancien système d'approvisionnement de la Medina de Tétouan en eau potable, Revue de la Faculté des Lettres, Tétouan, 4eme année, n° 4, 1990, p. 221-222.

Alcocer Martinez, M.,

Archivo General de Simancas. Guerra de Marruecos, (1774-1775).Fuentes para su estudio. Catálogo de documentos que se conservan en este Archivo, Valladolid, 1924.

Anónimo,

Noticias generales del Reyno de Marruecos, Manuscrito, A.H.N., Estado, Legajo 4355, Madrid

Anonyme,

Relation de ce qui c'est passé dans le Royaume du Maroc depuis l'année 1727 jusqu'en 1737, Paris, 1742.

Anonyme,

Tableau du Maroc à la fin du XVIIIème siècle présenté par Auguste Broussonet, Bulletin de la Chambre Française de Commerce et d'Industrie de Casablanca, 1957, pp.74-77..

Arribas Palau, Mariano,

El texto árabe del convenio de Aranjuez de 1780,
Tamuda, 6, 1958, pp.327-335.

La acogida dispensada a Jorge Juan por la ciudad de Tetuán en febrero de 1727, Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, No.7, 1973, pp 7-25

Un viaje del Conde de Expilly a Tetuán en 1792, Hespéris-Tamuda, Vol .XXIX, fasc.1, 1981, pp.27-46.

Una embajada marroqui enviada a España en 1792, Tetuán, 1953.

Sobre seis malteses apresados en 1779 por una fragata marroqui y liberados posteriormente, Studi Magrebini, VI, 1974, pp.129-196.

Los sucesos ocurridos en Rio Martin a mediados de febrero de 1794, Actes du colloque: Tétouan au 18eme siecle (1727-1828), G.R.H.M.A., Tétouan, 1994, pp. 1-17.

Datos sobre el comercio entre España y Marruecos en tiempo de Mawlay Al-Yazid, Hespéris-Tamuda, XIII, 1972, pp.101-132.

El texto árabe del tratado de 1799 entre España y Marruecos, Tamuda, VII, 1959, Semestre I-II, pp.9-21.
La asistencia médica prestada desde Ceuta al campo fronterizo de la plaza en 1791, Tamuda, Año VII, Tetuán, 1959, pp.79-118.
Muhammad Ibn Uthman designado gobernador de Tetuán a finales de 1792, Hespéris-Tamuda, Vol. II, Fasc.1, 1961, pp.113-128.
En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782, Hespéris-Tamuda,Vol. XX-XXI, Fasc. Unique,1982-1983, pp.175- 245.
Tres tetuanies en Ibiza, liberados en 1767, Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán,21-22, 1980, pp.315-328.
Cartas árabes de Mawlay Muhammad b. `Abd Allah relativas a la embajada de Ibn Utman en 1780, Hespéris-Tamuda, 2, 1961, pp.327-335.
Establecimiento de una casa comercial española en Marruecos frustrado al retirarse Salmón de Tanger, Miscelanea de Estudios Arabes y Hebráicos, 12-13, 1964, pp.157-192.
Cartas árabes de Marruecos relativas a Portugal, Studi Magrebini, 1, 1966, pp.179-214.
Cartas árabes de Marruecos en tiempos de Mawlay al Yazid (1790-1792), Tetuán, 1960.
Documentos sobre Marruecos en el Archivo Histórico Nacional de Madrid, Hespéris-Tamuda, 9, 1968, pp.65-72.
La actuación de Mawlay Muslama frente a Mawlay al-Yazid, Hespéris – Tamuda, Vol. III, Fase .I, 1962, pp.5-34.
Nuevos datos sobre la embajada de Muhammad al Dalimi (1792), Tamuda, II, 1954, pp.9-32.

Ayache, Germain,
Etudes d'histoire marocaine,
Rabat, 1979.

Bacaicoa Arnaiz, Dora,
El Brigadier- Ingeniero Don Joseph Gayoso y el sitio de Ceuta en 1720, Hespéris-Tamuda, Vol.II, Fasc.2-3, 1961, pp.231-278.
Informe y proyecto del capitan general don Juan Francisco Manrique Araña sobre el sitio de Ceuta en 1720, Tamuda, VII, Semestre I-II, 1959, pp.35-56.

Badia Leblech, Domingo, (Ali Bey)
Viajes por Marruecos, E.N, Madrid, 1985

Ballester Salguero, J.R.,
Aportaciones sobre el comercio hispano-marroquí en torno a 1800, VI Congreso de Profesores Investigadores, Baena, 1988.

Barbier de Meynard, A. ,
Une ambassade marocaine à Constantinople, Receuil de Mémoirs Orientaux de l'Ecole des Langues Orientales, Paris, 1905.
Bauer, Ignacio,
La embajada de un marino en Marruecos (Jorge Juan) y el tratado de 1767), Archivos del Instituto de Estudios Africanos, 18, 1951, pp.31-52.
Becker Gonzalez, Jerónimo,
Tratados, convenios y acuerdos referentes a Marruecos y a la Guinea española, Madrid, 1918.
Historia de Marruecos, Madrid, 1915.
Ben Haddad, Youssef,
Les interactions spatiales dans une région rurale préurbaine : le cas de Tétouan, Thèse de Doctorat de Troisième Cycle en géographie et aménagement, Panthéon Sorbonne, 1989.
Benjelloun, Abdelmajid,
Le pouvoir personnel et l'autonomisme dans le Tétouan de la première moitié du XVIII siècle : l'exemple significative du Caïd Ahmed Ben Ali Riffi, Actes de Colloque: Tétouan au XVIII siècle, G.R.H.M.A, Tétouan, 1993, pp. 122-145.
Benros, Jonathan,
Migrations juives du Maroc, Paris, 1991.
Berque, Jacques,
L'intérieur du Maroc, XVème au XIXème siècles, Paris, Gallimard, 1978.
«Al-Yusi», Problèmes de la culture marocaine au XVIII éme siécle, Paris, 1958.
Blunt, Wilfred,
Black Sunrise:The Times and Life of Mulai Ismael Emperor of Morocco, 1646-1727, London, 1951.
Boulanger, Patrick,
Les ressources de la Chambre de Commerce et d'Industrie de Marseille-Provence pour l'histoire du Maroc, Rabat, Editions La Porte, 1994.
Braithe waite, John,
Histoire des révolutions de l'Empire du Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismael, Amsterdam, 1731.
History of the Revolutions of the Empire of Morocco Upon the Death of the Late Emperor Muley Ismael , London, 1729.

Braudel, Fernand,
Civilisation matérielle, économie et capitalisme : XVIème-XVIIIème siècles, Paris, 1979.
La Méditerranée et le monde méditerranéene à l'époque de Philippe II, Paris, 1949.
Brethes, J.D.,
Contribution a l'histoire du Maroc pour les recherches numismatiques, Casablanca, 1939.
Busnot, Dominique,
Histoire du regne de Mouley Ismaël, roy du Maroc, Paris, 1714, Bruxelles, 1755.
Busto Gozalbes, Guillermo,
Estudio sobre Marruecos en la Edad Media, Granada, 1988. Al-Mandri, Granada,1988.
Un lustro en la historia de Tetuán del siglo XVIII(1727-1737), Coloquio : Tetuán en siglo XVIII, G.R.H.M.A., Tetuán, 1994, pp.40-64.
Cagigas, Isidro de las,
Tratados y convenios referentes a Marruecos,
Madrid, 1952.
Caillé, Jacques,
Ambassadeurs envoyés particuliers et représentants officiels de la France au Maroc, Hespéris, XXXVIII, Trimestre 3- 4, 1951, pp.355-364.
La trêve franco-marocaine du 10 octobre 1765,Paris, 1959.
La mission du Capitaine Burel au Maroc en 1808, Paris, 1953.
Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed ben Abdallah (1759-1790), Paris, 1960.
Une «avanie» au Maroc en 1716. Provence Historique, XI, 1961, pp.251-277,317-342
A propos d'un document inédit de Moulay Yazid, Hespéris, n° 46, 1959, pp.239-246.
La représentation diplomatique de la France au Maroc,Paris, 1951.
La petit Histoire du Maroc, De la mort de Mouley Ismail(1727) à 1850, Casablanca - Rabat, 1952.
L'abolition des tributs versés au Maroc par la Suède et le Danemark, Hespéris, 45. 1958, pp.203-258.
Le vice-consul Broussonet et ses mémoirs sur le Maroc, Hespéris-Tamuda, Vol.II, Fasc.1, Rabat, 1961,pp.5-42.

Canovas del Castillo, Antonio,
Apuntes para la historia de Marruecos, Madrid, 1913.
Caro, Lucas,
Historia de Ceuta, raducción, Introducción y notas de José Luis Barcelo, Ceuta, 1988.
Carranza, Fernando de,
Sidi Abul-Hassan Ali Al-Manziri, Archivos del Instituto de Estudios Africanos, 13, agosto 1950, pp.31-59.
Castellanos, Manuel,
Historia de Marruecos, Acotada y continuada hasta nuestros días por Fray Eijan, 2 tomos, Madrid, 1946.
Descripción histórica de Marruecos y breve reseña de sus dinastías, Santiago de Compostela, 1978.
Castries, Henri de,
Le Danemark et le Maroc, (1750-1767), Hespéris, VI, Trimestre IV, 1926, pp.327-349.
Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, France, Tome III, Paris, 1927.
Cénival, Pierre de,
Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 2cmc série, Dynastie Filalienne, France, Tome VI, Paris, 1960.
Cohn, Hermann,
Mœurs de Tétouan, Paris, 1866.
Conrotte, Manuel,
España y los países musulmanes durante el ministerio de Floridablanca, Madrid, 1900.
Correa de Franca, Alejandro,
Historia de Ceuta, Manus, B.N.M., . No.1725, Madrid.
Cossé -Brissac, Philippe de,
Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 2cmc série, Dynastie Filalienne, France, Tome VI, Paris, 1960.
Cour, Auguste,
L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Règence d'Alger (1509-1830), Paris, 1904.
Charles-Roux, François,
Un projet de conquête du Maroc présenté par un Français aux ministres de Louis XV en 1748, Revue de l'Histoire des Colonies Françaises, 1928.
La France et l'Afrique du Nord avant 1830, Paris, 1932.

Chénier, Louis,
Recherches historiques sur les Maures et Histoire de l'Empire du Maroc, 3 vols., Paris, 1787.
Dermenghem, Emile,
Le Culte des saints dans l'Islam maghrébin, Paris, 1954.
Drague, Georges,
Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confréries et Zaouias, Paris, 1951.
Eanes de Azurara, Gomez
Chronica do Conde Dom Duarte de Meneses,Lisboa, 1793.
El Mansour, Mohamed,
Morocco in the Reign of Mawlay Sulayman, Cambridgeshire, England, 1990.
Eickelmann, Dale F.,
Religion and Trade in Western Morocco, Research in Economic Anthropology, 5, 1983, pp 38-91.
Epalza, Mikel de,
Intereses árabes e intereses españoles en las paces hispano-musulmanas en el siglo XVIII, Anales de Historia Contemporanea, 1, Murcia, 1982.
Fallot, P., y Marin, A.,
La cordillera del Rif, 2 tomos., Madrid, 1939.
Faye, Jean de la,
Relation du voyage pour la rédemption des captifs aux royaumes du Maroc et d'Alger pendant les années 1723,1724,1725,Paris,1726.
Filippini, J.P.,
Livourne et l'Afrique du Nord au 18ème siècle. Revue d'Histoire Maghrébine, No.7-8, 1977, pp. 212-284.
Foucauld, Charles de,
Reconnaissance au Maroc, Paris, 1939.
Fumey, Eugène,
Choix de correspondance marocaine (50 lettres officielles de la Cour chérifienne),Paris, 1903.
Chronique de la dynastie Alaouite du Maroc, Archives Marocaines, Vol. IX. Paris, 1906.
García Figueras, Tomás,
La embajada de «El Gazzel» (1766). Nuevos datos para su estudio, África, 1936, pp.86-89, 107-111.

Papel curiosisimo relatando un viaje a Tetuán, al Imperio de Marruecos, Honores de recibimiento...(Siglo XVIII), Mauritania, No.15, 1942, pp.102-103.

Un intento no culminado de acuerdo con el Sultán de Marruecos para la extracción de algunos articulos por los puertos de Tetuán, Tanger y Larache (Julio 1799-marzo 1780),Tamuda, Año III, Tetuán, 1955, Semestre II, pp.231-256.

El corso de Marruecos y el intento de su inutilización por España a fines del siglo XVIII,Tamuda, IV, Tetuán,1956, Semestre I, pp.230-248.

Gayosso, Joseph,

Relaciones del Reyno de Mequinez respectivas a su Estado y Govierno militar, especialmente en la provincia de Algarves, frontera de Zeuta y estado presente del sitio de esta plaza, mayo 1720, manus., B.N.M., P.V.C.21.

Georges, Paul,

Du nouveau sur Ahmed Ibn Issa, Historiographe et ministre de Muley Ahmed le Doré, Hespéris, XLI, 1954, Trimestre I-II, pp.171-256.

Girard, Albert,

Le commerce de la cire et les relations hispano-marocaines jusqu'à la fin du XVIIIème siècle, Bulletin de la Société d'Histoire Moderne, Nov.1913, pp.27-38.

Godard, Léon,

Description et histoire du Maroc, Paris, 1980.

Grillon, Pierre,

La correspondance du consul général Louis de Chénier, chargé d'affaires de France au Maroc (1767-1782), Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, 4, 1958, pp.5-25.

La Chambre de Commerce de Marseille et le Consulat de France au Maroc pendant la mission de Louis Chénier(1767-1782), Hespéris-Tamuda, 4, 1963,pp.69-117.

Le consul général Louis Chénier et le Maroc de Sidi Mohammed Ben Abdallah. Le commerce et la course, Revue d'Histoire Diplomatique, Janvier-mars 1968, pp. 35-80.

Un chargé d'affaires au Maroc. La correspondance du Consul General Louis Chénier, 1767-1782, Paris, 1970.

Gustavino Gallent, Guillermo,

Los comienzos del sitio de Ceuta por Mawlay Ismail (1694-1695), Tamuda, II, 1954, pp.255-279.

Haringman, Hendrik,
Beknopt dag-journal van een verblyf van agt weeken in het van Marocco, 1788, Hollandsche Ambassade, Den Haage, 1803.
Hemsö, Graberg de,
Specchio geografico e statistico dell Imperio di Marocco, Genova, 1834.
Host, Georg,
Nachrichten von Marokos und Fes, im Lande relbst gesammelt, in Den jahren 1760 bis 1768, Copenhagen, 1781.
Den Marokanske Kaiser Mohamed ben Abdallah' s historie, Copenhagen, 1791.
Huici Miranda, Ambrosio,
Historia política del Imperio Almohade, Tetuán, 1956.
Ibn Azzuz Haquim, Mohammad,
Compendio de los actos internacionales de Marruecos, Tetuán, 1949.
Antigua organización gremial tetuani, Tanger, 1952.
Fuentes para la historia de Tetuán y notas sobre su fundación,Tetuán, 1973.
Tetuán, La Sultana de Uad el Helu del siglo 19, Mauritania, 24, 1951, pp.248-250.
Mulai Ismail y los misioneros franciscanos en Marruecos, Mauritania, No.24, 1951, pp.224-227, 274-275.
Jackson, James Grey,
An Account of the Empire of Morocco, London, 1814.
Joly, M.A.,
Tétouan. Géographique, Archives Marocaines, Tome IV, Paris, 1905.
Tétouan Historique, Archives Marocaines, Tome V, Paris, 1905.
Les industries à Tétouan, Archives Marocaines, Tome XV, Paris, 1909; Tome XVIII, Paris, 1911.
Justel Calabozo, Braulio,
El Médico Coll en la Corte del Sultan de Marruecos (año1800), Cadiz, 1991.
Kably, Mohammed,
Société, Pouvoir, Religion au Maroc à la fin du Moyen Age, Paris,1986.
Koehler, Henri,
Un rachat de captifs au Maroc du XVIIIème siècle, Afrique Française, 33, 1923, pp.123-125.

Essai chronologique du règne de Moulay Mohamed ben Abdallah, Maroc Catholique, 1, 1935, pp.12-17.

Ce que l'économie privée importait d'Espagne au Maroc au XVIIIème siècle, d'apres les manuscrits des Procureurs de la Mission Franciscaine de 1760 à 1790, Hespéris, 39, 1952, pp.383-405.

Lakhdar, Mohamed,

La littérature marocaine sous la dynastie alawite, Rabat, 1971.

Laroui, Abdallah,

Histoire du Maghreb. Essai de synthèse, Paris, 1970.

Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Paris, 1977.

Lecureuil, Xavier,

Historique des douanes au Maroc, Archives Marocaines, Tome XV, Paris, 1909.

Lejarza, Fidel de,

Rincones de historia marroquí: Díario de una embajada a Marruecos, Mauritania,N°5, 1932, pp.326-329, N°6,1933, pp.8-10, 39-40, 72-73, 106-108, 133-135, 169-171.

Lemprière, G. de,

Voyage dans l'empire du Maroc et le royaume de Fès pendant les années 1780-1791, Paris, 1801.

Lenz, Oscar,

Voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan, Traduit par Pierre Lehancourt, Paris, 1939.

Leone, Enrico de,

Mohammed ben Abdallah e la Repubbliche marinare, Il Veltro, 7, 1965, pp.665-698.

Lévi-Provencal, Evariste,

es Historiens des Chorfas. Essai sur la littérature historique et biographique au Maroc du XVIème au XXème siècle, Paris, 1922.

Lopes, David,

Os Portugaises. En la Historia de Portugal, (dirigida por Cerdiera), III, Barcelos, 1931.

Lopez de Ayala, Teodoro,

Historia de Gibraltar, Madrid, 1782.

Lourido Díaz, Ramón,

El sultanato de Sidi Muhammad b. 'Abd Allah (1757-1790), Cuadernos de Historia del Islam, 2, 1970, pp.1-148.

La obra histórica de al-Zayyani sobre los alawies y su influencia en la historiografía marroquí, Boletín de la Asociación Española de Orientalistas, 6, 1970, pp.165-193.
Relaciones sueco-marroquíes en el siglo XVIII. Ayuda militar e impuestos tributarios de Suecia a Marruecos a cambio del respeto de su comercio marítimo, Africa, 1971, pp.268-270.
Marruecos y Dinamarca en el siglo XVIII, Africa, 1972, pp.15-17.
La republica de Ragusa y los alawies de Marruecos en el siglo XVIII, Studi Magrebini, IV, 1971, pp.113-124.
El rescate de varios centenares de cautivos ingleses y el tratado de paz anglo-marroquí de 1760, Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, 13-14, 1976, pp.99-140.
Relaciones politicas anglo-marroquies en la segunda mitad del siglo XVIII, Hispania, 31, 1971, pp.337-383.
La republica de Venecia y Marruecos en el siglo XVIII, Africa, 1972, pp.174-176, 217-219.
Transformación de la piratería marroquí en guerra del corso por el sultan Sidi Muhammad b. 'Abd Allah (entre 1757-1768), Hespéris-Tamuda, Vol.X, Fasc.1-2, 1969, pp.39-69.
Intentos fracasados de Sidi Muhammad b. 'Abd Allah en la creación de una marina mercante (1778-1790), Miscelanea de Estudios Arabes y Hebráicos, 20, 1971, pp.45-66.
Sidi Muhammad b. Abd 'Allah y sus intentos de creación de una marina de guerra al estilo europeo (1769-1777), Hespéris-Tamuda, XII, 1971, pp.133-156.
La rebelión de los 'abid' en 1778. y su desintegración como milicia especial, Cuadernos de Historia del Islam, 4-5, 1973, pp.95-152.
Le commerce entre le Portugal et le Maroc pendant la deuxième moitié du XVIIIème siecle, Revue d'Histoire Maghrébine, No.5, 1976, pp.27-46.
La abolición de la esclavitud de cristianos en Marruecos en el siglo XVIII, Cuadernos de Historia del Islam, 8, 1977, pp.5-46.
La obra redentora del Sultan Sidi Muhammad b. 'Abd Allah entre los cautivos musulmanes en Europa (Siglo XVIII), Cuadernos de Historia del Islam, 11, 1984, pp139-184.
Los judíos en Marruecos durante el sultanato de Sidi Muhammad b. Abd Allah (1757-1790), Miscelanea de Estudios Arabes y Hebráicos, 26-28, 1977-1979, pp.327-355.

Los intercambios comerciales hispano-marroquíes en el siglo XVIII, Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, 8, 1973, pp.49-86.

El comercio del trigo entre Marruecos y la Peninsula Ibérica en el siglo XVIII, Almenara, Vol.9, 1976, pp.29-61.

La Ciudad y Région de Tetuán durante el sultanato de Muhammad III a través de la documentación española, Actas de Coloquio : Tetuán en el siglo 18 (1727-1822), G.R.H.M.A., Tetuán, 1994, pp. 18-39.

El armamento y la asistencia tecnica militar europea en el asedio marroquí de Melilla (1774-1775), Revista de Historia Militar, 32, 1972, pp.123-144.

Los misioneros franciscanos y su participación en el tratado hispano-marroquí de 1767, Archivo Ibero-Americano, No.34, 1974, pp.127-151.

El morabitismo y la dinastía alawí en la segunda mitad del siglo XVIII, Cuadernos de Histoira del Islam, 3, 1971, pp.125-157.

Una fábrica de cañones en Tetuán a mediados del siglo XVIII, Revista de Historia Militar, 33, 1972, pp.105-115.

Las relaciones políticas del sultán 'alawi Sidi Muhammad b. 'Abd Allah con el imperio turco durante el primer período de su sultanato (1757-1775), Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, Nos.23-24, 1981, pp.311-355.

Relaciones del 'alawí Sidi Muhammad b. 'Abd 'Allah con el imperio turco en el segundo período de su sultanato (1775-1790), Hespéris-Tamuda, Vol.XXIV, Fasc.unique, 1986, pp.231-272.

Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIII, vida interna, política, social y religiosa durante el sultanato de Sidi Muhammad b. 'Abd Allah (1757-1790), Madrid, 1978.

Marruecos y el mundo exterior en la segunda mitad del siglo XVIII, Madrid, 1989.

Marquez de Prado, José María,

Historia de la plaza de Ceuta, Madrid, 1859.

Martín Corrales, Eloy.

La flotte marocaine et le commerce de cabotage espagnol (1797-1808), Le Maroc et la mer, Maroc-Europe, 2, 1992, pp.71-80.

Dos obstaculos en las relaciones comerciales entre Cataluña y los países musulmanes en el siglo XVIII : el corso y la peste, Primer Congres d'Historia Moderna de Catalunya, Barcelona, 1984.

El comercio de Cataluña con Marruecos a finales del siglo XVIII (1767-1808), Actas I Congreso Internacional, Madrid, 1988.
Comercio de Cataluña con el Mediterraneo musulman (siglos XVI-XVIII). El Comercio con los 'enemigos de la fe', Barcelona, 2001.

Marty, Paul,
Les institutions israélites au Maroc, Paris, 1930.

Masson, Paul,
Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque (1560-1793), Paris, 1930.

Meakin, Budgett,
The Moorish Empire, London,1899.
The Land of the Moors, London, 1901.

Mercier, Ernest,
Histoire de l'Afrique septentrional (Berbérie),depuis le temps le plus reculé jusqu'à la conquête française (1830), Paris, 1888-1891.

Meunier, Dominique,
Le consulat anglais à Tétouan sous Anthony Hatfield (1717-1728), Etude et édition de textes, Revue d'Histoire Maghrebine, 19-20, Tunis, octobre 1980,pp.233-304.

Michaux-Bellaire, Edouard,
Les musulmans d'Algérie au Maroc, Archives Marocaines, Tome XI, Paris, 1907.

Miège, Jean-Louis,
Moulay Sliman et la Révolte de Tétouan, Actes du Colloque : Tétouan au 18eme siècle (1727-1828), G.R.H.M.A., Tétouan, 1994, pp. 112-121.
Tétouan à travers les siècles, Tétouan, 1996.
Les activités maritimes et commerciales de Tétouan, Tétouan, 1992.
Les relations maritimes entre Marseille et le Maroc (1682-1863), Revue Maroc-Europe, N° 2, Rabat, 1992, pp.34-62.

Morgan, J.,
A Compleat History of the Piratical States of Barbary, Algiers, Tunis, Tripoli and Morocco, Containing the Origin, Revolutions and present States of those Kingdoms..., Londres, 1750.

Morsy, Magali,
Moulay Ismaïl et l'armée de métier, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, Tome XIV, avril-mai 1967, pp.27-46.
La relation de Thomas Pellow : une lecture du Maroc au XVIIIème siècle, Ed. Recherches sur les Civilisations, Paris, 1983.

Mouette, Germain,
Relation de la captivité du Sieur Mouette dans les royaumes de Fez et du Maroc, Paris, Jean Cochart, 1683.
Nolasco, P.,
Relation de ce qui c'est passé dans les trois voyages que les religieux de l'ordre de Notre Dame de Mercy on fait dans les Etats du Roy du Maroc pour la redemption de captifs en 1704, 1708 et 1712,.., Paris, 1724.
Osorio, Baltasar,
Ceuta e a capitania de Don Pedro de Meneses (1415-1437), Lisboa, 1933.
Ouasti, Boussif,
Tétouan devant la conscience des rédempteurs, des captifs et des voyageurs européens au 18eme siècle, Colloque : Tétouan au 18eme siècle (1727-1822), Tétouan, 1994, pp. 146-160.
Palacio Atard, Vicente,
Primeras negociaciones entre España y Marruecos en 1675, Hispania, No.11, 1951, pp.658-678.
Marruecos enemigo tradicional y auxiliar poderoso, Arbor, 16, 1946, pp.158-162.
Pellow, Thomas,
The Adventures of Thomas Pellow among the Moors,New York, 1890.
Penz, Charles,
Journal du consulat général de France au Maroc (1767-1785), Casablanca, 1943.
Pidou de St. Olon, François,
The Present State of the Empire of Morocco, London, Bentley, 1695.
Relation de l'Empire du Maroc ou l'on voit la situation du pays, les moeurs, coutumes, gouvernement, religion et politique des habitants, Paris, 1695.
Posac Mon, Carlos,
El alcalde Monzor,Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, 13-14, 1976, pp.149-154.
Potocki, Jean,
Voyage dans l'empire du Maroc, fait en l'année 1791, Paris, 1980, Traduit à l'espagnol par José Luis Vigil, Barcelona, 1983.

Renaud, H.P.J.,
La peste de 1799 d'après des documents inédits, Hespéris,I, 1921, pp.160-182.
Les pestes du milieu du XVIII siècle, Hespéris, 1939, pp.293-319.
Rivière, Louis P.,
Recueil des actes internationaux ou a incidence internationale concernant le Maroc, Rabat, 1948.
Rodriguez Casado, Vicente,
Política marroquí de Carlos III, Madrid, 1944.
Relaciones hispano-marroquíes. Primeros pasos del conde de Floridablanca, Anales de la Universidad Hispalense, 5, 1942.
Rodriguez Villa, A. ,
Una embajada española en Marruecos y estado de este imperio en tiempos de Carlos III, Revista Contemporanea, No.28, 1880, pp.257-308.
Rogers, P.J.,
A History of Anglo-Moroccan Relations,London, 1977.
Rosende Casas, Juan,
El cultivo de gusano de seda en Marruecos, Mauritania, No.198, Año 1949, pp.45-53.
Rouard de Card, E.,
Les traités entre la France et le Maroc , Etude historique et juridique, Paris, 1898.
Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant les XVIIIème et XIXème siècles, Paris, 1907.
Les traités de commerce conclus par le Maroc avec les puissances étrangères, Toulouse et Paris, 1907.
Ruiz de Cuevas, Teodoro,
Apuntes para la historia de Tetuán, Tetuán, 1951, 2na ed., Madrid,1973.
Ruiz Orsatti, Ricardo,
Relaciones hispano-marroquies. Un gran amigo de España : el sultán Mohammed ben Abdela.El monopolio de Casablanca. Floridablanca y la primera moneda marroquí acuñada fuera de Marruecos, Madrid, 1944.
Saint-Olon, Pidou de,
Relation de l'Empire du Maroc, Paris, 1695.
Salmon, Juan Manuel,
Estado de la Corte de Marruecos, Año 1788, Manuscrito, A.H.N., Estado, Legajo 4321.

Salmon, M.G,
Essai sur l'histoire politique du Nord marocain, Archives Marocaines,
Tome 2, Paris, 1905.
Sancho de Sopranis, H.,
El comercio entre el Puerto de Santa Maria y las plazas maritimas de Marruecos durante el siglo XVIII, Mauritania, 168-169, 1941, pp.73-86.
Las relaciones mercantiles entre Cadiz y Marruecos a finales del siglo XVIII, Mauritania, Nos. 222, 223, 225, 1946, pp.27-29, 38-41, 17-22.
Slouschz, N.,
Le Maroc au dix-huitième siècle, Mémoire d'un contemporain, Revue du Monde Musulman, No.9, 1909, pp.452-466, 642-664.
Slyvton, (-),
Une Cour et un aventurier du XVIII siècle, le baron de Riperda, Paris, 1896.
Tadic, J.,
Le port de Raguse et sa flotte au XVIème siecle. Le navire et l'économie Maritime du Moyen Age au XVIIIème siècle principalement en Méditerranée, Paris, 1958.
Tarradel, Miguel,
El poblamiento antiguo del valle del rio Martin, Tamuda, V, 1957, pp.45-68.
Terrasse, Henri,
Les aventures d'un renégat anglais au Maroc sous Moulay Ismail,Bulletin de l'Enseignement Publique au Maroc, Rabat, 1926.
Histoire du Maroc, Casablanca, 1949.
Documents d'histoire du Maroc, d'après les travaux récents de M. Charles Penz. Les relations de la France et du Maroc au XVIIIème siècle. Le journal du Consulat de France au Maroc, Bulletin d'Information, Rabat, 1945, pp.88-101.
Tissot, (-)
Recherches sur la géographie comparée de la Mauritania Tingitaine, Archives Marocaines, Paris, 1906.
Torra Ferrer, David,
La amistad entre Mawlay Muhammad y Carlos III, según González Salmon, Tamuda, No.4, 1956, pp.213-228.

Tourneau, Roger (Le),
Le Maroc sous le règne de Sidi Mohammed b. Abdallah (1757-1790), Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 1,1966,pp.113-133.
Valderrama Martinez, Fernando,
Inscripciones árabes de Tetuán, I.H.A.C., Madrid, 1975,
Valvé Bermejo, Joaquin,
Suqut al-Barghwati rey de Ceuta, Al-Andalus, XXVIII, 1963, pp.37-53.
Van Krieken, G.S.,
Le Maroc du XVIIIe siècle aux yeux des visiteurs, in le Maroc et la Hollande, Actes de la 2eme rencontre universitaire, Faculté des Lettres, Rabat, n° 16, 1990.
Vera, Galindo,
Memoria histórica de las posesiones hispano-africanos,Madrid, 1884.
Verrone, Chantal de la,
Tratado de Saint Germain-en-Laye entre Francia y Marruecos (1682), Miscelánea de Estudios Arabes y Hebráicos, Año V, 1956, pp. 56-91.
La vie de Moulay Ismaël roi de Fès et du Maroc d'après Joseph de Léon (1708-1728), Paris, Geuthner, 1972.
Documents inédits sur l'histoire du Maroc. Sources françaises, Paris, Geuthner, 1984.
Sources françaises de l'histoire du Maroc au XVIIIème siècle, Revue d'Histoire Maghrébine, Nos.21-22, Tunis, avril 1981, Nos.23-24, novembre 1981, n° 25-26, juin 1982,n° 43-44, novembre 1986.
Vilar, Juan Bautista,
La judería de Tetuán (1489-1860) y otros ensayos, Murcia, 1969.
Vittorio, A. de,
Ragusa e il Mediterraneo; ruolo e funzioni di una repubblica marinera mediocro ed eta moderna, Bari, 1990.
Windus, John,
Journey to Mekinez ; the Residence of the Present Emperor of Fez and Morocco, Londres, 1725.
Yebbour Oddi, Abderrahim,
Una ojeada sobre la historia de Tetuán y sus familias oriundas del Andalus, Tetuán, 1948.

El anatema de Mawlay Mohammed Ibn Abd Allah contra sus hijos Mawlay Yazid y Mawlay Abd al-Rahman. Tamuda, Año II, 1954, pp.76-89.

Zafrani, Haïm,

Les juifs du Maroc, vie sociale, économique et religieuse,Paris, 1972.

Juifs d'Andalousie et du Maghreb, Paris, 1996.

الفهـرس العـام

تقـديـم	3
مقـدمـة	6
القسم الأول: **تطاوين في إطارها الجغرافي وسياقها التاريخي**	13
الفصل الأول: تطوان في الزمان والمكان	14
1 – تأثير الموقع والموضع	14
2 – أصل تسمية مدينة تطاوين	17
3 – الأخبار عن تطاوين القديمة	18
4 – تأسيس تطاوين الإدريسية	20
5 – تطاوين في العهدين المرابطي والموحدي	24
6 – إعادة التأسيس المريني	25
7 – قضية تخريب تطاوين في القرن الخامس عشر	26
الفصل الثاني: تأسيس تطاوين الحديثة وتطورها من القرن الثامن عشر	30
1 – تأسيس تطاون الحديثة	30
2 – التطور المورفلوجي لتطاون حتى القرن الثامن عشر	34
3 – الإطار الطبوغرافي والسياسي للمدينة	37
4 – تحصين تطوان وتعميرها في القرن الثامن عشر	39
5 – السكان والمتغيرات الديمغرافية	49
القسم الثاني: **البنى السياسية والعلاقات العامة**	54
الفصل الثالث: علاقة المدينة مع المخزن	55
1- الإستقلالية السياسية داخل التبعية	55
2- العلاقة الجبائية	58
3- علاقة التوتر والصراع	60
4- علاقة الأخذ والعطاء	71
الفصل الرابع: سيرورة الشأن المحلي	74
1 – القائد أو الباشا	75
1.1 – القائد علي بن عبد الله الحمامي	77
1.2 – الباشا أحمد بن علي الحمامي	85

1.2.1- علاقته بالسلطة المركزية	86
أ - الخضوع لسطوة السلطان	86
ب- التلاحم بالصهر	89
ج- الاستقلالية والسعي للإنفراد بالسلطة	90
1.2.2 علاقته بالأهالي	95
أ - استبداد المستلطن	95
ب- التبعية الشخصية	96
ج- قضية التاجر أبغلي	98
د - العسف الجبائي	103
هـ- العراك مع أهل تطوان	105
1.2.3 علاقته مع الأجانب	111
1.3 - القائد الفقيه عمر لوقش	116
1.3.1 - خطته في الحكم	122
1.3.2 - علاقته مع سبتة	124
1.3.3 - عزله عن الحكم	125
2 - القاضي	129
3 - المحتسب	135
4 - الأمناء	136
5 - ناظر الأحباس	138
الفصل الخامس: علاقات المدينة مع الخارج	139
1 - الدور الدبلوماسي لتطوان	139
1.1 - السفارات والمعاهدات	140
1.2 - بعثات افتكاك الأسرى	179
1.3 - السلك القنصلي	183
2 - الدور العسكري	186
3 - النشاط البحري والتجاري	194
3.1 - أهمية تطوان في المبادلات البحرية المغربية	194
3.1.1- المتاجرة مع أوربا	197
أ - الإتجاهات والمصادر	197
ب - الصادرات والواردات	200
3.2- النشاط البحري أو القرصنة	202
3.3- المظاهر العامة للنشاط البحري والتجاري	209

- مرحلة ازدهار النشاط	209
- مرحلة بداية تراجعه	211
- مرحلة انحطاطه	211
الفصل السادس: علاقات المدينة ببادیتها وبالداخل	213
1 - علاقتها بالبادية المجاورة	213
1.1 - علاقات تصارع وتنازع	213
1.2 - علاقات تكامل وتكافل (أو أخذ وعطاء)	218
2 - علاقتها مع الداخل	220
القسم الثالث : **البنـــى المجتمعـيـــة**	222
الفصل السابع: التشكيلة الاجتماعية وترابيتها	223
1 - دينامية المجال ودينامية المجتمع	223
2 - أثر المجال في التشكيل الاجتماعي	225
3 - التشكيلة الحضرية	226
4 - التراتبية الاجتماعية	229
4.1 - التصنيف الاجتماعي على أساس الدخل	299
4.2 - التصنيف الاجتماعي على الأساس العرقي	234
4.3 - التصنيف على أساس المعيار الثقافي - الديني	237
4.4 - التصنيف على أساس المعيار "المخزني"	242
الفصل الثامن: العلاقات بين الفئات الاجتماعية	245
1 - علاقات التكافل الاجتماعي	246
2 - مظاهر الصراع الاجتماعي	252
3 - مظاهر الحياة المجتمعية	254
- العادات (اللباس، التغذية، السكن، الزواج)	255
- المعاملات (العملة، المقاييس والأوزان والمكاييل).	261
4 - العلاقة بين المسلمين والذميين	265
5 - التنظيم الاجتماعي داخل الملاح	266
6 - التماثلات بين الملتين	268
القسم الرابع : **الحيـــاة الدينيـــة**	270
الفصل التاسع: البيئة الثقافية والتعليمية	271
1 - تفشي العقلية الخرافية	271

2 – الإعتقاد في الصلحاء والمجاذيب	271
3 – إعتقادات موروثة عن القديم	273
4 – البيئة الثقافية	275
5 – الحركة العلمية والتعليمية	279
* مضمون التعليم وطرقه	283
* رعاية مدارس العلم والتعليم	286
الفصل العاشر: البيئة الطرقية	291
1 – خمول الحركة الطرقية في تطوان	293
2 – انتعاش البيئة الطرقية	294
3 – ظهور الدرقاوية في تطوان ومحنتها	296
خـــاتـــمة	301
ثبت الألفاظ المحلية والإدارية الواردة في وثائق البحث	303
مكتبة البحث	308
الفهرس العام	337

تدل هذه الدراسة المونوغرافية من حيث المدة الزمنية والجامعة من حيث محتواها على أن الفرس التاريخي لصاحبها جعله يختار الطريقة الرشيدة والناجعة في عملية إعادة كتابة تاريخ المغرب التي نحن بحاجة ماسة إليها والتي لا يمكن تحقيقها إلا باتخاذ نفس النهج الذي سارت عليه جل الأمم الأوروبية عندما أرادت تصحيح تاريخها الذي كانت تشوبه شوائب شبيهة للتي نعاني منها نحن اليوم في بلادنا.

وكان أول عمل مونوغرافي قام به الدكتور السعود بخصوص مسقط رأسه تطاون هو الدراسة الوثائقية القيمة التي تناول فيها موضوع (تطوان خلال القرن 19 مساهمة في دراسة المجتمع المغربي) وصدرت بتطاون سنة 1996. وها هو اليوم يتحفنا ويغني المكتبة المغربية بإنتاجه الجديد هذا الذي اعتمد فيه على جل المراجع والمصادر والمستندات المغربية والأجنبية المتوفرة والتي أحكم توظيفها لدرجة تجعلنا نجزم بأن المجهود الذي قام به قد أتى بثمرة غير مسبوقة. والحقيقة أن العمل الذي قام به لم يكن سهلا لأن المغرب خلال القرن 18 لم يكن في حالة يحسد عليها، حيث عرفت المملكة على إثر وفاة السلطان مولاي إسماعيل سنة 1727 إضطرابات وأحداثا وفتنا شبيهة بالتي وجدت في أوائل القرن 17 على إثر وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة 1603. فخلال المدة التي تناولتها الأطروحة تعاقب على عرش المغرب أحد عشر ملكا تنازعوا جلهم على العرش لمدة أربعين سنة.

وكان من الطبيعي أن ينعكس عدم الاستقرار في السلطة المركزية على الأوضاع بمدينة تطاون حيث نجد أنه باستثناء السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من حكم القائد علي بن عبد الله الحمامي فقد تعاقب على حكم المدينة ستة عشر حاكما. وهذا الوضع المضطرب الذي كان عليه المغرب عامة كان تأثيره أكثر على الدور الدبلوماسي الذي كانت تقوم به تطاون منذ أن جعلها السلطان مولاي إسماعيل عاصمة الشمال الممتد من مصب واد ملوية إلى مصب واد لوكوس واختارها قاعدة لوزارة الخارجية التي كانت تعرف آنذاك بوزارة الأمور البرانية حيث أسند أمرها سنة 1680 إلى القائد علي بن عبد الله الحمامي الذي تصفه الوثائق الأوروبية بخليفة السلطان بناحية الغرب.

ولن جانب العلاقات الخارجية لمدينة تطاون لم يكن يشفي الغليل لسبب أن الدكتور السعود لم يكن في وسعه اختراق الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني بمدريد الموصد في وجه الباحثين المغاربة، والأمر لله.

المؤرخ محمد ابن عزوز الحكيم

جمعية تطاون أسمير
ساحة 9 أبريل - تطوان
039 70 20 25

أنجز بدعم من وكالة تنمية
عمالات وأقاليم شمال المملكة